

في سبيل موسوعة نفسية

عرض وتقديم

الدكتور مصطفى غالب

منشورات

دار ومكتبة الهلال

تطور المعالجة النفسية

في سبيل موسوعة نفسيّة

٢١

تطوّر المعالجة النفسيّة

«عبر القرون»

عرض وتقديم

الدكتور مصطفى غالب

منشورات
دار ومكتبة الهلال
بيروت - ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

الادارة العامة - بيروت شارع المقداد - بناية فرحات وحجازي

ص.ب: ٥٠٠٣/١٥

مقدمة

التطور الطبي والتقدم التكنولوجي في هذا العصر أدى الى اكتشافات جديدة في مجال المعالجة النفسية التي أثبتت عن تقدم الانسان وتطوره الفكري الناهد الى خدمة أبناء جنسه ، والحفاظ على صحتهم الجسدية ، بما قدمه لهم من أدوية نافعة ، وكافية ، وشافية ٠

ولم يعد التداوي أو المعالجة كما كان في السابق أي في العهود السحيقة الماضية وقفا على السحر والشعوذة والعزائم ، خاصة ما يتعلق بالأمراض العقلية والعصبية ، بل انتقل متدرجا من السحر والشعوذة الى طريقة أخرى،فأصبح في أيدي الكهنة ورجال الدين عندما أطلت اليهودية ، وراح اليهود

يعالجون مرضاهم داعين الى التوبة والرجوع الى الله ، والابتعاد عن السحر والكهانة والعزائم ، لأن الامراض يبعثها الله لعباده عقوبة لهم لما ارتكبوه من أخطاء وذنوب ٠

ولما أطلت المسيحية بما تحمله من أفكار ومناقب وايمان عميق بالخالق الصانع ، راح رهبانها وأحبارها وكهنتها يعالجون المرض برفق وحنان ، عملا بتعاليم وارشادات السيد المسيح ، مستخدمين المعاجز والكرامات وقوة نفوذهم الديني لدى الأتباع ٠ فتمكنوا من انقاذ عدد كبير من المرضى والمصابين بمختلف أنواع الأمراض العقلية ، والنفسية ، والعصبية ٠

وشاع العلاج بواسطة الكرامة أو المعجزة خلال القرون الوسطى ، بل بقيت سوقه رائجة حتى عصرنا الحاضر بين أصحاب الديانات المختلفة ، وكانت هذه المعالجة تنطلق من العقيدة والايمان ، لا يختلف بعضها عن بعض الا في اسم الاله أو الرسول أو الملاك الذي يستمان به ٠

ويحدثنا العالم النفسي جانيه بأن طريقة العلاج بالكرامة كانت تتبع بشكل يلفت الانظار عند

مقبرة القديس ميدار في فرنسا حوالي سنة ١٧٣٦ ميلادية ٠ هذا ما جعل رجال الدين من المسيحيين يحظون بمكانة رفيعة من النفوذ والسلطان والمقدرة الفائقة على معالجة المرض ، وقد مارسوا في كثير من الحالات مهنة معالجة العقول ، وراح مرضى العقول يترددون على رجـال الدين ، ويتوسلون اليهم ليخرجوا الأرواح الشريرة من أجسادهم لتعود اليهم صحتهم العقلية ٠

ولما طلع فجر الاسلام على العالم ينشر نوره السرمدي الوضاء ، أنكر كافة العادات والتقاليد التي كانت معروفة في الجزيرة العربية ، وجاء بما هو أهم منها وأعظم شأنا ، ذلك هو الاستشفـاء بالقرآن الكريم الذي فيه يقول الله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ٠

ويرى بعض المفسرين أن الغرض من الشفاء في هذه الآية يعني الشفاء من الامراض الذي هو من خواص آيات الشفاء الست التي وردت في القرآن الكريم ، والتي أشرنا اليها في هذا الكتاب ، وقد أصبحت مع مرور الأيام وتعاقب الاجيال وسيلة يعتمدها بعض الحكماء والمشايخ للمساعـدة على شفاء بعض الامراض العقلية والعصبية ٠

وفي هذا المجال يقول الامام فخر الدين الرازي :
« اعلم أن القرآن شفاء من الامراض الروحانية ، وشفاء أيضا من الامراض الجسمانية ، أما كونه شفاء من الامراض الروحانية فظاهر ، وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة ، والأخلاق المذمومة . أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة في الالهيات ، والنبوات ، والمعاد ، والقضاء والقدر ، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب ، وابطال المذاهب الباطلة فيها . ولما كان أقوى الامراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني » .

وعندما نسبر أعماق التاريخ نلاحظ أن الحضارة العربية عندما بلغت الذروة ظهر بين العرب عدد كبير من الأطباء المهرة الذين نبغوا في معالجة الامراض العقلية والنفسية وفق أساليب علمية صحيحة لا تقل في أهميتها عن الأساليب والطرق المتبعة في هذه الأيام ، وقد كان نصيبهم في هذه المعالجات النجاح والتوفيق الى أبعد حد ممكن .

ولا نشك مطلقا ان حكماء العرب والمسلمين قد توجهت أفكارهم وأذهانهم الى دراســة الامراض النفسية ومعرفة أسبابها وعللها ، حتى يتمكنوا من ايجاد الدواء لها لتخليص الانسان مما يعانيه من آلام تحد من حيويته ، وتغلق أمامه دروب التقدم والرقي والانطلاق الى عالم عامر بالصحة والسعادة ٠

وقد هدتهم التجارب فعرفوا الكثير مــن أسرار النفس ، وألموا بأساليب ومعــارف علمية عالجوا بوساطتها الكثير من الامراض العقلية ، ومهــدوا السبيل أمام الباحثين ، بأساليب سهلة خاليــة من التعقيدات العلمية ، والمعميات الاصطلاحية ٠

وكتاب القانون لابن سينا خير دليل على مدى معرفة هــذا الفيلسوف العبقري بطرق ووســائــل معالجة الجسم والعقل ، ومداواة شذوذ النفس ، وتقويم الخلق وفق أساليب نفسية صحيحة ٠

بيروت في ١٩٨١/٣/١٠

الدكتور

مصطفى غالب

المعالجة النفسية عبر التاريخ

اذا كان التداوي والمعالجة من الأمراض والعقد النفسية التي تصيب الانسان في هذا العصر قد بلغ الذروة في تقدمه وتطوره وابتكاراته ، فلا بد لنا من القول بأن المعالجة النفسية ليست وليدة هذا العصر الذيتطور فيه الطب،وتنوعت الاختصاصات وكثرت فيه الاكتشافات والاختراعات ۰ انما علاج الأمراض الجسدية والعقلية وفق المباديء النفسية قد استخدم منذ القديم بواسطة السحر والعزائم والرقى ۰

ويرى بعض علماء النفس ان جمجمة الانسان كانت تستخدم فيقديم الزمانلشفاء بعض الامراض النفسية المستعصية ، المتأتية عن الخـوف والقلق

والاضطرابات المصبية ، ومن هنا بمقدورنا أن نقول ان صناعة الطب النفساني قديمة قدم هذا الكون ، مرت عليها أجيال وتماقبت دهور ° ولا يزال الخلاف بين القدماء والمحدثين في هذه الممالجة محصورا في التحليل والتمليل ، ومحاولة ربط الأسباب بالمسببات ، فالقدماء من أصحاب السحر والمزائم والرقى الذين اعتقدوا أن هذه الأمور هي التي تبلسم المرض ، وتبريء المصاب ، قد خاضوا معركة مداواة المرض بضراوة وأدخلوا الى عقولهم بأن الشفاء والخلاص لن يتم الا عن طريق ما يستخدمونه من عزائم ورقى وبخور ، أما المحدثون فيرون أن السبب المباشر في الشفاء هو ايمان المصاب بأنه سوف يتخلص من مرضه عن طريق التحليل والتمليل النفسي °

ويلاحظ ان الخلاف بين الفريقين ينطلق من التنظيم والترتيب ، وبسط القواعد ، وشرح المرتكزات واعادتها الى جذور وأسس المباديء النفسية الشائمة في هذه الأيام °

ومما لا شك فيه ان الطب سواء كان جسديا أو نفسيا فهو علم يمتمد على قواعد وأصول ثابتة ، هي في الحقيقة وليدة السحر والشموذة والتنجيم ،

وغيرها من الطرق التي مارسها القدماء في مداواة المصابين والمرضى • ولعل السحر هو أهم هـذه الأمور وأبعدها أثرا في معالجة الاصابات النفسانية •

يقول الراغب الأصفهاني : « السُّحارة ما ينزع من السَّحَر (تطرف الحلقوم) عند الذبح فيرمى بـه » •

ويقال: منه اشتق السِّحر وهو اصابة السَّحَر • والسحر يقال على معان الأول : الخداع وتخييلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده ، ومـا يفعلـه النمام بقول مزخرف عائق للأسماع • والثاني استجلاب مساعدة الشيطان بضرب من التقرب اليه ••• والثالث ما يذهب الأغتام • وهو اسم لفعل يزعمون أن من قوته أن يغير الصور والطبائع ، فيجعل الانسان حمارا • ولا حقيقة لذلك عند المحصلين » •

ويذهب المؤرخ العلامة ابن خلدون (١) الى أن « النفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتي شرحها ، فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة فصل السحر .

وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر ، والثاني بممين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ، ويسمونه الطلمسان ، وهو أضعف مرتبة من الأول ٠ والثالث تأثير في القوى المتخيلة ، يعمد صاحب هذا التأثير الى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ، ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة ، وصورا عما يقصده من ذلك ، ثم ينزلها على الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه ، فينظر الراءون كأنها في الخارج ، وليس هناك شيء من ذلك ٠ كما يحكى عن بعضهم أنه يُري البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ، ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة والشعبذة » ٠

ويضيف قوله : « هذا تفصيل مراتبه ٠ ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة ، شأن القوى البشرية كلها ، وانما تخرج بالفعل بالرياضة ٠ ورياضة السحر كلها انما تكون بالتوجه الى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل » ٠

ويقول : « واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه ٠ وقد نطق به القرآن ٠ وأما وجود السحر في أهل بابل

وهم الكلدانيون مـن النبط والسريانيين فكثير ، ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار ° وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثـة موسى عليـه السلام أسواق نافقة ، ولذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتنازعون فيه » °

ويقص علينا ابن خلدون حكاية يقول فيها بأنه رأى بعيني رأسه بعض السحرة يتناولون السحر ، من ذلك أنه رأى : « من يشير الى كساء أو جلـد ويتكلم عليه في سره فاذا هو مقطوع متخرق ، ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها فاذا أمعاؤها ساقطة من بطونها الى الأرض » °

ولا بد لنا هنا من أن نفتش في صفحات « قاموس الفلسفة وعلم النفس » لنتبين ما خلاصته : « ان لمارسة السحر تاريخا طويلا فهو من الاعمال التي شاع أمرها بين القبائل والأمم البدائية ، وقد ظل كثير من الناس يمارسونه في جميع مراحل الحضارة، ولا تزال آثاره باقية حتى الآن في عصرنا هذا » °

ويطلق السحر على أي عمل من مجموعة كبيرة من الاعمال المختلفة ، التي تعزى الى أسباب غامضة

أو عوامل سرية ، أو قوى خفية لا يعرفها عامة الناس • وقد استمد الساحر قوته من الآلهة أو من أرواح تأتي من عالم الغيب فتحتل جسده ،وتساعده على القيام بعمله • وكثيرا ما كان السحرة يدعون أنهم يعملون أعمالهم السحرية بالاتصال بتلك الأرواح اتصالا يخفى أمره على بقية الناس •

وكان السحرة يستخدمون للوصول الى أغراضهم وسائل كثيرة منها :

١ ـ سلطان ارادتهم ومقدرتهم على الاستهواء •

٢ ـ التمسك بعبادات وتقاليد مفصلة معينة عند ممارسة السحر بالفعل،كالاشارات والحركات التي كانوا يقومون بها للتأثير في نفوس الناس •

٣ ـ النطق بكلمات وعبارات مغلقة بكل جد وخشوع وتوسل •

٤ ـ احراق تمثال العدو ، أو اتلاف أي أثر من آثاره •

٥ ـ طرح النرد أو ما يسمى بطرق الحصى أو أخذ الفال •

٦ ـ قراءة سلسلة من الخطابات أو الرسائل لاستخراج صفات صاحبها ومميزاته الشخصية ٠

ومن بين الأغراض التي يرمي اليها الساحر :

١ ـ محاولة تأويل الماضي والاخبار بما غاب ٠
٢ ـ التأثير في مجرى المستقبل ٠
٣ ـ ضبط قوى الطبيعة والتأثير فيها ٠
٤ ـ القضاء على المرض أو دفع الشر ٠
٥ ـ اعادة الصحة أو اجتلاب الخير ٠

وقد اختلفت أسماء الممارسين للأعمال السابقة وما يشبهها ، باختلاف وظائفهم أو طبائع أعمالهم فكان منهم : الساحر ، والكاهن ، والمنجم ، والمشعوذ والمتنبيء ، والحاوي ٠ ولم تكن أعمال السحرة وأقوالهم خيالية ولا وهمية ، انما تضمنت أمورا غامضة مبهمة تنقصها الدقة والصراحة ، بحيث تصلح لأن يؤولها كل شخص تأويلا مناسبا لحالته ، ويحوك منها خياله قصة كاملة يهش لها ويبش ، وبخاصة اذا كان غير مثقف » ٠

هذه الصفات التي اختلفت في مبناها ، مع أنها تنسجم تمام الانسجام في معناها ، أي أن القدماء

والمحدثين يكادون يجمعون على تقدير مـا كـان للسحر من تأثير في حياة الناس عامة وفي معالجة أمراضهم خاصة ٠

وهنا نرى لزاما علينا أن نورد ما قاله مؤلف رسالة الجامعة (١) حول رسالة السحر والعزائم ، وماهية الكهانة والزجر ، والفـال ، والغيـب ، والوهم ، والرقي ، وكيفية أفعال سر الطلسمات الباقيـات ، ومـا عمـارة الارض ، ومـا الجن ، والشياطين ، والملائكـة الروحانيون ، وتأثـيرات أفعالهم، بعضهم في بعض يقول : « والغرض المطلوب فيها ، هو ما ذكرناه ووصفناه ، فيما شرحناه ، من ذكر ما في الرسالـة مـن الروحانيين ، وماهيـة الطبيعة ٠ وكل هذه في أفعالهم ، وما جرى هـذا المجرى ، وصح ممن يدعيه ، فانما أعانه عليـه ، وأوصله اليه،معرفته بالأمور الروحانية ، ووصوله الى أسرار الطبيعة ، فاذا أراد فعل شيء من جميع هذه الأشياء ، سلط بعضها على بعض ، وأجرى بعضها في بعض ، ومزج بعضها في بعض ، فأنتج

---

(١) الرسـالة الجامعة : الامام المستور احمد بن عبد الله ص ٥٣٥ ٠ تحقيق مصطفى غالب ٠

من بين ما يزوجه ويمزجه ، ما يكون به بلوغه الى ارادته من الشفاء ، والصلاح ، والنفع ، والضر ، بالرقي والسحر ، واخباره بما يكون قبل أن يكون، بالكهانة والزجر ، والفال ، ودفع الآفات ، وحسم المواد المضرات ، وهلاك الحيوانات المفسدات ، بما ينصبه من الطلمسات ، المربوطات بأفعال الروحانيات ، وما يقيمه من العلامات ، لمن يضل في البحار الطاميات ، والفلوات الواسعات ، والجبال الشامخات ، ليكون بذلك التهدي الى الطرق الواضحات ، المؤدية الى المدن والعمارات ، والقرى والسوادات ، مثل نصب الخشبات بعبارات ، ومنارة الاسكندرية ونصبها على نصبة ثابتة ، وكالأهرام العادية ، والقباب الشدادية في البراري ، وعلامات الروابي ، وطلسمات المخابيء المدفونة ، والذخائر المكنونة ، والجواهر المصونة ، في باطن الارض ، ذات الطول والعرض ، والرفع والخفض ، ومن يحرسها من العمار ، في اختلاف الليل والنهار ، وحرزها في مقرها ، وكونها في مستقرها ، بحيث لا يصل اليها انسي ، ولا يطلع عليها جني ، الى وقت قيام صاحبها ، الأمين المتمكن فيها .

وكل هذه الأمور اللطيفة ، والاحوال الشريفة ،

تبدو في العالم عن قوى أفعال سارية ، خفية ، روحانية شريفة ، وذوات خفايا ، غير مرئيين ، ولا محسوسين ، يسمون روحانيين ، أفعالهم ظاهرة، وذواتهم باطنة ، منها ما تظهر أفعالها بوساطة الطبيعة ، ومنها بوساطة النفس ، ومنها بوساطة العقل ، وهو أجلى منازل المخلوقين ، وأعلى مراتب الروحانيين » ◦

واذ قلنا بأن السحر كونه وسيلة طبية يقوم على تأثير الساحر في نفس المريض بما له من قوة ارادة أو قدرة نادرة على الاستهواء ◦ تكون الوسائل التي يتذرع بها للوصول الى غرضه تلك التمتمات والهمسات والعزائم التي يعزمها على المريض بطرق خاصة ، فيكون لها التأثير المنشود ◦

ولهذا بمقدورنا أن نذهب الى أن السحر لا يعدو أن يكون ايحاء يتقبله المريض ، فيصبح ما يوحى اليه من الداميك العقائدية الثابتة التي لا تقبل الجدل أو النقاش ، فيكون ذلك بلسما شافيا لما يعانيه من أمراض ، وليست مهمة الطبيب النفسي في هذه الأيام رغم تطور الطب ببعيدة عن وحي أولئك السحرة ◦

التداوي بالسحر عند قدماء المصريين :

اذا ما تطلعنا الى النصوص التاريخية التي تتحدث عن التداوي عند قدماء المصريين نلاحظ أن أول ساحر مصري كان « امحُتب » رئيس مهندسي العمارة في عصر الملك « زُوسِر » أحد ملوك الأسرة الثالثة المصرية التي يرجع تاريخها الى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد ٠

ومن المؤكد ان امحتب هذا قد اشتغل بالطب النفسي ، ومعالجة المصابين بالأمراض العقلية والعصبية ، وحتى الجسدية ، بمهارة فائقة جعلت شهرته تعم الآفاق فيأتيه المصابين من كافة الاقطار والامصار ٠ ويعني اسمه : « من يأتي في سلام » ، وهذا يدلنا على مقدار تأثيره في نفوس المرضى ٠ وقد لقب بعدة ألقاب شرفية عالية منها : « صاحب الأسرار » و « حامي الاطباء » و « منبع الفضيلة » و « حامي الملاحين » ٠

وكل هذه الألقاب الشرفية الرفيعة ليست سوى دلالة واضحة على منزلته في قلوب الشعب المصري لما كان يقدمه من خدمات علاجية ، ونصائح وارشادات صحية ، ولما له من أسبقية ومهارة في

مهنة الطب ، مما دفع أطباء عصره الى محاولة تنصيبه الها للطب في تلك الأيام ٠

ولم يكن امحتب الطبيب الوحيد المصري الذي نبغ في العصور القديمة ، بل جاء بعده جماعة من مهرة الاطباء الذين طوروا هذه المهنة وركزوا أسسها حتى اعترف العالم الحديث بأن علم الطب ظهر لأول مرة في وادي النيل ٠

المعالجة بالسحر عند البابليين :

ومما يروى في كتب التاريخ أن أهل بابل كانوا يردون جميع الاصابات والامراض الى تأثير الشياطين أو الارواح الشريرة على جسد الانسان المريض الذي يقع نتيجة لأفعاله الشريرة ، واما بتأثير بعض السحرة الذين يكنون له الخصومة والعداء ٠

وقد كانوا يعتقدون أن هناك أرواحا خبيثة من أنواع شتى تنتهز الفرص لالحاق الأذى بأبناء البشرية ، وأن لكل مرض شيطانا خاصا ، كأن من الشياطين اخصائيين في احداث الاصابات ، كما أن من الاطباء اخصائيين في مداواتها ٠

وكان الكهنة أو رجال الدين يتولون المعالجة عن طريق التسلط على تلك الأرواح الشريرة وابطال تأثيرها في المرض بالابتهالات ، والرقي ، والعزائم ◦ وكان على الكاهن الماهر أن ينادي الروح المؤثرة باسمها ليتمكن من السيطرة عليها وابطال تأثيرها ، والقضاء على فعلها في جسم المريض ، أو ليتمكن من ابطال تأثير الساحر الذي سلطها على المريض ، وبذلك تتم المعالجة والتداوي ◦

ومن أغرب ما كان يتبع في المعالجة أن الساحر بعد أن يتوصل الى السيطرة التامة على الروح الشريرة المؤثرة يحولها الى مادة محسة ثم يقضي عليها ، كأن يحولها الى اناء فيه ماء ، ثم يكسر الاناء ويحطمه أمام المريض فيراق ما به من ماء ، أو يحولها الى تمثال من الخزف يربطه بجسم المريض ثم يرفعه عنه بعد فترة يحددها بالذات ، أو الى جسم خنزير يوضع فوق جسم المريض ، ثم يرفعه عنه ويقذف به خارج المنزل ◦

ومما يروى عن أطباء بابل انهم كانوا يتبعون في مداواة عقدة اللسان أو التواء الأمعاء ، أن يؤتى بحبل عقدت فيه عدة عقد ثم يحلها الساحر الذي

هو الطبيب المعالج واحدة واحدة ، وهـو يعزم ويتمتم ، ويلمس المكـان المصاب بيديـه كمـادة المشعوذين في هذه الأيام ◦

ومن المؤكد أن البابليون قد برعوا في التنجيم ، وكانت لهم فيه الريادة ، واعتقدوا أن لحركـات الشمس والقمر والنجـوم تأثيرا في حيـاة أبناء البشر ، ولذا كانوا في ذلك أقـدم مـن اليونانيين واضعي علم الفلـك ، ومعلمي أطبـاء العقـول والأعصاب الذين قالوا بوجـود علاقة بين المرض العقلي وحركـات الأفـلاك ، وعلى رأس هؤلاء الأطباء « باراسيلوس » الذي قرر أن الطبيب الذي لا علم له بعلم الفلك ليس بمقدوره أن يعـرف أسباب العلل والامراض التي تنتاب أبناء البشرية ولا كيفية علاجها ، وأن الحياة كلها صدرت عن الكواكب ، وأن الشمس هي المسيطرة على الرأس، والقمر هـو المسيطر على المـخ ، والمشتري هو المسيطر على الكبـد ، وزحل هـو المسيطر على الرئتين ، والمريـخ هـو المسيطر على الصفراء ، والزهرة هي المسيطرة على الظهر،وان للمغناطيس تأثيرا في معالجة الامراض ◦

وقد شاعت هذه التعاليم حتى شملت الكون ،

قبل القرون المسيحية الأولى وفي أيام العرب ، ولا تزال لها بقايا في عصرنا الحاضر .

التداوي بالسحر عند الاغريق :

النصوص التاريخية التي بين أيدينا تؤكد بما لا يقبل الشك ان الاغريق أخذوا السحر عن المصريين القدماء وعن البابليين ، فاستخدموه في الطب والمعالجة النفسية ، فانتشر التطبيب بواسطة السحر والعزائم بين عامة الشعب الاغريقي .

وكان الطبيب الساحر في ذلك الوقت ينهج نهجا محددا خاصا في سلوكه الحياتي ، حيث يؤدي أعمال معينة قبل ممارسة السحر وأثناء ممارسته ، كان على الطبيب الساحر أن يغتسل في أوقات محددة ، ويدهن جسده بالزيت ، ويبتعد عن تناول بعض الأطعمة وخاصة السمك ، ويصوم في بعض المناسبات ، ويرتدي من الثياب الفضفاض الخشن الخالي من الأزرار والعقد والعراوي ، وأن يكون الساحر الطبيب مؤمنا ثابت الايمان ، يؤدي واجبه بأمانة واخلاص ، ويختار الوقت المناسب للقيام بمهمته .

ويذهب بعض مؤرخي الاغريق الى القول بأن الأطباء السحرة كانوا يفضلون القيام بواجباتهم الطبية أثناء الليل ، وعند غروب الشمس ، وقبيل شروقها ، وحينما يكون القمر هلالا أو بدرا ٠

وكان الحكيم الساحر يحمل بعض أشياء تجعل لشخصيته شأنا ، وتسهل عليه الوصول الى أهدافه ، كأن يمسك بيده العصا السحرية ، ويعلق على ملابسه مفاتيح وخيوطا مختلفة الألوان ، ويضرب أثناء المعالجة بالطاسات ليؤثر برنينها الموسيقي اعدادا روحانيا في وسط روحاني قبل أن يشرعوا في معالجتهم ، وكان هذا الاعداد يتبع عادة في معابد « أسكبليوس » وبخاصة في معبده في مدينة « ابيدوروس » التي كان المرضى يأوون اليها قادمين من كافة أنحاء البلاد الاغريقية أفرادا وجماعات ٠

وكانوا عندما يصلون الى المعبد يقدمون القرابين الثمينة والهدايا القيمة ويضعونها عند مدخل المعبد ، ثم يغتسلون بماء نافورة المعبد ٠ وعندما ينتهون من هذه التقاليد يسمح لهم بدخول رواق المعبد ليناموا فيه يوما أو مدة أيام ،ويستمعوا

الى ما يلقى عليهم من مواعظ وحكم وارشادات تكون في أغلب الأحيان دينية وصحية واجتماعية ٠ وبعد هذا الاعداد الهام كان يسمح لهم بدخول المعبد نفسه ، وهناك يشاهدون تمثال الاله « أسكبليوس » مصنوعا من الذهب والعاج ، فيؤدون الصلوات ، ويتوسلون اليه أن يشفيهم من أمراضهم وهناك أيضا يشتركون في اداء صلوات وأدعية عامة ٠

وبعد أن يؤدوا الصلاة بتأثر وخشوع يعودون الى الرواق ليناموا على جلود الحيوانات التي قدموها ضحية للمعبد ، أو على جلود أخرى تعد لهذا الغرض ٠ ويرى كل مريض في نومه أن (أبولو) يعالج مرضه الخاص ، فاما أن يبرئه من مرضه ، واما أن يطالبه بتقديم ضحايا أخرى ٠

وكان لاسكبليوس معابد كثيرة في عهد الاسكندر الأكبر ، وأخذ أهل رومية يعبدونه منذ سنة ٢٩٣ ق٠م٠ وأقيم له معبد على شاطيء نهر التبر ، كما أقيمت له معابد في أماكن كثيرة في بلاد اليونان تشبه معبده في مدينة ابيدوروس ، منها معبد أثينا ومعبد كوس ٠

وفي معبد كوس هذا نشأت في سنة ٦٠٠ ق٠م٠ مدرسة طبية هي التي سميت فيما بعد مدرسة أبقراط (٤٧٠ ــ ٣٧٠ ق٠م٠) ، وهي التي أصبح الطب بفضل جهود رجالها علما من العلوم الطبيعية ٠

ويذهب مؤرخي الاغريق الى أن هذه المدرسة كانت أول مدرسة علمية أصدرت رسائل طبية كاملة ، أشهرها رسالة عن المرض الرباني أي الصرع ، الذي كان يعتقد القدماء أنه من الله ٠ وقد حمل كاتب الرسالة على هذه العقيدة وقرر أن هذا المرض لا يمتاز عن غيره بشيء ، فله سبب طبيعي كغيره من الامراض ، وانما يعتقد الناس أنه « رباني » لأنهم لا يفهمونه ، ولو كانوا يصفون كل ما لا يفهمون بأنه « رباني » ما كانت هناك نهاية للأشياء الربانية ٠ وبهذا الأسلوب حاول الكاتب القضاء على الخرافات التي كانت عالقة بأذهان الناس وابعادها عن عالم الطب ، ومن ذلك الحين دخل الطب في عداد العلوم التجريبية ٠

وعندما ظهر أفلاطون في سنة ٣٨٠ ق٠م تحدث في كتابه الجمهورية عن تفسير الأحلام ، ونصح بأن يعزل مرضى العقول ، وأن يعالجوا علاجا خاصا ٠

ويؤخذ من كلامه آنه أدرك تأثير الحالات النفسانية والانفعالات في صحة الجسم . قال على لسان طبيب يحدث سقراط : « لا ينبغي أن تحاول علاج الجسم بدون معالجة النفس،واذا أردت أن تحتفظ بسلامة رأسك وصحة جسمك ، فعليك أن تبدأ بعلاج عقلك فهذا أول شيء » .

وكذلك نلاحظ ان أفلاطون يعمد الى توضيح العلاقة بين شفاء الجسم وعلاج النفس فيقول : « اني أفهم أن أطباء الاغريق اذا استطاعوا علاج الجسم فانما يفعلون ذلك بوساطة العقل ، وان مهنة الطب تشمل تطهير الجسم والعقل معا ، فاذا أهمل أحدهما فقد عُرض الآخر للخطر ، فليس هناك ما يقوي العقل غير الجسم السليم ، ولكن النفس المنظمة تنظيما تاما هي التي تجعل الجسم في صحة كاملة بما لها عليه من سلطان نافذ » .

وانطلاقا من هذه الأفكار الطبية التي شاعت في العالم القديم ، ظهرت بعض التطورات العلاجية ، ولكن هذه التطورات لم تمد المجتمعات الانسانية بالكثير من المعلومات والآراء الطبية المفيدة الناجعة .

التداوي عن طريق التطهر من الذنوب :

التداوي والمعالجة التي كانت معروفة في العصور القديمة ، والتي استخدمها السحرة والكهنة والمشعوذين لشفاء بعض الامراض العصبية والعقلية ، قد انتقلت الى أماكن أخرى وبيئات أخرى في العصور القديمة ، حيث كانت تلك البيئات والمجتمعات تعيش تحت السيطرة الدينية التي ملئت بالحكماء والانبياء والمبشرين ٠

ولم تكن تلك المجتمعات سوى المجتمعات الاسرائيلية التي كانت تعيش في أجواء اليهودية التي تختلف اختلافا بينا عن الاجواء المصرية ، والبابلية ، واليونانية ، والرومانية ، من حيث المعارف المحدودة ، التي كان يموزها الدافع النفسي الذي دفع معاصريهم من اليونان الى ممارسة البحث العلمي ٠

ويبدو أن هؤلاء كانوا يحرصون على الطابع الوراثي الخاص بهم ، وهو الشعور الديني النفساني ، الذي جعلهم أقل ميلا الى الاعتقاد بالخرافات والأساطير والسحر والشعوذة ٠ وكان الاله « يهوه » الههم الواحد القادر على كل شيء ،

الذي بيده الحياة والموت ، وبارادته الصحة والمرض ومع كونه بالذات رءوفا لا يلحق الأذى بعباده ، فانه في الوقت نفسه كالأب الرحيم الذي يعاقب أولاده على عصيانهم، فهو يضرب العاصي بالجنون والعمى وحيرة القلب ٠

فالذنوب اذا هي أسباب الامراض ، وهذه مرتبطة بتلك ، كذلك كانت عقيدة اليهود التي شاع أمرها فيما بينهم منذ نشأتهم الأولى ، وبقيت راسخة (١) في أذهانهم في عصور الربانيين ٠ يقول ربي يوناثان : « ان المرض يأتي من سبعة أبواب هي : السب ، وسفك الدم ، والحنث في اليمين ، وعدم العفة أو الشره ، والغرور ، والسرقة ، والحسد ٠

ولما كان الاثم هو سبب المرض لم يكن هناك مبرر للشكوى ، فلم يكن على المريض الا أن يفكر فيما يرتكب من آثام ، حتى اذا عرف ذنبه تاب منه ، وعزم على عدم العودة اليه ، واعترف به أمام الاله (يهوه) ، واستغفره وطلب منه الرضا، فاذا وهب يهوه له المغفرة تم له الشفاء ٠ واذا نزل

---

(١) سفر التثنية اصحاح (٢٨ — ٢٨) .

بالشعب وباء عام كان على الجميع أن يعترفوا بذنوبهم ، ويطلبوا من الله المغفرة حتى يرتفع عنهم ما نزل بهم ، ذلك لأنهم اعتقدوا أن الوباء العام عقوبة للشعب جميعه على ارتكاب الآثام ٠

ولقد أثبتت الوقائع والاحداث التي جرت على مسرح الحياة أن هذه النظرية التي تربط المرض بارتكاب الذنوب والمعاصي ليست صحيحة ، لأن قصة أيوب اذا نظرنا اليها نظرة واقعية نلاحظ أن أيوب الذي أصيب بمرض خطير ، مع أنه كان تقيا ورعا زاهدا ، مبرأ من الذنوب والآثام ، وليس عذابه وصبره سوى محنة ابتلاه الله بها ، وهذه المحنة أو العقوبة ستظل من الأسرار الخفية التي يعجز الانسان عن ادراكها ومعرفة كنهها ٠

ونحن لا يمكننا أن ننكر بأن اليهود في ذلك الوقت كانوا يعالجون مرضاهم بالتوبة والعودة الى الله ، وان الكهنة والاحبار ينهون أبناء الشعب عن الاعتقاد بالسحر والكهانة ، ومع ذلك فقد اعتقدوا بوجود الشيطان الذي يناصبهم الخصومة والعداء٠ بالاضافة الى الأرواح الشريرة ، ولكنهم لم يكونوا يعتمدون عليهم في مداواة أمراضهم ، وكذلك لم

يرجعوا الى السحرة والكهنة الا في استشارتهم عن خفايا المستقبل ◦

وعندما ظهرت المسيحية أطل الاعتقــاد بوجود الجن والشياطين ، وبأنهم أسباب انتشار الأوبئـة والامراض بين الشعوب، سواء كانت هذه الامراض جسدية أو عقلية عصبية ◦ مع أن التلمود يرى غير هذه الآراء فهو يقرر أن الامراض جميعها الجسدية والعقليــة ، ليس لهــا أي ارتبــاط بمس الجــن والشياطين ، وأنه من الممكن الشفاء منها بواسطة التداوي بالعلاج الصحيح ◦

ومن المؤكد حسب روايات المؤرخين أن اليهود لم يعالجوا في يوم مــن الايام مرضاهم بواسطـة السحر ، انما كانوا يهمسون في أذن المصاب ببعض آيات مــن سفر الخروج التي تقــول (١) : « اذا أصغيت لكلام الرب الهك ، وعملت ما هو حــق في نظره ، واستمعت الى وصايــاه ، وحافظــت على جميع فرائضه فلــن أرسل عليــك أي مرض مــن الامراض التي أرسلتها على المصريين ، فاني أنــا الرب الذي يبرئك » ◦

---

(١) سفر الخروج ص (١٥ — ٢٠) .

ويبدو أن هذا الهمس كان يريح المريض ويهديء أعصابه ، ويدخل الى نفسه الطمأنينة بالشفاء العاجل ، وبالفعل يتم الشفاء اذا كان الهامس قوي الشخصية ، قادرا على أن يجعل المريض يؤمن بما يهمس ايمانا قاطعا لا تراجع عنه ° ولهذا كانت وظيفة الاحبار ورجال الكهنوت من اليهود تشمل مداواة المصابين والمرضى ، والى جانب هؤلاء كانت هناك فئة تمتهن الطب والتداوي أيضا ، وكان هؤلاء الأطباء موضع احترام وتقدير الشعب ، حيث أنهم كانوا يرون أن الشفاء من الامراض عائد الى الله ، غير أن الله وهب للأطباء القدرة على المعالجة ، ولذا كان المريض يؤمر أن يدعو الله لينقذه من مرضه ويستدعي الطبيب بنفس الوقت لعلاجه °

والمعروف عن أنبياء وحكماء بني اسرائيل أن الله (يهوه) قد أعطاهم القدرة على شفاء المرضى ° ومما يروى عن أشعياء النبي أنه أمر حزقيل الملك ، الذي كان يشكو ألم دمل ، أن يضع « لبخة » من التين فوق الدمل ، وأن اليسع أمر نعمان أن يستحم في نهر الأردن سبع مرات ليشفى من المرض °

ومن الملاحظ أن اليهود قد توصلوا الى قطع

دابر الامراض حتى لا يصابوا بها مرة أخرى ، ولذا كانوا اذا أصيب أحدهم بمرض يفتشون بدقة عن أسبابه ، ويتوصلون الى معرفة الاثم الذي ارتكبه المصاب كيلا يرتكبوه هم أنفسهم مرة أخرى ٠ ومن هنا نستنتج أن طبهم كان على الاكثر وقائيا قبل كل شيء ، وأن طرق المعالجة التي اتبعوها كانت الحض على التمسك بالحياة الطاهرة الخالية من الآثام والذنوب ٠

وانطلاقا مما أوردناه حول العلاج النفساني قديما وقبل ظهور المسيح نلاحظ أن الامراض الجسدية والعقلية وغيرها من الأوبئة كانت تمالج باحدى وسيلتين هما :

١ ـ التداوي بالسحر على اختلاف أشكاله وأنواعه وصوره ٠

٢ ـ المعالجة عن طريق التطهر من الذنوب والآثام والايمان العميق بالأديان ونصوصها ٠

ومن المؤكد أن علم النفس الحديث قد برهن بالتجارب المختلفة ما للاستهواء والمشاركة الوجدانية والتفاعلات الاستجابية من تأثير كبير في النفس

الانسانية ، بل انه قد أكد قبول الايحاء والميل الى المشاركة الوجدانية باعتبارها من النزعات الفطرية العامة التي جبلت عليها الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان ، كما تبين بوضوح أن تأثير الاستهواء لا يتم بصورة فعالة الا اذا توافرت شروط خاصة نوجزها بما يلي :

١ ــ قوة ارادة المستهوي ◦
٢ ــ لباقة المستهوي ومهارته في حسن العرض ◦
٣ ــ قابلية المستوى وحسن استعداده لما يوحى اليه ◦
٤ ــ ملاءمة الظروف الخارجية لنجاح التأثير ◦

واذا تعمقنا في فحص هذه الأمور بصورة جيدة تبين لنا ما كان مستورا من نجاح السحر والسحرة في شفاء الكثير من الامراض الفتاكة ، وذلك يعود بوجه خاص الى السببين الرئيسيين :

الأول : ثقة الساحر من نفسه الى حد بعيد جدا، ومن مقدرته على أداء واجبه الطبي ، بعد أن يستعد لها استعدادا كاملا ◦

ثانيا : ايمان المريض الذي لا يتزعزع في مقدرة الساحر من جهة ، وفي أن عمله يوصل فعلا الى

الانقاذ والشفاء من جهة أخرى ◦ فلو كان المريض مخلخل الايمان بفاعلية الساحر ، أو كان ضعيف الامل بالشفاء لضعف تأثير السحر عليه ولما تحقق له الشفاء ◦

أقوال فلاسفة العرب بالسحر :

النصوص التاريخية والفلسفية العربية تتحدث بوضوح عن السحر وتأثيره على النفس الانسانية ، لذا نورد بايجاز بعض ما قاله الراغب الاصفهاني ، وابن خلدون ، والعلامة محمد فخر الدين الرازي ◦

يقول فخر الدين الرازي (١) : « ان السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجري في مجرى التمويه والخداع ، وللسحر ثماني صور أعرضها هنا على سبيل الايجاز واحدة واحدة ، لأبين مبلغ انطباق القاعدة السابقة عليها :

الصورة الأولى : سحر الكلدانيين الذين عبدوا الكواكب : كان هؤلاء يمتقدون اعتقادا جازما في

---

(١) الرازي : التفسير الكبير ج ١ ص ٤٢٩ .

تأثير الكواكب والأجرام العلوية عامة في العوالم السفلية عامة ، وفي الانسان بوجه خاص ٠ ولعل هذه العقيدة أتت لهم من مشاهدة تأثير هذه الاجرام وما لها من فوائد ومضار ، وما لدورانها وتقلبات أحوالها من أثر في اختلاف المواسم وتغير درجة الحرارة ، وفي معرفة عدد السنين وحساب الزمن ٠

اعتقد السحرة كما اعتقد المرضى بقوة تأثير هذه الكواكب ، فاذا ما استعانوا بها في معالجة الامراض وكان نصيبهم النجاح فليس لنا أن نعجب، ما دمنا نعلم أن كلا من الساحر والمريض يؤمن ايمانا صادقا أن هذه الكواكب تجيب دعوة الساحر اذا دعاها ٠ أما أن هذه العقيدة مطابقة للواقع أولا فأمر ثانوي لا علاقة له بالحالة النفسية عند كل من الساحر والمريض ، فالعقيدة أمر نفسي ذاتي ، وما عليه الواقع أمر خارجي موضوعي ، وليس من الضروري في هذه الحالة مطابقة كل من الامرين للآخر ٠ ألا نلاحظ أن الوهم بجميع صوره يؤثر في النفس الى حد كبير جدا على الرغم من أن المتوهم غير مطابق للواقع ؟ وأن الاستهواء يعمل عمله في نفس المستهوي ٠ ولو كانت الفكرة الموحى بها خيالية صرفة لا نصيب لها من الصواب ؟

ولو فرضنا في هذه الحالة أن الساحر مدع مخادع ، وأن المريض انخدع بكلامه ، واعتقد ما يقول لم يتغير الموقف ، لأن العنصر الفمال في الشفاء هو حال المريض النفسية ، فمتى اتجهت نيته الى الشفاء ، وامتلأت نفسه تفكيرا في الصحة ، وبعدت عن جميع الافكار الموقعة في المرض ، بأي وسيلة من الوسائل ، ولو بطريق الايهام والخداع ، كان أقرب الى الشفاء .

الصورة الثانية : « سحر أصحاب النفوس القوية ، المستعلية على البدن ، القادرة على التصرف في العناصر الكونية بعد الرياضة المستمرة والانقطاع عن المألوف من الملذات ، والبعد عن مخالطة الخلق » :

وهذه الصورة تختلف عن سابقتها في أن الساحر هنا يعتمد على نفسه وقوة ارادته ، ويقوم بعمله دون الاستعانة بقوى خارجية ، فهو أقرب ما يكون للمستهوي أو للمنوم المغناطيسي الذي يستخدم قوة ارادته في التأثير على الوسيط ، وليس هناك شك في أن هذه الطريقة قد جربت ونجحت في كثير من الحالات في علاج المرضى .

وتعود الاسباب المباشرة في نجاحها لاعتقاد المريض الراسخ بالشفاء متأثرا بما للمعالج من نفوذ وقوة ارادة ، يتمكن بواسطتها من التحكم بارادة المريض ، وتوجيهها وفق ارادته ٠

والجدير بالملاحظة أن الفلاسفة الاشراقيون قد اعترفوا بتأثير ذوي النفوس المستعلية في العناصر الكونية بعد الرياضة والاستعداد ، وقد أتى على ذكر هذا التأثير ابن سينا فقال : « وكثيرا ما يؤثر النفس في بدن آخر كما يؤثر في بدن نفسه تأثير العين العاينة والوهم العامل ، بل النفس اذا كانت قوية شريفة شبيهة بالمباديء العليا أطاعها العنصر الذي في العالم وانفصل عنها ، ووجد في العنصر ما يُتصوَّر فيها ، ذلك لأن النفس الانسانية غير منطبعة في المادة التي لها ، لكنها منصرفة الهمة اليها ، فان هذا الضرب من التعلق يجعل لها أن تحيل العنصر المبدئي عن مقتضى طبيعته ، فلا بد أن تكون النفس الشريفة القوية جدا تجاوز بتأثيرها ما يختص بها من الأبدان ، اذا لم يكن انغماسها في الميل الى ذلك البدن شديدا ، وكان مع ذلك عاليا في

(١) ابن سينا : كتاب الشفاء ج ١ ص ٣٤٥ ٠

طبقته قويا في مملكته جدا فتكون هذه النفس تبريء المرضى وتمرض الاشرار ، ويتبعها أن يهدم طبائع وأن يؤكد طبائع ، وأن يستحيل لها المناصر، فيصير غير النار نارا ، وغير الارض أرضا ، وتحدث أيضا بارادته أمطار وخصب ، كما يحدث خسف ووباء ، وذلك كله بحسب الواجب المقلي » ·

ومن هذه الافكار السينوية يمكننا أن نستنتج الاشياء التالية :

١ ـ تأثير الوهم والايمان في الصحة والمرض ، وهذا ما عناه ابن سينا بتأثير النفس في بدن النفس ·

٢ ـ تأثير النفس الشريفة المارفة في الأبدان الأخرى الجاهلة ·

٣ ـ تأثير هذه النفوس في هدم الطبائع أو تأكيدها واستحالة المناصر المبدئية ·

٤ ـ يعود هذا التأثير لمشابهة النفس البشرية للمباديء العليا التي تؤثر في العالم السفلي·

٥ ـ عندما تصل النفس وتترقى الى هذه المرتبة تكون قد عرفت ذاتها وارتفعت على البدن وما فيه من رغبات وشهوات دنيوية زائلة ·

ولم يكن ابن سينا الفيلسوف الوحيد الذي بحث هذه الأمور المقلانية ، بل هناك فيلسوف اسلامي آخر تمرض في أقواله لمثل هذا الموضوع فقال (١) : « وقد يتمدى أثر بمض النفوس الى بدن آخر ، حتى يفسد الروح بالتوهم ، ويقتل الانسان بالتوهم ، ويمبر عن ذلك بأنه اصابة المين ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « ان المين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر » ٠ وقال عليه الصلاة والسلام : « المين حق » ٠

واذا كان ممكنا لم يبمد أن تقوى نفس من النفوس على الندور قوة أكثر من هذا ، فيؤثر في هيولى المالم ، باحداث حرارة وبرودة وحركة ٠ وجميع تغاير المالم السفلي يتشمب عن الحرارة والبرودة والحركة ٠ ومثل هذا يمبر عنه بالكرامة والممجزة » ٠

الصورة الثالثة : « الاستمانة بالأرواح الأرضية في التأثير » وهذا يمني استمانة الساحر بالجن والشياطين كما استمان في الصورة الأولى بالكواكب والأفلاك الملوية ٠

---

(١) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص (٣١٦ — ٣١٧) ٠

الصورة الرابعة : « التخيلات والأخذ بالعيون بخفة الحركة وخداع الحواس » . وهذا يعني الشعوذة التي أساسها خداع الحواس ، فتحس احساسا مخالفا للواقع ، وقد يصل الانسان الى درجة الخبل فيصور له خياله أشياء لا وجود لها مطلقا ، ويقوم تجاهها بأفعال تدل على ما في نفسه من تخيلات وأوهام .

الصورة الخامسة : « الاتيان بالأعمال العجيبة التي تظهر من الآلات المركبة على النسب الهندسية، كعمل تمثالين لفارسين يتحركان ويقتتلان ، ولا يقتل أحدهما الآخر ، وكفارس على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد » .

الصورة السادسة : « الاستعانة بخواص الأدوية كأن يجعل من طعامه بعض الأدوية المبلدة المسكرة ، نحو دماغ الحمار ، اذا تناوله الانسان بلد عقله » .

ويبدو أن هاتان الطريقتان كان يستخدمهما القدماء بأعمالهم السحرية السرية ، وصنع الأدوية التي تساعد المرضى على الشفاء .

الصورة السابعة : « تعليق القلب ، وهو أن يزعم الساحر أنه يعرف الاسم الاعظم ، وأن الجن ينفذون أوامره ويلبون رغباته في أكثر الأمور ، فاذا اتفق ان كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز ، اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك ، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة ۰ واذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة ، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل به ما يشاء » ۰ وهذا هو الايحاء بالمعنى المعروف في هذه الأيام ۰

الصورة الثامنة : « السعي بالنميمة والتفريب من وجوه خفيفة لطيفة » ۰ وهذه الصورة أيضا تنسجم انسجاما كليا مع الايحاء ، لأن النمام يعتمد فيها على قوة بيانه ، وسلطان بلاغته على بلورة الأفكار ، التي يقذف بها في قلب المنموم اليه ، فيتقبلها دون أن يطالب بالبرهان والدليل العقلي على صحتها ۰

وليست طريقة المعالجة بالتدين والتطهر من الآثام ، التي استخدمها كهنة وأحبار اليهود ببعيدة عن ضرورة تنمية الاعتقاد اليقينية في نفس المريض حتى يتأكد بأن المرض قد أصابه نتيجة ذنب ارتكبه

في حق الدين وحق الرب الذي يعبده ، وهذا الاعتقاد ينشأ متأثرا بأن ارتكاب الاثم يورث المرض ° وليس على المريض في هذه الحالة الا اعلان التوبة وطلب العفو والغفران ° ولا ريب أن الثقة بأن تعاليم الدين صحيحة صادقة تساعد على الشفاء والعودة الى الصحة °

المعالجة النفسانية عند المسيحية :

من المعروف تاريخيا أن المسيح عيسى بن مريم قد ترعرع بين اليهود ، وعاش في المجتمع اليهودي ، فلاحظ أن القوم قد ضربوا بتعاليم موسى عرض الحائط ، فقام يبشر ويرشد الى طريق الحق ويدعوا الناس الى الخير ، وينافح عن الفقراء والمعوزين ° فالتف حوله جماعة من اليهود ، وعلى رأسهم الحواريون المخلصون °

وتحدثنا الأناجيل أن السيد المسيح قد عالج المرضى برفق وحنان ، وأعاد اليهم صحتهم الجسمية والعقلية ° ويشير القرآن الكريم الى أنه أبرأ الأكمة والأبرص وأحيا الموتى باذن الله ، معجزة له ، ودليلا على صحة رسالته من لدن ربه °

وهذه الأفعال والاعمال الخارقة الغريبة ، ليست بعيدة عما تقول به الفلسفة ، والتي تؤكد أن النفوس القوية الشريفة تقرب من العالم الروحاني ، ويكون لها من التأثير ما يشبه المبادىء العليا • لأن قوة النفس وشرفها وسمو مرتبتها كانت متوفرة في المسيح على أكمل وجه ، وقد كان واثقا بنفسه ، موقنا بتأييد ربه ، لذلك كان أهلا لتولي المعالجة النفسية ، لما يتمتع به من مقدرة ويقين على تلبية دعوة من يستغيثون به ، ويرجون معونته ليتخلصوا من أمراضهم •

واذا تلفتنا بصورة جدية وعلمية لنستطلع بعض أحوال أولئك الذين عرضوا على المسيح وطلبوا منه الشفاء والمعالجة وجدنا أن الدافع الوحيد كان قوة الايمان والثقة التامة بأنه يقدر على المعالجة وشفاء المريض من الامراض التي يعانيها سواء كانت هذه الامراض جسدية أو نفسية •

ويحدثنا مرقس عن كيفية وفود المرضى على السيد المسيح فيقول (١) : « ثم دخلوا كفر ناحوم ،

(١) انجيل مرقس ص ١ (٢٢ — ٢٨) •

وللوقت دخل المجمع في السبت ، وصار يعلم فبهتوا من تعليمه ، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة ، وكان في مجمعهم رجل بـه روح نجس فصرخ قائلا : آه ! مالنا ولك يا يسوع الناصري ، أتيت لتهلكنا ، أنا أعرفك من أنت ، أنت قدوس الرب ٠ فانتهره يسوع قائلا : اخرس واخرج منه ، فصرع الروح النجس ، وصاح بصوت عظيم وخرج منه ٠٠٠ ولما خرجوا من المجمع جاءوا للوقت الى بيت سمعان ، وأندراوس مع يعقوب ويوحنا وكانت حمو سمعان مضطجعة محمومة ، فللوقت أخبروا عنها ، فتقدم وأقامها ممسكا بيدها ، فتركتها الحمى حالا وصارت تخدمهم ٠ ولما صار المساء اذ غربت الشمس قدموا اليه جميع السقماء والمجانين ، وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب فشفى كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة وأخرج شياطين كثيرة ، ولم يدع الشياطين يتكلمون لأنهم عرفوه » ٠

والذي يلفت النظر أن لوقا يروي هذا الحديث ذاته مع بعض التغيير ، ولكن متى ويوحنا لم يذكرا أي شيء في انجيليهما عنه ٠ ومهما يكن الاختلاف في نصوص الأناجيل ، فانها ترشدنا الى مدى ثقة

الناس واعتقادهم بقوة روحانية المسيح وسلطانه على العقول ، ومقدرته الفائقة على المعالجة والشفاء عن طريق التأييد الروحاني باعتباره صاحب الكشف المتصل اتصالا مباشرا بالذات القدسية الابداعية ٠

يؤيد ما نذهب اليه ما يقوله متى (١) : « وفيما هو يكلمهم بهذا اذا برئيس قد جاء فسجد له قائلا : ان ابنتي الآن قد ماتت ، لكن تعال وضع يدك عليها لتحيا ، فقام يسوع وتبعه هو وتلاميذه ، واذا امرأة نازفة دم منذ اثنتي عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومست هدب ثوبه ، لأنها قالت في نفسها ان مسست ثوبه فقط شفيت ٠ فالتفت يسوع وأبصرها فقال : ثقي يا ابنة ، ايمانك قد شفاك ، فشفيت المرأة من تلك الساعة ٠٠ » ٠

ويقول متى في مكان آخر (٢) : « وفيما يسوع مجتاز من هناك تبعه أعميان يصرخان ويقولان : ارحمنا يا ابن داود ! ولما جاء الى البيت تقدم اليه الأعميان فقال لهما يسوع : أتؤمنان أني أقدر أن

(١) انجيل متى ٩ (١٨ وما بعدها) ٠
(٢) انجيل متى ٩ (١٧ وما بعدها) ٠

أفعل ذلك ؟ قالا له : نعم يا سيد . حينئذ لمس أعينهما قائلا : بحسب ايمانكما ليكن لكما . فانفتحت أعينهما » .

واذا ما حاولنا تتبع حالات العلاج التي وردت في الأناجيل وجدنا أنها كلها تدل دلالة لا شك فيها على أن الثقة التامة باستطاعة المسيح على الشفاء ، والايمان اليقيني بقدرته على الاتيان بهذه الأعمال ، تعطينا الدليل البيِّن مهما كانت روايات أصحاب الأناجيل مختلفة ، بأن المعالجة نابعة من النفس العارفة الواثقة من قوة ومقدرة المعالج ، على الاتيان بالخوارق والمعاجز التي يظهرها الله سبحانه وتعالى على يد رسله ليؤكد للناس صحة رسالاتهم وقوة أنفسهم وشرفها ، وما هذا أو ذاك سوى وهبة الهية خص بها العارفين من عباده .

ولم تكن هذه الموهبة وقفا على السيد المسيح ولكنها كما يشتم من روايات الأناجيل قد تسربت الى القديسين بعد انتقال المسيح الى جوار ربه كونه قد ناشد أتباعه المقربين أن يبشروا برسالته ، ويعالجوا المرضى بصدق واخلاص . لذا يقول

لوقا (١) : « وقد دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطانا على جميع الشياطين ، وشفاء الامراض ، وأرسلهم ليكرزوا بملكوت السموات ويشفوا المرضى » .

ويروى أن بعض هؤلاء التلامذة قد عالجوا المرضى باسم المسيح ، خاصة وان بطرس عالج رجلا أعرج بأن نظر اليه وقال له : « باسم يسوع المسيح الناصري قم وامش » . وأمسكه بيده اليمنى وآقامه ، ففي الحال تشددت رجلاه وكعباه فوثب ووقف وصار يمشي (٢) .

وجاء في السفر نفسه أن بطرس بينما كان يجتاز الجميع نزل أيضا الى القديسين الساكنين في لُدَّة فوجد هناك انسانا اسمه ايناس مضطجعا على سرير منذ ثماني ستين ، وكان مفلوجا ، فقال له بطرس : يا ايناس يشفيك يسوع المسيح قم وأفرش لنفسك ، فقام للوقت ، ورآه جميع الساكنين في لُدَّة (٣) .

---

(١) لوقا ٩ (١٢) .
(٢) اعمال الرسل ٣ (١ وما بعدها) .
(٣) اعمال الرسل ٩ (٣٣ ، ٣٤) .

ويروى أن أحد تلاميذ المسيح مضى الى بيت فيه رجل أصيب بالعمى اسمه « شارل » ووضع عليه يده ، وتحدث معه ، فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور فأبصر في الحال (٤) ٠

ولم تكن المعالجة وقفا على الحواريين ، بل تعدتهم الى القديسين والرهبان وكبار رجال الدين المسيحي ٠ ومما يروى عن القديس مارتين الطوروسي الذي عاش في أواخر القرن الرابع الميلادي أنه عالج صبيتين كانت احداهما مفلوجة ، وكانت الأخرى خرساء ، وذلك بأن صب الزيت في فميهما ٠

ويعرف هذا العلاج بالكرامة أو المعجزة ، وقد شاع هذا العلاج خلال القرون الوسطى ، بل ان سوقه ظلت رائجة الى هذا العصر بين أصحاب الديانات المختلفة ، وكانت هذه المعالجة تنطلق من الايمان والعقيدة ، لا يختلف بعضها عن بعض الا في اسم الاله الذي يستعان به ٠

ويذهب جانيه الى أن طريقة العلاج بالكرامة

---

(١) اعمال الرسل ٩ (١ — ١٦) ٠

كانت تتبع بشكل يلفت الانظار عند مقبرة القديس ميدارد بفرنسا حوالي سنة ١٧٣٦م ٠ هذا ما جعل رجال الدين من المسيحيين يحظون بمكانة عالية من السلطان والمقدرة الفائقة على معالجة المرضى ، وقد مارسوا في كثير من الحالات مهنة مداواة العقول ، وراح مرضى العقول يترددون على رجال الدين ، ويتوسلون اليهم ليخرجوا الأرواح الشريرة من أجسامهم لتعود اليهم صحتهم العقلية ٠ وعندما اشتد نفوذ رجال الدين تعسفا في معالجة مرضى العقول راحوا يحرقونهم ويعذبونهم ٠

ويحدثنا الدكتور لدج باتش في كتابه عن الامراض العقلية فيقول (١) : « ان آلافا مؤلفة من مرضى العقول الذين عرفوا بالوداعة ودماثة الخلق كانوا في عصر الاضطهاد الديني في أوروبة يحرقون وهم أحياء ، ومن سمح لهم بالبقاء من هؤلاء البائسين كانوا يعذبون عذابا أليما ، ويمثل بهم تمثيلا شنيعا ، الحرق بالنار أسهل منه وأخف » ٠

---

(1) A Manual of Mental Diseases, by Lodge, Patch p. 2.

المعالجة النفسانية في الجاهلية والاسلام :

لما كانت جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام تحتل مكانا وسطا بين امبراطوريتين هما الامبراطورية الرومانية ، وقد أحاطت بالجزيرة من الشمال والغرب ، اذ كان الرومان يحتلون سوريا وفلسطين ومصر ، والامبراطورية الفارسية ، وقد أحاطت بجزيرة العرب من الشمال والشرق والجنوب ، فقد كان الفرس يحتلون بلاد اليمن ٠

ومن المعروف تاريخيا أن هاتين الامبراطوريتين كانتا على درجة عالية من الثقافة وخاصة الثقافة الطبية ، فالامبراطورية الرومانية الشرقية ورثت ثقافة الاغريق القدماء ، ومهارتهم الطبية ٠

ومما يروى أن الامبراطور جستنيان قد نقم على الفلسفة والفلاسفة ، وأبعد فريقا منهم ممن قالوا بالمذهب الافلاطوني الحديث ، في القرن السادس الميلادي ٠ فتوجه عددا من هؤلاء الى بلاد فارس فرحب بهم كسرى ، ونشروا ببلاده الفلسفة والطب ، وأقاموا البيمارستانات ، ومع ذلك فقد كانت مهنة الطب معروفة بشكل جيد في بلاد فارس وفي الهند وغيرهما من الممالك الشرقية ٠

ومن المؤكد أنه كان لدى العرب قبل الاسلام أطباء يمارسون الطب ويدرسونه،وخاصة في الحيرة واليمن وسوريا المتاخمة لتلك البلاد العريقة في الحضارة ° ويرى بعض المؤرخين أنه كان في بلاد العرب قبل الاسلام حكماء تفوقوا في مجال الحكمة والطب ، وعلى رأس هؤلاء الاطباء والحكماء الحرث بن كلدة الذي وفد على كسرى أنو شروان وآجاب اجابات سديدة عن أسئلة طرحت عليه وتتعلق بالحكمة والطب ، فأقر كسرى بفضله وحكمته ، ومهارته الطبية (١) °

ومن هؤلاء الأطباء أيضا ابن حذيم من تيم الرباب ، وقد نبع بالتداوي بالكي ، وقيل انه كان أعمق من الحرث بن كلدة ، وكان يضرب به المثل في الطب فيقال أطب من خديم ، وأطب في الكي من ابن خديم (٢) °

ويذهب بعض المؤرخين الى أن بعض أطباء العرب قد عاصروا الرسول كالنضر بن الحرث بن

---

(١) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ١ ص ١٠٩ °
(٢) الآلوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ٣ ص ٣٢٨ °

كلدة الثقفي ، وقيل انه يمت بصلة القربى الى الرسول ، ويقال أنه كان كثير الترحال والتجوال في البلاد ، عاشر الحكماء والعلماء والفلاسفة والاحبار والكهنة ، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، ويقال أنه كان كثير الأذى والحسد للنبي مع أنه ابن خالته ° ولما كان يوم بدر ناصر المشركين ، وكان في تعداد من أسرهم المسلمون فأمر الرسول بقتله °

والتاريخ يحدثنا عن وجود طائفة من الكهنة الى جانب هؤلاء الاطباء في الجزيرة العربية ، كانوا يزعمون أنهم يعرفون الغيب ، وأنهم قادرون على استخدام الجن والشياطين لمساعدتهم عندما يرغبون الاتصال بالسماء لمعرفة الغيب ° ويقال أن هؤلاء قد حاولوا معالجة بعض المصابين بالأمراض العقلية ، بحكم ما كان لهم من قوة نفوذ ، ومقدرة على التأثير في النفوس °

ويقال ان الكهنة العرب قد اتبعوا عادات وتقاليد طبية أو وقائية معينة شاع أمرها فيما بينهم ، ودرجوا على اتباعها في حالات معينة ° وآمنوا بفاعلية الأحجار والرقى والتمائم والخرزات

والعزائم ، وكانوا يستخدمونها لأمراض واصابات مختلفة مثل (١) :

(١) التخلص من بعض الآلام أو الأمراض ◦
(٢) اكتساب الثقة بالنفس عند مقابلة الحكام أو الخصوم ◦
(٣) التحبب الى الناس ◦
(٤) تجنب الآفات عامة واصابة العين خاصة ◦

ويذهب الألوسي الى أن هؤلاء كانوا يعتقدون أن الرجل اذا خدرت رجله ذكر من يحب ، أو دعاه فيذهب خدرها ، وأن من اهتزت أو اختلجت عينه اذا قال : « أرى من أحب » فان كان غائبا توقع قدومه،وان كان بعيدا توقع قربه ــ فيذهب اختلاج واهتزاز عينه ◦

وفي حالة تعرض أحدهم للهوس أو الجنون يزعمون أنه مسكون بالأرواح الخبيثة لذلك لا بد من تنجيسه ووضع الأقذار عليه ، كخرقة من الحيض أو عظام الموتى ◦ واذا اعتقدوا أن الرجل

(١) الآلوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ٣ ص ٥ ◦

المريض مصابا بمسا من الجن عالجوه بالنُّشرة وهي ضرب من الرقية ٠ وكذلك كانوا يرون أن شرب دم الرئيس يساعد على الشفاء من الكلب ، وأن العاشق اذا سُقي من السلوانة يسلو ٠ والسلوانة حرزنة بيضاء شفافة ، أو هي كما يقول اللحياني ـ تراب من قبر يسقى به العاشق ٠

ومن خرزاتهم التي كانوا يمتدون بها (الخصمة) وهي خرزة خاصة بالدخول على السلطان أو الخصوم توضع تحت فص الخاتم ، أو في زر القميص ، أو في حمائل السيف ٠ وكانوا يرون أن تعليق الهنمة ، أو الفطسة ؛ أو القبلة ، أو الدردبيس ، يحبب الرجال في النساء ٠ وهذه كلها أنواع من الخرز ٠

وكانوا أيضا يعلقون التميمة ـ وهي خرزة خاصة ـ لمنع الآفات ، وخرزة أخرى سوداء تسمى الكحلة لدفع العين عن الصبيان ، وخرزة بيضاء تسمى القبلة تعلق في عنق الفرس من العين ٠

ولما ظهر الاسلام حمل حملة شعواء على هذه العادات والتقاليد البالية واعتبر أتباعها شركاء ، لأنه ينطوي على نسبة التأثير لغير الله ٠ وعلى

الرغم من ذلك لم يقض عليها القضاء التام ، بدليل استمرار بعضها أو ما يشبهها حتى عصرنا الحاضر ، حيث لا يزال كثير من العامة يستخدمون التمائم والرقى ، ويقيمون حفلات الزار ، ويعقدون جلسات للعلاج بالأرواح ٠

وعندما نحاول القاء نظرة خاطفة على هذه العادات والتقاليد من الزاوية النفسية بغض النظر عن حكم الشرع لا نستغرب حين نلمس نجاح بعضها ، لأن هذا النجاح ربما يعود الى الايمان العميق والثقة التامة بنجاحها ومنفعتها ٠ وهذا ما يعرف بعلم النفس الحديث « بالايحاء الذاتي » الذي يؤثر في النفس الانسانية تأثيرا لا شك في فاعليته ونجاحه ٠

ولعل تأثير الخرزات والعزائم والرقى والتمائم نابع من مدى شعور الفرد الخاص نحو نفسه ، وهذا الشعور يدفعه على سلوك مسلكا خاصا يحببه الى غيره فتحدث المحبة بالفعل ٠ وربما كان لتأثير العزائم والتمائم ونحوها في منع العين يعود الى وجودها معلقة حول الرقبة مثلا يوجه اليها الانظار، ويجعلها موضع الاهتمام فتنصرف اليها الأعين ٠

أما تأثيرها في ابعاد الآفات فلعله يعود الى أنها تكسب حاملها الثقة والايمان بالنفس ، وتمده بأفكار قوية مضادة للاصابة ، فتكون بمثابة قوة روحية ايمانية محصنة للجسم ، تقيه شر التأثر بالآفات .

الاسلام والعلاج بالقرآن :

عندما أطل الاسلام على العالم ينشر نوره السماوي الخالد ، أنكر كافة العادات والتقاليد التي كانت معروفة في المحيط الاسلامي ، وجاء بما هو أهم منها وأجل شأنا ذلك هو الاستشفاء بالقرآن الكريم الذي فيه يقول الله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا (١) » .

ويذهب بعض المفسرين الى أن الغرض من الشفاء في هذه الآية يعني الشفاء من الامراض الذي هو من خواص آيات الشفاء الست التي هي : «ويشف صدور قوم مؤمنين(٢)» و«شفاء لما في الصدور(٣)»

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٢ .
(٢) الآلوسي : تفسير روح المعاني ج ٤ ص ٥٧٥ . سورة التوبة آية ١٥ .
(٣) سورة يونس آية ٥٧ .

و « فيه شفاء للناس (١) » و « تنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين (٢) » و « اذا مرضت فهو يشفين (٣) » و « قل هي للذين آمنوا هدى وشفاء (٤) » ٠

قال السبكي وقد جربت كثيرا ٠ وعن القشيري أنه مرض له ولد أيس من حياته ، فرأى الله تعالى في منامه فشكا له سبحانه ذلك ، فقال له : اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه ، أو اكتبها في اناء واسقه فيه ما محيت به ، ففعل فشفاه الله ٠

ويقول الألوسي (٥) : « والاطباء معترفون بأن من الأمور والرقى ما يشفي بخاصية روحانية ٠ وكان ابن سيرين لا يرى بأسا بالشيء من القرآن يعلقه الانسان كبيرا أو صغيرا مطلقا ، وهو الذي عليه الناس قديما وحديثا في سائر الأمصار ٠

ويرى فريق من المفسرين أن « من » في الآية

---

(١) سورة النحل آية ٦٩ ٠
(٢) سورة الاسراء آية ٨٢ ٠
(٣) سورة الشعراء آية ٨٠ ٠
(٤) سورة الحج آية ٣٠ ٠
(٥) الالوسي : مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٤٣٣ ٠

الكريمة السابقة ليست للتبميض وانما هي للجنس كما في قوله تعالى : «فاجتنبوا الرجس من الأوثان» ٠ ومن هؤلاء المفسرين الامام فخر الدين الرازي ٠ وهاك ما قاله في هذا الصدد ، وهو قول يفيض معرفة وعلما وفصاحة وبلاغة ، يقول رحمه الله : « واعلم أن القرآن شفاء من الامراض الروحانية ، وشفاء أيضا من الامراض الجسمانية ، أما كونه شفاء من الامراض الروحانية فظاهر ، وذلك لأن الامراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة ، والأخلاق المذمومة ٠ أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة في الالهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر ، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب ، وابطال المذاهب الباطلة فيها ٠ ولما كان أقوى الامراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني » ٠

ويقول أيضا : « وأما الاخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها ، وتعريف ما فيها من المفاسد، والارشاد الى الاخلاق الفاضلة الكاملة والاعمال

المحمودة ، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض ، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الامراض الروحانية » ◦

وعن شفاء الامراض الجسمانية فيقول : « وأما كونه شفاء من الامراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الامراض ◦ ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلمسات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثارا عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد ، فلأن تكون قراءة القرآن العظيم ، المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه ، وتعظيمه الملائكة المقربين ، وتحقير المردة والشياطين سببا لحصول النفع في الدين والدنيا من باب أولى ◦ ويتأكد ما ذكرنا بما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله تعالى » ◦

وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أن بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والاخلاق الفاسدة ◦ والقرآن قسمان بعضهما ما يفيد الخلاص من شبهات الضالين وتمويهات المبطلين ، وهو الشفاء ، وبعضهما ما يفيد تعليم

كيفية اكتساب العلوم العالية ، والاخلاق الفاضلة ، التي بها يصل الانسان الى جوار رب العالمين ، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين ، وهو الرحمة ◦ ولما كان ازالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة لا جرم بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء ، ثم أتبعه بذكر الرحمة » ◦

ويضيف الى ذلك قوله : « واعلم أنه تعالى لما بين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بيَّن كونه سببا للخسار والضلال من حق الظالمين ، والمراد به المشركون ◦ وانما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضبا ، وحقدا وحسدا ، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم الى الاعمال الباطلة ، وتزيد في تقوية تلك الاخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم ◦ ثم لا يزال الخلق الخبيث النفساني يحمل على الاعمال الفاسدة ، والاتيان بتلك الاعمال يقوي تلك الاخلاق ◦ فبهذا الطريق يصير القرآن سببا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال والفساد والنكال » ◦

ونصوص الآيات الكريمة التي نطالعها في القرآن تكون لدينا فكرة واضحة يستشف منها أنها

قد تكون نعمة ورحمة لأبناء الانسانية من جهة ، وقد تكون نقمة لابناء البشر من جهة ثانية ،انسجاما مع وجهات نظرهم اليها وايمانهم بما تضمنته من أفكار وآراء ٠ فالمؤمنون يطمئنون الى كتاب الله ، الذي يبين لهم صحة الجسم والنفس والخلق ، والمشركون يكفرون به ، ولا ترتاح نفوسهم اليه ، فيسلكون تجاهه مسلك العناد والمكابرة ، وتتحرك في أنفسهم الاحقاد ، وتطغى عليهم انفعالاتهم المريضة ، فلا يزدادون الا ضلالا وفسادا ، ولا غرو فالنعمة للرجل خير ورحمة ، ولعدوه شر ونقمة ٠

ويروي لنا السمرقندي الحكاية التالية التي يستدل منها على صحة ما نوهنا عنه أعلاه قال (١):
« روى النظامي العروض السمرقندي عن الامام أبي بكر الدقاق قال : أصيب رجل من أعيان نيسابور بالقولنج سنة ٥٠٢ هجرية ، فاستدعاني لعلاجه ، ففحصته وشغلت بعلاجه ، وقمت بما فتح الله علي به من أنواع العلاج المناسبة لتلك الحالة ، ولكن لم تبد على المريض علامات الشفاء ، ومر على مرضه ثلاثة أيام ، وفي وقت العشاء

(١) كتاب جهار مقالة ص (٦٩ ، ٧٠) ٠

رجعت الى منزلي وأنا معتقد ان المريض سيقضي نحبه منتصف الليل ، ثم أخذتني سنة من النوم وأنا أشعر بالألم ، واستيقظت في الصباح وليس لدي شك في أن المريض قد قضى ، وصعدت الى سطح البيت ، ووليت وجهي نحو بيت المريض ، وأنصت ، فلم أسمع صراخا يدل على وفاته ، فقرأت سورة الفاتحة موليا وجهي نحو ذلك البيت ثم قلت : الهي ! وسيدي ! ومولاي ! لقد قلت في كلامك المبرم وكتابك المحكم : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ٠

ولقد حلت بي الحسرة على ذلك الشاب ، الذي يستمتع بأسباب النعيم ، وقد امتلأت نفسه آمالا وأماني ٠ ثم توضأت ودخلت المصلى ، وصليت النوافل ، واذا بشخص يقرع باب الدار ، فالتفت فاذا هو البشير يقول : افتح ! فقلت : ماذا حدث ؟ قال : لقد استراح المريض الآن ٠ فعلمت أن ذلك ببركة الفاتحة ، وأن هذه جرعة من الصيدلية الربانية ٠ فكانت هذه تجربة حسنة لي ٠ وقد وصفت هذه الجرعة عدة مرات فجاءت موافقة ، وتم بها الشفاء ٠ ولذا يجب أن يكون الطبيب صادق الاعتقاد ، وأن يولي أوامر الشرع ونواهيه ما تستحق من تعظيم واجلال » ٠

فلاسفة العرب والعلاج النفسي :

عندما كان الغرب يعيش في دوامة من الجهل والظلام الحالك ، كان الشرق يعيش في بحبوحة من الرقي والتمدن ، في ضوء العلوم والمعارف التي كانت تنتشر بين الأمم والشعوب الاسلامية ، حيث نبغ الفلاسفة ، وظهر الحكماء ، وبرع الاطباء ، فورثوا عن حق وصدق (أبقراط وجالينوس) بل فاقوا الكثيرين من أطباء اليونان ، وزادوا عليهم معرفة علمية وعملية ، مما لفت أنظار أطباء الغرب ، وبهر عقولهم في القرون الوسطى ، فراحوا يقتبسون من علومهم ويطورونها ابان النهضة الأوروبية الأولى .

والتاريخ الطبي يحدثنا بكل وضوح أن أطباء العرب قد امتهنوا العلاج النفسي ، وان بعض هؤلاء الاطباء قد مهر في مداواة مرضى العقول وفق أساليب علمية لا تقل في أهميتها عن الاساليب المستخدمة في هذا العصر المتطور .

وكان رائد هؤلاء وأبعدهم صيتا ، وأقواهم نفوذا ، النطاسي البارع ، والباحث القدير ، والحكيم الفيلسوف ، الشيخ الرئيس ، حجة الحق ،

أبو علي الحسين بن علي بن سينا ٠ الذي فاق الأولين والآخرين في مهنة الطب ومعالجة كافة أنواع الامراض التي كانت معروفة في عصره ٠

ويجمع الرواة والمؤرخين على أنه اشتغل في الطب وهو لا يزال في سن المراهقة لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ٠ ونجح نجاحا باهرا في معالجة كثير من المرضى الذين عجز الاطباء في عصره عن معالجتهم ، ولم يكن يعالج مرضى الاجسام فحسب ، ولكنه وفق في مداواة مرضى العقول بطرق عقلية ٠

ويقال أنه كانت له معرفة بأمراض العشق ووسائل مداواته ، ذلك ما أشار اليه بالذات (١) في كتابه القانون وأفرد له فصلا خاصا بالعشق حيث يقول : « العشق مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا يكون الانسان قد جلبه الى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل ، ثم أعانته على ذلك شهوته ٠ وعلامته غور العين ويبسها ، وعدم الدمع الا عند البكاء ، وحركة متصلة للجفن ضحاكة ، كأنه ينظر الى شيء لذيذ ، أو يسمع خبرا سارا ، أو أنه يمزح ٠

---

(١) ابن سينا : القانون ج ٢ ص ٧١ — ٧٢ ٠

ويكــون نفسه كثير الانقطــاع والاسترداد ، فيكون كثير الصعداء ،ويتغير حاله الى فرح وضحك ، أو الى غم وبكاء عند سماع الغزل ، ولا سيما عند ذكر الهجر والنوى ، وتكون جميع أعضائه ذابلة خلا العين ، فانها تكون ــ مع غور مقلتها ــ كبيرة الجفن سميته ، لسهره وتزفره المنجر الى رأسه ، ولا يكون لشمائله نظام ، ويكون نبضه نبضا مختلفا بلا نظام البتة ، كنبض أصحاب الهموم ٠ ويتغير نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصة ، وعند لقائه بغتة ، ويمكن من ذلك أن يستدل على المعشوق من هو اذا لم يعترف العاشق به ، فان معرفة معشوقه احدى سبل علاجه ٠ والحيلة في ذلك أن يذكر أسماء كثيرة تعاد مرارا ، وتكون اليد على نبض المريض ، فاذا اختلف بذلك اختلافا عظيما ، وصار شبــه المنقطع ، ثم عاودت وجربت ذلك مرارا علمت أنه اسم المعشوق ٠ ثم يذكر كذلك السكك والمساكن ، والحرف والصناعات ، والنسب والبلدان وتضيف منها الى اسم المعشوق ، ويحفظ النبض ، حتى اذا كان يتغير عند ذكر شيء مرارا جمعت من ذلــك خواص معشوقه من الاسم والحلة والحرفة ،وعرفته فانا قد جربنا ذلك ، واستخرجنا ما كان في الوقوف

عليه منفعة . ثم ان لم تجد علاجا الا تدبير الجمع بينهما على وجه يُحله الدين والشريعة فعلت (١) .

وقد رأينا من عاودته السلامة والقوة وعاد الى صحته ، وكان قد بلغ الذبول ، وجاوزه ، وقاسى الامراض العصبية المزمنة ، والحميات الطويلة ، بسبب ضعف القوى لشدة العشق ـ لما أحس بوصل من معشوقه بعد مطل ـ معاودة في أقصر مدة قضينا به العجب ، واستدللنا على طاعة الطبيعة للأوهام النفسانية » .

هذه الآراء التي أوردها ابن سينا حول العشق بطريقة فنية علمية استقاها من تجاربه الخاصة ، واستنتجها من خبراته الواسعة في الامراض النفسية وطرق معالجتها ، تعطينا الدليل الواضح على أن ابن سينا قد عرف الامراض النفسية وطرق معالجتها قبل أن يعرفها الغرب بقرون عديدة ، لذلك لا نستبعد أن يكون الغرب قد نقل آراء وأفكار ابن سينا هذه وطورها وبلورها حتى جاءت موافقة ومنسجمة مع تطور الطب في هذا العصر .

---

(١) ابن سينا : القانون في الطب جـ ٢ ص ٧٢ .

وليس قول ابن سينا عندما استدل على أسباب مرض العشق : « استدللنا على طاعة الطبيعة للأوهام النفسانية » سوى تطبيق عملي فعال في معالجة الامراض النفسية معالجة ناجحة وفعالة ، قد أتى على ذكر الكثير منها بعض المؤرخين ٠ وها نحن نورد رواية أخرى تثبت بما لا يقبل الجدل صدق ما نقول ٠

يحدثنا النظامي العروضي السمرقندي (١) أنه عرض على ابن سينا ابن اخت شمس المعالي قابوس ابن وشمكير أمير جورجان ، وقد أعيا الاطباء أمره ، فلما رآه وخاطبه في شأن مرضه تبين له أن مرضه هو الحب ٠ ولم يشأ المريض أن يبوح باسم محبوبته ٠ ولما علم ابن سينا أن شفاء المريض متوقف على معرفة محبوبته ، وازالة ما عنده من وجدانات وعواطف كامنة مرتبطة بها ، أخذ على نفسه أن يعرف اسمها بأية وسيلة ، فأمر باحضار سكان المدينة سنا ، فلما حضر قال له : أتعرف شوارع هذه المدينة وسكانها ؟ قال : نعم فأمره أن يذكر أسماء الشوارع شارعا شارعا ، وهو قابض

---

(١) السمرقندي : جهاز مقالة ص (٧٨ — ٨٠) طبعة ليدن سنة ١٩٠٩ ٠

على يد المريض ، ليتحقق من مقدار سرعة نبضه ٠ فلما ذكر اسم أحد الشوارع أسرع نبض المريض ، فأمر الرجل أن يذكر أسماء الشوارع المتفرعة من هذا الشارع ، فلما أتى الى اسم أحدها ازدادت سرعة النبض ثانية ، فأمر رجلا آخر أن يقص عليه أسماء البيوت الواقعة في هذا الشارع الصغير ، فلاحظ ابن سينا زيادة نبض المريض عند ذكر أحد البيوت ٠ فطلب من رجل ثالث أن يخبره بأسماء سكان هذا البيت من الفتيات ، فلما أتى اسم المحبوبة أسرع النبض ، فالتفت ابن سينا الى المريض ، وقال له : أليست هذه محبوبتك ؟

وبنتيجة البحث والاستقصاء علم ابن سينا أنها هي محبوبته ، وأنها ابنة خالته ، وأن الشاب كان يحبها حبا جما ، ولم يجرؤ أن يذيع سره خوفا من أهله ، ولكنهم لما علموا أن شفاءه في التزوج بها زفوها اليه ، فبرىء من مرضه وعاد الى حالته الطبيعية ٠

ومن الملاحظ كما ذكرنا سابقا أن ابن سينا قد أشار في كتابه القانون في الطب بصورة تفصيلية لطرق مداواة العشق نقدم منه ما يلي :

قال الشيخ الرئيس حول شفاء المرض بالعشق :
« ايقاعهم في خصومات وأشغال ومنازعات ، وبالجملة أمور شاغلة ، فان ذلك ربما أنساهم ما أدنفهم ، أو يحتال في تعشيقهم غير المعشوق ممن تحله الشريعة ، ثم ينقطع فكرهم عن الثاني قبل أن يستحكم ، وبعد أن يتناسوا الاول ◦ وان كان العاشق من العقلاء فان النصيحة والعظة له ، والاستهزاء به وتعنيفه ، والتصوير لديه أن ما به انما هو وسوسة وضرب من الجنون مما لا ينفع نفعا ، فان العلاج ناجح في مثل هذا الباب ◦

وأيضا تسليط العجائز عليه ليبغضن المعشوق اليه ، ويذكرن منه أحوالا قذرة ، ويحكين له عنه أمورا منفرا منها ، ويحكين له منه الجفاء الكثير ، فان هذا مما يسكن كثيرا ، وان كان قد يعزي آخرين (١) ◦

ومما ينفع في ذلك أن تحاكي هؤلاء العجائز صورة المعشوق بتشبيهات قبيحة ، ويمثلن أعضاء وجهه بمحاكيات مبغضة ، ويدمن ذلك ويسهبن فيه،فان هذا عملهن ومن أحذقفيه من الرجال◦◦◦

---

(١) ابن سينا : القانون في الطب جـ ٢ ص (٧١ ـــ ٧٢) ◦

وكذلك يمكنهن أن يجتهدن في أن ينقلن هـوى العاشق الى غير المعشوق بتدريج،ثم يقطعن صنعتهن قبل تمكن الهوى الثاني » ٠

ويضيف ابن سينا قائلا : « ومن الناس من يسليه اما الطرب والسماع ، ومنهم من يزيد ذلك في غرامه ٠ ويمكن أن يتعرف ذلك ، واما الصيد وأنواع اللعب والكرامات المتجددة من السلاطين ، وكذلك تنوع الغموم العظيمة ٠ وكلها مسل » ٠

واذا تصفحنا مؤلفات ابن سينا الطبية يتبين لنا بما لا يقبل الشك أنه كان من أبرع الاطباء الذين عالجوا مرض الماليخوليا الذي يقول عنه : « انه يعرف بتغير الظنون والفكر عـن المجرى الطبيعي الى النساء ، والى الخوف والرداءة ٠ فمن أعراضه الظاهرة : ظن رديء ، وخوف بلا سبب ، وسرعـة غضب ، وحب التخلي ، واختلاج ودوار ودوي ، فاذا استحكم فالتفزع ، وسوء الظن ، والغـم ، والوحشة ، والكرب ، وهذيان كلام ٠

وتكون هذه الأوصاف غير محدودة ٠ وبعضهم يخاف سقوط السماء عليه ، وبعضهم يخاف ابتلاع الأرض اياه ، وبعضهم يخاف الجن ، وبعضهم يخاف

الشيطان ، وبعضهم يخاف اللصوص ، وبعضهم يتقي ألا يدخل عليه سبع ٠ وقد يكون للأمور الماضية في ذلك تأثير ، ومع ذلك فقد يتخيلون أمورا بين أعينهم ليست ، وربما تخيلوا أنفسهم أنهم صاروا ملوكا أو سباعا أو شياطين ، أو طيورا ، أو آلات صناعية ٠ ثم منهم من يضحك ، ومن يبكي ، ومنهم من يحب الموت ، ومن يبغضه (١) » ٠

ومما يقترحه ابن سينا في معالجة هذا المرض قوله : « أن يشغل صاحبه بشيء كيف كان ، وأن يحضره من يحتشمه ومن يستطيبه ، ويشغل أيضا بالسماع والمطربات ، ولا أضر له من الفراغ والخلوة ٠٠٠ وكثيرا ما يفتم بعوارض تقع له ، أو يخاف أمرا فيشغل به عن الفكرة ويعاق عنها ، فان نفس اعراضهم عن الفكرة علاج لهم أصيل » ٠

ولا نستغرب مطلقا اذا كان ابن سينا يصف لمعالجة الامراض العصبية ما يصفه الاطباء المحدثين في هذه الايام ، كون ابن سينا قد سبق عصره في هذا المجال فوصف من الأدوية النافعة للامراض النفسية

---

(١) ابن سينا : القانون في الطب جـ ٢ ص ٦٥ ٠

ما يصفه في هذه الايام كبار المختصين في معالجة هذه الامراض لذلك يمكننا أن نقول عنه بأنه بالفعل رائد الطب النفساني في مختلف العصور ، مهما تطور هذا الطب ونجح في انقاذ المصابين بهذه الأمراض النفسانية ، وسيظل اسمه يتردد الى ما لا نهاية ۰

ولا بد لنا من ايراد هذه الحادثة التي تؤكد مهارة ابن سينا في معالجة أمثال هذه الامراض بالذات : « يحدثنا النظامي العروضي السمرقندي في كتابه « جهار مقالة » فيقول : أن فتى من بني بويه أصيب بالماليخوليا ، واشتدت به العلة حتى اعتقد أنه قد صار بقرة ، وكان يردد الصياح طول النهار ويقول : اذبحوني ، فان طعاما شهيا يمكن أن يتخذ من لحمي ۰ وقد امتنع عن الطعام والشراب فساءت حاله ، وخارت قواه ، ونحل جسمه ، وعجز الاطباء عن معالجته ۰

وكان الشيخ الرئيس ابن سينا عالي الشأن ، رفيع المنزلة ، يتولى الوزارة لعلاء الدولة البويهي ، ويقضي كثيرا من وقته في التدريس والتصنيف ، وقد انتشر في الآفاق ذكره ، وعلم الخاص والعام

بمهارته في التطبيب وعلاج مرضى المقول ، فهرع أهل المريض الى علاء الدولة ، وتوسلوا به لـدى ابن سينا ، وعرض الامير الحالة على الشيخ ، فقبل أن يتولى العلاج ، ثم قال : بشروا الفتى أن القصاب آت ليذبحه ° وعلم المريض بذلك فسر أيما سرور ° ثم ان ابن سينا دخل دار المريض ومعه رجلان وفي يده سكين ، وقال : أروني أين هذه البقرة كـي أذبحها ° فخار الفتى خوار البقر ، كأنما يريد أن يقول : هأنذا ° فقال ابن سينا : أخرجوه الى فناء الدار ، وشدوا وثاقه ، ثم اطرحوه أرضا ° وسمع المريض ذلك فأسرع الى فناء الدار ، واضطجع على جانبه الأيمن °

ولما شدوا وثاقه أقبل ابن سينا عليه ، وفي يديه سكينان يسن أحدهما على الآخر ، ثم أهوى على المريض وأمسك بجنبه ، كما هي عادة القصابين ، ثم قال : عجبا ! ان هذه البقرة (١) لهزيلة لا تصلح للذبح ، قدموا لها العلف ، وأطعموها حتى تسمن ° ثم نهض وخرج ، وقال للقوم : فكوا وثاقه ، وضعوا أمامه ما أصفه من طعام ، وقولوا له كل حتى تسمن

---

(١) جهار مقالة ص ٨٣ °

بسرعة ۰ ففعلوا وكان المريض يأكل كل ما يقدم له من الطعام ، على أمل أن يسمن ويصلح للذبح ، وقد أشرف الاطباء على علاجه طبقا لارشاد الشيخ، وفي شهر واحد صلحت حاله وبريء من مرضه » ۰

وللتأكيد على مدى مهارة ابن سينا في الطب وفي معالجة الناس يروي السمرقندي نقلا عن كتاب ابن سينا المبدأ والمعاد فيقول : « سمعت أن طبيبا بلغ لدى ملوك السامانيين منزلة رفيعة بحيث كان يسمح له بدخول حرم القصر الملكي ، واختبار بعض النساء ۰ ففي ذات يوم كان ذلك الطبيب جالسا في الحرم مع أحد هؤلاء الملوك في مكان لا يسمح لأحد من الرجال أن يدخله ، فطلب الملك الطعام ، فحضرت الجواري ، ولكن واحدة منهن ـ وكانت الطباخة ـ ما كادت ترفع المائدة من فوق رأسها حتى انحنى ظهرها وتقوس ، فاضطرت الى القاء المائدة على الارض ، وأرادت النهوض فلم تستطع ، فبقيت كما هي لا تبدي حراكا ، لأن ريحا غليظا حل بمفاصلها ۰ فالتفت الملك الى الطبيب ، وأشار اليه بأن يعالجها في الحال بأي طريقة ممكنة ۰

ولما لم يكن هناك أمل في المعالجة الطبيعية

المادية ، لبعد الأدوية ، وعدم امكان الحصول عليها بسرعة ، لم يكن بد من أن يفكر الطبيب في العلاج النفساني ، فأمر بأن يسقطوا الخمار عن رأسها ، ويعرو رأسها ووجهها ، وانما أمر بذلك لكي تستنكر هذا الاعتداء ، فتخجل ، وتتحرك حرارتها، فتبرأ من علتها ،

ولكن على الرغم من ذلك لم تتغير حالتها ، ففكر الطبيب في عمل ما هو أشنع مما تقدم ، فأمر أن يسقطوا سروالها ، ففعلوا ، فاعتراها الخجل ، وتجددت حرارة في بطنها حللت ذلك الريح الغليظ، فبرئت من اصابتها في الحال ، ووقفت معتدلة ، وعادت الى صحتها (١) » ،

ويروي لنا مؤرخ آخر هو ابن أبي أصيبعة حكاية أخرى فيقول (٢) : « في بعض الأيام تمطت حظية للرشيد ، ورفعت يدها ، فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها ، والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان ، فلا ينفع ذلك شيئا ، فقال الرشيد

---

(١) جهار مقالة ص ٧٣ ،
(٢) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ١ ص ١٢٧ ،

لجعفر بن يحيى البرمكي : قد بقيت هذه الصبية بعلتها ٠ فقال له جعفر : لي طبيب ماهر هو جبرائيل بن بختيشوع ، تدعوه وتخاطبه في معنى هذا المرض ، فلعل عنده حيلة في علاجه ٠ فأمر باحضاره ، ولما حضر قال له الرشيد : ما اسمك ؟ قال : جبرائيل ٠ قال : أي شيء تعرف من الطب ؟ قال : أبرد الحار ، وأسخن البارد ، وأرطب اليابس، وأجفف الرطب الخارج عن الطبع ٠ فضحك الرشيد ، وقال : هذا غاية ما يحتاج اليه في صناعة الطب ٠ ثم شرح له حالة الصبية فقال له جبرائيل : ان لم يسخط عليَّ أمير المؤمنين فلها عندي حيلة ٠ قال له الرشيد : ما هي ؟ قال : تخرج الجارية الى هنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده وتمهل عليَّ ، ولا تعجل بالسخط ٠ فأمر الرشيد باحضار الجارية ٠ وحين رآها جبرائيل أسرع اليها ونكس رأسه ، وأمسك ذيلها ، كأنه يريد أن يكشفها ، فانزعجت الجارية ، ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها ، وبسطت يدها الى أسفل ، وأمسكت ذيلها ٠ فقال جبرائيل : قد برئت يا أمير المؤمنين ٠ فقال الرشيد للجارية : ابسطي يدك يمنة ويسرة ٠ ففعلت ٠ فعجب الرشيد وكل من كان

حاضرا ٠ وأمر لجبرائيل في الوقت بخمسمائة درهم، وأحبه ، وجعله رئيسا على جميع الأطباء » ٠

ويذكر النظامي حادثة طريفة أخرى ولكن من نوع آخر دلت على مهارة الطبيب الرازي في معالجة الأمراض النفسية : « ان الأمير منصور بن نوح بن نصر الساماني أصيب بمرض شديد تمكن من نفسه ، وطال عليه الأمد ، فصار مزمنا ، وعجز الاطباء عن علاجه ٠ ولكنه لم يفلح بعد أن جرب معه عدة أدوية ٠ فجاء يوما الى الأمير ، وقال : أيها الأمير سأحاول غدا علاجك بطريقة أخرى ، ولكن هذا يستدعي أن تضحي بالحصان الفلاني من خيلك، وبالبغل الفلاني من بغالك ، وكان الحصان والبغل معروفين بشدة السرعة في العدو ٠

ولما كان الغد أخذ الرازي الأمير ، وذهب معه الى حمام خارج القصر ، وأعد الحصان والبغل للركوب اعدادا تاما ، وتركهما في حراسة خادمه عند باب الحمام ، وأمر ألا يدخل الحمام أحد من خدم الأمير أو حشمه أو غيرهم ، ثم أخذ الأمير وأجلسه في فناء الحمام المتوسط ، وأعطاه جرعة من شراب أعده ، وصب عليه ماء فاترا ، وتركه حتى

تتحرك الأخلاط التي بمفاصله ، ثم خرج ولبس ملابسه كاملة وأتى الى الأمير وفي يده سكين ، ووقف أمامه ، وأخذ يسبه ويلعنه ، ويكيل له السباب والشتائم كيلا ٠ ثم قال له : لقد أرسلت اليَّ خدمك وحشمك لارغامي على الحضور لمعالجتك ، فشدوا وثاقي ، وهددوني بالقتل ان لم أحضر معهم ، لست ابن زكريا ان لم أعاقبك على هذه الأعمال ٠ عند ذلك ثار الأمير ثورة عنيفة ، وبدت آثار الغضب عليه ، ونهض من مكانه ، وجلس على ركبتيه ، فسحب الرجل سكينه ، واقترب من الأمير ، وزاد في تهديده ووعيده ٠ فاشتد غضب الأمير ، وأخذ منه كل مأخذ ، فنهض ووقف على قدميه ٠ وما حركه بعد عجزه التام عن الحركة الا غضبه من الرازي ، وخوفه على حياته هو ٠ فما كان من الرازي ــ حين رأى الأمير وقد نهض على قدميه ــ الا أن ولى هاربا ، وانطلق يجري نحو باب الحمام ، فخرج وركب الحصان ، وأمر خادمه أن يركب البغل ، وانطلقا مسرعين جادين في السير ، لا يلويان على شيء ، حتى وصلا مرو ، ومن هناك أرسل الرازي الى الأمير خطابا يقول فيه : أطال الله بقاء الأمير ، وأدامه معافى البدن ، نافذ الامر ! ان

خادمكم المخلص قد شرع في علاجكم ، وبذل في سبيل ذلك قصارى جهده ، فرأى أن العلاج الطبيعي يطول أمده ، لقلة الحرارة الغريزية ، وضعف الجسم ضعفا تاما ، فعدلت عن ذلك ولجأت الى العلاج النفساني ، فحملتك الى الحمام ، وأعطيتك الجرعة ، وتركتك حتى تنضج الأخلاط في المفاصل، ثم أغضبتك بما فعلت ، كي أمد الحرارة الغريزية بمدد جديد تقوى معه على تحليل الأخلاط ٠ وليس من الحكمة ــ بعد أن حصل ما حصل ــ أن يكون بيني وبين الملك أي صلة (١) ٠

كتب الرازي هذا الخطاب وأرسله مع خادمه ، ولم يدر أن الملك قد برىء من مرضه ، وأن شفاءه كان سببا في سريان موجة من الغبطة والسرور بين سكان بخارى ٠ وقد سأل الأمير عما حدث من الرازي ، فأخبروه بذلك ، فأمر أن يبحثوا عنه ففعلوا ، ولكنهم لم يجدوه ، ولم يشعروا في اليوم السابع من تلك الحادثة الا وقد حضر خادم الرازي راكبا البغل ، ساحبا الحصان ٠ ولما مثل بين يدي الأمير قدم اليه الخطاب فقرأه وفهم الأمر ، فعذر الرازي ، وأمر أن تهدى اليه هدية سنية » ٠

---

(١) جهار مقالة ص (٧٥ ــ ٧٦) ٠

حكايات الطب والمعالجة المادية أو النفسية تملأ كتب التاريخ وتثبت بما لا يقبل الشك أن الاطباء العرب كانوا من أمهر الاطباء الذين عرفتهم العصور السابقة قدموا للانسانية خدمات كبرى لا تزال تحتل المكانة الأولى في صفحات تاريخ تطور وتقدم العلوم بين أبناء البشرية ٠

لقد عالجوا كافة الامراض النفسية والعصبية بوسائل وأدوية ناجعة تدل على مدى مقدرتهم في هذا المجال ، فلم يتأخروا عن ايجاد الدواء والعقار الناجع ، سواء كان المرض المعالج نفسانيا ، كما في مرض العشق والماليخوليا ، أم كان جسديا ، كما في آلام المعدة والمفاصل ٠

واذا ما تلفتنا الى الكتب الطبية التي ألفها ابن سينا والرازي وغيرهما من أطباء العرب والمسلمين ، تأكد لنا بأن هؤلاء الاطباء قد نجحوا في مداواة بعض الامراض العقلية بأدوية وعقارات اكتشفوها بأنفسهم من خلال تجاربهم ، وبذلك يكونون قد مهروا في المعالجة لعدد لا بأس به من الامراض ، سواء عن طريق العقاقير أو عن طريق المعالجة النفسية بشتى الطرق والوسائل العلمية

التي طبقوها قبل أن تصل هذه الوسائل الى الغرب بفترة طويلة لا تقل عن سبعمائة سنة ٠

ومن الملاحظ ان المعالجة النفسية لم تكن قائمة عند الاطباء العرب على أساس من التجربة فقط ، ولكنها قامت وفق أساليب نظرية فلسفية ، حيث أدركوا ما بين الجسم والعقل والنفس من علاقات وثيقة ، وعلموا ان التأثير في العقل أو النفس بواسطة الوهم أو الايحاء الذاتي يؤثر تأثيرا فعالا على جسم المريض ويقود هذا الجسم الى الشفاء ٠

وليس غريبا أن يحدثنا ابن سينا عن هذا الموضوع فيقول (١) : « تأمل حال المريض الذي توهم أنه قد صح ، والصحيح الذي توهم أنه مرض ، فان كثيرا ما يعرض من ذلك أن يكون اذا تأكدت الصورة في نفسه وفي وهمه ، انفعل منه عنصره فكان الصحة أو المرض ٠ ويكون ذلك أبلغ مما يفعله الطبيب بآلات ووسائط ٠

ولهذا السبب يمكن الانسان مثلا أن يعدو على جذع تبقى مطروحة في القارعة من الطريق ، وان

---

(١) ابن سينا : الشفاء جـ ١ ص (٣٤٤ — ٣٤٥) ٠

كانت موضوعة كالجسر وتحتها هاوية ، لم يجسر أن يمشي عليها دبيبا الا بالهوينا ، لأنه يتخيل في نفسه صورة السقوط تخيلا قويا ، فيجيب الى ذلك طبيعته وقوة أعضائه ، ولا يجيب ضده من الثبات والاستقرار ، فالصور اذا استحكم وجودها في النفس ، واعتقاد أنها يجب أن توجد فقد يعرض كثيرا أن تنفعل عنها المادة التي من شأنها أن تنفعل عنها » ٠

وهذا الرأي الذي قال به ابن سينا لا يختلف عما يقول به علماء النفس في هذه الأيام والذي يؤكد مدى تأثير النفس على الجسم الانساني ، أو بالأحرى تأثير الوهم أو الايحاء الذاتي في الصحة والمرض ٠ والمثال الذي أشار اليه هنا ابن سينا قد ضربه العديد من أطباء النفس المعاصرين وعلى رأسهم الطبيب النفساني كوي الذي قدمه ليثبت مدى تأثير الوهم في قوة الارادة ٠

وكذلك يقدم لنا طبيب آخر هو ابن مسكويه مثالا لا يقل في أهميته عن مثال ابن سينا هذا ، فلنستمع اليه ماذا يقول (١) : « ان حذاق الاطباء

---

(١) ابن مسكوية : تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق ص ١٤٥ .

لا يقدمون على علاج مرض جسماني الا بعد أن يعرفوه ، ويعرفوا السبب والعلة فيه ، ثم يرومون مقابلته بأضداده من العلاجات ، ويبتدئون من الحمية والأدوية اللطيفة ، الى أن ينتهوا في بعضها الى استعمال الاغذية الكريهة ، والادوية البشعة ، وفي بعضها الى القطع بالحديد ، والكي بالنار ٠

ولما كان النفس قوة الهية غير جسمانية ،وكانت مع ذلك مستعملة لمزاج خاص ، ومربوطة رباطا طبيعيا الهيا ، لا يفارق أحدهما صاحبه الا بمشيئة الله عز وجل ، وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغير بتغيره ، فيصح بصحته ، ويمرض بمرضه ٠

وذلك أنا كما نرى المريض من جهة بدنه ـ لا سيما ان كان سبب مرضه أحد الجزأين الشريفين أعني الدماغ أو القلب ـ يتغير عقله ويمرض حتى ينكر ذهنه ، وفكره ، وتخيله ، وسائر قوى نفسه الشريفة ، ويحس هو من نفسه بذلك ، كذلك أيضا نجد المريض من جهة نفسه ـ اما بالغضب ، واما بالحزن ، واما بالعشق ، واما بالشهوات الهائجة ـ تتغير صورة بدنه حتى

يضطرب ويرتعد ، ويصفر ويحمر ،ويسمن ويلحقه ضروب التغير المشاهدة بالحس » •

هذه الآراء التي أدلى بها ابن مسكويه لا تختلف في مضمونها عما ذهب اليه ابن سينا حول العلاقة ما بين الجسم والعقل والنفس ، حيث يتأثر كل منهما بالآخر في حالتي الصحة والمرض • ولم يكن الغزالي في أفكاره حول هذا الموضوع بعيدا عما ذهب اليه الآخرون حيث يقول (١) : « الخاصة الأولى من خواص المعجزات والكرامات في قوة النفس في جوهرها بحيث يؤثر في هيولى العالم بازالة صورة وايجاد صورة ، بأن يؤثر في استحالة غيرها ويؤثر في استحالة الهواء غيما ، ويحدث مطرا كالطوفان •

أو ما يجري مجرى ذلك ، وهو ممكن ، فقد ثبت في الالهيات أن الهيولى مطيعة للنفوس ، ومتأثرة بها ، وأن هذه الصور تتعاقب عليها من آثار النفوس الفلكية ، وهذه النفس الانسانية من جوهر تلك النفوس وشديدة الشبه بها • فكذلك نفس الانسان تؤثر في هيولى العالم ، ولكن الغالب عليها أن يقتصر تأثيرها على عالمها الخاص ، وذلك بدنها •

وكذلك اذا حصلت في النفس صورة مكروهة استحال مزاج البدن ، وحدثت رطوبة العرق ، واذا حدثت في النفس صورة الغلبة حمي مزاج البدن واحمر الوجه ، وهذه الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة التي تحدث في البدن من هذه التصورات ليست عن حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة أخرى ، بل عن مجرد التصور (١) » ٠

العرب عالجوا الانفعالات النفسية :

اذا كان حكماء العرب قد منحوا الجسم الانساني المزيد من الاهتمام ، وحذقوا في معالجة أمراضه ، أوجدوا لهذه المعالجة الأدوية والعقاقير ، فانهم لم يهملوا أيضا مداواة الانفعالات النفسية والعقلية ، فدرسوها دراسة جدية ، وأوجدوا لها الأدوية والعقاقير ، بعد أن عرفوا أسبابها ، وعللها ، وتفاعلاتها ، واستجاباتها ، معرفة لا تقل عنها في هذه الأيام المتطورة ٠

ولا يغرب عن بالنا أن فلاسفة العرب قد وجهوا جل اهتمامهم للعناية بالانفعالات النفسية الخلقية

---

(١) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٤ ٠

المرتبطة بالغضب ، والحقد ، والحسد ، والبخل ، والشره ، والرياء ، والكبر ، والخوف ، والقلق ، والغرور والجبن ۰ ويكاد يكون كل ما أشاروا اليه من علاج لهذه الانفعالات كافيا شافيا لغليل العلماء والباحثين ۰ وخاصة مـــا ذكره ابن سينا ، وابن مسكويه ، والراغب الاصفهاني ، والغزالي ، ومحي الدين بن عربي ، وغيرهم كثيرين ۰

وعلى سبيل المثال لا الحصر نقدم بعض الأمثلة من هذه الآراء للاستدلال على ما قاله هؤلاء الحكماء حول انفعال الغضب باعتباره مقدمة الانفعـــالات المضرة بالجسم والعقل ، المبعدة للسلوك عن جادة الصواب ۰

يقول ابن مسكويه في بيان تأثير الغضب في الجسم والعقل (١) : « الغضب في الحقيقـــة هو حركـــة للنفس يحدث لها غليان دم القلب شهوة للانتقام ، فاذا كانت هذه الحركة عنيفة أججت نار الغضب وأضرمتها ، فاحتـــد غليان دم القلـــب ، وامتلأت الشرايين والدماغ دخانا مظلما مضطربا يسوء منه

(١) ابن مسكوبة : تهذيب الاخلاق ص (١٦١ ١٦٢) ۰

حال العقل ، ويضعف فعله ، ويصير مثل الانسان عند ذلك ــ على ما حكته الحكماء ــ مثل كهف مليء حريقا ، وأضرم نارا ، فاختنق فيه اللهب والدخان ، وعلا التأجج والصوت المسمى وحي النار ، فيصعب علاجه ، ويتعذر اطفاؤه ، ويصير كل ما يدنيه للاطفاء سببا لزيادته ، ومادة لقوته ، فلذلك يعمى الانسان عن الرشد ، ويصم عن الموعظة ، بل تصير المواعظ في تلك الحال سببا للزيادة في الغضب ، ومادة اللهب والتأجج ، وليس له في تلك الحال حيلة ، وانما يتفاوت الناس في ذلك حسب المزاج » .

وينتقل ابن مسكويه ليحدثنا عن مدى تأثير الغضب في السلوك الانساني فيقول (١) : « فان صاحب هذا الخلق الذي ذممناه تصدر عنه أفعال رديئة كثيرة يجور فيها على نفسه ، ثم على اخوانه، ثم على الأقرب فالأقرب من معامليه ، حتى ينتهي الى عبيده والى حرمه ، فيكون عليهم سوط عذاب ، ولا يقيلهم عثرة ، ولا يرحم لهم عبرة ــ وان كانوا براء من الذنوب ، غير مجترمين ولا مكتسبين سوءا ،

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الاخلاق ص ١٦٣ .

بل يجرم عليهم ، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقا اليهم ، حتى يبسط لسانه ويده ، وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم ، بل يذعنون له ، ويقرون بذنوب لم يقترفوها ، استكفافا لشره ، وتسكينا لغضبه ، وهو مع ذلك مستمر على طريقته ، لا يكف يدا ولا لسانا .

وربما تجاوز في هذه المعاملة الناس الى البهائم التي لا تعقل ، والى الأواني التي لا تحس ، فان صاحب هذا الخلق الرديء ربما قام الى الحمار والبرذون ، أو الى الحمام والعصفور ، فيتناولها بالضرر والمكروه ، وربما عض القفل اذا تعسر عليه ، وكسر الآنية التي لا يجد فيها طاعة لأمره ، وهذا النوع من رداءة الخلق مشهور في كثير من الجهال ، يستعملونه في الثوب،والزجاج،والحديد ، وسائر الآلات .

أما الملوك من هذه الطائفة فيغضبون على الهواء اذا هب مخالفا لهم ، وعلى القلم اذا لم يجر على رضاهم ، فيسبون ذاك ، ويكسرون هذا . وكان بعض من تقدم عهده من الملوك يغضب على

البحر اذا تأخرت سفينته فيه ، لاضطرابه وحركة الأمواج حتى يهدده بطرح الجبال فيه وطمه بها ◦ وكان بعض السفهاء في عصرنا يغضب على القمر ، ويسبه ، ويهجوه بشعر له مشهور ، وذلك أنه كان يتأذى به اذا نام فيه ◦

وهذه الأفعال كلها قبيحة ، وبعضها مع قبحه مضحك ، يهزأ بصاحبه ، فكيف يمدح بالرجولية والشدة وشرف النفس وعزتها ، وهي بالمذمة والفضيحة أولى منها بالمديح ؟ وأي حظ لها في العزة والشدة ؟ ونحن نجدها في النساء أكثر منها في الرجال ، وفي المرضى أقوى منها في الأصحاء ، ونجد الصبيان أسرع غضبا وضجرا من الرجال ،والشيوخ أكثر من الشبان ◦

ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره ، فان الشره اذا تعذر عليه ما يشتهيه غضب ، وضجر على من يهيء له طعامه وشرابه ، من نسائه ، وأولاده وخدمه ، وسائر من يلابس أمره ◦والبخيل اذا فقد شيئا من ماله تسرع بالغضب على أصدقائه

ومخالطيه ، وتوجهت تهمته الى أهل الثقة من خدمه ومواليه (١) ٠

وهؤلاء الطبقة لا يحصلون من أخلاقهم الا على فقد الصديق ، وعدم النصيح ، وعلى الذم السريع، واللوم الوجيع ٠ وهذه حال لا يتم معها غبطة ولا سرور ، وصاحبها أبدا محزون كئيب ، منغص بعيشته ، متبرم بأموره ، وهي حال الشقي المحروم ٠

أما أسباب الغضب المولدة له فهي العجب ، والافتخار ، والمراء واللجاج ، والمزاح ، والتيه ، والاستهزاء ، والغدر ، والضيم ، وطلب الأمور التي فيها لذة ، ويتنافس فيها الناس ، ويتحاسدون عليها ، وشهوة الانتقام غاية لجميعها ، لأنها بأجمعها تنتهي اليه ٠

ومن لواحقه الندامة ، وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلا وآجلا ، وتغير المزاج ، وتعجل الألم ، وذلك أن الغضب جنون ساعة ، وربما أدى الى التلف باختناق حرارة القلب فيه ، وربما كان سببا لأمراض صعبة ، مؤدية الى التلف (٢) ٠

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الاخلاق ص ١٦٨ .
(٢) ابن مسكويه : تهذيب الاخلاق ص ١٦٢ .

ومن لواحقه أيضا مقت الاصدقاء ، وشماتة الأعداء ، واستهزاء الحساد الأرذال من الناس . ولكل واحد من هذه الاسباب علاج يبدأ به حتى يقلع من أصله . فاذا تقدمنا لحسم هذه الأسباب واماطتها فقد أوهنا قوة الغضب وقطعنا مادتها ، وأمنا غائلتها » .

ونلاحظ أن الغزالي عندما يتعرض لهذه الناحية الاخلاقية وانفعالاتها يعتمد على ما يقول الحديث الشريف ، وعلى ما ورد في كتاب الله الكريم ، وأقوال الصحابة والصالحين وأعمالهم ، وهو يكثر من التفصيل والاستشهاد عندما يتحدث عن الغضب وأسبابه فيقول : أما بعد : فان الغضب شعلة نار ، اقتبست من نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة . وانها لمستكنة في طي الفؤاد ، استكنان الحجر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين ، في قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج النار من الحديد . ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وربما هلك من هلك ، وفسد من فسد (١) » .

وحديث الغزالي عن آثار الغضب لا يختلف

---

(١) الغزالي : احياء علوم ج ٣ ص ١١٣ .

كثيرا عمـا يذهب اليه ابـن مسكويه لولا بعض التفصيل والاستشهادات (١) : « ومهما اشتدت نار الغضب ، وقوي اضطرامها أعمت صاحبها ،وأصمته عن موعظة ، فاذا وعظ لم يسمع ، بل زاده ذلك غضبا ٠ واذا استفاء بنور عقله ، وراجع نفسه لم يقدر ، اذ ينطفيء نور العقل ، وينمحي في الحال بدخان الغضب ، فان معدن الفكر الدماغ ٠ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم في الدماغ ، يستولي على معادن الفكر ، وربمـا يتعدى الى معادن الحس ، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ٠

ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيـه نار فاسود جوه ، وحمى مستقره ، وامتلأ بالدخان جوانبه ، وكان فيـه سراج ضعيف فانمحى ، أو انطفأ نوره ، فلا تثبت فيه قدم ، ولا يسمع فيه كلام ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على اطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل ينبغي أن يصير الى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق ٠ فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدمـاغ ٠ وربمـا تقوى نـار

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين جـ ٣ ص ١١٩ .

الغضب ، فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا ، كما تقوى النار في الكهف فينشف ، وتنهد أعاليه على أسفله » ٠

ومن علامات الغضب عند الغزالي تغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ٠ ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته ، لسكن غضبه، حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته ٠ وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فان الظاهر عنوان الباطن ، وانما قبح صورة الباطن أولا ، ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فهذا أثره في الجسد (١) ٠

وينتقل بعدها الغزالي الى الحديث عن وسائل معالجة ومداواة الغضب فيرى أن علاج الغضب يكون قبل وقوعه بمداواة أسبابه ، وبعد وقوعه بتهدئة النفس بالفكر والعمل ٠ وللتخلص من الغضب

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ٣ ص ١١٦ ٠

يجب ازالة الاسباب بأضدادها ، فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك، وتزيل الفخر بأنك من جنس غيرك ، اذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد ٠ وانما الفخر بالفضائل ، وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه ٠ وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والاخلاق الحسنة ، والعلوم الدينية ٠ وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن ايذاء الناس ، وصيانة النفس عن أن يستهزأ بك ٠ وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح ، وصيانة النفس عن مر الجواب ٠ وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الاستغناء ، وترفعا عن ذل الحاجة ٠

وحسب رأي الغزالي كل خلق من هذه الأخلاق يفتقر في علاجه الى رياضة وتحمل مشقة ٠ وحاصل رياضتها يرجع الى معرفة غوائلها ، لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة ضدادها مدة طويلة ، حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا

من الغضب الذي يتولد منها ° ثم يخلص الغزالي من مداواة الغضب واصفا لـه العـلاج الشافي الكافي فيقول : « انما يعالج الغضب عند هيجانه بممجون العلم والعمل » °

وفي اعتقادنا هذا العلاج يكون ناجما شافيـا لتغيير الصورة الظاهرية والباطنية ، لأن كل انفعال مهما كانت أسبابه ونتائجه تصحبه حالات جسمانية ظاهرية وباطنية تلائمه ، وأن تغيير هذه الحالات قد يؤدي بالفعل الى ضعف الانفعال واخماد ثورته °

وقبل أن نختم حديثنا الاستعراضي هذا عـن الغضب نرى من واجبنا أن نورد بعض ما قالـه الشيخ محي الدين بن عربي حول مرض الغضب ، حيث يقول (١) : « فأما النفس الغضبية فيشترك فيها أيضا الانسان وسـائر الحيوان ، وهي التي يكون بها الغضب والجراءة ومحبة الغلبة ° وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية ، وأضر لصاحبها اذا ملكته وانقاد لها ، فان الانسان اذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه ، وظهر خرقه ، واشتد حقده ،

(١) ابن عربي : مجموعة الرسائل ص ١٣٥ .

وعدم حلمه ووقاره ، وقويت جراءته ، وأسرع عند الغضب الى الانتقام والايقاع بمغضبه ، والوثوب على خصومه ، فأسرف في العقوبة ، وزاد في التشفي، فأكثر السب وأفحش فيه •

فاذا استمرت هذه العادات بالانسان ، كان بالسباع أشبه منه بالناس ، وربما حمل قوما على حمل السلاح ، وربما أقدموا على القتل والجراح ، وربما وثبوا بالسلاح على اخوانهم وأوليائهم وعبيدهم وخدمهم عند الغضب من اليسير من الأمور • وربما غضب من هذه الحالة ولم يقدر على الانتقام من خصمه فيعود بالضرب والألم على نفسه • ومنهم من يلطم وجهه ، وينتف لحيته ، ويعض يده ويسب نفسه ، ويذكر عرضه » •

وبعد أن يفصّل ابن عربي الغضب تفصيلا دقيقا يذهب الى أن من ساس نفسه الغضبية وأدبها وقمعها كان رجلا حليما وقورا عادلا محمود الطريقة ، فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غيظهم وسفاهة بعض هو اختلاف أحوال النفس الغضبية، اذا كانت بعضهم مذللة مقهورة كان صاحبها

حليما وقورا (١) ، واذا كانت مهملة مستولية على صاحبها كان صاحبها غضوبا سفيها ، ظلوما غشوما ◦ واذا كانت متوسطة كان صاحبها متوسط الحال ، رتبته في الحلم كرتبة النفس الغضبية ، حتى تنقاد له ، فيملكها ويستعملها في المواضع التي يجب استعمالها فيها ◦

ويرى ابن عربي أن لهذه النفس فضائل محمودة ، وذلك لأن الأنفة من الامور الدنية ، ومحبة الرياسة الحقيقية ، وطلب المراتب العالية من الاخلاق المحمودة ، وهي من أفعال النفس الغضبية ◦ فاذا ملك هذه النفس بالتهذيب والتأديب واستعملها في الأمور الجميلة ، وكفها عن الافعال المكروهة كان حسن الحال محمود الطريقة ◦

ويصف ابن عربي علاج النفس الغضبية فيقول (٢) : « فأما النفس الغضبية فان الطريق في قمعها وتذليلها هو أن يصرف الانسان همه الى أن يتفقد السفهاء الذين يسرع اليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدتهم وتسفههم على خصومهم ،

---

(١) ابن عربي : مجموعة الرسائل ص ١٣٧ .
(٢) ابن عربي : مجموعة الرسائل ص ١٦٥ .

وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم ، فانه يشاهد منهم منظرا شنيعا ، يأنف منه الخاص والعام . فان تذكر ما شاهد في أوقات غضبه ، وعند جنايات خدمه وعبيده ، وعند ذنوب اخوانه وأودائه ، وفي جميع محاوراته ومعاملاته ، ما كان استقبحه من السفهاء انكسرت بذلك ثورة غضبه ، وأحجم عما يهم بالاقدام عليه من السب والوثوب ، فان لم يكف بالكلية أقطر ، ولم ينته الى غاية الفحش » .

المعالجة النفسانية وتطورها في أوروبة :

التاريخ يذكر لنا ان المعالجة النفسانية لم تتطور ، وتتقدم ، وتتبلور ، في أوروبة ، وفق الأسس والأساليب العلمية الا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وذلك عندما ظهر الحكيم النفساني في فيينا الدكتور « مسمر » الذي كان يرى ما يراه البابليون من قبل أن الأجرام العلوية والكواكب تؤثر على سلوك وانفعالات الانسان وغيره من الكائنات الحية ، بقوة مغناطيسية تشع منها موجات متلاحقة ، ما تزال سائرة في طريقها حتى تصل الى الأجسام الارضية ، ومنها الانسان ، فتحتل جسمه ، وتؤثر في حياته العقلية والجسدية .

ويذهب مسمر هذا الى أنه اذا كان بالامكان حبس هذه القوة المغناطيسية في المريض ، ومنعها من الانبثاق ، أو اذا كان بالامكان توجيه موجات مغناطيسية قوية مصطنعة الى جسمه ، فانه قد يبرأ مما يصيبه من أمراض ٠

ويبدو أن مسمر قد استعان بهذه الطريقة على معالجة بعض المرضى،وشفاهم من أمراضهم العقلية النفسية الحادة ، وكان يستخدم في علاجه قضبانا من الحديد الممغطس يلمس بها جوانب المريض ، ثم استخدم بعد ذلك أنامله للغرض نفسه ٠

ويقال أن ملك فرنسا لويس الخامس عشر عندما بلغته أخبار مسمر استدعاه الى باريس حيث بلغ شهرة عظيمة ، وتعلقت بـه الجماهير ، وآمنوا بأسلوبه في المداواة والمعالجة ٠ وفي سنة ١٨١٤ ميلادية وصل الى باريس قادما من الهند راهب برتغالي يسمى أبي فاريا ، فافتتح عيادة لمداواة الأمراض النفسية بواسطة التنويم الاصطناعي ، وراح ينوم المرضى بكلمة واحدة يكرر النطق بها وهي : « نَم » ٠ ورغم كل هذا لم يصل الى ما وصل اليه مسمر ٠

وفي عام ١٨٤١ ميلادية اتجهت المعالجة اتجاها جديدا على يد العالم النفسي « بريد » الانجليزي ، الذي قام بدراسة طريقتي فاريا ومسمر دراسة عميقة جدية خرج منها بأنه لا ينبغي على المعالج أن يستعمل المغناطيس الصناعي بل يكفي أن ينوم المريض بأي وسيلة من الوسائل ، فقط عليه أن يحصر انتباه المريض بالنظر الى جسم مشع مثلا مدة طويلة فيصل الى هذه النتيجة ۰ وقد عالج بريد بهذه الطريقة كثيرا من الامراض كالشلل ،والصرع، والتهاب العمود الفقري ، والصمم ، وقصر النظر ، وبعض أمراض القلب ۰ وقرر بعد تجارب طويلة قام بها أن التنويم ليس الا نوعا من أنواع الايحاء ، وبذلك أثبت تأثير الايحاء بعد التنويم في معالجة الأمراض العقلية والجسدية ۰

ويظهر أن صناعة التنويم المغناطيسي قد بلغت الأوج على يد العالم النفسي الفرنسي «شاركوت» الذي عارض أساليب بريد في المعالجة ، وقرر أن التنويم في الواقع يؤثر مباشرة على الاعصاب ، وأن النوم حينئذ حالة من حالات الصرع ، فهو حالة مادية ليس للناحية العقلية فيها شأن يذكر ۰

وبعد فترة ظهرت مدرسة نانسي بفرنسا ،

وعلى رأسها « ليوبولت » و « بيرنهايم » فأقرت بعد الدراسة والبحث رأي ونظرية « بريد » ٠ ومنذ ذلك الوقت أصبحت المعالجة المغناطيسية وسيلة علمية مبنية على أسس نفسية تعني الايحاء أو الاستهواء ٠ ويقال ان « بيرنهايم » كان أول من لفت الانظار الى قوة الايحاء الذاتي قياسا على قوة الايحاء الخارجي ، وأنه قرر أنه بالامكان مداواة جميع أمراض الانسان بالايحاء الذاتي أو الخارجي ٠

ولما أطل العالم النفسي (دي بوا) السويسري ، جعل العلاج النفسي بالايحاء والتحريض صناعة يعتز بها ، ونصح الاطباء أن يدرسوا بجدية علم النفس ، وأن يحاولوا تطبيق ما يمكن تطبيقه من أساليب أثناء معالجة المرضى ٠ ثم ظهر عالم نفسي آخر في فرنسا هو اميل كوى الذي حاول فرض قوة تأثير الايحاء الذاتي أو الخارجي في الانفعالات والسلوك ٠ وقد عالج بصورة مجدية وفعالة المرضى بالشلل ، والرثية ، وضيق التنفس ٠

ورغم ظهور هؤلاء العلماء في أوربة فقد ظهر أيضا علماء آخرين في أمريكا حيث نشطت الحركة العلاجية عن طريق العلماء المسيحيين ، ويرجع

الفضل في نشأة هذه الحركة وتطورها الى السيدة ادي التي أصيبت بمرض عصبي أدى الى دفعها لكتابة انفعالاتها واستجاباتها بأسلوب تجريبي ، خاصة عندما كانت تدخل في حالة غيبوبة تشبه حالة النوم ٠

ولما تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها زلقت رجلها على الجليد في فصل الشتاء ، فوقعت على الارض مغميا عليها ، فأصيبت برضوض في ساقها ، وانتهت اصابتها الى مرض الباراپليجيا ، الذي يعني الشلل في العمود الفقري ٠ وقد بذل الأطباء جهودا مضنية لمالجتها ولكنهم لم يفلحوا ، وبقيت في فراشها عدة سنوات في حالة مزرية من القنوت واليأس ٠

وعندما أصبحت في الاربعين من عمرها حدث لها حادث غير مجرى حياتها ، وفي الوقت نفسه بدل كيانها العقلي تبديلا تاما ، ذلك عندما أفلح الطبيب النفسي كويمبي في علاجها علاجا نفسيا سريعا هينا ذهب بمرضها ويسر لها الشفاء التام ، وكان هذا الملاج مبدأ تلك الحركة الملاجية الدينية التي حمل لواءها رجال العلم المسيحي ٠

ومما يروى عن هذا الطبيب (كويمبي) أنه كان في أول أمره صانع ساعات ، عرف بحدة الذكاء، وقوة الملاحظة،واشترك في جلسات تنويم مغناطيسي كان يتزعمها منوم فرنسي في مدينة (بورت لاند) ٠ ثم أخذ (كويمبي) نفسه يمارس التنويم المغناطيسي غير أنه لاحظ في أثناء تلك الجلسات ، وعند ممارسته للتنويم ، أن النصائح التي كان يلقيها المنوم على النائم المريض كانت مقصورة على غرس فكرة الشفاء في نفس المريض ، وأن هذه الفكرة وحدها كفيلة بسير المريض نحو الشفاء ٠ أما ما كان يتناول من أدوية فعديم القيمة ٠

ولقد كانت هذه الملاحظة سببا في أن يغير (كويمبي) طريقته في المعالجة ، وأن يعنى أولا وقبل كل شيء بأن يبث في روح المريض الثقة بالنفس ، كي ينزع من ذهنه آثار الخوف من المرض وهنا ظهرت فكرة « العلاج النفسي » أي العلاج بالايحاء المجرد بدون استخدام العقارات والادوية ٠

ويبدو أن هذه الطريقة العلاجية قد أحدثت ردة فعل عند السيدة « ايدي » فتحمست لها ، وقررت أن تعمل مع الدكتور كويمبي ، وتساعده في معالجة

المرضى . ثم عكفت على دراسة بعض مسودات مشوهة ، كان كويمبي قد كتبها في موضوعي الدين والعلاج النفساني . وبعد وفاة كويمبي استولت على مذكراته ، وشرعت في تنقيحها والتعليق عليها، وأذاعت في الناس وفي كل مكان أنها تحمل رسالة عظيمة تريد أن تبلغها للعالم .

ولما لم تصادف نجاحا في ممارسة العلاج النفسي الذي رفعت من شأنه ، شاءت أن تقف عند حد شرح نظريات كويمبي ، وتترك عملية التطبيق الفعلي لغيرها من العلماء . وبعد جهاد طويل نجحت في تأسيس مدرسة طبية في بلدتي لين وماس ، ثم في مدينة بوسطن . وأخيرا انتهى بها الأمر أن قامت بحركة جديدة عرفت بحركة الفكر الحديث شرحت فيها (ايدي) مذهبها الذي نال المزيد من العناية والانتشار .

ومما تقوله (ايدي) في كتابها المعروف (بالعلم والصحة) والذي طبع أكثر من مائتي طبعة : ان كتابها الذي ألفته في العلم الحديث هو الحق المطلق، وانه هو روح الفلسفة الربانية التي لا فلسفة غيرها ، وأنه حينما يتكلم الرب فانها تستمع لقوله .

غير أن العالم النفسي جانيه يحمل على ما ورد في هذا الكتاب ويرى انه كتاب يصعب على الانسان أن يقرأه ويفهمه ، لأن أسلوبه غريب غامض ، لا يتضمن الا بعض مباديء فلسفية عادية ساذجة ، شرحت مرارا وتكرارا ، بعبارات مليئة بالاستعارات والمجازات ٠

المداواة الطبيعية :

اذا كان العلماء المسيحيون قد حظروا تناول العقاقير والأدوية المادية ، وحرموا على المرضى تناولها ، ودعوا الى المعالجة بالوسائل النفسية والروحانية الصرفة ، فقد قام فريق آخر من علماء النفس الى المطالبة بضرورة معالجة الامراض العقلية والشذوذ الخلقي والنفسي بواسطة العقاقير والأدوية التي يصفونها للمريض ، كونها تؤثر في الجسم أولا ، وتؤمن له الشفاء من علله وأمراضه ، ثم يصل تأثيرها وفاعليتها الى العقل والنفس فتزول الأمراض ويتم الشفاء التام ٠

وهم يرون ان الاضطرابات العقلية على اختلاف أنواعها ، ليست سوى اضطرابات في سلوك الانسان وانفعالاته ، وما سلوك الانسان وانفعالاته الا

مجموعة من العمليات التي تصدر منه أو فيه ، وبعض هذه العمليات تقوم بها الاطراف أو الفم أو اللسان ، وبعضها تقوم به الاجهزة الباطنية ، فكيف يمكن أن نعترف بأن العمليات الخارجية ، التي تصدر عن المصاب بمرض عقلي نتيجة لحركة أطرافه أو لسانه أو شفتيه ـ مستقلة استقلالا تاما عن العمليات الباطنية التي تحدث في الجسم نفسه ـ ذلك الجسم الذي يبحث في وظائفه علم وظائف الأعضاء ؟ .

أليس النجاح في انسجام العمليات الخارجية مع البيئة الخارجية ضروريا للوصول الى الحياة السعيدة الهنية ؟ لأن هذا النجاح بعرفنا يتوقف على وجود هذا الانسجام بين العمليات الخارجية ، وبين العمليات الباطنية التي تقوم بها الاجهزة الداخلية . والصحة العقلية تتوقف على هذين الأمرين ، أي على انسجام العمليات والانفعالات الخارجية ، وعلى توافق الاعمال الخارجية مع الأعمال والانفعالات الباطنية .

واذا ما نظرنا الى الخلل الذي يصيب السلوك الخارجي نلاحظ أنه متأتي عن خلل في الاجهزة

الباطنية ، واذا لاحظنا شذوذا في السلوك تبين لنا أنه يعود الى نقص في الحياة الجسدية ۰ ولا بد من أن نعتبر المجنون مثلا مصابا بمرض جسماني مهما يكن مظهره ، ومنظره الصحي ۰

واذا درسنا أحوال من يصاب بمرض عقلي منذ طفولته أو مراهقته ، نراه يحتفظ بمظهره الصحي حتى الشيخوخة ، لذلك يمكننا أن نجزم بأن هذه مشكلة غامضة ، ليس بمقدورنا حلها كوننا نجهل حياة الانسان العادية ، وكذلك الاسباب التي تقصر العمر العادي ، وتقلل من النشاط البشري الحيوي ۰ ومن يعرف أن هذا الانسان الذي تبدو عليه دلائل الصحة والعافية الجسدية ـ مع مرضه العقلي ـ غير مصاب بمرض جسدي غير معروف ، بحيث لو بريء منه لكان منظره الخارجي أبهى وأحسن ، ولعاش مدة أطول ، ولاستمتع بنشاط أقوى وأغزر؟ ومن يعلم بأننا ربما نكون قد خدعنا أنفسنا عندما ننظر الى ما يقوم به المجانين أو مرضى العقول من أعمال تثبت أنهم يتمتعون بصحة جيدة ؟

ومن هذه المنطلقات التحليلية لا بد لنا من تطبيق مذهب السلوكيين عندما نحاول مداواة ومعالجة

الامراض العصبية أو العقليــة ٠ فهؤلاء حســب مذهبهم السلوكي لا يعترفون بوجود أمراض عقلية، وانما يعترفون بوجود شذوذ سلوكي انفعالي يجب دراسته وتحليله ، لا دراســة القضــايا العقليــة والشعورية ٠ وما نسميه نحن مرضا عقليا يرونه ليس سوى شذوذا في السلوك ، ويردونه الى خلل أو اضطراب في الحالة الجسمية الباطنية ، فــاذا عولجت هذه الحالة الجسدية الباطنية علاجا ناجعا صح الجسم ، وذهب الشذوذ ٠

تطور العلاج النفسي في هذا القرن :

العلاج النفسي خلال القرن العشرين قد تقدم تقدما محسوسا في مجال المداواة على أيدي علماء مهرة ، وأطبــاء عباقرة على رأسهــم « جانيــه » و « مورتن برنس » وآدلر ، ويونج ، وفرويد ، وغيرهم من علماء النفس الذين درسوا النواحــي العقلية وجعلوهــا ملجــأ الرغبــات والانفعــالات والافكار والاستجابات الخارجية والداخلية ٠

ويبدو أن التجارب الكثيرة التي قاموا بها قد أكدت لهم ان كبت هــذه الانفعــالات والرغبــات وهبوطها الى قعر العقل الباطن هو السبب المباشر

في معظم الامراض العقلية والعصبية ، وكثير من الامراض الجسمانية ٠ لذلك رأوا ان شفاء المريض من هذه الامراض لن يتحقق الا عن طريق التنويم المغناطيسي أو الصناعي ، كونه وحده بامكانه اخراج تلك الرغبات والانفعالات القديمة المكبوتة في غياهب العقل الباطن الى دائرة الشعور ، أو ما يعرف بالعقل الظاهر ٠

ولاحظوا أيضا أن هذه المخاوف والانفعالات المكبوتة تعود في الأصل الى أيام الطفولة ، وأنه من الممكن العلم بها واخراجها من العقل الباطن الى حيز العقل الظاهر عن طريق التحليل النفسي ٠ لذلك أوجدوا ثلاث وسائل رئيسية لذلك هي :

١ ـ تداعي المعاني المطلق ٠
٢ ـ تداعي المعاني المقيد ٠
٣ ـ تفسير أحلام المريض ، أحلام نوم كانت أم أحلام يقظة ، يضاف الى هذه الأمور الاساسية دراسة أمور أخرى ثانوية ، كهفوات اللسان والقلم أو شذوذ السلوك ٠

ومن الملاحظ من خلال دراسة مدى تطور العلاج النفسي في هذا العصر أن أكثر علماء النفس قد

اهتموا اهتماما كبيرا بالتحليل النفسي واعتبروه الدواء الناجع لمعالجة كافة الامراض النفسية المكبوتة في العقل الباطن ، وحمل لواء التحليل النفسي (فرويد ، وآدلر ، ويونج) حتى استطاع هؤلاء مقاومة الاتجاه الجسدي في المعارف النفسية، ذلك الاتجاه الذي قوي وانتشر أمره في القرن التاسع عشر ، كما نوهنا عنه سابقا .

وكان من أهداف هؤلاء العلماء الرئيسية اعتماد الطريقتين التاليتين :

١ ـ البحث في صميم الحياة العقلية وفق أسس نفسية بعيدة عن المباديء الجسدية .

٢ ـ المداواة بالأساليب النفسية بواسطة الانفعالات والاستجابات العقلية ذاتها ، لا بأساليب مادية خارجة عن نطاق وماهية النفس .

ويبدو أن هؤلاء العلماء قد لمسوا من خلال تجاربهم أن بعض الاضطرابات العقلية ، وأنواعا من الشذوذ النفسي لا يمكن ردها الى خلل في المخ أو الجهاز العصبي بوجه عام ، انما ربما تكون هذه

الاضطرابات في الحياة العقلية عائــدة الى النفس ذاتها ، أي الى العــادات التفكيريــة والسلوكيــة الانفعالية ، أو الى ضعف الارادة ، والسرعة في تقبل الايحاء ، أو عدم التطابق الانفعالي الاستجابي ° وانطلاقا من هذه الاكتشافات قامت هذه الحركــة تتبنى بصدق المعالجة النفسانية °

ولما ظهر العالم النفسي جانيه في باريس اهتــم بدراسة اللاشعور أو العقل الباطن ، وعملياتــه المختلفة ، وعالج الامراض العصبية متبعا طريقــة العالم شاركوت في معالجــة الهستيريــا بالتنــويم المغناطيسي ، وقد لمس بالفعل من خلال تجاربــه العلاجية أن المريض بمقدوره أن يتذكر في أثناء النوم بعض حوادث ماضيــة ، ليس بامكــانه أن يتذكرها في حالة اليقظة ، ومن هذه الصدمــات الانفعالية الحادة التي قاساها المريض فيما مضى ° ووجد أيضا أنه اذا أمكن أن يوحى الى المريض وهو نائم أن هذه الصدمات قد انتهى أمرها ، ولم يبق لها أي أثر الآن فان الأعراض الهستيرية المتصلة بتلك الصدمات تتبخر °

ولم يقف نشاط جانيه عند هذا الحد من البحث والتجارب ولكنه درس أنواعا أخرى من الامراض

العصبية ، كالخوف ، والقلق ، وسماها بالأمراض الناتجة عن الضعف العقلي ◦ وحاول معالجتها عن طريق تجديد التربية ◦ وكـان يرى أن جميع الأمراض العصبية تعود الى انحطاط عام في النشاط العقلي ، يعجز معه المريض عن بذل نشاط ارادي للتغلب على مشكلات الحياة ◦

ولما ظهر العالم النفسي فرويد ابتكر طريقة جديدة في معالجة الامراض النفسية ، تقوم في أساسها على مزيج من التنويم المغناطيسي والسماح للمريض بالتحدث عن نفسه ومتاعبه ◦ وبعد فترة من الزمن لاحظ فرويد أن طريقته بطيئة ، ففضل أن يعتمد على وسيلة أخرى لمعرفة اتجاه المريض ، فصمم على تطبيق نظريته الخاصة بتحليل الأحلام وتفسيرها ، لأن الاحلام تحقق في عالم النوم الرغبات المكبوتة التي أخفق الانسان في تحقيقها في عالم اليقظة ◦ ثم طور هذه النظرية واستعاض عنها بدراسة هفوات لسان المريض ، وشذوذه الانفعالي ، والسلوكي ، وما يصدر عنه من تصرفات قد تشير الى وجود العقد النفسية ◦

ولم يقف نشاطه عند هذا الحد بل عمد الى

استخراج الرغبات الدفينة المكبوتة في عقل المريض الباطن ، وفي ضوء هذه التجارب توصل الى التأكيد الى أن مرد جميع الامراض النفسية الى انحـراف الغريزة الجنسية عن طريقها السوي ٠

ان النظريـات الكثيرة التي أوجدهـا فرويـد والمتعلقة بالمعالجة النفسية أعطت المعالجة النفسية زخما قويا صعد بها الى القمة ، ووضح بشكل لا يقبل المناقشة المؤثرات الأول في سلوك الانسـان النفسي والوجداني وكم كنا نتمنى لو أن المجال يتسع أكثر لقدمنا بعض أفكاره المتعلقة بالهو ، والأنا ، والنفس العليا ، والشعور ، واللاشعور ، وشبه الشعور ٠ وغيرها من النظريات النفسية التي تعرضنا لها في غير هذا الكتاب ٠

ومما لا شك فيه أن نظريات وآراء فرويد قد أدخلته في دوامة من النقاش مع العالم النفسي آدلر والعالم النفسي يونج وغيرهما من علماء النفس الذين عارضوا أو أيدوا بعض هذه النظريات ، ولا يزال النقاش متصلا ومستمرا حتى هذه الأيام التي تربع فيها العلاج النفسي على القمة ٠

الاصابات العقلية وعلاجها :

من المعروف ان الامراض العقلية هـي حالات وانفعالات واستجابات سلوكية خارجة عن الحـد المألوف في حياة الانسان الاجتماعية ، اما بالزيادة واما بالنقص ، فمجرد تقلب وانحراف الانفعالات، أو اضطراب التفكير أو السلوك حتى يتجاوز الحد المعين له ، يصبح مرضا عقليا في حاجة الى المداواة والمعالجة ٠ وكذلك خمود جذوة الانفعال ، أو همود شعلة التفكير ، أو ضعف الارادة ضعفا بينا يظهر في سوء التصرف أو اعتقال الارادة ٠ كل هذه الأمور يمكن أن نعتبرها اصابات مرضية عقلية تبـدو واضحة في هبوط انفعالي بالأعصاب ٠

ويمكن الاستـدلال على الاصابـات العقليـة بأمرين : أحدهمـا باطني ، ويعرف مـن وصف المريض نفسه لسلوكه وأفكاره وانفعالاته ،والآخر خارجي وهو سلوك المريض أو تصرفاته الصادرة عن ارادته ٠

ومن الخطأ أن نعتمد اعتمادا كليا على الدليل الثاني ونغض الطرف عن الاول ، كون التجارب تدل على أن الانفعالات الشاذة قد تؤدي على سبيل

المصادفة الى سلوك مرضي مقبول ، وأن الاحكام الصحيحة قد تكون نتيجة لشكوك وأوهام وتفكير عقيم ، وأن الميول الشاذة قد تكبت أو تقاوم فلا تظهر آثارها في الخارج ، وأن التضارب بين الانفعالات والرغبات النفسية المكبوتة الخفية وبين الظروف الخارجية كثيرا ما يكون سببا في الاضطراب أو المرض العقلي ٠

ومن المفروض ألا نحصر المرض العقلي في اضطراب الناحية الادراكية ٠ صحيح ان التفكير الشاذ المخالف للسلوك الاجتماعي المعتاد،والاستسلام للخيالات والأوهام من أهم معالم المرض العقلي التي يجب أن نتنبه اليها ٠ ولكن لا يغرب عن بالنا ــ مع ذلك ــ الشذوذ في الحياة الوجدانية الذي يشمل : كثرة المخاوف ، والاستسلام المستمر للغضب ، والانغماس في الفرح والسرور ، ولا جمود التأثر بالمثيرات العادية ، أو التهاون في تلبيتها ، ولا القيام بالأعمال المخلة بالآداب التي ينفر منها الذوق وينكرها العرف ، ولا تذبذب الارادة وتقلباتها ، ولا التمادي في المشاكسة والعناد ، ولا انقسام الشخصية وتشتت شملها ، فان هذه كلها دلائل

واضحة على اصابات عقلية يجب الانتباه اليها ، والعمل بسرعة على مداواتها ٠

والاصابات العقلية ليست مقصورة على الخلل في النواحي الادراكية ، ولكنها تشمل الشذوذ النزوعي الوجداني،وفقدان التوازن بين الانفعالات النفسية والأفكار وبين السلوك والاعمال ٠

ومن الواجب الرجوع عندما نود معرفة الشذوذ الى تصرفات الفرد وظروفه الخاصة ، وعلى سبيل المثال : معرفة السن ، والمستوى العقلي ، ونوعه ، والمنزلة الاجتماعية ، والبيئة الاجتماعية ٠ فالذي يكون عاديا بالنسبة للطفل قد يكون شاذا بالنسبة للرجل ، مثال ذلك : ما يلاحظ في الطفل من فرح وسرور زائد ، فهو أمر طبيعي بالنسبة له ٠ ولكنه اذا صدر عن شاب أو رجل فانه يعد دليلا على مرض عقلي أو شذوذ نفسي ، في حاجة ماسة الى علاج نفسي يرتكز على أسس تحليلية عميقة ٠

أسباب الأمراض العقلية وأقسامها :

أكدت التجارب التي أجراها علماء النفس ان المرض العقلي هو عبارة عن نقص أو ضعف يصيب

العقل ، وذلك يظهر في التصرفات العقلية ، أو في عجز النفس عن القيام بوظائفها على الوجه الاكمل ◦ ووظائف العقل كما هو معروف تنحصر في الادراك والوجدان والنزوع ◦ فأي شذوذ في ناحية من هذه النواحي يدل على مرض العقل وعجزه عن القيام بوظائفه ◦

ومن الأمور المسلم بها ان لمعظم الاصابات العقلية ان لم يكن لكلها أسبابا قد تكون جسدية أو نفسية سلوكية ◦ كما أن كثيرا من الاصابات الجسدية تعود الى أسباب عقلية ، ذلك لأن الانسان ليس الا وحدة جسدية عقلية ، فمن الطبيعي أن ما يؤثر فيه يشمل هاتين الناحيتين الجسم والعقل ◦

ولكن الاصابة الجسدية تفوق في بعض الأحيان الاصابة العقلية فيوصف المرض بأنه جسماني ◦ كما أن الاصابة العقلية قد تفوق الاصابة الجسمانية فيوصف المرض بأنه عقلي ◦ فاذا وضعنا هذه الحقيقة نصب أعيننا استطعنا أن نعرف السر في اشتراك عوامل أو مؤثرات خاصة في احداث الامراض الجسمانية والعقلية معا ◦ وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقسم أسباب الامراض العقلية الى مجموعتين هما :

١ ـ الأسباب السابقة أو الممرضه للمرض ·
٢ ـ الأسباب المثيرة التي ينشأ عنها المرض مباشرة ·

واذا ما رغبنا في معرفة كنه الاسباب السابقة التي تجعل الانسان مهيأ للاصابة معرضا لها · نلاحظ أنها تحدث قبل الاصابة بالعقل التي تتوقف على سبب أو أسباب أخرى هي الاسباب المثيرة أو المباشرة · ولتوضيح ذلك نقدم مثلا مرض نيومونيا · اذ أن الاسباب المعرضة للاصابة بهذا المرض سوء التغذية ، وادمان السكر ، والاسراف في تناول المواد الكحولية · ولكن الانسان لا يصاب بالمرض بالفعل الا اذا اتصلت الرئتان بالجرثومة أو الميكروب الذي ينشأ عنه المرض بالفعل ·

ومن أهم الاسباب الممرضة للاصابات العقلية هي :

١ ـ الوراثة ·
٢ ـ السن ·
٣ ـ النوع ·
٤ ـ العوامل البيئية ·
٥ ـ المهنة ·
٦ ـ الاصابة السابقة ·

واذا رغبنا التحدث عن الوراثة التي تعتبر من العوامل الهامة التي تجعل الانسان عرضة للاصابة ببعض الامراض العقلية ◦ وقد ثبت نتيجة للتجارب التي قام بها بعض العلماء أن ربع عدد المصابين بالأمراض العقليـــة أو ثلثهـــم أو أكثر في بعض الحالات ينتسبون الى عائلات تشيع فيهـــا الأمراض العقلية أو الاضطرابات العصبية ، لأن مرض العقل على الغالب يعود الى وهن كامن في الجهاز العصبي، أو الى فقد التوافق والانسجام في تكون هذا الجهاز ◦

ويرى بعض علماء النفس الذين اختصوا في معالجة الامراض العصبية الوراثية أن الذي يورث ليس المرض عينه الذي يصاب به الأصل ، وانما هو الاستعداد العصبي العام ، أو حالة المجمـــوع العصبي بصورة خاصة ◦ فاذا كان الاصل ضعيف الأعصاب ضعفا مزمنا ، نتيجـــة لاصابته بمرض عقلي ، فمـــن المرجح أن يكـــون الفـــرع ضعيف الأعصاب أيضا ، وأن يصاب بمرض عصبي سواء أكان هو ما أصيب به الاصل أم كان غيره ◦

وليس من الضروري أن يصاب جميع الفروع بمرض عقلي ، أو يكونوا عرضة لاصابات عقلية ،

اذا كان أصلهم قد أصيب بذلك ، فالتجارب دلت أن كثيرا من أفراد العائلة الواحدة ينجون من خطر الاصابة التي حدثت لغيرهم من أفرادها ٠

أما ما يتعلق بالسن فقد دلت التجارب على أن السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل محوطة بكثير من الاخطار ، اذ فيها تبذر بذور الشخصية ٠ وقد تنبت فيها أصول أمراض عقلية لا تظهر آثارها الا في عهد الكبر ٠ ومن المؤكد أن المراهقة والبلوغ وما بعده بقليل من السنين أخطر أدوار الحياة العقلية ، اذ فيه تعظم نسبة الاصابة بالأمراض العقلية ، وبخاصة هيستيريا المراهقة ٠ وعندما يبلغ الانسان من الكبر عتيا يصبح عرضة لضعف الجسم والعقل ، وقد يدركه الخرف اذا امتد به الأجل ٠

الأسباب المباشرة للمرض العقلي :

يؤكد علماء النفس ان الاسباب المباشرة للاصابة بالأمراض العقلية ، أو التي تعد مسئولة عن حدوثها بصفة مباشرة ، والتي تسمى علميا بالأسباب المثيرة ، هي أهم من الاسباب المعرضة ،

اذ بدونها لا توجد الامراض ، ولكنها من حيث الترتيب الزمني متأخرة عن الاسباب المعرضة ٠

ويصف علماء النفس هذه الاسباب بأنها نفسية جسمانية ، أي أنها مزيج من عناصر جسمانية وعقلية ، فليست عقلية صرفة ، ولا جسمانية بحتة ، غير أن بعضها يغلب عليه الصفة الجسمانية، والبعض الآخر يغلب فيه التأثير النفسي أو العقلي ٠

فالحمى مثلا من الاسباب المباشرة لبعض الامراض العقلية ، ولكننا نجد أنها تؤثر في الجسم أكثر مما تؤثر في العقل ، أي أن آثارها الجسمية أقوى من آثارها العقلية ، اذ هي تؤثر أولا وقبل كل شيء في الاغشية الجسمية ، وتؤثر بصفة ثانوية في الشعور فيضطرب ، وقد يعتري الانسان نوع من الهذيان ، المصحوب بثورة انفعالية ٠ وعلى هذا الأساس تكون الحمى سبب جسماني عقلي ، ولكن يغلب فيه التأثير الجسماني ٠

ولو أخذنا مثلا آخر هو القلق الذي يعتبر من الاسباب العقلية والجسمانية المثيرة للمرض العقلي التي يغلب فيها التأثير العقلي ، أي أن مظاهره عقلية أكثر من أن تكون جسمانية ، فالقلق لا

يستطيع أن يضبط نفسه أو يحصر ذهنه ، أو يفكر تفكيرا سليما ، ولكنه مع ذلك يتأثر تأثرا جسمانيا يظهر في امتقاع اللون ، وعنف النبض في الأوعية الدموية التي بالعنق ، وسرعة التنفس ، الى غير ذلك من المظاهر التي يلاحظها المرء واضحة جلية فيمن يعتريه القلق النفسي الشديد ، كما هي الحال عند من يقف موقفا خطابيا محرجا ، وحال من ينتظر مريض في حالة الخطر ، أو من يترقب أخبارا عن غائب ·

وانطلاقا من هذه الأسباب المباشرة يمكننا أن نحدد بعض الاسباب التي يغلب عليها التأثير الجسماني :

١ ـ الحمى وغيرها من الامراض المعدية الحادة ·

٢ ـ الانهاك والاعياء نتيجة التعب الشديد ·

٣ ـ تخدر الأعصاب بفعل تناول العقاقير والأدوية المخدرة ·

٤ ـ تخدر الجهاز العصبي وغيره من الاجهزة الباطنية ، مما يؤدي الى اضطراب عملية الهضم ، وامتصاص الطعام الضروري لتقوية الدم وتغذية أنسجة الجسم ، وأغشيته

المختلفة ، وكثيرا ما يؤدي اضطراب عملية الهضم الى اضطراب الاعصاب ومرض العقل ۰

٥ ـ التسمم المزمن الناشيء عن بعض الامراض الحادة ، كالسل ، والأنيمية ، ومرض السكر ۰ فهذه وما يشبهها اذا عاناها المريض مدة طويلة فسممت جسمه ، واضطرته الى أن يقلل من نشاطه الحيوي ، قد تكون من الاسباب المباشرة للسلوك العقلي الشاذ ۰

٦ ـ الأمراض العصبية الحادة المزمنة التي تؤثر في المخ تأثيرا مباشرا ، فتضعف العقل أو تؤدي الى أمراض عقلية وبيلة ، لما بين المخ والتفكير من علاقة وطيدة ۰

٧ ـ التقرح الباطني وخصوصا في منطقة الدماغ ، فهذا قد يؤثر في المخ في دور الطفولة أو ما بعده ، فينشأ عنه شذوذ في السلوك العقلي ۰

٨ ـ ضربة الشمس الحادة ، التي تؤدي الى اضطراب مستمر في توزيع الحرارة على الجسم ، وثورة انفعالية يطول أمدها ۰ مما يؤدي الى فقدان الاتزان العقلي ۰

الأسباب المباشرة التي يغلب فيها التأثير العقلي :

يرى علماء النفس ان الاسبـــاب المباشرة التي يغلب فيها التأثير العقلي من الصعب جدا تعريفها وتحديدها ، لكونها تتطلب جهد مضني في تتبع حياة المريض في أدوارها المختلفـــة ، وخاصـــة في دور الطفولة الأولى ، التي أثبتت التجارب أن كثيرا من الامراض العقليـــة والعقـــد النفسية تبـــذر فيه بذورها ۰ ولا يمكن تحديدها على معالم مرض الا العالم النفسي الخبير الماهر ، الذي يعرف أساليب المعالجة النفسية المختلفة ۰

واذا كانت أكثرية هذه الاسباب تعود في النهاية الى اضطرابات انفعالية ، وجب علينا أن نتحدث عن الانفعـــالات وتأثيرهـــا في الحيـــاة العقليـــة ، لأن الانفعالات على اختلافها وتنوعها ضرورية لتكوين الشخصية ، ولا بد منها للاحتفاظ بحياة عقليـــة متزنة ، مثلها في ذلك مثل القلب الذي اذا أصلح صلح الجسد كله ، واذا فسد فسد الجسد كله ۰

واذا توقفت الانفعالات عن العمل ، ولم يظهر لها أثر في حياة الشخص ــ كما في بعض حـــالات

الشيخوخة ـ والخمود العقلي ، تبع ذلك توقف العقل عن العمل ، أو على الاقل فسدت الحياة العقلية ، واعتراها شيء من الجمود والكسل ٠

ويذهب علماء النفس الى أن كل انفعال هو قوة دافعة فعالة ، عميقة التأثير في السلوك الانساني ، والانفعالات هي الدوافع الحيوية التي تصدر عنها أعمال الانسان وأحكامه ، دون شعور منه في كثير من الحالات ٠ ومن الثابت أنها هي وحدها المسيطرة على حياة الطفل ، ولو نظرت بدقة الى أفعال الناس لوجدت أنها تعود في النهاية الى الثورات الانفعالية ، التي هي مصدر الثورات الاجتماعية ٠

ومن المسلم به أن القوة الانفعالية هي التي توجه الانسان الى الخير ، وقد توجهه الى الشر ، وأن السلوك الناتج عنها سواء بالنسبة للفرد ، أو بالنسبة للجماعة ، فقد يكون نافعا وقد يكون خطرا مضرا ، فثورة انفعالية قوية قد تهد كيان العقل ، وثورة انفعالية حادة قد تؤدي بالأمة ، وتوردها موارد الهلاك ، وتجلب لها الخراب والدمار ، أو الذل والعار ٠

ولا سبيل الى السلوك القويم الا بتحكم العقل ،

وضبط الانفعالات وتوجيهها التوجيه المستقيم ٠ ومن المعقول أن يكتسب الانسان فضيلة ضبط النفس وأن يسيطر على انفعالاته ، اذا تمتع بالارادة القوية ، لأن الاستسلام للانفعالات ، والخضوع لها من صفات الطفل الظاهرة ، التي لا ينبغي للبالغ أن يتصف بها ٠

ومن الطبيعي جدا أن يكون للانفعالات آثار ظاهرة في الجسم والعقل معا باعتبارها مرتبطة ارتباطا كليا بعضها ببعض ٠ فأي نزعة انفعالية مهما بلغت من القوة أو الضعف تترك خلفها بصمات وآثار جسمانية ملائمة ومنسجمة مع قوتها وضعفها ٠ وهذا ما يعرف بالأثر الجسماني للانفعال ٠

وليس بمقدورنا أن ننكر أن العقل الانساني مزود بقوة احتمال كبيرة يستطيع معها أن يحتمل النزوات الانفعالية القوية ، ويصمد لها مدة طويلة ٠ ولكنه مع ذلك قد يصيبه الوهن أمام الانفعالات الضعيفة التي تبقى مدة تقلقه ، وقد تسبب الانفعالات الضعيفة الطويلة الأجل ضعف في العقل ، فتوهن قدرته على الاحتمال ، فيكون

عرضة للهرب أمام أي ثورة انفعالية حادة ، كون الانفعالات الضعيفة الطويلة الأجل أشد تأثيرا في العقل من الانفعالات الحادة الوقتية ٠

ومما لا شك فيه أن قوى النفس الانسانية وانفعالاتها ، تتطلب الانسجام والتوافق ، وذلك يعود الى اختلاف النزعات الفريزية وتضاربها في الاتجاه ، فالفرائز الفردية قد تعارض الفرائز الاجتماعية ، مما يؤدي الى نشوء تفكك الشخصية ، واضطراب الحياة العقلية فيختل ميزان العقل والجسم ، وتنشأ الامراض العقلية أو الجسمية ٠

أنواع الأمراض العقلية :

اذا كان لا بد لنا من معرفة أقسام وأنواع الامراض العقلية ، فخير طريق نتبعه هو معرفة الاسباب الرئيسية التي ينشأ عنها المرض العقلي ، لذا بمقدورنا أن نقسم الامراض العقلية الى ثلاثة أقسام رئيسية هي :

١ ــ الأمراض العضوية : وهي التي تعود الى اضطراب في تكوين المخ وأوعيته وأنسجته ٠

٢ ــ الأمراض الوظيفية : وهي التي يرافقها عجز عضو من الاعضاء عن القيام بوظيفته ٠

٣ ــ الأمراض التسممية : وهي التي يصحبها تسمم في بعض أعضاء الجسم •

المعالجة النفسانية ومرتكزاتها :

يؤكد علماء النفس بعد التجارب العديدة الطويلة التي أجروها خلال حياتهم العلمية أن فهم المرتكزات العلاجية النفسية يتطلب معرفة الأسس العلمية التي يقوم عليها العلاج بالطرق النفسية المختلفة ، سواء أكان علاجا لامراض نفسية أم كان علاجا لأمراض جسمانية •

وتنطلق هذه الأسس من العلاقة بين الجسم والعقل ، لأن الرابطة بينهما وثيقة ، أي بين الحالات الجسمانية المادية والحالات النفسية •وقد أدرك هذه العلاقة أرسطو وأقرها أبقراط ،وشرحها جالينوس ، وأفاض في بيانها وشرحها فلاسفة العرب •

ولما كانت الأحداث العقلية تؤثر في الأحوال الجسمية ، وبالعكس ، أي الاحداث الجسمية تؤثر في أحوال العقل ، فالمرض الجسماني يؤدي الى مرض عقلي من نوع ما • والامراض العقلية تنشأ عنها

أمراض جسمانية ۰ كما أن صحة الجسم تؤدي الى سلامة العقل ، فان صحة العقل تؤدي الى سلامة الجسم وخلوه من الامراض ۰

وسنذكر مجموعة من الأدلة تؤكد تأثير الاحوال المادية الجسمية في سير العقل ، والاعمال العقلية ، ثم نقدم أدلة أخرى تثبت العكس ، أي تدل على تأثير الأحوال العقلية في الجسم والوظائف الجسمانية ۰

من النوع الاول : ان أي خلل مادي مباشر ، أو ضعف ، أو اضطراب في الجهاز العصبي المركزي يتبعه خلل في العقل أو التصرفات العقلية ۰

من الثابت لدى العلماء أن الاغذية والعقاقير الطبية ، والافرازات الضدية ، والمواد المخدرة ، تؤثر في العقل ، لأن التجارب التي أجراها هؤلاء العلماء على تبديل الاغذية تبديلا خاصا قد أحدث تبدلا كبيرا في الأمزجة ۰ وقد لاحظ بعض العلماء ان اطعام القتلة المجرمين نوعا خاصا من الطعام يخفف من ميلهم الى الاجرام ، وأن تناول بعض العقاقير والأدوية باستمرار يؤدي الى تبديل

محسوس في الامزجة ، وتقدم في الأخلاق والسلوك ، وبعد عن الاجرام ٠

من النتائج التي توصل اليها العلماء في هذا العصر أنه من الممكن تنظيم الافرازات الغدية ، وتكميل ما فيها من نقص ، ونقص ما فيها من زيادة، وذلك بحقن الدم بمواد تقوي الضعيف ، أو تضعف القوي من تلك الافرازات ٠ واستدلوا من ذلك على أنه يمكن تعديل الأمزجة ، وتغييرها الى حد كبير جدا ٠

ويلاحظ أحد علماء النفس أن لكل نوع من أنواع الجنون سببين أو أكثر من أسباب ثمانية هي : ١ ــ تناول المواد السامة ٠ ٢ ــ ضعف الاعضاء التي تقاوم تأثير هذه المواد السامة ٠ ٣ ــ عدم تناول مواد زلالية ذات قيمة غذائية عالية أو عدم هضمها ٠ ٤ ــ اختلال وظائف الهضم ٠ ٥ ــ عدم وجود كميات كافية من الفيتامين في أنسجة الجسم ٠ ٦ ــ قلة الاملاح المعدنية في الانسجة ٠ ٧ ــ اختلال وظائف الغدد الصماء ٠ ٨ ــ أسباب أخرى متنوعة ، كارتجاج المخ ، وضربة الشمس ، وتناول المخدرات ٠

وتقول العالمة النفسية اليزابت سيفرن (١) :
« ان التجارب الخاصة التي قمت بهـا في تشخيص الامراض العقلية قد أقنعتني بصحة قاعدة عامة هي : أن لجميع الاضطرابات التي تحدث في الوظائف العقلية سواء منها ما كان شعوريا وما كـان غير شعوري علاقـة وثيقـة باضطرابـات جسمانيـة خاصة » .

وهي ترى أن كل عضو من أعضاء الجسم يصحب مرضه مرض نفسي ، اذ أن هناك علاقة بين مرض القلب والاضطرابات الوجـدانية ، وبـين مرض الطحال والكسل ، وبين اضطرابات المعدة والكآبة وضيق الصدر ، وبين مرض الكلية أو عجز الامعاء عن القيام بوظيفتها والتراخي في السلوك وعقـم التفكير وضيق الأفق ، وبين مرض الكبد وسـوء الظن والخشونة في معاملـة الناس ، وبين وجـع الركب والتردد ، وبين وجع القدم أو الساق وعدم القدرة على الابداع ، وبين الروماتزم والعنـاء والتراخي في تحديد الغرض من العمل والسعي نحوه .

(١) اليزابيت سيفرن : العلاج النفساني ص ٨٩ .

دروب المعالجة النفسية :

اتفق علماء النفس الحديث على ان للممالجة النفسية في هذا العصر دروب ومسالك ينبغي أن يمر عبرها الطبيب المداوي حتى يتوصل الى شفاء المريض بسهولة ويسر وفق الشروط التي يجب أن يستكمل فيها العلاج على الوجه الأكمل ٠

ومن أهم الشروط التي يفرضها العلماء ،والتي ينبغي أن تتحقق في المريض هي :

أ — على الطبيب المعالج أن يتأكد من حقيقة المرض ، ويعرف الاسباب التي أدت اليه ٠

ب — أن يعرف المعالج اذا كان المريض ينهد الى الشفاء بصدق وايمان ، لأن من ملوا الحياة تصبح لديهم رغبة في التخلص منها ، لذلك لا يكون العلاج مفيدا لهم ، فعلى الطبيب التأكد من هذه الأمور ٠

ج — ينبغي على المريض أن يكون قوي الأمل في نجاح العلاج ، مؤمنا تمام الايمان بامكانه على الاقل ٠

د ـ يجب أن تتوفر لدى المريض الثقة التامة بقدرة الطبيب على تخليصه من آلامه .

هـ ـ ينبغي على المريض أن يساعد المعالج في العلاج ، ويطيع أوامره وتعليماته طاعة عمياء ، ويعمل بموجب ارشاداته بكل دقة .

وكما أننا ذكرنا الشروط الواجب أن تتوفر بالمريض ينبغي أن نشير الى أربعة شروط يجب أن تتحقق في الطبيب المعالج ، وهي :

١ ـ على الطبيب أن يكون ماهرا وعارفا بعوارض الامراض العقلية بفرعيها ، أي تشخيص الامراض العقلية ، وعلم العلاج النفساني ، وأن يكون ملما كذلك بعلم الطب ، وعلم النفس العام ، ولو بصورة اجمالية .

٢ ـ أن يكون المعالج قد اكتسب خبرة عملية كافية من التجارب التي أجراها ، ومن تتلمذه على بعض العلماء المهرة في العلاج النفساني ، حتى يكون مستعدا حاضر البديهة ، سليم الحس ، صادق الحدس ، قوي الشعور ، نافذ البصيرة ، حسن الأسلوب .

٣ ــ أن يكون واثقا من قدرته ، ومعارفه ،وتمكنه من المعالجة وفق أساليب صحيحة ٠

٤ ــ أن يتمتع بشخصية قوية جذابة ، تجمع بين قوة الجسم ، وقوة العقل ، وقوة الخلق ، حتى يتمكن من التأثير في المريض حتى ينفذ تعاليمه وارشاداته ٠

٥ ــ أن يكوّن الطبيب المعالج صداقة متينة بينه وبين المريض ، ويحاول بقدر الطاقة التوحيد بين روحيهما وخاصة أثناء المعالجة ، حيث يشعر المريض أنهما روحا واحدة ، تتأثر كل منهما بالأخرى تأثرا سريعا فعالا ٠

ووسائل المعالجة النفسية كما يراها علماء النفس تنطلق من طريقين : اما طريق عام ، واما طريق خاص ، فالطريق العام التي يتبع في مداواة أي مرض من الامراض العقلية مهما كان نوعه ، يجب أن يتبع في معالجة الامراض الجسدية أيضا ٠

ويلاحظ علماء النفس أن من تلك الوسائل التخفيف من حدة قلق المريض الذي لا داعي له ، وتهدئة أعصابه بالحنو عليه ، والرفق في معاملته ،

وتشجيعه عن طريق الحط من شأن المرض ، والتنبؤ بسرعة الشفاء ، ذلك ما يبعث السرور في نفس المريض ، ويقضي على خوفه وقلقه ، ويذهب بمشاغله الفكرية ، ويقوي ارادته ليقاوم الاصابة بصلابة وعنف .

ولا بد لنا من الاتيان على ذكر الطرق الخاصة التي تتبع في معالجة الامراض العقلية بوجه خاص ، رغم كثرتها وتعددها نكتفي بذكر أهمها :

١ ــ العلاج الجسماني .
٢ ــ التنويم المغناطيسي أو الصناعي .
٣ ــ التحليل النفسي .
٤ ــ الايحاء .
٥ ــ التحريض .
٦ ــ التربية من جديد .
٧ ــ التنفيس .

والثابت تجريبيا ان الفرض الأساسي من التحليل النفسي هو نقل الرغبات أو انفعالات العقد النفسية ، أو المخاوف المكبوتة من العقل الباطن الى العقل الظاهر ، فان نقل هذه المخاوف

والذكريات التي لهـا علاقـة بالمرض الى العقـل الظاهر ، وعلم المريض بها قد يكون وحده كافيا لتخفيف حدة المرض أو زواله ٠

ويرى علماء النفس ان الايحاء ليس سوى نتيجة لتقدم العلاج النفسي ، والغرض منه حمل المريض بواسطة الكلام أو غيره على أن يمتقد أن مرضه خفيف الوطأة ، سهل العلاج - حتى اذا ما تحسنت حالته ، قيل له ان مرضه آخذ في الزوال ، وفي النهاية يوحى اليه أن مرضه ذهب بلا عودة ٠

وللايحاء تأثير طبيعي في النفس ، وخاصة اذا كان الموحي قوي الشخصية ، نافذ الارادة ، مسموع الكلمة ، وكانت علاقته بالمريض قوية ووثيقة ٠ ومن الايحاء ما هو خارجي ، ومـا هو ذاتـي ، فالخارجي ما أتى من الغير أو من البيئة التي يعيش فيها الانسان ، والذاتي ما كان من النفس مباشرة ٠ ومن الخارجي ما هو عادي ، وهو ما يتم في أحوال عادية ،وما هو غير عادي ويسمى بالايحاء التنويمي ، وهو ما يحدث في أثناء النوم الصناعي ٠

أما طريقة تجديد التربية التي حدث عليهـا تطورات وتهذيبات كثيرة فالغرض منها أن يخرج

المريض من دائرة شعوره جميع الافكار والمباديء الخاطئة المعززة لمرضه ، المقوية له ، ويملأ ذهنه بأفكار صحية صحيحة معارضة للمرض المصاب به ، أو بالأحرى أن يغير وجهة نظره نحو المرض ،فيعرف أنه يعود الى الأوهام والمخاوف التي تتكوم في مخيلته والتي لا لزوم لها ، أو الى تجارب مضت وانقضت فلا معنى لاستمرار التأثر بها ، أو الى ذكريات ليس من المفروض الغلو في تقديرها والتعظيم من شأنها .

ويعتقد علماء النفس ان ماهية تجديد التربية تعني تغيير وجهة نظر المريض نحو مرضه تغييرا كليا ، مبنيا على أساس فكري منطقي ، وتهيئة نفسه لحياة جديدة عامرة بالأفكار الصحيحة المفيدة ، والأساليب القويمة ، والعادات الصالحة ، والآراء السديدة ، التي تصغر أمامها أهمية المرض، بحيث يصبح عبارة عن وهم أو خيال ، لا يحتمل البقاء والدوام .

أما طريقة التنفيس فهي تعني اطلاق سراح الانفعالات المكبوتة بأي واسطة من الوسائط ، كاخراجها من العقل الباطن الى العقل الظاهر ،

والتفكير فيها مرة أخرى ، وارضائها بالفعل ، والعمل بموجبها ، كأن يحصل الطفل على ما كان قد حرمه من لعب أو مكانة لدى أبيه أو أمه أو أستاذه ، أو يحصل شخص على ما كان يرغب فيه من مال ، أو منصب ، أو شيء من الاشياء ٠

التربية والعلاج النفسي :

لا بد لنا بعد كل ما أوردناه عن منطلقات المعالجة النفسانيةوتطورها عبر القرونمن الانتقال الى الصورة التطبيقية للأسس والمباديء التي تعرضنا لها في مجال البحث على التربية ، سواء أكانت هذه التربية في البيت ، أو في المدرسة ، أو في البيئة والمجتمع ٠

وتطبيق هذه الأسسوالمباديء أصبحت في عصرنا الحاضر كما يرى علماء النفس ضرورية ليتحقق النجاح والتقدم في الأمور التربوية ، فنقدم للمجتمع الذي نعيش فيه جيلا واعيا مدركا من أصحاب الجسم والعقل السليم ، الذين من المفروض أن يتحلوا بالخلق القويم ، والارادة الصلبة ، التي تكون لهم شعاعا ينير أمامهم طريق الحياة المظلمة ٠

ولا بد للأسس العلاجية الصحيحة اذا ما طبقناها بدقة وانتظام وروية من تحقيق النجاح التام في دعم أصحاء العقول ، وارشادهم الى أحسن الدروب ، وأقوم السبل الى التخلص من عيوبهم النفسية الثانوية ، واستغلال نشاطهم الفطري ، والانتفاع بمواهبهم الطبيعية بعد صقلها وبلورتها الى أقصى حد ، واكتساب العادات والسلوك النافع ،والعواطف المثالية ، التي تخلق أجيالا نافعة لأنفسها ولأمتها ولمجتمعها ٠

وخير ما يفعله الأساتذة والمربين لبلوغ هذه الأهداف السامية النافعة هو الايحاء الذي اذا استخدموه بلباقة ومهارة أفادهم في توعية الناشئين ولفت نظرهم الى ما يتكوكب في أعماقهم من عيوب ، وارشادهم الى أحسن السبل للخروج مما هم فيه ٠

ومن هذا المنطلق التربوي الصحيح لا بد لنا من أن نضع أمام أعيننا ونحن نقوم بعملية التربية الشاقة ضرورة تشجيع الاطفال وعدم تثبيط عزائمهم ، والابتعاد عن وصفهم بالبلادة والخمول والكسل ، وضعف الامل في التقدم ، وقلة الثقة بالنفس ، وأن نحاول الوقوف تجاه تفكيرهم ، ونغلق المنافذ في وجوههم ٠

وليس علينا في هذه الحالة الا أن نخفف من نواحي ضعفهم ، ونوحي اليهم بلباقة وكياسة أن ما بهم من ضعف أمره هين ، يمكن التخلص منه بالتنبه اليه ، ومحاولة القضاء عليه بالمثابرة ، وصدق العزيمة ، وقوة الارادة ٠

ومن الخطأ أن نغالي في تقدير نواحي الضعف عندهم ، أو نتحدث عن أمراضهم العقلية أو الجسدية ، وأن نفرط في اعلاء شأنها وتعظيم أمرها ، ونحيطهم بأجواء وظروف من شأنها أن تزيد في أوجاعهم وأمراضهم ، وتضعف آمالهم في الشفاء ، كأن يلبس النساء الملابس السوداء ، ويجلسن حول المريض ، وعليهن مسحات من الحزن والكآبة ، ويتحدثن بعبارات هامسة كلها تثير الخوف والقلق ، وتزيد في الأوجاع ، وتدفع الى اليأس والقنوت ، وتضعف الامل بالشفاء ٠

وكم يكون الأمر أجمل وأبهى لو انهن لبسن من الثياب ما يفرح ويسر ، وظهرن بمظاهر تحمل الى النفس الفرح والغبطة والسرور ، وتحدثن بعبارات تبعث الامل والرجاء ، وتجعل المريض يحلق في أجواء توحي اليه بالصحة والشفاء القريب ،والثقة والاطمئنان ٠

ويلاحظ بعض علماء النفس ان لدراسة النفس الانسانية ومعرفة أماكن ضعفها وقوتها تأثير فعال في التربية ، لذلك أوجبوا على مربي الاطفال أن ينتبهوا الى عيوب أطفالهم حتى يعرفوها حق المعرفة، فيعاونوهم ويساعدوهم على معرفة أسبابها ، لأن هذه المعرفة ضرورية في التربية ، كما هي ضرورية في المعالجة النفسية ٠

ومن المؤكد ان اعتماد التلامذة على أنفسهم من أهم المباديء التي تهدف الى تحقيقها التربية الحديثة ، فجميع الأساليب التربوية الحديثة تعتمد على ضرورة اعتماد التلاميذ على أنفسهم وتقويم هذه الأنفس بالذات ، لأن ذلك أنفع وأدعى الى ثبات معلوماتهم في أذهانهم ، والانتفاع بها في حياتهم العملية المقبلة ٠

ويعتقد علماء النفس ان من واجب المربين دراسة علم العلاج النفسي،والالمام بمبادئه وطرائقه الماما خاصا يوافق مهنتهم التعليمية ، فان هذه الدراسة ـ بالاضافة الى أنها تساعد المربين في معالجة الامراض والعيوب ، تصلح نفسية المربين ، وتحسن أحوالهم الجسمية والعقلية والخلقية ،

وتعاون المربي على تقديم العون لمرضى العقول والأخلاق من الطلاب حتى يتمكنوا من التخلص من أمراضهم ، وفي تشجيع الاطفال العاديين ،وارشادهم الى أقوم السبل وأسهلها لتربية استعداداتهم ، والانتفاع بمواهبهم ، واكتساب الصالح من العادات والعواطف النافعة لهم في حياتهم ٠

ومن الطبيعي جدا اذا طبقت قوانين العلاج النفسي ومبادئه في التعليم ، والحياة المدرسية لكان الجو المدرسي جوا صحيحا صالحا ، يدخل الغبطة والسرور ، ويجعل الطلاب يتنسمون نسيم الأمل والتفاؤل ، فيقبلون على الدراسة بنفوس راضية ، وقلوب مطمئنة ، ولكانت علاقتهم بالمعلمون علاقة حب واخلاص ووفاء ، ومودة وصفاء ٠ علاقة يربطها الحنان ، ويشدها العطف من قبل المدرس ، والاحترام والطاعة من قبل الطالب ، ولاعترف المعلم بشخصية الطالب ، والطالب بشخصية المعلم ، ووثق كل منهما بنفسه وبالآخر ، ووجدت بين الشخصيتين رابطة تعاون وتآلف وانسجام ، لا أثر فيهما للتنافر والتخالف ، ولسار الجميع نحو الهدف الأمثل آمنين مطمئنين ، فرحين بمستقبل زاهر ينتظر الأمة والمجتمع ٠

واذا كان الطالب والمعلم بأمس الحاجة الى تطبيق أساليب المعالجة النفسية في المدرسة ، فالزعيم السياسي الذي يحاول قيادة الأمة الى المجد والازدهار ، والمصلح الاجتماعي الذي يهدف دائما وأبدا الى تقويم اعوجاج المجتمع والسمو به نحو الكمال ، فهما بأشد الحاجة الى تطبيق أساليب العلاج النفسي من الطالب والمعلم ، لأن علاج عيوب المجتمع ، واتجاهاته الخاطئة ، وأمراضه الاجتماعية التي تنوعت واختلفت في هذا العصر المتقدم في كل شيء ، يجب أن تخضع للمباديء نفسها التي يخضع لها علاج عيوب الفرد وأمراضه الخاصة .

ويرى علماء النفس ان من واجبات المصلح الاجتماعي أن يدرس أمراض المجتمع وعيوبه دراسة وافية دقيقة ، حتى يتوصل الى اكتشاف أسبابها الحقيقية ، والظروف الخاصة التي نشأت عنها ، فان مداواة هذه الامراض لا تنجع الا اذا سبقها تشخيص صحيح لها ، ومعرفة كاملة عميقة بأسبابها ، والظروف التي أوجدتها .

وقد يصبح من الضروري من أجل الوصول الى هذا الهدف تتبع تاريخ الأمة ، ودراسة الحوادث

الماضية ، التي ربما تكون مسئولة عن زرع بذور هذه الامراض كلها أو بعضها ٠

ومتى تحقق المصلح من أسباب الامراض بعد تشخيصها ، ومن الظروف والملابسات التي ساعدت على زرعها يستطيع أن يبدأ بمعالجة هذا المجتمع ، ومداواة أمراضه ٠ وليس العلاج المسكن الظاهر المؤقت بنافع ، لأنه لا يوصل الى نتائج حاسمة دائمة ٠ وانما العلاج النافع المؤدي الى تحقيق الأهداف المرجوة هو العلاج الحاسم ، الذي يستأصل جذور العيوب ، ويقضي قضاء تاما على الامراض ، ويجتثها من جذورها ٠

وهنا لا بد من مصارحة المجتمع ، وجعله يشعر شعورا تاما بأمراضه الاجتماعية ، وذلك عندما يشرع المصلح بتصوير هذه الامراض ورسم أسبابها ومعالمها ، وشرحها شرحا مستفيضا يتناسب مع الواقع والحقيقة ، وما يتوجب عليها من أضرار قد تحيق بالشعب ، ونتائج سيئة قد تنخر في جسم الأمة ،وتذهب بشخصيتها ومعالمها السامية ،وتجعلها لقمة شهية في أفواه الخصوم ٠

ولا بد لنا من الصراحة وقول كلمة الحق مهما

كانت الظروف قاسية ، ولا بد لنا من مواجهة بعضنا البعض بالحقيقة مهما كانت مرة هذه الحقيقة ، فقولنا واشارتنا الى المخطيء بأنه مخطيء وان كان هذا الانسان يمت الينا بصلة القربى أو النسب ، فالحق فوق القربى وفوق الصداقة وفوق النسب ٠

ومن المؤكد أن تكاتف أفراد المجتمع بعضهم مع البعض بقصد اصلاح عيوبهم وعلاج أمراضهم من الأمور الهامة الضرورية ، كمعاونة أعضاء الجسم الواحد بعضها لبعض على شفائه وصلاحه وتعاون أفراد المجتمع مع المعلمين والقادة على اصلاح المجتمع وتقدمه ضروري جدا ، اذ هو بمنزلة تعاون المريض والطبيب على علاج المرض ، وتعاون الطلاب وأولياء أمورهم على التربية الصحيحة ٠

ويرى بعض علماء المجتمع والاخلاق ان معاونة أفراد المجتمع لا تكفي اذا لم يبادر الزعماء المصلحين على تحسين أحوالهم وأحوال جماعاتهم ، ليعتمد المجتمع في وقتها على نفسه ، ولا يستسلم للقادة استسلاما تاما اذا لم يلمس لديهم الاستعداد للانقاذ والمعالجة ، لذا يجب أن يكون موقفه منهم موقف الحذر واليقظة ، والحيطة ، فلا يكتفي بالأدوية

التي يصفونها ، وأنواع العلاج التي يقترحونها ، بل يبحث عن أدوية أخرى ، ويمين له من نفسه رقباء عليه ، مرشدين له ، يتوسم فيهم الاخلاص ، لتطبيب نفوس أفراده المريضة ·

نحن لا ننكر ان مجتمعنا العربي قد أصبح مع مرور الأيام بؤرة يانعة لعدة عيوب ، فقد داهمته العلل الجسمانية ، وأصيب بسوء التفكير ، وسرت فيه الامراض الاجتماعية والخلقية سريان النار في الهشيم ، ولسنا بحاجة في هذه المجالة الى سرد هذه الأمراض ، كون الكل يعرفها ، ويحاول بينه وبين نفسه ايجاد الحلول لها ·

ويبدو أنه لا مجال للتخلص من هذه العيوب الا اذا رصت الصفوف ، وتكاتف الأفراد والجماعات وشكلوا قوة دافعة واحدة ، تتعاون بالسراء والضراء ، وتسير بدون كلل أو ملل حتى تتوصل بقوة ارادتها الى الهدف الامثل والاكمل ·

من المؤكد ان للوحي أو للايحاء في هذه الحالة المرضية الاجتماعية أثر فعال في علاج أمراض الفرد ، وتربية الناشئين ، لأنه من الملموس والمعروف في المجتمعات المتأخرة ان الأفراد مطبوعين

على أن يتأثر بعضهم ببعض ، فسرعان مـا تروج بينهم الاشاعات ، وتسير فيهم الافكار والآراء ، يتلقفونها من وسائل الاعلام ، أو من أفواه مـن يمنحونهم الثقة العمياء ، فيجعلون من هذه الافكار والآراء أفكارا لهـم ومباديء ، كأنهـا أفكـارهم ومبادئهم ° وكثيرا ما تنتقل الأوهام والخرافـات والمخاوف والأكاذيب من جماعة الى أخرى بهـذه الوسيلة نفسها كانتقال الامراض المعدية من المرضى الى الأصحاء ، فليتنبه المعلمون الى هذه الأمور ، وليعملوا على الاستفادة من هذه المظاهر النفسية في ترويج الافكار الصحيحة وبلورتها . والمباديء السليمـة التي تبث في نفـوس النـاس الشرف ، والنزاهة ، والمروءة ، والعزة القومية ، والكرامة الوطنية ، والثقة بالنفس ، والاعتماد عليها ، وقوة العزيمة ، وصلابة الارادة ، وغير ذلك من المناقب السامية °

وهنا لا بد لهؤلاء المصلحين من اتخاذ الايحـاء سلاحا ماضيا يستأصلون بواسطتـه شأفة المباديء الفاسدة ، والعقائد المادية الباطلة التي تخالـف الشرع والدين والمجتمع ، والتي انتشرت بين أفراد

الأمة ، تعمل في أخلاقها ومناقبها هدما وتخريبا ودمارا .

ان المجتمعات العربية بصورة خاصة والاسلامية بصورة عامة هي بأمس الحاجة الى مصلحين يتخذون تدابير علاجية حاسمة فعالة لقطع دابر الامراض والعلل بجميع أنواعها ، وهنا لا بد من الوقاية الفعالة للمحافظة على الأجيال الجديدة الصاعدة ، لتكون متمتعة بالجسم السليم والخلق القويم ، ولا سبيل الى ذلك الا عن طريق التربية الحديثة التي تقوم على أسس تربوية ناجحة منطلقة من قاعدة علمية صحيحة .

وهذه التربية الحديثة يجب أن تبدأ من توعية أولياء الأمور من جديد حتى يوفروا للناشئين تربية صحيحة نافعة ومفيدة للمجتمع والأمة والوطن .

وفي نهاية المطاف لا يمكننا أن نغفل ما للعلاج النفسي ومعرفة أصوله وطرائقه وأساليبه من منافع جمة تعود على الطبيب ، والمصلح الاجتماعي، والمربي . ولا نستغرب مطلقا أن تكون هذه الأمور العلاجية النافعة مهملة اهمالا تاما في بلادنا ، ولا

يعنى بها العناية الكافية ، سواء من قبل المجتمع أو المدرسة أو الجامعة ٠

ولا بد لأمة ترغب في النهوض من كبوتها من السعي لتخليص أطفالها عمدة المستقبل ، من الأوبئة والامراض التي يقعون فريسة لها ، وتعتريهم في بعض الأحيان الاضطرابات النفسية ، والحالات الانفعالية ، التي تقودهم الى مسالك الشذوذ في سلوكهم الاجتماعي والخلقي والتربوي ٠

فان لم نعيرهم الاهتمام ، ونقدم لهم العلاج النفسي المفيد ، الذي كان في السابق على رأس اهتمامات الآباء والأجداد الذين تربعوا على عرش الحكمة ، ومنهل العرفان ، ومنبع النور ٠وأوجدوا للغرب والشرق العلوم النفسية ، وطرق المعالجة النفسية ،وكشفوا عن معالم وأسباب كافة الامراض العقلية والعصبية والخلقية ٠ فلنا تاريخنا وحضارتنا فلنأخذ من جذورها ولنزرع هذه الجذور في بساتيننا وحدائقنا لتنير الطريق الطويل أمام أجيالنا الصاعدة ٠

« انتهى الكتاب »

فهـرس الكتاب

في سبيل موسوعة نفسية
٢٢

علم النفس الحديث

عرض وتقديم
الدكتور مصطفى غالب

منشورات
دار ومكتبة الهلال
بيروت - ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

١٩٨٣

الادارة العامة - بيروت شارع المقداد - بناية فرحات وحجازي
ص . ب : ٥٠٠٣ / ١٥

مقدمة

علم النفس الحديث تكتنفه في هذه الأيام المتطورة المتقدمة أزمات ومصاعب عديدة جعلته موضع نقد وتحليل من قبل العلماء المختصين في علم النفس ، وفي التحليل النفسي ، والمشاكل الفلسفية المرتبطة بجانب أو بآخر بالقضايا النفسية ، وما ينتج عنها من انفعالات واستجابات سلوكية نحو الذات الانسانية ونحو المجتمع البشري ككل .

واذا ما حاولنا سبر أعماق كل ما قيل ويقال حول علم النفس منذ سنوات طويلة وحتى عصرنا الحاضر لاحظنا أن المصادرات والمحكات والضوابط ومكانة هذه الأمور كلها من منطلقات العلوم الانسانية بصورة عامة والسيكولوجية بصورة

خاصة ، تقودنا الى ضرورة القاء نظرة عميقة على مزالق الدجماطيقية المدرسية أو العزلة عن تيارات فلسفة التصور والبحث في العلوم الانسانيــة لدى المعاصرين ٠

ولا يخفى أن بعض الاكتشافات العلمية الكبرى قد تحققت بفضل النقد الفلسفي المنهجي الذي مهد بدوره الطريــق لسلوك مناحي الدروب والمسالك لهذه الاكتشافات والابحــاث التي أوصلت انسان هذا العصر الى قمة العطاء والتطور ٠

وبعد هذه المرحلة الطويلة من تقدم وتطــور علم النفس وانصراف المهتمين بالقضايا النفسيــة عن علوم الفيزياء والكيمياء في تفســير الوظائــف الفسيولوجية في الصحة والمرض ، بالاضافــة الى تمسكهم بقواعد البحث التشريحي الهستولوجي أي علم الباثولوجيا على النحو الذي أرسى قواعــده بعض علماء النفس القدامى أمثال « فيركاو » ٠

وقد بلغ من شدة تمسك الاطباء بمنهج هــذه العلوم وتقيدهم بها في مجال الامراض العقليــة والنفسية ، وتخصيص أبحاثهم لمعرفة جذور هذه الامراض عن طريق الفحوص الميكروسكوبية لخلايا

المخ ، بهدف اكتشاف الخلايا التالفة وماهية هذا التلف الذي كـــان علة المرض العقلي أو النفسي حسب نتائج تجاربهم وأبحاثهم ٠

ولما اكتشف هؤلاء الاطباء أن أكثر الامراض العقلية انتشارا وهـــي الفصام بأنواعــه ومرض الهوس والاكتئاب ، فضلا عن الامراض العصابية على اختلاف أنواعها لا تعود الى أي نوع من أنواع التلف في خلايا المخ ، ولا الى أي اضطراب في كيمياء الخلايا العصبية اضطر أطباء النفس بعد تردد الى الاصغاء الى مشاكل التحليل النفسي ومكتشفاتــه السيكولوجية ٠

وهذا يعني أنهم توصلوا الى معرفـــة العليـــة النفسية ، حيث تبين لهم بما لا يقبل النقاش أو الجدل أن في الجنون عقلا ٠ لأن الحتمية السيكولوجية تدل على وجود علية نفسية في تكوين الأعراض ، وهذا يعني وجود دلالة في العقل والجنون على حد سواء ٠

ونلاحظ أن بعض علمـــاء النفس يفرق بـــين التفسير والفهم مـــن حيث ان ظـــاهرات العلـــوم

الفيزيائية تكون محلا للتفسير ، بينما طبيعة الظاهرات النفسية المرضية تستلزم أن يتجه التفسير فيها وجهة الفهم السيكولوجي لادراك المعنى ٠

واذا ألقينا نظرة خاطفة نحو الامراض العضوية في الطب العام لاحظنا أن الامراض النفسية الجسمية (قرحات المعدة ، والاثنى عشر ، وضغط الدم الجوهري ، وأمراض الحساسية) يمكن أن يختفي وراء أعراضها العضوية مشكلات نفسية ٠

وعندما تبين أن الأعراض العضوية في الامراض السيكوسوماتية يجب تفسيرها فهما للعنصر الانساني انسجاما مع مكتشفات التحليل النفسي في ميدان أمراض النفس ، تغلب الطب على عجزه في تناول الأعراض العضوية في الامراض السيكوسوماتية وعلاجها ٠ ولكن العنصر الانساني باعتباره النمط المنهجي المقبول في علم النفس عندما يحيل الامر كله الى « الأنا » في مواجهة مع أنا آخر بتشابك هذه بتلك ، فان النمط المنهجي في علم النفس يرتبط بضمير الغائب وينتقل علم النفس عندها الى ميدان العلوم الفيزيائية ، وهذا خطأ منهجي ينبغي أن يفهمه الانسان بأنه يقضي على فهمه عندما يتضح

أن الطب العضوي أصبح أكثر سيكولوجية من السيكولوجيا ذاتها .

وانطلاقا من هذه النظرية الخاطئة يجدر بنا أن نتساءل عن حال السيكولوجيا الحديثة بعد مرور ما يقارب خمسين عاما على نقد هذه النظرية ؟ ان المشكلة مع السيكولوجيا الحديثة تتلخص أنها وقعت في نفس الخطأ الابستمولوجي الذي وقع فيه الطب ، حيث شاء علماء النفس لعلمهم أن يدخل مجال العلوم المضبوطة ويحظى بما تحظى به هذه العلوم من الدقة والاحترام ، فأوجدوا آلات القياس الفسيولوجي في معامل علم النفس ، وانتهوا الى نتائج ما كان يمكن أن تكون الا من قبيل ما يحصل عليه علماء وظائف الاعضاء ـ نتائج لا تلقي أي ضوء على الانسان بما هو انسان .

هذه الأمور والمشاكل النفسية نعالجها ونبسطها في هذا الكتاب وكلنا أمل ورجاء بأن يحتل المكان اللائق به ويلقي نورا ساطعا على أزمات علم النفس في هذا العصر المتطور .

بيروت في ١٥/٤/١٩٨١

الدكتور مصطفى غالب

اسطورة علم النفس

اذا نظرنا بعين العقل والفكر الى السيكولوجيا الحديثة التي تختلف عن السيكولوجيا الناتجة عن محاولات نهاية القرن التاسع عشر بما تحتويه من مشاكل الاثبات والنفي المتصلة بهذه المحاولات ، نلاحظ أنها اذا لم تكن اليوم مؤكدة وثابتة فهي على الأقل أمل يرتجى تحقيقه في المستقبل ٠

وبالرغم من الجهود الجبارة التي يقدمها في كل مناسبة « دعاة المهادنة » لاظهار كفاية ومقدرة البناء الاساسي للسيكولوجيا العتيقة في مقارعة المتطلبات التي تحملها الحركة السيكولوجية الجديدة ٠ وفي خضم التردد من ناحية أكثرية السيكولوجيين ، فان الأبحاث التي نحن بصددها

تبدأ وتنطلق من تأكيد عدم كفاية السيكولوجيا العتيقة وشرعية أهداف ومنطلقات السيكولوجيا الجديدة . وهنا لا بد لنا من الاعتماد على المحاولات السيكولوجية الحديثة التي تحاول أن تبتعد عن مرتكزات السيكولوجيا العتيقة التي لاقت منذ وقت طويل تقدير علماء النفس ، والتعليم الرسمي .

ومما لا شك فيه بأن الوحدة هي بالتأكيد الحاجة الملحة لعلم النفس في هذه الأيام ، ولكن بناء علم لا يشمل فقط الادراك الواضح لأسسه وانما يتطلب في الوقت نفسه ازالة الاشكال الأسطورية التي تمر بها كل العلوم .

ولما كان أي علم من العلوم لا يمكن أن يكون وضعيا في صورتين معا أو في صور عديدة فان ازالة كافة الصور الخاطئة أو الناقصة ينبغي أن يصدر عن موقف واتجاه موحد .

واذا كانت الوحدة ينبغي أن تكون الموضوع الأساسي في المنهاج الدراسي فعلى الدراسة الحالية ألا تدع الوحدة في الوقت نفسه تهبط الى الحل الوسط ، وتبسيط الموقف الحالي بحيث نلاحظ من ناحية ، السيكولوجيا التي هي غير وضعية على

اسطورة علم النفس

اذا نظرنا بعين العقل والفكر الى السيكولوجيا الحديثة التي تختلف عن السيكولوجيا الناتجة عن محاولات نهاية القرن التاسع عشر بما تحتويه من مشاكل الاثبات والنفي المتصلة بهذه المحاولات ، نلاحظ أنها اذا لم تكن اليوم مؤكدة وثابتة فهي على الأقل أمل يرتجى تحقيقه في المستقبل .

وبالرغم من الجهود الجبارة التي يقدمها في كل مناسبة « دعاة المهادنة » لاظهار كفاية ومقدرة البناء الاساسي للسيكولوجيا العتيقة في مقارعة المتطلبات التي تحملها الحركة السيكولوجية الجديدة . وفي خضم التردد من ناحية أكثرية السيكولوجيين ، فان الأبحاث التي نحن بصددها

تبدأ وتنطلق من تأكيد عدم كفاية السيكولوجيا العتيقة وشرعية أهداف ومنطلقات السيكولوجيا الجديدة • وهنا لا بد لنا من الاعتماد على المحاولات السيكولوجية الحديثة التي تحاول أن تبتعد عن مرتكزات السيكولوجيا العتيقة التي لاقت منذ وقت طويل تقدير علماء النفس ، والتعليم الرسمي •

ومما لا شك فيه بأن الوحدة هي بالتأكيد الحاجة الملحة لعلم النفس في هذه الأيام ، ولكن بناء علم لا يشمل فقط الادراك الواضح لأسسه وانما يتطلب في الوقت نفسه ازالة الاشكال الأسطورية التي تمر بها كل العلوم •

ولما كان أي علم من العلوم لا يمكن أن يكون وضعيا في صورتين معا أو في صور عديدة فأن ازالة كافة الصور الخاطئة أو الناقصة ينبغي أن يصدر عن موقف واتجاه موحد •

واذا كانت الوحدة ينبغي أن تكون الموضوع الأساسي في المنهاج الدراسي فعلى الدراسة الحالية ألا تدع الوحدة في الوقت نفسه تهبط الى الحل الوسط ، وتبسيط الموقف الحالي بحيث نلاحظ من ناحية ، السيكولوجيا التي هي غير وضعية على

الاطلاق وفي ناحية أخرى تلك التي تريد أن تكون وضعية بشكل مطلق • وهذه هي في الحقيقة الثنائية الرئيسية التي توجد في أساس ومنطلقات كافة العلوم بالمعنى الدقيق للكلمة ، والتي منها انبثقت العلوم في سبيل الوصول الى تلك الوحدة التي نريدها اليوم للسيكولوجيا •

ومن المؤكد أن الحاجة الى نقد السيكولوجيا الكلاسيكية وارساء أسس السيكولوجيا الجديدة هي اليوم أكبر مما كانت عليه بالأمس • رغم أن هذا الهدف المزدوج عسير التحقيق بواسطة أفراد منعزلين ولا بواسطة اتجاهات ذاتية ، الا أنه في الحقيقة لا يعتني بهذه الأهداف في الوقت الحاضر سوى أفراد معزولين باتجاهاتهم الفردية الخاصة •

وليست الأخطاء ومحاولة اصلاحها الا مهمة تنبع بالتأكيد من الابحاث الوضعية الخاصة بالضرورة ، ولا يمكن أن يؤدي أي بحث من هذه الأبحاث التقويمية الى النتيجة المتوخاة كونه لن يوصلنا الى الرؤية المتكاملة للأخطاء ولا الى ادراك الاصلاحات في شمولها • وربما دفعت هذه الانواع من الاجتهادات الخاصة المعزولية عن بعضها البعض

أصحابها الى الاستعاضة عن العمق الكامل للنقد الذي يقدمونه عن الاصلاحات والتقويمات التي يحتاجها هذا النقد بتقديم أو اقتراح بعض الحلول الوسط التي لا تؤدي الا الى وضع العصي في العجلات وعرقلة التطور الحقيقي الفعال .

ويلاحظ علماء النفس الحديث من هذه الناحية اتجاهات بذاتها تكتفي بتأكيدات « دوجماطيقية » تقريرية كما يفهمها كنت حول جوانب هي نفسها التي ينفيها اتجاه آخر استنادا على نقد منظم .

ويؤكد البعض الآخر من علماء النفس أنه من الضروري اعتماد الحل الوسط مع السيكولوجيا الكلاسيكية أو بناء لفظيا بحت بالتعديل الذي هو الهدف الجوهري وسبب الوجود لقيام اتجاه آخر حديث .

ويرى البعض ضرورة الاعتماد على أساس ادراك ناقص لنقد أو لتعديل نظري أو منهجي ، بينما نلاحظ لدى اتجاهات عديدة أخرى النقد الكامل والمدقق لنفس النقد أو الفكرة أو المنهج أو النظرية .

وانطلاقا من هذه الأفكار نلمس ان جميع هذه الاتجاهات تقريبا تفتش عن السيكولوجيا الجديدة هنا وهناك كما لو كانت نوعا من حجر الفلاسفة ناسين أن هناك أبحاثا قدمت لا مجرد تعديلات طفيفة للسيكولوجيا الكلاسيكية بل فكرة ومنطلقات أساسية جديدة وكاملة ـ على الأقل بالنسبة للسيكولوجيين ـ تبدو في نهاية الامر أنها تجسيد السيكولوجية الوضعية ٠

واذا كان من المستحيل انتزاع الاختصاصيين من أبحاثهم الخاصة ، فان هذه المشكلة من الفهم التي تسمح اليوم لكل سيكولوجي بتحديد الظاهرة التي يشغل نفسه بها بدقة باعتبارها ذات دلالة خاصة ، هذه المشكلة ترجع ببساطة الى أن عدم اتفاق الرأي حول الميدان الصحيح لعلم النفس ، لا يعطينا المعرفة الدقيقة لما هو أساسي بالفعل ، وما هو ليس كذلك ، ويصبح الامر على غير ما نحب ونرغب ، وينبغي علينا أن نعتاد على فكرة أن كل ما يرتبط بأسس علم النفس لا يمكن تحقيقه بصفة قطعية الا بالعمل الجماعي اذ أن أي نظام فردي هو دائما بناء تعسفي وأن العمل الجماعي وحده يمكنه أن يصل الى هذا النظام العام ٠

ومن المؤكد أن تحقيق هذا المطلب لن يتـم الا بالتدريج ويتوقف بطء أو سرعة هذا التقدم على مواقف مختلف الاتجاهـات التي يحتـاج الامر الى ترتيب تماونها ، ولن نستطيع التقدم نحو ما هو أساسي الا بقدر ما تسمح لنا به تلك الحالة التي بلغتها السيكولوجية نفسها ، ورغم ذلك يمكننا أن ننطلق عن طريق النقاش باتجاه بعض النواحـي المسئولة أساسا عن الفوضى في الاتجاهات الحديثة لعلم النفس .

يعتقد بعض علماء النفس أنه ينبغي علينا باديء ذي بـدء أن نخلص ونعري القـرارات الخاصـة بالطريقة الحقيقية التي تطرح بموجبها مشكلـة السيكولوجيا في الوقـت الحاضر ، مـن التعسف الفردي أو الاقليمي . حيث يتجه أكثر السيكولوجيين الى التصرف كما لو كانت المشكلة يتوقف مصيرها عليهم وحدهم ليقرروا ما هو مقبول وما يحتاج الى اعادة النظـر ، أو مـا هو مرفوض ، في مسألـة سيكولوجيا الامس دون الالتفات بجدية الى الوضع القائم بالفعل في أيامنا هذه .

ونرى أن الواجب العلمي يدعونا الى ضرورة

تحديد الموقف الراهن نحو مشكلة السيكولوجيا والتدقيق بكافة الأمور التي تثيرها العلاقات القائمة بين مختلف الاتجاهات السيكولوجية الحديثة • رغم وجود بعض السيكولوجيين الذين لا يزالون حتى الآن يعتقدون أن الحركة الجديدة قد وضعت كل شيء محل التساؤل ما عدا فرض « الحياة الداخلية » لذا يجب أن نبدأ بصفة خاصة بتأكيد نقد المذهب القائل «بالحياة الداخلية» في كافة أشكالها وأنواعها وأسبابها ومسبباتها •

ولا يغرب عن بالنا أيضا ما يجب أن نفعله تجاه المنحى الذي يقوم على تركيز التفكير في أسس علم النفس حول عدد معين من القضايا والابحاث التي لا تتغير بالذات كما لو كان من المستحيل زحزحة مركز الثقل في علم النفس على سبيل المثال •

والجدير بالملاحظة أن المشكلة التي يطرحها علماء النفس في الوقت الحاضر بالنسبة لكافة القضايا هي احلال القرارات الجماعية بصورة مؤكدة وحتمية محل القرارات الفردية أو الاقليمية الخاصة •

ويرى هؤلاء العلماء الذين يدعون بأنهم ينهدون

الى الاصلاح والتقدم والتطور في مجالات علم النفس أنه لا بد من احلال المنهج مكان التقاليد الموروثة ، والافكار النابعة من التعقل والتأني والدقة محل الأفكار المأثورة التي أخذناها عن الماضي بما فيه من مصاعب وعراقيل وخرافات وأوهام وأساطير لا تمت الى الحقيقة والواقع بأية صلة ٠

ومن الضروري جدا ترتيب وتنظيم خطة عقلية منطقية للعمل الجماعي بدلا من الآراء والافكار فحسب ، وربما كانت مخالفة للحقيقة والواقع الفردية أو الاقليمية التي لا تعدو أن تكون محتملة أصلا وعلما وعرفا ٠

علم النفس ومصيبة النقد :

كان علم النفس ولا يزال موضع نقد وتمحيص، وتاريخه منذ خمسين عاما يظهر أنه عبارة عن سلسلة لا تنتهي من النقد والتعليق ، فالمدرسة العلمية على سبيل المثال تصدت لنقد السيكولوجيا الفلسفية القديمة ، ونقد جماعة « فوندت » السيكولوجيا العلمية ٠ وكذلك نقدت سيكولوجية العناصر الأولى الميكانيكية على يد سيكولوجيا عناصر تزعم أنها دينامية وعلى رأسها برجسون ٠

ولم يقف النقد والمناقشة عند هذا الحد بل تعداه الى نقد سيكولوجيا العناصر بصورة عامة من قبل الجشطالت ◦ كما نقدت السيكولوجيا التي لا ترقى الى الدلالات على يد سيكولوجيا الدلالات ذاتها ◦ وكذلك نقدت سيكولوجيا الروح على يد سيكولوجيا الشعور والاحساس ◦ كما نقدت سيكولوجيا الشعور والاحساس بواسطة السيكولوجيا التي لا تقر بالشعور ولا بالحياة الداخلية بصورة عامة مثل السلوكية عند واطسن ◦

ومن خلال هذه الحملات النقدية لكافة مظاهر علم النفس أطل علينا العالم النفسي « ليبنتز » ليقول بأن الفلاسفة كانوا على حق في ما يؤكدونه ومخطئون فيما يرفضونه ◦ في الواقع أن الابتعاد عن السيكولوجيا الفلسفية القديمة كان شرطا حيويا بالنسبة للسيكولوجيا العامة ◦

وفي الحقيقة أن سيكولوجيا العالم النفسي « فوندت » ليست هي السيكولوجيا العلمية الحقيقية والواقع أن مذهب الذرات الروحية لم يكن سوى اسطورة وخرافة ◦ ولكن حقيقي أن دينامية برجسون مثلا ليست سوى اسطورة أخرى ◦ ومن المؤكد مرة

اخرى أن السيكولوجيا التي لا ترقى الى الدلالات لا تتمكن أن يبلغ الانسان ، وهي بالتالي ليست سيكولوجيا حقيقية ، وصحيح أننا بالدلالات الموضوعية لم نتسلل كثيرا في سيكولوجية الانسان ، وصحيح أيضا أنه ينبغي استبعاد الروح أو النفس من جملة الموضوعات التي ينبغي أن تبحثها سيكولوجيا وضعية ، ومن الصحيح أيضا أن هذا ينطبق على الشعور نفسه ، وعلى الحياة الداخلية بصورة عامة ۰

ويذهب بعض علماء النفس الى أنه لا يعني انعدام النقد ما يلفت النظر عند السيكولوجيين فهم لم يهملوه ، بل تفوقوا فيه وحققوا تقدما غريبا ، حيث أننا نرى اليوم حركة ثانية حول أسس السيكولوجيا ، ومن حركة الأخرى نلاحظ تعميق النقد بشكل واقعي حتى شاهدنا نقد جوهر المشكلة يأتي في أعقاب نقد الشكل ۰

ومن الواضح أن ممثلي الحركة الأولى التي قام بها « فوندت » لم يأخذوا على السيكولوجيا القديمة سوى شكلها أي كونها تتحدث عن النفس وتمارس الاستبطان علنا ۰ ولكنهم لم يفكروا أبدا في نقد

الجوهر أي الخطوات التي أدت ـ في السيكولوجيا الفلسفية القديمـة ـ الى المقـاصد الميتافيزيقية والاستبطانية ، وكذلك مفاهيمهـا والمـادة التي تنصب عليها تلك المقاصد ٠

واذا كانوا قد استبعـدوا المذهب القديـم في الروح والنفس فانهم لم يفكروا في وضع ظواهر النفس التي لا تقل قدما موضع النقد ٠ وعوضا من اقامة سيكولوجيا جديدة فعلا لم يفعلوا شيئـا سوى الاحتفاظ بالقديم في ثوب جديد ، وكذلك اذا كان نقد الارتباطية بدأ بهوفدنج ووليم جيمس ، فان هذا النقد لم يتناول الا الشكل ، ولم يبحـث مسألة استبعاد هذه السيكولوجيا التي تتمحور في الكشف عن طريقـة ارتبـاط الظواهر النفسيـة ببعضها البعض بل انصب النقد فقط على الشكل الميكانيكي لمفهوم هذه العلاقة ٠

ولما بدأ برجسون مثلا في نقد السيكولوجيـا الكلاسيكية بشكل عام ، لم يبحث في مشكلة استبعاد هذا الاتجاه الذي لا يعرف سوى المشاكل الوظيفية ، وانما استبعد أساسها الميكانيكي فقط ، وكل مـا كان يريده في الواقـع هو أن يعيـدَ قول التعاليم الكلاسيكية بألفاظ دينامية ٠

وكذلك ما يختص بالمحاولات الموضوعية التي تهدف الى احداث « ثورة كوبرنيكية » في السيكولوجيا ، تتلخص في الانتقال من الملاحظة الداخلية الى الملاحظة الخارجية ، وهي لا تعني بالنسبة لبختريف ، مثلا أن السيكولوجيا ينبغي أن تعنى من الآن فصاعدا بمعطيات الملاحظة الخارجية وحدها ٠ فكأن بختريف هذا لا يعيب على السيكولوجيا سوى وضع تعاليمها في لغة الاستبطان، وكل ما كان يريده هو اعادة صياغة نفس هذه التعاليم ونفس الطريقة في النظر الى الانسان بلغة الفعل المنعكس ٠

ولكن المطلوب ليس الاكتفاء بنقد الشكل الذي أعطته السيكولوجيا القديمة لتعاليمها ، انما المطلوب هو أن تنقد كذلك الخطوات والأساليب التي أدت اليها ٠

السيكولوجيا وسلك العلوم :

من خلال نظرتنا الى تاريخ علم النفس القديم والحديث نلاحظ بعد فترة طويلة من الهدنة التي بدا أثناءها لأكثرية السيكولوجيين أن السيكولوجيا قد تخطت نهائيا المرحلة قبل العلمية ، وأنها قد

انتظمت بصورة فعلية ونهائية في سلك العلوم ، ولكن مشكلة الأسس لا تزال تثار من جديد ٠

وهذا يعني أن السيكولوجيين غير راضين عن النتائج ٠ وفي الحقيقة فانهم يأخذون على السيكولوجيا الكلاسيكية قضية تجاهلها وحدة الانسان وكليته ، وأنها اكتفت بالتأليف بين عناصر لا دلالة لها ، وأنها نظمت تجارب شديدة التجريد لا تتصل الا بالمشاكل الوظيفية التي لا يمكن تكاملها في الحياة الواقعية للانسان ٠ ويبدو كذلك أن هناك اجماعا حول هذه النقطة، اذ أصبحت هذه الانتقادات في نهاية المطاف حديثا مكررا بينهم ٠

ومن المؤكد أن السيكولوجيا الكلاسيكية التي تشمل كل هذه النقائص والمثالب قد أصيبت في الصميم ، ولكن الامر كما يلاحظ علماء النفس ليس كذلك ٠ فما أن تكلم الممثلون المتقدمون للحركة الجديدة عن ثورة في السيكولوجيا حتى قيل لهم أنه لا توجد أي هوة بين السيكولوجيا الجديدة وتلك التي اعتنقها الجيل السابق ، اذ يقال لهم بأن المطاعن التي توجه الى سيكولوجيا الأمس يمكن أن تنطبق عليها ، ولكنها في الحقيقة لا تنطبق كونها

تتعلق بمرحلة تخطيناها من قبل ، فاذا كان النقاد ينحون باللائمة على التحليل الى عناصر فان فوندت قد بيّن من قبل أن نتائج التركيب تختلف عن مجموع العناصر المكونةلهاو تتطلبدراسة مستقلة ٠

واذا كان يؤخذ عليها تجاهلها وحدة الانسان وكليته فليس من الصعب اثبات أن هذه المسائل قد شغلت دائما أفكار السيكولوجيين في الجيل الماضي ، وان محاولات برجسون قد اعتبرتها مركز أهدافها ومشاغلها ٠ واذا وجه اللوم الى السيكولوجيا الكلاسيكية على اهمالها وجهة نظر الدلالات فيرد على ذلك بأن السيكولوجيا الكلاسيكية هي نفسها التي أكدت أهمية النظرة البيولوجية طارحة بذلك ضرورة دراسة الوظائف السيكولوجية من وجهة نظر التكيف ، وبالتالي من وجهة نظر غائية محددة واضعة نفسها بذلك داخل مجالات الدلالات ٠ ولا يمكن لأحد أن ينكر على التجارب السيكولوجية الشهيرة قيمتها وحقيقتها ودوامها ٠

وانطلاقا من هذه الآراء يؤكد أنصار المهادنة ـ الذين يستحقون لقب رجال الاصلاح ـ في كل يوم ان لم نقل عدة مرات في اليوم الواحد أن كل ما

هو جيد في السيكولوجيا الجديدة قد أرادته وتوقعته بل وحققته السيكولوجيا القديمة ، وما عدا ذلك مبالغة وراديكالية رخيصة ٠

وهنا لا بد لنا من أن نتساءل كيف نتحدث اذن عن قطيعة بين سيكولوجيا اليوم وسيكولوجيا الأمس ؟ واذا لم تكن هذه القطيعة موجودة فان ما نتخذه أساسا للحركة الجديدة يفقد معناه ، فلماذا اذا نتحدث عن سيكولوجيا جديدة ؟

وهكذا نجد أن القائمين بالنقد الجديد هم أنفسهم الذين مهدوا الطريق لحجج الذين ينكرون قيمته ٠ ويظهر أنهم وجهوا انتقاداتهم بحيث يمكن التغلب عليها فورا ٠ ولما وصلت المسألة الى تحديد الادانة بدا أن هؤلاء السيكولوجيين يخافون من الدرع المدرسي للسيكولوجيا القديمة الذي انهالوا عليه نقدا ٠

ولما كانت الاكثرية منهم تشعر بحرج شديد أمام علم النفس التجريبي فهم يشعرون أن هناك نقصا رهيبا ، ولكنهم يخافون ـ دون أن يلمسوا مصدر خوفهم ـ رفض النتائج التي حققها علم

النفس التجريبي خلال سنوات طويلة من العمل ، تلك النتائج المستخفية في شكل دقة علمية بالغة ٠

وهنا اعتمدت الاكثرية على الحيلة ، فركزوا نقدهم للسيكولوجيا الكلاسيكية على وجه واحد لها وأكدوا أن المطلوب هو تجديد جزئي ، فعابوا على السيكولوجيا اهمالها البناء ، وأدخلوا البناء في حسابهم ، وبذلك اعتقدوا أنهم أصبحوا في مأمن عن التصنيف والنقد ٠

ولكن هؤلاء قد تناسوا أنهم لو كانوا قد شرعوا من وجهة نظر البناء لوصلوا الى كافة المشاكل التي تنطبق عليها اليوم وجهة النظر هذه ٠ وهكذا تخلصوا من النقد لكل ما هو متضمن في الطريقة التي تصيغ بها السيكولوجيا الكلاسيكية هذه المشاكل ٠ وسيكون من السهل على هذه الاخيرة أن تزعم أن الأمر لا يعدو اضافة شيء من الدقة في التفاصيل لا يستأهل الحديث عنها في عبارات طنانة رنانة ٠

ويلاحظ أن قسم آخر من العلماء كان أكثر حرصا فشرع في المعارضة ، وتجنب بسهولة الحكم على السيكولوجيا الكلاسيكية كما هي وقال انها

ليست كل ما ينبغي أن يكون . وأوجد شكلا جديدا للسيكولوجيا ناتجا عن تطبيق وجهة النظر التي يؤكدون أنها كانت غريبة ودخيلة على السيكولوجيا من قبل .

ولا ندري كيف تمتقد السيكولوجيا القديمة اذا هزمت ؟ على العكس انها تستطيع أن تعلن بصراحة ووضوح منجزا من منجزاتها التي وقف النقد بجانبها حائرا ولم يتمكن من مسها بسوء ، لأن النقاد يفضلون التغاضي على الهجوم .

ومن المؤكد أن أنصار المهادنة يمكنهم أن يثبتوا بسهولة أنه لا توجد موانع أو فواصل بين سيكولوجيا الأمس وسيكولوجيا اليوم طالما أن أحدا لم يحدد بوضوح المبدأ الذي يسمح له أن يمارس التسامح الذي يظهره في الواقع تجاه السيكولوجيا العلمية ، والشيء الذي يلفت النظر في هذه المشكلة اتجاه سيكولوجي الوسط باعتبارهم مرتبطين بالسيكولوجيا الكلاسيكية بحكم تكوينهم المهني ، وتشدهم في نفس الوقت المحاولات الجديدة ، فانهم يرغبون ويتوقون الى الجمع بين ما هو صحيح في الحركتين .

والغريب في الأمر أن هؤلاء يعتقدون أن بوسعهم

سلوك هذا الدرب ، فهم يرون مثلا : أن وجهة نظر البناء ضرورية ولكن لا يمكن الاستغناء عن دراسة العناصر ∘ حقا ان السلوكية اكتشاف عظيم ولكن دلالة السلوك لا يمكن فهمها الا عن طريق الاستبطان ∘ والسيكولوجيا الشاملة مهمة أيضا ولكننا ندين بالكثير الى تجارب السيكولوجيا العلمية ∘

ويعتقد علماء النفس أن هؤلاء يتلاعبون بالألفاظ ، فيقولون مثلا أنه ينبغي أن نأخذ ما يتفق والوقائع في كل من السلوكية وسيكولوجية الخبرات المعاشة ، ولكن لا بد من التساؤل أي نوع من أنواع الوقائع ؟ أهي الوقائع السيكولوجية كما تعرفها السلوكية أم كما تعرفها السيكولوجيا الاستبطانية ؟

ولما كانت تعريفات الاثنين متناقضة ومختلفة ، فما أن نقف الى جانب واحدة منهما حتى تسقط الأخرى تماما ، ويستحيل الجمع في نفس الوقت بين ما ينسجم مع الوقائع في الاثنين ∘ وحيث أن المشكلة في البحوث الوضعية لا تجعل من السخف شيئا قاتلا فانا نجدهم يأخذون بالتعريفين معا ، أو على الأصح يأخذون بواحد منهما مرة وبالآخر مرة أخرى حسب الظروف والحاجة ∘ وعلى هذه الصورة يقرون

بقيمة ظاهرة من وجهة نظر تستبعدها بعد ذلك وجهة النظر التي بمقتضاها سيعترفون بقيمة ظاهرة أخرى ، وهذا هو ما يسمونه « اعطاء النواحي الايجابية في كل اتجاه حقها » ٠

وفي الحقيقة لا يوجد منطلق عقلي واحد يمكن أن يسمح بالأسلوب الذي يريد به سيكولوجيو الوسط أن يتقدموا بالسيكولوجيا الجديدة تجاه هذا الوجه أو ذاك من السيكولوجيا الكلاسيكية ، ويحتفظون بما له وقع خاص عليهم ٠ وبالنسبة لهذه النتائج التي ربما كانت صحيحة تبرز مرة ثانية وجهة النظر التي أدت اليها ، وهكذا لا تجد السيكولوجيا الكلاسيكية سببا واحدا يجعلها تعتقد بالهزيمة من جانب هذه السيكولوجيا التي تعتمد على نفس مصادرها ٠

ومن المؤكد أنه لا يوجد حتى الآن سوى اتجاه واحد تبنى موقفا نقديا واضحا وقدم صيغة محددة في ادانته للسيكولوجيا السابقة عليه ، وفي نفس الوقت حكما واضحا يحكم بموجبه على ما يقبله أو يرفضه ٠ هذا الاتجاه هو السلوكية بالمعنى الحقيقي الدقيق للكلمة ٠ فللمرة الأولى لا يتوقف رفض

نتائج ما أو نظرية ما على مصادفات التقديرات الفردية . فقد رفضت كل ما يتضمن بأية طريقة فرض الحياة الداخلية .

وبواسطة هذه الطريقة تم استبعاد وجهة نظر الواقعية ، التي تعني واقعية الحياة الداخلية ، فرغم وضوح الحكم فان الدقة تنقصه . ذلك أنه قد تكون هناك ـ الى جانب الواقعية ـ عدد من المسلمات التي ينبغي نقدها مثل المسلمة الكلاسيكية القائلة بأن الظاهرة النفسية ينبغي أن تكون ظاهرة حسية . ومن هذه الناحية لم يفعل السلوكيون شيئا سوى المعارضة وحسب لأنصار الحياة الداخلية دون أن يخضعوا المسلمة نفسها للنقد . ولما لم يتم أي تأليف فان التضارب لا يمكن أن يستقر ، وظل هناك خط مشترك بين السلوكيين واللاسلوكيين ، مما جعل السلوكيين يقنعون غالبا بالنقل الحرفي البسيط .

هذا هو وضع الفرض الاساسي ، الذي بنفيه لواقعية الحياة الداخلية ، يميز السلوكية كلها ، الفسيولوجية منها وغير الفسيولوجية ، وهذا يعني أنه بواسطة تفسير معين « للمنبه ـ الاستجابة » نصل الى تعريف حقيقي للظاهرة النفسية .

ومن المؤكد أن هذا ليس سوى مسايرة وخضوعا لوجهة النظر البيولوجية • ولما كانت هذه النظرة غير غريبة على سيكولوجيا الامس ، فانها لا ترى في السلوكية بالمعنى الدقيق للكلمة ، الا استخداما سيئا لمبدأ طيب ، وبمقدورها أن تطالب بالعودة الى استخدام سليم ، أي استخدام لا يستبعد الحياة الداخلية •

ويذهب بعض النقاد الى أنه لا يستطيع أن يفهم الآن لماذا يجعله النقاد الآخرين لا يحس الا قليلا بأنه لا توجد في السيكولوجيا أمور محسوسة • فهي حينا ذات نظرة أحادية الجانب ، وحينا آخر تحتاج الى كافة المباديء الواضحة المتماسكة، بحيث تتملص بعض جوانب السيكولوجيا التي يجب استبعادها • وبحيث يوجد دائما في الاتجاهات الحديثة ثغرات تسمح لسيكولوجيا الامس بالتسلل في سيكولوجيا اليوم • وهذا هو السبب في أننا نجد دائما في كل هذه الاتجاهات الحديثة ، وتحت مختلف الاشكال ، النظام القديم لظواهر الروح •

وربما تكون أساليب ومسلمات السيكولوجيا الكلاسيكية مستقلة بعضها عن بعض ، ومن الجائز

بصورة خاصة ان الواقمية التي هي أساس النظام الكلاسيكي لظواهر الروح مرتبطة ارتباطا وثيقا بغيرها من الأساليب التي تقوم الاتجاهات الجديدة على نفيها . وقد تكون واقمية ظواهر الروح لا تستقيم مع وجهة نظر الدلالات . ولكنه من السهل اثبات ان السيكولوجيا التي تنهد الى تطبيق وجهة نظر الدلالات مع احتفاظها بالواقمية ، والتجديد الذي تريد ادخاله ليس تجديدا ولا يتعارض مع السيكولوجيا الكلاسيكية . ويمكننا في هذه الحالة أن نثبت رغم التطور أننا ما زلنا في مكاننا نراوح .

وانطلاقا من هذه الآراء ينبغي أن نلتمس المذر لهؤلاء العلماء الذين لا يريدون الاعتراف بوجود هوة لا يمكن ردمها بين السيكولوجيا الحديثة وسيكولوجيا الأجيال السابقة . وفي الحقيقة فان وجود القاعدة الاساسية للسيكولوجيا الكلاسيكية أعني واقمية ظواهر الروح وكل ما يرتبط بها داخل السيكولوجيا الحديثة يسمح للسيكولوجيا الكلاسيكية بالتعرف على نفسها في الحركة الجديدة، ولا يكون من حقنا نظرا لوجود هذه الرابطة المتينة

أن نتحدث عن هوة بين هذين النوعين من السيكولوجيا ٠

الصلة غير منقطعة بين سيكولوجيا الامس واليوم :

من المؤكد أن أنصار المهادنة ينحرفون أكثر ما ينحرفون عندما يرون أنه ليست هناك صلة منقطعة بين سيكولوجيا الامس وسيكولوجيا اليوم ، لأنه بالفعل ليس هناك ما يقتضي ذلك ، ولا ينبغي معارضة السيكولوجيا التي لاقت خلال زمن طويل تقدير واحترام التربيةالرسمية بسيكولوجيا أخرى مختلفة عنها تماما ، يمكن أن تعوض عنها ٠

ويعتقد بعض علماء النفس أن هذا الامر حدث مرتين عبر تاريخ السيكولوجيا عندما شعر علماء النفس أن في سيكولوجيا جيلهم شيئا يجب استبعاده، لذا حاولوا الاستبعاد مرتين ٠ حاولوا في المرة الأولى معارضة ما نسميه بالسيكولوجيا بواسطة السيكولوجيا الجديدة ، أي التي صفت ما كان يجب تصفيته ٠ ولكن هذه التصفية لم تكن كافية ٠

وهذا هو بالضبط كل دلالة الحركة المعاصرة ٠ فالمدافعون عن الأدلة الكلاسيكية يبرهنون دون

صعوبة أن السيكولوجيا الجديدة لم تأت بأي تغيير أساسي في أي مسألة جوهرية • وهم بذلك يقدمون البرهان في الحقيقة على أن التصفية الثانية هي كالأولى غير كافية •

وهنا نجد أنفسنا كما يقول بعض النقاد أمام تفسيرين ممكنين • لذا يمكن القول أن الحركة الجديدة لم تنجح في ايجاد هوة بين سيكولوجيا الامس وسيكولوجيا اليوم ، لأنه لا مكان لهذه الهوة من حيث أن الحركة الجديدة لم تفعل شيئا سوى تقديم بعض المطالب التي تستطيع سيكولوجيا الجيل الماضي أن تفي بها تماما •

وعلى العكس بمقدورنا القول أن عجز السيكولوجيا الجديدة عن ايجاد هذه الهوة لا يعني كفاية السيكولوجيا القديمة في مواجهة المتطلبات الجديدة ، بل يعني في الواقع عدم كفاية المحاولات المعاصرة •

ولما كان الاحساس بعدم كفاية السيكولوجيا القديمة يكاد يكون عاما ، فلا يبدو لنا السيكولوجيا القديمة منسجمة ومقبولة ، كون المدافعين عنها قد نجحوا في اثبات أن أحدا لم يدخل عليها أي تغييرات

تذكر . وقبل أن نقتنع بالمسلمة التي تشمل كل محاولة لاصلاح السيكولوجيا واقامة سيكولوجيا جديدة في مواجهة السيكولوجيا الحالية ، لن يتاح لها الا احداث بعض التقويمات الطفيفة لأنه لا يوجد في سيكولوجيا الأمس ما ينبغي تصفية أساسية .

وقبل أن نقتنع بهذه المسلمة يجب أن نتحقق منها بواسطة المحاولة الجذرية بالفعل . طالما خرجنا من تدقيقنا السريع لعمليات النقد السيكولوجي باعتبار أن كافة المحاولات التي جرت كانت جزئية ومفككة . ولذا تكون الحجة الكبرى لانصار المهادنة ليست سوى مجرد تحصيل حاصل . ذلك أن هذه الحجة لا تتجاوز القول بأن الاصلاحات الجزئية هي اصلاحات جزئية .

ومن كل هذه الآراء نخرج بنتيجة حقيقية استخلصناها من الوضع الذي أتينا على ذكره وشرحناه ، هي أن الحركة النقدية الثانية لم تنجح هي الأخرى في تصفية ما كان يتطلب منها تصفيته .

صياغة السيكولوجيا من جديد :

يتساءل بعض نقاد علم النفس هل يمكن اعادة

صياغة السيكولوجيا من جديد ، وكيف يمكن تحقيق هذا المبدأ الهام بالنسبة لعلم النفس الحديث؟ مما لا شك فيه أن العلماء على مختلف اختصاصاتهم يشعرون منذ حوالي خمسين عاما أنه قد آن الأوان لكي ينتقل علم النفس من المرحلة قبل العلمية الى المرحلة العلمية ، نظرا لوجود شيء ما في السيكولوجيا يقف حائلا دون هذا الانتقال ، لذا ينبغي محاولة ازالته ٠

ولكن أحدا من هؤلاء العلماء لم يتمكن أن يبين بدقة الطبيعة الحقيقية لما ينبغي ازالته ، ويعرف كيفية معرفة ما اذا كانت فكرة ما أو نتيجة ما في السيكولوجيا علمية أم قبل أن تصبح علمية ٠ وفضلا عن ذلك فانه في كل مرة حدثت محاولة لصياغة تعريفات أساسية يتوضح لنا بعد فترة وجيزة أنها غير قادرة على القيام بهذه المهمة ، ويتبين دائما أن الأساس الذي ينبغي تصفيته ظل على ما هو عليه ، ولم نتوصل الى عبور هذا الممر الكبير ٠

وهذا هو السبب في أن السيكولوجيا تعاني من الاسراف في النقد ٠ فما أن بدأت مرحلة النقد حتى

تأكد بأنها لن تبلغ هدفها ما دام هذا النقد غير مجدي • ولا يمكن تفسير فعاليته بسبب نواقص فردية ، انما هي على العكس تكشف أن مسألة أساسية قد نجحت في التخلص من كل فحص وتدقيق •

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن الفكرة الأساسية التي حركت نقاد السيكولوجيا حتى اليوم هي أن ذلك الجزء من الفلسفة الذي حظي بشرف تدريسه رسميا تحت اسم السيكولوجيا أو ميتافيزيقا الروح هو الشكل قبل العلمي للسيكولوجيا الوضعية • فلا بد أن تكون هناك علاقة استمرار بين السيكولوجيا قبل العلمية والسيكولوجيا الوضعية بالرغم من الهوة التي أحدثها اختلاف المناهج واتجاه البحوث والنتائج •

وهذا الاستمرار الذي يوجد بين مرحلتين من تطور محدد ، وهذه هي الفكرة الرئيسية التي قال بها فوندت وغيره من النقاد المحدثين ، تدعونا الى الدهشة والاستغراب كون هذه الحركة التي ترفع شعارات البناء أو الوحدة أو الكلية تطبق وجهات نظرها على كل شيء سوى محاولة اصلاح السيكولوجيا نفسها •

والاتجاه السائد في هذه المحاولات الجديدة يتألف في الواقع من انتزاع مفهوم السيكولوجيا الجديدة من السيكولوجيا القديمة نفسها • فبوضع نقطة من هنا ونقطة من هناك في السيكولوجيا الكلاسيكية ، قد توهم واعتقد هؤلاء أنهم بهذا الفعل قد أنجزوا اصلاحا جذريا • انما عدم فعالية النقد ربما يكشف بالذات عن خطأ هذه المسلمة ، وأن الاصلاح المطلوب يشمل ويتضمن تضحية أكبر مما ذهب النقاد الى تحقيقه ، وحاولوا دائما وأبدا الكشف عن مضامينه بدون جدوى •

هل نقطع كافة العلاقات بالسيكولوجيا القديمة ؟

نحن لا ننكر وليس بمقدور غيرنا من علماء النفس أن ينكروا أنه من الممكن أن يكون الاصلاح هو عبارة عن قطع كافة الارتباطات بالسيكولوجيا التي وجدت حتى عصرنا الحاضر • ومن يعلم ؟ اذا ما كان من المستطاع أن تقوم سيكولوجيا علمية تحل محل السيكولوجيا القديمة ، فمن الممكن أنه لن يكون بينها وبين ما نسميه سيكولوجيا حتى تلك العلاقة الموجودة بين الفيزياء الحديثة وفيزياء أرسطو •

واذا ما حاولنا العودة الى جذور السيكولوجيا لنلاحظ فيما اذا كانت توجد حقا مجموعة من الظواهر الحقيقية التي تبرر قيام علم جديد ضمن علوم الانسان ٠ ولكن ينبغي أن نسقط لذلك من حسابنا ذلك المنظور الخاص بصدد الانسان الذي يقدمه لنا البناء المركزي للسيكولوجيا الحالية ٠

ونحن من جهتنا لا نرى أننا مضطرون اطلاقا للبحث عن صيغة توافق في نفس الوقت سيكولوجيا الانسان والحيوان ، حتى ولو أدى الامر الى الوصول الى مفهوم ينطبق على الانسان فقط ويستبعد الحيوان ٠ كوننا اذا بحثنا عن صيغة سيكولوجية يمكن أن تنطبق في نفس الوقت على الانسان والحيوان ينبغي أن تكون هناك تربة مشتركة بينهما ، مما سيدفعنا الى وجهة النظر البيولوجية ، وهي نظرة أسيء استخدامها في السيكولوجيا الكلاسيكية ٠

ويمكننا أن نذهب الى القول بأننا نبحث كما بحث الكثيرون غيرنا من قبل المعطيات المباشرة التي يجب أن تنطلق منها السيكولوجيا ٠ ولكن ما تعنيه المعطيات المباشرة لدى الكتّاب الذين نشير اليهم

يتضمن كل ما سبق من مهام السيكولوجيا وطريقة وضع خططها وتحديد مشاكلها ، فما هي تلك المعطيات المباشرة كتلك التي يقول بها برجسون والتي تشمل القيام بمهام استغرقت ألفين من السنين من العمل الفكريوَالأبحاث الجدية المتواصلة والتجارب المستمرة ؟

من المؤكد أننا لا نبحث عن المعطيات المباشرة ، بل نحاول معرفة ما اذا كانت هناك ظواهر حقيقية تبرر قيام السيكولوجيا . ولا يهمنا ما اذا كانت تعتبر مباشرة أو غير مباشرة . كوننا لا نهدف الى معالجة صفاتها المباشرة الا بقدر ارتباطها بمهام السيكولوجيا .

واذا حاولنا أن نأخذ وجهة النظر هذه بعين الاعتبار تبين لنا أنه توجد الى جانب ظواهر التنفس والهضم وافراز الغدد ظواهر أخرى مثل الزواج والجرائم وممارسة المهن ، والعمل بالصناعات ، ويتضح لنا أيضا أنه يوجد بشكل عام الى جانب مخطط الطبيعة مخطط آخر انساني . وكلمة الى جانب ليست دقيقة تماما لأننا انما نعيش أولا وفق المخطط الانساني وينبغي أن نقوم بمفهوم تجريدي

خاص لنخلص الطبيعة في شكلها النقي الموضوعي من علاقاتها الانسانية ٠

وبنفس الطريقة فالى جانب الحياة البيولوجية توجد حياة انسانية ، وهذه الاخيرة هي ما نقصدها عندما نقــول ان الحياة صعبــة على بعض الناس وسهلة على البعض الآخر ، ولفظة الى جانب هنــا غير دقيقة أيضا لأن تجربتنا اليومية المباشرة تقدم لنا الحياة في مظهرها الانساني ٠

ومما لا جدال فيه أن خبراتنا اليومية تضمنــا أولا وقبل كل شيء موضع الدراما ٠ وما الاحداث التي تحدث لنا الاحداث درامية ٠ ونحن نلعب هذا الدور أو ذاك ٠ وأن النظــرة التي نلاحظ بهــا أنفسنا هي أيضا نظرة درامية ٠ فنحن نعرف أننا قد قمنا بدور أو شاهدنا هذا أو ذاك من التصرفات أو المشاهد ، ونتذكر قيامنا على سبيل المثال برحلة، أو رؤيتنا لأناس يتصارعون ويتنازعون في أحــد الأماكن أو أننا دعينا لالقاء محاضرة ، ومقاصدنا أيضا درامية ، فنحن نريد الزواج أو الذهــاب الى السينما ٠ ونحن أيضا نفكر ونتأمل في ذواتنــا وأنفسنا بشكل درامي ٠

ونحن نعرف بعضنا البعض في اطار درامي ٠ والجانب الدرامي هو وحده الذي يهمنا في الحياة اليومية ، وكل ما نبحث عنه ونحاول معرفته هو كيف يتصرف فلان في موقف بعينه ، وما الذي يجب عمله حتى يتصرف على نحو معين بدلا من نحو آخر ، وما الذي يحكيه أحدنا للآخر ؟

هل الدراما مادة للعلم والمعرفة ؟

يعتقد علماء النفس أن الدراما التي ذكرنا بعض معالمها ربما تكون في مواجهة الطبيعة مجالا أصيلا ، لأن هذه الأصالة بمفهومهم ليست جوهرا ينبغي أن نوجد له كيانا ميتافيزيقيا لم يسبق وجوده مطلقا ٠ فالزواج مثلا يحدث في المكان كالهضم والتنفس سواء بسواء ، وكذلك الجرائم والحماقات والصراعات والمنازعات والحياة الدرامية كلها بشكل عام ، وهذا يعطينا الدليل على أن الخبرة الدرامية ذاتها لا تشكل ادراكا فريدا في نوعه غير الادراك التقليدي ٠

ومن المؤكد وجود مادة لعلم أصيل مبتكر في الدراما ٠ فعلوم الطبيعة التي تهتم بالانسان انما تدرس في الحقيقة ما يتبقى عندما نجرد الانسان

من صفته الدرامية ° ولكن ارتباط كافة الاحداث الانسانية ، ومراحل حياتنا ، وأهدافنا ، ومجموع الاشياء والمشاكل الخاصة بنا التي تحدث بين الميلاد والموت تكون مجالا محددا تماما من السهل التعرف عليه ولا يختلط بوظائف الاعضاء ° وهو قابل لدراسة لأنه لا يوجد سببواحد يدعونا الى افتراض أن هذه الحقيقة تفلت بأعجوبة من كل حتمية °

ونظل في حاجة لمعرفة لماذا ارتكب هذا الانسان تلك الجريمة في تلك اللحظة ، وما الذي جعل فلان الشاب ، الجميل الذكي الأنيق الفني أن يتزوج فلانة العجوز ، القبيحة ، الفقيرة ، ولماذا تظهر الأحداث وكأنها تضغط على فلانا بينما يتخلص غيره من مآزق ومواقف أشعد صعوبة °

ونلاحظ أن العلوم المعروفة بالأخلاقية ـ علوم الانسان ـ كالتاريخ والاجتماع أو الاقتصاد السياسي غير قادرة على الاجابة وحدها عن هذه الأسئلة ° فاذا كان التاريخ وعلم الاجتماع ليست سوى علوما درامية ، فانها لا تتناول الا الاطار العام الذي تجري داخله دراما كل جيل ، والمواضيع العامة التي تكون وتؤلف وتشكل الاحداث

الدرامية أشكالها الخاصة ٠ ولكن الأحداث الدرامية لها دائما أشكالها الخاصة التي لا يمكن للتاريخ أو الاجتماع أن يفسرها ٠ ففلان لم يكن ليتزوج فلانة اذا لم يكن الزواج في بيئتنا نظاما اجتماعيا ، ولكن تقرير هذه الحقيقة لا يحدد الدراما في نوعيتها الفردية ٠ كذلك يظهر لنا الاقتصاد السياسي الظروف الاقتصادية للجريمة ، ولماذا يتحتم أن توجد الجرائم في المجتمعات البورجوازية ولكنه لا يبين لنا لماذا يرتكب شخص بعينه جريمة بعينها ٠

ويذهب العلماء المختصين بالقضايا التعليمية الى أن علوم الطبيعة لا تدرس الا « الميزانين » المادي للدراما ، والعلوم « الاخلاقية » لا تهتم الا بالاطار العام والدوافع الاكثر عمومية ، فيوجد اذن مكان لعلم بعينه يدرس الدراما في واقعها وخصوصيتها المحددة ٠

ويلاحظ بالاضافة الى ذلك أن هذا العلم لن يخترع أو على الأقل لن يخترع بأكمله ، كوننا نجد تحققا أوليا له في تاريخ طويل من التقاليد المعروفة لنا جيدا ٠ ففي الملاحظات التي نستطيع جمعها من خلال خبراتنا الدرامية ، وفي التواتر

الذي نراه فيها يقيم كل منا لنفسه في الحقيقة نوعا من الحكمة تختلف درجة عمقها وصحتها وهي ما نسميها بالمعرفة العملية بالانسان ٠

وهذه المعرفة العمليــة ترتبط بالدراما فقط وهي ليست مجرد مجموعــة مــن المعارف خاصــة بحقيقة أخرى غير الطبيعة ، توصلنا اليها بادراك يختلف عن الادراك العادي ، ولها ميزة المرور الى طبيعة ثانية ٠ انها ليست الا تعميقا معينا لخبراتنا الدرامية المباشرة ٠ فالتاجر مثلا يضع على سلعته السعر ٢٠٠ قرشا ، والرجل المجرب يقول : اتبع المرأة تهرب منك ، واهرب من المرأة تتبعك ٠

هذا الأسلوب وهذه التقريرات ناتجــة عــن استقراء لا يخرج عن نطاق الدراما في أي لحظة ٠ والأمر كذلك في الأدب والمسرح ٠ فليس في الرواية ولا في المسرح سردا لاحداث تدور حول عمليــات فريدة في نوعها يكون الممثلون فيها شخصيات غير مألوفة في الخبرة الانسانية ، بل على العكس نجدها تقتطع من الخبرة العامة أجزاء لها دلالة خاصة ، وتقدم للمشاهدين أشخاصــا تعيش وتضطرب في الحياة ٠

ولكن هذه العادات والتقاليد الدرامية ليست بعد علما ، فالمعرفة العملية بالانسان فيها كل نقائص التجريبية البدائية ، فعملياتها غير منظمة وتنقصها الدقة وعامرة بالأحكام المسبقة الاخلاقية والاجتماعية ٠

ويلاحظ كذلك أنها لم تحرز أي تقدم منذ قرون عديدة مما يحدونا الى القول بأن الانسان ظل كما هو ٠ أما بالنسبة للأدب والمسرح فقد عاشا على نفس هذه الأسس تقريبا أو اكتفيا بتتبع تطور الانسان كما تحدده الظروف الاجتماعية والاقتصادية مقدمين رؤى لا تحليلات ، أي فنا لا علما ٠

ويظهر أن المشكلة تتلخص في انتقال تقاليد وعادات المعرفة التجريبية بالانسان من مرحلة التجريبية ، الى مرحلة العلم الوضعي ٠ وهنا نقابل السيكولوجيا كما جاءت تاريخيا ٠ فهي تدعي أنها حاولت انجاز هذا الانتقال ٠ فالسيكولوجيا كما يؤكد السيكولوجيون هي التي رفعت المعرفة العملية بالانسان ، الى مستوى العلم لأنها هي التي نظمت بشكل أعمق خبراتنا اليومية المرتبطة

بالانسان ، مثلما نظمت الفيزياء تعميقا منهجيا لخبراتنا اليومية بالطبيعة ٠

هل الخبرات السيكولوجية الكلاسيكية مختلفة عن الخبرة الدرامية ؟

عندما تأكدنا بأن السيكولوجيا تستوحي بالرغم من تأكيداتها مفاهيم مختلفة تماما عن تلك التي دفعتنا لنشاهد ضرورة قيام علم جديد بين علم الانسان ، لاحظنا أن الخبرات التي تدلنا عليها السيكولوجيا الكلاسيكية هي مختلفة تماما عن الخبرة الدرامية ٠ لأن خبراتنا الدرامية هي الحياة بمفهومها الانساني ، وشخصياتها رجال يضطربون في الحياة بشكل أو بآخر ٠ وحتى مسرح أحداثها الجزئية يتضمن الانسان في شموله ٠ أما الخبرات التي تقدمها لنا السيكولوجيا فتتألف من عمليات ليس لها شكل أفعالنا اليومية ٠ وهي في الحقيقة تحدثنا عن التصورات بأنها ترتبط ببعضها البعض والميول تستيقظ والغرائز تستثار ، وبدلا من الأحداث الانسانية نلاحظ عمليات يؤكدون لنا أنها مقتطعة من واقع نادر هو : الواقع الروحي ، فبدلا من الدراما الانسانية نرى دراما أخرى تؤدي

أدوارها شخصيات مجهولة لا تماثلنا في شيء : تصورات ، وصور ، وغرائز •

ومن المستحيل أن نتعرف على ذواتنا فيما ترويه السيكولوجيا لأنها ليست معطيات عن حوادث انسانية ، استيقظت مبكرا في الصباح للقيام بنزهة في الغابة ، وقابلت هناك الحارس الذي قال لي : لقد تغيرت غابة البلوط عما كانت عليه منذ ثلاث سنوات ، وعما قريب سيصبح شأنها شأن قلب المدينة •

وفي الحقيقة بمقدورنا جميعا أن نتخيل شخصيات هذه الحكاية • ولكن ما تقدمه لنا السيكولوجيا ليس سردا عن أشخاص ولكنه سرد يدور حول أشياء ، مثلا وجد أحد التصورات نفسه بالأمس ملاحقا لتصور آخر ، وعاد اليوم الى الشعور واصطحب الثاني معه ، لا يمكن لأحد أن يتمثل المنظر الذي يحدث هنا ، فعبارات هذا السرد ليست لها أي دلالة انسانية •

ويذهب علماء النفس الى أنه على العكس فان البناء المنطقي للخطوات التي أدت الى المفهومات والعلاقات المتضمنة في هذا السرد الاخير يمكن أن

تنطبق هي بالذات على أي ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة : مثلا الذرات ، أو الحجارة ، أو الأخشاب • وهذا هو ما أدركه بعض علماء النفس عندما قال بأن قانون الارتباط بالنسبة للظواهر العقلية مثله مثل قانون الجاذبية العام بالنسبة لظواهر الطبيعة •

وهذه الأمور تؤكد لنا أن السيكولوجيا قد أقامت بجوار الطبيعة ، طبيعة أخرى موازية لها ، تتألف هي أيضا من ظواهر وعمليات فريدة في نوعها • ففي مقابل دراسة الواقع الفيزيقي بما هو واقع توجد دراسة الواقع السيكولوجي المتفرد بما هو كذلك ، وفي مقابل ظواهر الطبيعة توجد ظواهر الروح ، وفي مقابل فيزيقا الظواهر الطبيعية توجد فيزيقا التصورات • وقد بدأت السيكولوجيا الحديثة شأنها شأن الفيزياء الحديثة بالميكانيزم لتتجه بعد ذلك الى الدينامية • وهكذا نجد الى جانب الفيزياء فيزياء أخرى •

ومن المؤكد أن هذه الفيزياء الثانية يمكن استبدالها بمجموع البشر الذين يقوم كل منهم بمفرده بدوره في الدراما ، تستبدل بهم عالم العمليات الروحية الفريد ، تماما كما استبدلت

الفيزياء العالم الفريد للمـادة بمجموع الآلهـة والجنيات وآلهة الحقول ◦ وبدلا من النسق الذي تتوزع فيه الدراما على مجموع الشخصيات الفردية والأحداث الدرامية تناولت السيكولوجيـا المظاهر الكبرى للطبيعـة الروحيـة : الادراك الحسـي ، والذاكرة ، والارادة ، والذكاء ، وكرست نفسها لدراستها كمـا كرست الفيزياء نفسها لدراسـة المظاهر الكبرى للطبيعة : الحركة ، الحـرارة ، الضوء ، والكهرباء ◦

وبالرغم من اعتراف السيكولوجيا بالشخصية لكل فرد ، فان ذلك الاعتراف لا يبدل مـن تلك الطبيعة الثانية تماما ، كما لا يغير الاشكال المعينة للأشياء الماديـة مـن قوانين الميكانيكا ◦ فمثـل الشخصيات الفردية بالنسبة للطبيعة الروحية مثل الساعة المصنوعة مـن الذهب الخالص بالنسبـة للذهب الخالص ، أو الماسة بالنسبة للماس ، والمادة الكيميائية المتفردة بالنسبة لحركات الذرات ◦

هل بمقدورنا استبعاد ظواهر الروح ؟

مهما لاحظ علماء النفس من شرعية وقانونية التشويه الذي أنزله علم النفس بالدراما ، فلا

مندوحة أن هذا التشويه يشمل استخدام التقاليد والعادات الاحيائية ، واذا كان بعض علماء النفس قد استبعد الروح من السيكولوجيا فان ذلك لم يكن له الا قيمة ضئيلة لأنه لم يستبعد ظواهر الروح ، وانطلاقا من هذا الرأي نبعت الظواهرية باستمرار من واقعية ظواهر الروح . وأوصلتنا الى أسس سيكولوجيا الظواهر ، كما أدت بنا قبل ذلك ميتافيزيقا الروح ، الى التقاليد والعادات الاحيائية التي تنتسب اليها كل من الروح والحياة الداخلية الروحية .

ويذهب بعض علماء النفس أنه لا فائدة هنا على الاطلاق من اثارة مشكلة أصل الاحيائية . والشيء الوحيد الذي يلفت نظرنا هو أن المعتقدات الاحيائية لا علاقة لها بمعرفة الانسان كما هو في واقعه الملموس تماما كما أن لا علاقة لها بالطبيعة . فما تنتمي اليه هذه المعتقدات شيء مختلف تماما ، ذلك أن الوظائف التي يقوم بها مفهوم الروح هي في جوهرها وظائف دينية ، والمشاكل التي تهتم بها هذه المعتقدات هي ما ترتبط بالحَياة في عمومها والموت والبداية والمصير .

وليست الخبرة الدرامية التي أشرنا اليها

تستدعي أي معتقد احيائي ، لأن معرفة الانسان لا تحتاج أبدا الى معرفة نظام ظواهر الروح ٠ وهذا ما لاحظه علماء السيكولوجيا بالذات عندما قاموا بعدة دراسات وتجارب حول هـذه الناحية الهامة ٠

وربما يوجد ما هو أكثر من ذلك ، لأن البحوث الخصبة في السيكولوجيا الحالية هي بالذات المستقلة عن التقاليد والعـادات الرئيسيـة للسيكولوجيـا الكلاسيكية ، مثل علم النفس الصناعي ٠ فالبحث في كيفية تأثير الاضاءة على العمل مثلا لا يشمل أي فرض خاص بالحياة الداخلية للعامل ٠ وكذلـك تقرير أن اتخاذ الأدوات هذا الشكل أو ذلك يزيد أو يقلل بنسبة معينة من انتاجية العمل ٠

ونلاحظ من جهة أخرى أن بعض العلماء الذين بحثوا هذه المشاكل لم يكونوا سيكولوجيين بفضل أبحاثهم في ظـواهر الروح ٠ انمـا على العكس بمقدورنا أن نذهب الى أن الروايات والمسرحيات الرديئة هي التي تتأثر بالذات بالنظام الذي نعرفه عن ظواهر الروح ٠ والمرء بمفهومنا لا يتجـاوز الدلالات الانسانية عند قراءة رواية أو مشاهـدة

مسرحيــة ۰ لأن فهــم الدلالات الانسانيــة شيء واصطناع الفروض حــول العمليــات الداخليــة الروحية شيء آخر ۰ وشرح المنظر الدرامي بمنظر درامي آخر ، وشرح الكل عن طريق عمليات العالم الروحي يمثــلان أسلوبين في المعالجــة مختلفــين تماما ۰

ويرى بعض العلماء الذين تناولوا هذه المشاكل بالبحث والمناقشة أنهم قد وجدوا في السيكولوجيا تنظيما أرقى للمعرفــة العمليــة بالانسان ، كما وجدوا موقفين متناقضين : أحدهما الموقف الدرامي المتمثل في المعرفــة العمليــة بالانسان ، وفي الأدب والمسرح والآخر الموقف الاحيائي ۰ والموقف الاول حسب اعتقادهم هو وحده الذي يرتبط بالدراما ، بينما الروح لا الانسان هي مركز الثاني ۰

ويذهــب بعض علمــاء النفس الى أن هــذان الموقفان قد التقيا في لحظة معينة ، لذلك لا بد لنا من معرفة لماذا تم هذا اللقاء ؟ من المؤكد أن الموقف الدرامي لم يكــن بحاجــة الى الموقف الاحيائي ۰ والدليل على ذلك أنه رغم سيطرة الموقف الاحيائي لمدة قرون عديدة وضغطه على الموقف الدرامي فان

هذا الأخير استطاع أن يحافظ على ذاته بدرجة نسبية من الصفاء • وقد ظلت المعرفة العملية بالانسان ولا زالت أبدا خارج نطاق السيكولوجيا الرسمية رغم جهود بعض السيكولوجيين الذين أقلقتهم كفاءتها فأجبروا على اقامة الصلات بها حتى تظهر السيكولوجيا الرسمية باعتبارها النظام العلمي للمعرفة العملية بالانسان •

أما بالنسبة للرواية والمسرح فان البحث عن المظهر العلمي مع قلة فائدة هذا البحث ، فهو الذي قاد في الفترة الاخيرة رجال الأدب نحو السيكولوجيا • وعلى العكس فان الموقف الاحيائي كان يحتاج دائما الى الموقف الدرامي • لأن كافة العادات والتقاليد الميتافيزيقية قد حاولت أن تتجاوز الشكل الاسطوري البحت الذي ظهرت به أولا ، وحاولت أن تفرض نفسها كتفسيرات فعلية للحقيقة والواقع •

وكذلك الموقف الاحيائي اضطر حتى يعطي نفسه وجها ايجابيا ، أن ينقل معطيات المعرفة العملية بالانسان الى ميدانه ويترجمها في لغة احيائية • وبفضل الرباط بين الموقفين الاحيائي والدين احتل هذا النقل مركز الصدارة ، وهكذا

حل الموقف الاحيائي تماما محل الموقف الدرامي . وكان يتفق في المقام الاول مع الاتجاه المسيحي للتفكير الغربي الذي ارتبطت به الفلسفة بصورة نهائية . ان الاهتمام بالدراما لا شأن له بمشكلات الخلود والخلاص اللذين كانا محل اهتمام الاحيائيين .

ومن الواضح أن كل هذا النظام الذي انتهى بالانفصال عن الفلسفة تحت اسم السيكولوجيا لم يكن له من عمل الا النقل على نحو يزداد انتظاما ودقة ولكنه خاضع دائما للاهتمامات الاحيائية .

وكان من الممكن أن يوافق انتقال الاهتمام من الدراما الى الاحيائية ، مع السيكولوجيا العلمية ، بأن تؤدي الاحيائية في السيكولوجيا دور الفرض المنتج .

وكل الحيل والفروض العلمية رغم ما يظهر من أنها تشوه وقائع الخبرة المباشرة فان سمتها الأساسية أنها تسمح بالحصول على معارف جديدة وتقود العلوم بشكل عام من الشكل الميثولوجي الى الواقع . أما الاحيائية فعلى العكس يظهر أنها تقود السيكولوجيا في الطريق المضاد .

فهي لا تحمل الى المعرفة العملية بالانسان أي معرفة جديدة ، بل ان الاحيائية نفسها صارت تعيش معيشة طفيلية وذلك عن طريق النقل • ان المعرفة العملية الصحيحة بالانسان أتت عن طريق الخبرة الدرامية • ولا يمثل الموقف الاحيائي في الواقع أي معرفة فعلية بالانسان لأنها ليست الا نظرية ذات مفهوم واحد ، خطة كبيرة للتفسير لا تستطيع أن ترشدنا الى كيفية الحصول على معارف جديدة ، وانما تعرف فقط كيفية اعطاء شكل معين للمعارف المأخوذة من مصادر أخرى •

وفي الحقيقة أن السيكولوجيا عاشت خلال قرون عديدة على نفس أسس المعرفة الوضعية • فبينما أصبحت الاعمال الفكرية لعملية النقل أكثر دقة ظلت المعرفة العملية بالانسان عند نفس النقطة ، لأن المشكلة ظلت هي معرفة كيف يجب انجاز النقل •

ويعتقد علماء النفس ان هذا هو السبب في أنه منذ أرسطو حتى فوندت لم تكتشف السيكولوجيا ظاهرة جديدة واحدة • أما بالنسبة لفوندت فما هي الظاهرة الجديدة التي اكتشفها ؟ يقول علماء

النفس أنهم لا يرون لديه ظاهرة سيكولوجية واحدة لم يرد ذكرها بطريقة أو بأخرى في التراث اللغوي ، أو معروفة من قبل لفلاسفة العصور الوسطى ٠

أما أولئك العلماء الذين يسمونه مصلح السيكولوجيا الحديثة أمثال « برجسون » فهل قدم لنا ظاهرة سيكولوجية جديدة تستحق هذا الاسم ؟ على العكس ، من السهل أن نلاحظ ـ اذا ما استبعدنا مسائل النقل ـ أنه سار على نفس أسس المعرفة التي سار عليها بقوة ٠

ان هذه التسمية والألقاب والنعوت الطفيلية التي أطلقت على فوندت لا تحمل على البحث للنقل وهي التي أضاعت على فوندت وغيره من العلماء فرصة الانتقال من السيكولوجيا قبل ـ العلمية الى السيكولوجيا العلمية ـ ذلك أنهم أرادوا اضفاء الشكل العلمي على اطارات وصيغ النقل دون أن يشغلوا بالهم بأن المعارف الفعلية التي نجدها في أساس النقل لا زالت قبل علمية لأنها بكل بساطة جمعت بواسطة العمليات البدائية للمعرفة العملية بالانسان ٠

وبمقدورنا أن نقول بأن هذا هو مثلا حال كل

النظريات العلمية عن الحلم التي تحاول الوصول الى تفسير فيزيقي كيميائي للحلم بوصفه عاطلا عن المعنى ، بينما أثبتت الأساليب التقليدية المعروفة للمعرفة العملية بالانسان بعد صقلها صقلا بسيطا، أكدت أن للحلم تفسيرات ومعاني ٠

وهذا الاكتشاف ليس كل ما في المشكلة ، باعتبار أن النقل الاحيائي يمكن أن يستبدل بالدراما عالم الروح وظواهرها أي أن نستبدل بها طبيعة ثانية ، وان هدف النقل هو التعبير عن الدراما بعبارات الطبيعة الثانية هذه ٠ غير أنه لا يوجد أي تشابه بين المستوى الانساني والعالم الروحي ٠

انطلاقا من هذا الرأي وجب اختراع اجراءات تسمح بالذهاب والاياب بين الاثنين ، وتحويل الدراما الى طبيعة ثانية ٠ لذلك يمكن تحويل الأحداث الدرامية الى عمليات روحية ٠

ولما كان كل قطاع درامي يشتمل بالاضافة الى مشهديته الميزانسين المادية دلالة تعطيه قيمته الدرامية ، فقد انصب اهتمام السيكولوجيا على هذه الدلالات الدرامية لتحويلها الى عمليات روحية ٠

ويلاحظ علماء النفس ان هناك مجموعة كاملة من النظريات الأساسية في السيكولوجيا الكلاسيكية لا هدف لها الا العمل على تحول الدلالات الى عمليات ٠ وهذه هي مثلا حالة مشكلة التوازي بين اللغة والفكر ٠ فهي تسمح بتحويل قواعد اللغة قبليا الى سيكولوجيا ، والامر بالمثل في النزعة السيكولوجية ٠

وفي الواقع ليست السيكولوجيا سوى ارتداد الى المنطق من حيث أن السيكولوجيين أقاموا سيكولوجيا الفكر عندما نقلوا قبليا ، المنطق الى عمليات روحية ، وسعوا لاضفاء الشرعية على هذه العملية باعتبارهم اياها نوعا من البديهيات ، ووقع المناطقة من أنصار النزعة السيكولوجية ببساطة ضحايا لزيف السيكولوجيين الذين لم يعترفوا بأن المنطق انما هو سيكولوجيا الفكر ، الا ليستطيعوا أن يبحثوا عن سيكولوجيا الفكر في المنطق ٠

ومن المؤكد أن حقيقة الحياة الروحية تعني بدورها خطوة أخرى ، فالدلالة متى تذكرها اعتبرت كغيرها من الحقائق ، أي أضحت شيئا ٠ وبذلك ترفع من نظام العلاقات الدرامية ، وتوضع

تحت تصرف العلاقات الظواهرية ، كتلك التي تستخدم في علوم الطبيعة ٠

وعلى هذه الصورة تبدل الدراما شخصياتها ، فبعد أن كان الممثل الوحيد الممكن للخبرات الدرامية هو الفرد المفرد ، فان خطوات الواقعية الروحية تحول كل منتجات هذه الخطوات الى ممثلين ٠ وهكذا بدلا من الحصول على المجموع الدرامي ، نحصل على مجموع آخر لا تستطيع سوى اللغة المقتبسة من الطبيعة الأولى أن تعطي لموضوعه معنى ٠ فلم نعد نبحث مسألة انسان قتل انسانا آخر على سبيل المثال وانما نبحث أثر تصور معين على تصور آخر ، العلاقات الميكانيكية ، والدينامية ، والحيوية ، والاقتصادية القائمة بين الظواهر النفسية ، وتسلسلها واندماجها: أي نستبدل بتاريخ الاشخاص تاريخ الأشياء ٠

ويذهب علماء النفس الى أن الواقعية الروحية مجبرة على الغاء الدراما عن طريق تحطيم المجموعات الدرامية ، وتقديم الوقائعيات في حد ذاتها ومن أجل ذاتها ٠ وهذه الخطوة الاخيرة هي ما نطلق عليه التجريد ٠ فنحن مثلا نقول ان

السيكولوجيا التي تستبدل بتاريخ الاشخاص تاريخ الأشياء ، والتي تلغي الانسان وتقيم مكانه العمليات ، والتي تبتعد عن المجموع الدرامي للأفراد وتقترب نحو المجموع اللاشخصي للظواهر التي هي سيكولوجيا مجردة وتتصف بالتجريد ·

والتجريد بحد ذاته الذي يشتمل على الواقعية الروحية يتضمن بدوره الشكلية · فبينما تعود الخبرة الدرامية بكل شيء الى المستوى الانساني والى الفرد الذي يمارس الحياة ، فان الدراسة الواقعية الروحية والمجردة لا تتمكن الا من دراسة الظواهر النفسية · وهي تدرس الظواهر النفسية كما تدرس الظواهر عامة : بطريق التصنيف الى فئات ، من حيث أنه لا يوجد علم الا بالعام · فعوضا عن الاعتبار الدرامي للافراد نجد السيكولوجيا بوصفها علم مفهومات الفئات ·

ومما يلاحظ أن السيكولوجيا الكلاسيكية قد ركزت منذ عهد فوندت حتى برجسون كل انتباهها على الفئات الكبرى للظواهر النفسية : الادراك الحسي ، الصور ، الانفعالات ، الاستجابات ، السلوك ، الارادة ···

أما في مواجهة الحدث الدرامي فلم يكن لـدى السيكولوجيين سوى اهتمامات شكلية وصورية : ما هو دور الصور في الحلم ؟ ودور الاحساسـات ؟ والعواطف • هـذه هي المشكلـة النموذجيـة في السيكولوجيا الكلاسيكيـة • فهـي تلغي الدلالـة الخاصة للظاهرة التي تنشغل بها ولا تحتفظ الا بالشكل : وهذا هو ما نسميه بالشكلية • فنحـن نعتبر أن كل سيكولوجيا يسير بحثها وفق مفهومات الفئات التقليدية ، والتي تطرح مشكلاتها بواسطة هذه المفهومات ، سيكولوجيا شكلية •

وبفضل الواقعية الروحية والتجريد والشكلية حدث التحويل من الدراما الى العمليات الروحية • وهذا هو السبب في أنه من الصعب اقامة سيكولوجيا جديدة على أساس نفي خطوة كالتحليل الى عناصر ، اذ أن هذا التحليل لا يتناول الأسس نفسها انما يتعرض للنتائج فقط •

هـل يمكـن ربط الخبـرة الدراميـة بالتقاليـد الميتافيزيقية ؟

اذا كان النقل الذي تحدثنا عنه لا يمثل بأي حال من الاحوال توفيرا ميتافيزيقيا فلا يمكننا في

هذه الحالة أن نتحول من ترف ميتافيزيقي الى اقتصاد ميتافيزيقي عن طريق استخدام النقل الذي ذكرناه ٠

من الواضح أن نتيجة هذا النقل ليس سوى اعادة ربط الخبرة الدرامية بتقاليد لا شك أنها ميتافيزيقية ٠ وهنا تجد دراسة الانسان نفسها وقد تعقدت من جراء المشاكل التي تدور حول الروح ٠ ولكن مع كل هذا يمكننا الاستغناء عن ذلك ٠ لأن الدراما يمكن أن نقسمها ونقطعها الى آلاف القطع ثم نبني بعد ذلك بعض القطع الفسيفسائية المختلفة ٠ وهذا يعني بعد أن نعرف أننا نكتب بشكل أفضل على الورق الابيض بالقياس الى الاصفر ، ونقول أن خطنا أحسن وأجمل بالقلم الثقيل عنه بالقلم الخفيف ، وأن فينا هذا أو ذاك نتيجة الخبرات الداخلية حيث السهولة والصعوبة تعيش على شكل مخالف لأية عيشة أخرى ٠

ولا ندري ما الذي يستفيده من يريد أن يعرف طريقتنا في العمل من أن يحيا مرة أخرى في توادد هذه السهولات أو الصعوبات،ومن الافضل الاهتمام بالعمليات التي تسمح لنا أن نتخطى هذه العموميات

في موضوع العمل ٠ فالنقل دائما وأبدا يقودنا مما هو ميتافيزيقي على نحو طفيف الى ما هو ميتافيزيقي على نحو أعظم دون فائدة ٠

ويؤكد بعض علماء النفس ان المشكلة الجوهرية ان هذه المنجزات لا تقبل في الأذهان ، لأن الحقائق الوحيدة هي الطبيعة الفيزيقية من جهة ، والدراما من جهة أخرى ٠ وبين هذين الاثنين تهدف منجزات السيكولوجيا الى أن تنغمس ، ولكن لا يوجد بينهما مكان لدراما ليست دراما لأنها تريد أن تكون دراما بالمعنى الصحيح ٠

ومن هنا يتبين لنا ان النقل لا يقودنا من ميتافيزيقيا طفيفة الى ميتافيزيقا كبيرة ، الا لأنه يريدنا أن ننتقل من الحقيقي الى الاسطوري ، فهو يقودنا ويجرنا في الحقيقة الى تصور للدراما يلغي الواقع ٠

ما هو الفرق بين الدراسة المباشرة للدراما والدراسة غير المباشرة ؟

يجرنا هذا الاستعراض الى نوعين من السيكولوجيا ٠ ولكن التعارض بين هذين النوعين

ليس تعارضا بين نوعين يحتملان الصدق ، بل بين نوعين أحدهما صادق والآخر ليس به شيء من الصدق ٠

والأول هو الدراسة المباشرة للدراما ، والثاني هو الدراسة غير المباشرة ، الاول يدرس الدراما ذاتها عن طريق العمليات العادية للمعرفة العملية بالانسان ، والآخر يدرس عن طريق النقل للدراما بواسطة عمليات هي ـ وفقا للهدف الاول الذي يحركها ـ ملائمة ومنسجمة مع نتائج هذا النقل ٠ وفي طياتها تندس عن طريق الصدفة عمليات دراسة الدراما نفسها ٠

وهذان الشكلان من السيكولوجيا ينصبان على نفس الخبرة ، لأنه لا يمكن أن توجد خبرتان تستطيع كل منهما أن تولد شكلا صحيحا من السيكولوجيا ٠ فلا توجد سوى خبرة واحدة تبرر وجود هذا العلم ، لا توجد سوى خبرة سيكولوجية واحدة ألا وهي الدراما ٠

ومن المؤكد أن الطريقة الأولى في البحث ناتجة عن دوافع احيائية ، وهي دوافع ميتافيزيقية وليست عملية ٠ فعوضا عن الدراما نجد نقلا لها في

رموز احيائية بواسطة مجموعة من الشخوص المجردة والشكلية ، وبينما الدراما أقرب لنا بكثير من كل هذه الرمزية للظواهر السيكولوجية ، لأننا نجدها (الدراما) في خبرتنا اليومية ، فان هذا الشكل الاول للسيكولوجيا يحولنا بلا فائدة الى نظام من العمليات والمسلمات والمفاهيم لا تؤدي بدراسة الدراما الى أي تقدم ، ويغرق البحوث السيكولوجية في عقم البحث التصوري الخالص ٠

واذا اعتبرنا أن الرمزية العلمية لا تحركها دوافع غريبة على العلم ، نلاحظ أن النقل على عكسها فهو يضبط وينظم الابحاث بأن يمدها أكثر انسجاما ومطابقة لموضوع البحث ٠ فالسيكولوجيا العلمية لا يمكن أن تعود الى الخبرة السيكولوجية الحقيقية وهي الدراما ، وقد تبتعد عن الخطوات التي يتم بها النقل ٠

وعلى العكس فان كل سيكولوجيا تعتمد على النقل بطريقة أو بأخرى ، والتي تستخدم عن وعي أو عن غير وعي ، عن فطنة أو غير فطنة ، اراديا أو لا اراديا ، الخطوات التي سبق أن ذكرناها ، هي سيكولوجيا أسطورية بقدر ما تستخدم من تلك

الخطوات ٠ وهـــذا هو السبب في أننا نقــول أن السيكولوجيا منذ خمسة وعشرين عاما هي أسطورية تماما ، وأن كافة الاتجاهات الجديـــدة أسطورية جزئيا ٠

وبعد كل هذه الآراء التي قدمناها لا نرى أننا سوف نحصل على معارضة اجمالية بين السيكولوجية العلمية حقا وبين السيكولوجيا الاسطورية ٠ لأننا نعلم حق العلم ممـــا يتكون الاساس الاسطـــوري للسيكولوجيا ٠ ولكن ربمـــا نشأت هنا مشكلـــة جديدة ومعقدة ٠

يعتقد علماء النفس أنه لا يكفي لأي نظام حتى يصبح علمـــا أن نزيـــل الأسس الاسطورية التي يتضمنها ٠ فداخل هذا النظام الذي يصبح وضعيا تماما لا يأتي كل الخلل من الاساس الاسطوري ، اذ توجد مفهومات وأشياء مقررة ، ونظريات ليست منافية للعلم ، ولكن قبل علمية فقط ٠

وطالما أشرنا الى ما لا يمكن أن يكون علما في مادة السيكولوجيا ورأينا من الواجب تركه ورفضه باعتباره أسطوريا ينبغي أن نعلم الآن كيف يمكن

أن نعرف ما يجب الاحتفاظ به من هذا الملم ، على أن نتمكن من تحديده وتعميقه ، ونفهم أيضا معاني هذا التحديد وذلك التعميق في نفس الوقت .

وهذا يعني بالنسبة الينا بعد أن وصفنا علم النفس العلمي في مقابل علم النفس الاسطوري ، ينبغي أن نوجد قاعدة تجيز لنا مقابلته بعلم النفس قبل العلمي ، وهذه المقابلة المزدوجة هي وحدها الكفيلة التي تسمح النقد باطلاق حكم قطعي واضح على سيكولوجيا الماضي .

هل يمكن تحرير السيكولوجيا من الواقعية ؟

المشكلة الدقيقة التي يواجهها علماء النفس الحديث تعني ضرورة الدقة في موضوع السيكولوجيا . ولما كان الاتجاهين النقديين اللذين سبقت الاشارة اليهما لم يأتيا بأي وضوح في هذه المشكلة . لأن كل الفرق بينهما من هذه الناحية أن ممثلي الاتجاه الاول كانوا يريدون ادخال الضبط العلمي المثالي لعلوم الطبيعة الى السيكولوجيا دون أي تبصر .

أما الاتجاه الثاني فكان يهدف أن يرد الاعتبار

لخصوصية الظاهرة النفسية • ولكن لما كانوا يفسرون هذه الخصوصية بطريقة واقعية روحية لم يصلوا الى تحرير السيكولوجيا من المثل الأعلى الأول للدقة ، الذي لم يدخل الى السيكولوجيا الا من جراء الواقعية • ونشأت حول هذه النقطة صعوبات أدت الى استمرار المناقشات حولها ، فكان البعض يعتقد أن الطريقة المضبوطة الوحيدة هي تطبيق القوانين الرياضية واستخدام الاجهزة التجريبية ، بينما كان البعض الآخر يرى أن هذا مستحيل بالنظر الى خصوصية الظاهرة السيكولوجية فمن ناحية يوجد اتهام بالمظهر العلمي ومن ناحية أخرى اتهام بالنزعة الادبية • وهذه هي النتيجة الصحيحة الوحيدة التي وصلت اليها تلك المناقشة •

والعقبات التي تعترض هذه المناقشة هي أن ما أرادوا ادخاله في السيكولوجيا ليس الدقة على وجه العموم ، وانما دقة من نوع خاص • فالواقع أنهم لم يبحثوا عن صياغة شروط هذه الدقة بحيث يكون تعريفها مستقلا عن أي مضمون ، بل كان هدفهم الدقة أو الضبط الذي يحتوي مسبقا مضمونا محددا من حيث العدد والحجم •

وهكذا تناسوا أو بالأحرى غضوا الطرف عن

هذه المشاكل لأن تحديد صيغة ذلك الضبط بشكل عام ليتفق مع السيكولوجيا يشتمل تجديدا جذريا ، على حين أن صيغة الدقة العليا كانت جاهزة وحاضرة من قبل في علوم الطبيعة ۰ ولهذا حاول مصلحوا السيكولوجيا أكثر من مرة تطبيق قاعدة الجهد الأقل ۰

ومهما يكن الأمر فلا ينبغي الخلط بين الضبط الذي يميز العلوم الوضعية عموما وبين الجهاز الرياضي ۰ حيث يسمي علماء النفس الفيزياء علما مضبوطا رغم أنها ليست بالدقة أو المعقلانية الكاملة ، ولا يمكن أن يضفى عليها هذه التسمية لمجرد أنها تشمل صيغا رياضية ۰

ولما كان لكل علم وضعي ضبطه الخاص به ، فالفسيولوجيا لها ضبط خاص بها ، ولا يقتصر هذا الضبط على استخدام الرياضيات ، وانما بسبب اختزالها المنظم للوقائع الفسيولوجية الى ظواهر فيزيائية كيميائية ۰

واذا اعتبرنا أن العلوم الوضعية البحت تشتمل نوعا من أنواع الضبط ، من المؤكد أن السمة المميزة العامة للضبط تكمن في شيء آخر غير

استخدام الجهاز الرياضي أو التجريبي . فقد يستطيع نظام استخدام الجهاز الرياضي التجريبي دون أن نفسح له المجال بأن يتخطى المستوى الأسطوري . فالعديد من التجارب السيكولوجية وغالبية التطبيقات الرياضية المستخدمة في السيكولوجيا تؤيد هذا المطلب .

وكما أن التمييز الأساسي بين الميثولوجيا والعلم هو أن العلم يبحث عن معرفة الوقائع في مستوى الوقائع ذاتها ، فان الضبط يتحدد بمدى مطابقة المعرفة للوقائع المدروسة . ولكن هذا التطابق بمفهوم علماء النفس ليس ميتافيزيقيا ولكنه تجريبي ، يعني أنه ليس سوى تطابق مع نوع الدقة المنسجمة مع الموضوع .

ويعتقد علماء النفس بعد أن يقدموا الأمثلة والتأكيدات الغير مطابقة لنوع الدقة الملائم لموضوعها يصرون على أن أي نظام يكون علما وضعيا عندما يطابق مضمونه نفس الاشكال التي تتحدد فيها الموضوعات التي يبحثها . والانتقال من المرحلة قبل العلمية الى المرحلة العلمية ، والتطور نحو الشكل الرياضي لا يمت بأي صلة الى هذا

الانتقال ، بل هو لاحق له على الأقل من الناحية المنطقية ٠

الشكل الخاطيء علميا والصحيح في السيكولوجيا :

يطلق علماء النفس الحديث على شكلي السيكولوجيا الخاطئين اسم الميتاسيكولوجي بهدف التبسيط ٠ وهذا التعبير في الواقع حسب رأي أحد علماء النفس بعيد عن الحقيقة ٠ فالسيكولوجيا الميثولوجية هي فقط التي توجد فيما وراء الدراما ٠ أما السيكولوجيا قبل العلمية فمن المؤكد أنها توجد فيما بعدها ٠ ولكن مشاكل واهتمامات وتقاليد الاثنين بعيدة عن اهتمامات السيكولوجيين ، على الاقل عن اهتمامات هؤلاء الذين يريدون اقامة سيكولوجيا وضعية ٠

وانطلاقا من هذه الأفكار يمكننا تعريف ماذا يوجد على هذا الجانب أو ذاك في التناقض بين الشكل الخاطيء علميا والصحيح في السيكولوجيا ٠ فمن ناحية توجد الميتاسيكولوجي التي تشتمل :

١ ـ ميتاسيكولوجيا النفس وتتكون من كافة الاعتبارات الميتافيزيقية المرتبطة بالنفس ٠

٢ ـ ميتاسيكولوجيا ظواهر النفس ، أو ميتاسيكولوجيا الحياة الداخلية ، وتتكون من كل الاعتبارات المتعلقة بأحوال النفس والعمليات العقلية ، وظواهر الشعور وطبيعتها وخصائصها وتصنيفها ، وبشكل عام الحياة الداخلية بأي طريقة توجد بها .

٣ ـ الميتاسيكولوجيا الوظيفية ، وتشمل كافة الاعتبارات المتعلقة بالوظائف العقلية ، وكذلك كل الاعتبارات الوظيفية التي تتخذ موضوعا لها واحدا أو أكثر من الوظائف العقلية في السيكولوجيا الشائعة ، وبشكل عام كافة الاعتبارات الوظيفية التي لم يستخلص موضوعها مباشرة من تحليل الدراما الفردية أو الدراما الموحدة القالب ، والتي لا تبلغ دقة الدراما كما هي معطاة .

٤ ـ ميتاسيكولوجيا الشخص وتشمل كافة النظريات المتعلقة بالذات والأنا والشخص والفرد ، والتي لا تنطلق من تحليل الفرد في فرديته ، والعاجزة عن أن تبرز الحتمية المستمرة للمحتوى الخاص بحياة الفرد .

٥ ـ ميتاسيكولوجيا الانسان وتتكون من كافة النظريات المرتبطة بأفعال وسلوك الانسان ، والتي لا تتخذ أساسا لها التحليل الدرامي ، والتي لا تصل الى كشف العناصر الدرامية الموجودة تحت سطح الخبرة الدرامية الجارية ٠

ويجمع علماء النفس على أن ميتافيزيقا الروح أو النفس هي وحدها التي تنتمي الى الميتاسيكولوجيا رغم ان أضرب أنواع السيكولوجيا الخاطئة عديدة، وتعرف عادة بالسيكولوجيا الوضعية ٠

ويرى بعض علماء النفس أنه لا يمكن اعتبار علماء النفس الذين لا يريدون أن يؤكدوا أي شيء عن العمليات النفسية علميين ٠ لأن قضايا الحياة الداخلية لا يمكن أن نردها الا الى الأساطير ٠ كذلك ليس بمقدورنا اطلاق لقب عالم على هؤلاء الذين تحت اسم نظرية الادراك أو نظرية الارادة أو نظرية الانفعالات ٠٠٠ يؤلفون روايات قد تكون ناجحة أو مسلية بعض الشيء ٠ لأن العالم هو الذي يعرف شيئا ما عما هو موجود بالفعل ٠ أما هذه النظريات فهي بالنسبة للمعرفة السيكولوجية كاعتبارات قسوة الطبيعة بالنسبة للمعرفة

الفيزيقية . وهذه هي الحال بالنسبة للنظريات عن الأنا .

فالنظريات التي تذهب الى أن الأنا هي الارادة أو الأنا هي مركب ، أو الأنا هي بناء ، لا تحمل لنا شيئا من العلم الحقيقي ، لأن الموضوع الذي نرغب معرفة شيء عنه هو الأفراد المعنيون الذين يحيون حياة محددة المحتوى . ومن جهة أخرى لا نستطيع أن نكتفي بتوكيدات غامضة حول دوافع الفعل الانساني . انما نريد الآن ونحن بصدد العلم ، أن نودع رجال الادب والاخلاق ومعهم ميتاسيكولوجيا الانسان .

واذا ما حاولنا التطلع الى الفئة المعارضة لهذه الآراء نلمس ببساطة أنه في مقابل الميتاسيكولوجيا تقف الوضعية . ولكن الفوضى الحالية في السيكولوجيا كبيرة جدا لدرجة أننا لا نستطيع أن نستغني عن اطلاق تسمية خاصة حتى على هذا النوع من السيكولوجيا الذي ينهد الى أن يكون وضعيا . لذلك يمكننا أن نستعير الاسم المستخلص من السمة الاساسية التي تمثل الفرق الحقيقي بينها وبين الميتاسيكولوجيا لنعطيه للشكل الحقيقي للسيكولوجيا .

ولما كانت الميتاسيكولوجيا تتميز بتحويل الدراما بمساعدة الواقعية الروحية والتجريد والشكلية ، فينبغي أن نقول أن العيب الجذري للميتاسيكولوجيا قد خان الواقع العياني لمرات ثلاث . فكل خطوة من خطواته الرئيسية تقابلها خيانة محددة .

اذ أن الواقعية الروحية تلغي واقع الظاهرة الدرامية نفسه كما هو معطى عيانيا . والتجريد يستبدل بالأفراد العيانيين الذين يكونون موضوع الدراما ، ممثلين آخرين لا شخصيين . والشكلية تلغي الأسلوب المحدد الذي تتعين به الوقائع الدرامية ولا تحتفظ الا بأشكال لا يوجد للحتمية الفردية فيها مكان .

وهكذا يكون عالم الميتاسيكولوجيا مجردا بالمعنى الكامل للكلمة . عالما من العمليات والوظائف التي تحلق عاليا فوق الحتمية الفردية للدراما ، وتخضع لعلاقات ليس لها أي مغزى انساني .

أما السيكولوجيا الوضعية التي ترفض هذه الخطوات فانها تعود الى العياني . فمن منجزات الميتاسيكولوجيا تعود الى وقائع الدراما ، ومن

الوظائف والعمليات ترجع الى الأفراد كما هم ، ومن مفاهيم التصنيف تعود الى الوقائع الدرامية في حتميتها الفردية . فتخطي السيكولوجيا الاسطورية هو اذن عودة الى العياني . وتتميز السيكولوجيا الوضعية في مقابل الميتاسيكولوجيا بأنها سيكولوجيا عيانية ، فالسيكولوجيا العيانية ليست احدى السيكولوجيات ، ولكنها هي السيكولوجيا بالمعنى القاطع لهذا التعريف .

الصعوبات التي تشكل أزمة السيكولوجيا الحالية :

اذا وضعنا جانبا القيمة الوضعية لمفهوم السيكولوجيا العيانية ، لكي نتفرغ للأسلوب الذي يمكننا من القاء نظرة جديدة على كافة الصعوبات والاعتراضات التي تكون الأزمة الحالية للسيكولوجيا فاذا كانت هذه السيكولوجيا العيانية هي بالفعل السيكولوجية الوضعية ، لوجب أن تقدم لنا فعلا الرؤية الجديدة للمشاكل . تلك الرؤية التي نتوقعها من مفهوم وضعي حقا للسيكولوجيا .

واذا ذهبنا الى أن المشاكل بشكلها القائم اليوم لا تتناول الجوهر ، كما أن العبارات التي تصاغ فيها التعارضات الكبيرة في السيكولوجيا المعاصرة لا

تجسد الموقف الحقيقي • فالخطأ يكمن دائمـــا في احلال الاشياء في غير محلها ، ويكون الجوهر في كل مرة عودة الى العياني • وهذا هو السبـــب في أن السيكولوجيا العيانيـــة تمثـــل الجماع الحقيقـــي للأضداد القائمة ، كما أنها قادرة على حل الصعوبة الكامنة في أساس كل منها •

والصعوبة التي تكمن في أساس التعارض بين السيكولوجيا الذاتية والسيكولوجيا الموضوعية هي ضرورة اهتمام السيكولوجيا بوقائع لها ــ منطقيا ــ نفس تركيب وقائع أي علم آخر • ويجب أن تظهر هذه الوقائع تحت نفس الشروط التجريبية ، على أن تظل في الوقت نفسه وقائـــع أصلية • ولكـــن السيكولوجيا الذاتية بما جاء في الشرط الاول • وكلا السيكولوجيتين لا تعنيان بالشرطين معـــا • لأن كلا منهما تبحث عن الواقعية السيكولوجية في الادراك •

وتؤيد السيكولوجيا العيانية الاتجاه الموضوعي لأنه يتمسك بضرورة رفض اعطاء السيكولوجيـــا موضوعا لا يمكن دراستـــه بنفس شروط العلوم الطبيعية ، كما تؤيد السيكولوجيا الذاتيـــة حين

تتمسك بالسمات الفريدة الأصيلة للوقائع السيكولوجية وتعيب السيكولوجيا الميانية على كل من الاتجاه الموضوعي والذاتي أنهما بحثا عن موضوع السيكولوجيا في الادراك البسيط ، فالدراما التي ليست داخلية أو خارجية لا تنتج عن الادراك .

وكذلك الصعوبة التي تكمن في أساس التعارض بين السيكولوجيا كعلم طبيعي والسيكولوجيا كعلم أخلاقي تأتي من ضرورة ادراج المقولات الاساسية وأساليب العلوم الطبيعية في داخل السيكولوجيا بشرط أن تظل محتفظة للظواهر السيكولوجية بالطابع الانساني الذي لا يتوفر الا عن طريق الجانب ذي المعنى في الدراما .

ولكن لا يمكن للسيوكولوجيا بوصفها علما طبيعيا أن تدخل الى السيكولوجيا المقولات وأساليب العلوم الطبيعية بدون أن تخفي الطابع الانساني للظواهر السيكولوجية ، ولا يمكن للسيكولوجيا بوصفها علما أخلاقيا أن تنقذ وتخلص هذا الطابع الانساني الا بأن تنقل الظواهر السيكولوجية الى مستوى يجعلها بعيدة عن متناول المقولات والمناهج العلمية .

وتؤيد السيكولوجيا العيانيـــة هذين الاتجاهين من حيث تشبث كل منهما بما هو ضرورة لكل منهما ولكنها تأخـذ عليهما أنهمـــا بحثا عـــن موضوع السيكولوجيا في عـــالم محدد • أحدهمـــا في عالـــم الطبيعة والثاني في عالم الروح ، بدلا من أن تبحثا عنه في الدراما • لأن كلا العالمين لا يمكن أن يظهر في المجال السيكولوجي الا بنوع من التجريد للدراما •

وعلى العكس من ذلك اذا ما قبلنا أن نطـــرح جانبا هذه التجريدات لأمكننا تطبيق المقـــولات ، ومناهج العلوم الطبيعية في السيكولوجيا ، دون أن تفقد الظاهرة السيكولوجيـــة طـــابعها الانسانـــي ونحتفظ لهما بصفتهما الانسانية دون أن يصبـــح العلم السيكولوجي علم الروح الموضوعية •

أما الصعوبة التي تكمن في أساس السيكولوجيا التحليلية والسيكولوجيا التركيبية فهي توجـــد في ضرورة تجزئـــة الطابـــع الكلي الى العناصر التي يتكون منها مع المحافظة على كلية الفرد في نفس الوقت تلك الكلية التي لا يمكن تصور الدرامـــا بدونها • ولأنصار التحليل الى عناصر الحق حين يؤكدون أنه يتعين على السيكولوجيا أن تتبع هي أيضا أسلوب التجزئة •

وكذلك لأنصار فكرة التركيب والشكل والكلية، الحق أيضا في رفضهم تفتيت الحياة السيكولوجية الى جزئيات من العناصر بحيث لا يمكن جمع الحياة السيكولوجية منها من جديد ۰ ولكن يخطيء كل من الاتجاهين حين يعتقد أن المنهج التحليلي والمنهج التركيبي يجب تطبيقهما في الحياة السيكولوجية كما عرفتها السيكولوجية التقليدية ، أعني بوصفها نتائج للنقل ۰

واذا ما تحدد موضوع السيكولوجيا على أنه دراما ، فان كلية الفرد تصبح افتراضا مبدئيا أساسيا لا يمكن ادراك أي ظاهرة أو مفهوم سيكولوجي بدونه ، وفي هذه الحالة يصبح التحليل الجزئي ليس ممكنا فقط بل وخصبا ۰ والسيكولوجيا العيانية اذ تجزيء الدراما تتجه الى عناصر بدورها درامية ، وتتضمن كلية الفرد مثلما تتضمن الظاهرة أو الظواهر المجزأة هذه الكلية ۰

أما الصعوبة في أساس التعارض بين السيكولوجيا الاستقرائية والسيكولوجيا النفاذة الى الأعماق تكمن في ضرورة الوصول الى قوانين ، وهي قوانين ينبغي أن تكون عامة ، وفي الوقت نفسه خاصة بالحياة السيكولوجية ۰

ولأنصار السيكولوجيا الاستقرائية الحق في محاولة استخدام الاستقراء ، كما يحق لانصار السيكولوجيا النفاذة أن ينكروا القيمة السيكولوجية لاستقراءات السيكولوجيا التقليدية . ويخطيء كلا الاتجاهين حين يعتقد أن الاستقراء كما استخدمته عموما السيكولوجيا التقليدية هو استقراء بالمعنى الدقيق للكلمة . لأن عالم السيكولوجيا الكلاسيكي يطبق الاستقراء على نتائج التحول أو النقل .

وهذا التحول أو النقل يقوض دعائم الدراما ، لأن التعميمات التي يعتقد أننا قد استخلصناها من الاستقراء ، صادرة في الواقع من خطوات التحول أو النقل . ولما كان التحول أو النقل ربما يزيل الدراما ، فان الاستقراءات التي أجريت على نتائج التحول لا يمكن أن تتضمن أية معلومات خاصة بالدراما . ولهذا السبب تبدو هذه الاستقراءات فارغة . وبالعكس قد تنتهي الاستقراءات الصادرة عن الدراما نفسها الى تعميمات درامية قابلة للتطبيق على الدراما التي استنبطت منها .

وهذا الشرح الذي يؤكد بأن السيكولوجيا الميانية لا تقدم حلا وسطا ، بل تقدم تركيبا حقيقيا

ليس مجرد تمرين مدرسي بسيط ، فالمتطلبات التي أدت الى التناقضات التي نحن بصددها حقيقية لدرجة لا تسمح لنا أن نعتبرها خاطئة ،ولكن تاريخ السيكولوجيا يؤكد لنا أن هذه المتطلبات غير كافية بالشكل الذي تحققت به ، لذلك لا بد من تجاوز هذه المتطلبات .

واذا نجحت السيكولوجيا العيانية أينما كانت في فرض نفسها كجماع فان الاضداد أضداد الجماع داخل الاعتراضات الموجهة الى السيكولوجيا العلمية التقليدية هي من متطلبات السيكولوجيا العيانية ولكنها لم يفطن اليها أحد بقدر كاف .

والاصالة المميزة للظواهر السيكولوجية التي يدعو اليها أنصار السيكولوجيا الاستبطانية هي في الحقيقة أصالة الدراما ، تلك الاصالة التي ـ رغم عمليات التحول ـ يستشعرونها في غير وضوح اذ لا يدركون طبيعتها الحقة من جراء عمليات التحول أو النقل . فالسيكولوجيا كعلم أخلاقي تطالب في الواقع بالعودة الى الدراما ، ولكن هذه الدراما عندهم قريبة جدا من التحول حتى ان السيكولوجيا المذكورة لا تستطيع الا أن تعتقد بضرورة تأمين

استخدام وجهة نظر الدلالة ، بأن يجعلوا من الروح مفهوما متضمنا في الظواهر السيكولوجية ، بل ان الاتهام الذي به بقوض السيكولوجيا الكلاسيكية الاشكال والابنية ما هو بدوره الا اعتراض لا زال غامضا ضد التحول المميز للميتاسيكولوجيا بوجه عام ٠

وكذلك بالنسبة الى تأكيد أولية وسيادة الاشكال والابنية ليس الا تأكيدا ناقصا للالزام الذي يعتبر كل الظواهر والمفاهيم السيكولوجية أجزاء من الدراما وأنها أي الظواهر المفهومات ينبغي أن تنتسب الى حدث درامي يشمل دائما الفرد باعتباره كلا ٠ وليس اتهام الاستقراء بالعقم في المجال السيكولوجي الا لعجزه عن تطبيقه على الدراما ، واحلال الفهم أو النفاذ محل الاستدلال باعتباره ليس سوى أسلوبا غير مباشر للمطالبة بأن يبدأ الاستقراء لا من نتائج التحول الذي أصاب الدراما، ولكن من الدراما مباشرة ٠

ما هو اتجاه السيكولوجيا العيانية ؟

الخطوات الأساسية للسيكولوجيا التي استعرضناها وتناولنا فيها أساليب حصول

السيكولوجيا على وقائعها ومفاهيمها ، وأصدرنا حكمنا على شرعية هذه الخطوات • وما قلناه حول شعارات ومناهج السيكولوجيا الميانية التي يمكن حصرها في نوعين من الاستجابات التي لها مغزاها : الأولى المقاومة السلبية ، والثانيـة التسابق على دراسة السيكولوجيا الميانية •

أما الاستجابة الأولى فتؤكـد أن أشد النقـاد تحاملا على السيكولوجيا الكلاسيكية ما زالوا حتى هذه اللحظات يناصرونها •والاستجابة الثانية تثبت أن السيكولوجيا الكلاسيكية تأمل مرة أخرى في انقاذ نفسها بتبديل لغتها •

واذا ما نظرنا الى الاستجابتان نلاحظ أنهمـا تؤكدان معا أن ارادة التجديد عند السيكولوجيين أقل جدية واخلاصا مما توحي به تصريحاتهـم ، وان هذه الارادة لا تعدو أن تكون مشكلة تنحصر في حدود معينـة متفق عليهـا في الأساس رغم كـل اختلافاتهم ، وهي عبارة عن حدود يعجـز معظم السيكولوجيين عن تخطيها مهما أدى ذلك الى انعدام السيكولوجيا ، وهذه الحدود هي التي تجعل امكان حل الازمة والتجديد موضوعات أكاديمية صرفـة تقبل المناقشة الى ما لا نهاية •

وانطلاقا من هذه المشاكل ينبغي أن نحاول الكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذه الحدود ، وحتى نتوصل الى هذا الكشف لا بد لنا من الابتعاد عن استخدام الرطانة السيكولوجية التكنيكية ، وأن نسقط من حسابنا الخلافات الدائرة بين الاتجاهات المتنافرة في الظاهر المتشابهة في الحقيقة .

ويلاحظ أن هذه الاتجاهات كلها متشابهة ومنسجمة فيما بينها وجميعها مثالية ، بينما نشاهد اليوم في السيكولوجيا انصهار كافة هذه الاتجاهات في المثالية . وقد نتج عن الحركة الكبيرة للسيكولوجيا الوضعية : انصهار مثالي كبير ومثالها السيكولوجيا اللاهوتية البرجسونية في فرنسا ، والسيكولوجيا بوصفها علما أخلاقيا ، والميتافيزيقيا المثالية المتمثلة في المذهب المعروف بوحدة الجسم والنفس في ألمانيا .

وحتى اليوم لا يزال التحليل النفسي بعد الخلاف بين يونج وآدلر ـ وهما أكثر مثالية من فرويد ـ مستمرا في تبعثره وينتهي الى محاولات أكثر مثالية كتلك التي يذهب اليها « رانك » أما السلوكية بمعناها الدقيق النابعة من اتجاه مادي

فقد عجزت منذ البداية عن الثبات في طريقها الخاص ، وتولد عنها مختلف أشكال السلوكية غير الفسيولوجية ، وكلها مثالية بدرجة أو بأخرى ٠

ويبدو لنا تجاه اعتراف عام من السيكولوجيين بالخطيئة والتنافس على الجعجعة بضرورة العودة الى المثالية ٠ والدليل على ذلك القياس السيكولوجي الذي لم يكن لديه أي مبرر تكنيكي يدفعه الى المثالية ، بل ان لديه كافة الاسباب التي تجعله غير مثالي ومع ذلك فان نظرياته عامرة بالمثالية ٠ وعجز السيكولوجيا الحالية ليس مع ذلك الا عجزا علميا للمثالية ٠ والسيكولوجيا من حيث أنها علم الروح يمكنها أن تبيح لنفسها أن تكون مثالية ٠ وأن تكون فصلا من اللاهوت وأداة للسيطرة والسيادة وليس هذا هو الحال مع السيكولوجيا كعلم التي ينبغي أن تهتم بالظواهر الحقيقية والتي لا يمكن الا أن تكون مادية ٠

ومن هنا يتبين لنا أن هناك تناقضات أو أزمة في السيكولوجيا ٠ ولكنها أبسط وأوضح مما نتصور وتتمثل هذه التناقضات في أن السيكولوجيا مثالية في الوقت الذي يجب أن تكون فيه مادية ٠

ويرغب المثاليون أن يقوموا بوظيفة الماديين ، ولن يمكن للسيكولوجيا أن تصبح علما الا بالتخلي عن المثالية في حين يعجز السيكولوجيون المعاصرون عن التخلي عن المثالية • وهذه الازمة حقيقية بالنسبة للسيكولوجيا العلمية نفسها • فالمحاولات الاكثر انتاجا انما هي ذات اتجاه مادي ، وهي توصل السيكولوجيا بالفعل حتى آخر حدود المثالية ، غير أنها لما كان سندها النظري لا يتجاوز تلك الاشكال الناقصة للمادية ، التي لم تعد اليوم الا ملجأ للمثالية ، فان المثالية تتغلب من جديد وتصيب بالعقم أهم المحاولات •

وهذا أمر طبيعي بالنسبة لارتباط السيكولوجيين من حيث أصولهم وتراثهم وكل نشاطهم الخاص والمهني بالايديولوجية البورجوازية • وهذا هو السبب في أن السيكولوجيين لا يرون سوى هذه الاشكال الناقصة من المادية المسموح بها رسميا لهذا السبب ، مثل مادية الفسيولوجيا والطب •

وهذا هو السبب في أن جهل السيكولوجيين بالشكل الكامل للمادية انما هو بالقياس اليهم مسألة مزاجية • وتولد عن ذلك التناقض بين ما

يتضمنه تحويل السيكولوجيا الى علم وبين ما تدعو اليه أمزجة الفلاسفة البورجوازيين أو الأطباء ، أو أصحاب المادية المزيفة من السيكولوجيين • وكانت النتيجة أن بقيت السيكولوجيا جامدة في مكانها •

ومن البديهي أن تكون السيكولوجيا العيانية هي بالذات السيكولوجيا التي تلغي كل أثر للمثالية في علم النفس ، وهي السيكولوجيا المادية التي تتخذ الموقف الوحيد القادر على ضمان مستقبل علمي للسيكولوجيا ، ولكنها في الوقت نفسه ترتبط بالمادية المعاصرة النابعة من ماركس وانجلز والمعروفة بالمادية الجدلية •

وفي الحقيقة تحتاج السيكولوجيا الى مادية كاملة لا تتوافر الا في المادية الجدلية ، واذا ما جعلنا منها نقطة ارتكاز أمكن للسيكولوجيا أن تصبح علما • لذلك شعر السيكولوجيين الذين ذكرناهم سابقا بأنها القاعدة النظرية النهائية للسيكولوجية العيانية وهكذا لم نجد أمامنا الا المقاومة السلبية من جهة ، والتسابق على السيكولوجيا العيانية من جهة ثانية •

هنا لا بد لنا من أن نتساءل هل يمكن حقا أن

يقبل المثاليون العمل ضد المثالية ؟ ألن تسول لهم نفوسهم اقتناص هذه السيكولوجيا المعادية للمثالية بالقاء شباك المثالية فوقها ، وقبل أن تفلت منهم نهائيا سطوة ما هو عياني ؟

أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد فات وقت الاصطياد ، وان كانت مناورة التسابق تعطينا فرصة رائعة لنؤكد بالضبط الى أين تذهب السيكولوجيا العيانية ، دون أن نكون مجبرين هذه المرة على استخدام اللغة الفنية للسيكولوجيا ؟

ولا أدري من يستطيع أن يشكو من قلة الوضوح في الموقف داخل السيكولوجيا ؟ سوف نجد من ناحية هؤلاء الذين يؤيدون قبل كل شيء النظام الاجتماعي وايديولوجيته ، ويرفضون الاعتماد على العلم الا في حدودهما • ومن ناحية أخرى سوف نجد الراغبين في القيام بأبحاث علمية بلا حدود أي بغير غمامة تحد من رؤيتهم وتطلعاتهم •

السيكولوجيا العيانية محط أنظار علماء النفس :

يعتقد العالم الفرنسي « جورج بوليتزير » أنه لا يوجد بصورة تقريبية من يريد أن يعمل في حقل

علم النفس بشكل جدي ، ولكن جميع علماء النفس على السواء يريدون الاستفادة من سطوة ما يعرف بكلمة عياني • وقبل أكثر قليلا من سنوات كانت السيكولوجيا العيانية هي آخر ما يهتم به السيكولوجيون الفرنسيون لانشغالهم في تدعيم الفلسفات الروحية ، والمحافظة على الاتجاهات المدرسية ، انشغالا لم يترك لهم مجالا للاهتمام بالظواهر السيكولوجية حقا •

ولكن سرعان ما تغيرت الأمور بشكل يلفت النظر لم يعرفها التقدم والتطور في فرنسا منذ عهد الثورة الفرنسية • والتطور الذي حدث هنا ليس هو التقدم بالمفهوم العادي للكلمة ، ولكنه تطور ذو مفعول رجعي • فقد حدثت ظاهرة مثيرة بعد أن نشر العالم النفسي « بوليتزر » كتابه الاول بعنوان « نقد أسس السيكولوجيا » عام ١٩٢٨ ميلادية ، الذي شرح فيه السيكولوجيا العيانية لأول مرة •

ومن الطبيعي أن يكون وقع هذا الكتاب شديدا لدى السيكولوجيين ، فتلفتوا بشكل درامي حيث اكتشفوا فجأة أنهم كانوا منذ وقت طويل من أنصار

وعشاق السيكولوجيا العيانية . وكذلك نهض أساتذة السيكولوجيا التجريبية من غفلتهم ونومهم العميق ، وذهبوا الى أنهم لم يشغلوا أنفسهم أبدا بالسيكولوجيا التجريدية . أما الذين لم يقوموا بأنفسهم بهذا الاكتشاف فقد تكفل به آخرون لحسابهم ، حتى أننا يمكننا أن نقول بأنه لا يوجد في فرنسا اليوم سيكولوجي واحد يجرأ على التصريح بخصومته للسيكولوجيا العيانية .

وعلى العموم يمكننا أن نقول بأن الجميع كانوا عيانيين وما يزالون ، ولم يتحدث جميع الكتّاب والعلماء الا عن الدراما ، ولم يوجد في العالم الا السيكولوجيا العيانية ، وان المؤلفين في السيكولوجيا قد وهبوا كل أبحاثهم وخدماتهم للسيكولوجيا العيانية .

ومما لا شك فيه أن التسابق والتزاحم والتصارع على دراسة السيكولوجيا العيانية له دلالته ، وكان بالامكان الاكتفاء بلفت النظر الى أن السيكولوجيا العيانية أصبحت ضرورة من ضروريات عصرنا ، كونها وجدت بحالة مستورة كامنة من قبل عند أجدادنا ، ولم تكن بحاجة الا للوعي بكيانها .

السيكولوجيا العيانية وعلم الروح :

يدلنا تاريخ البشرية ، والعلوم الانسانية ، أن التنظيم اللاهوتي المدرسي للروح في مجال التعاليم النفسية كان يتربع وحيدا على عرش العلوم والمعارف خلال نصف قرن من الزمن ، وهنا لا بد لنا من أن نتساءل أليس معنى السيكولوجيا هو علم الروح ؟ والروح تعتبر بحق وصدق أداة لاهوتية ٠

ولو لم يكن هناك أناس لهم روح حسب مفهوم أهل اللاهوت لما أمكن الاحتفاظ بفكرة الروح ، ولكان الذين ينفخون نيران الروحانية ينفخون في رماد ٠ أما بالنسبة لكلمة علم فهي لا تعني هنا معرفة ولكن تنظيما وانسجاما عقلانيا : ترتيبا مظهريا محلقا وغالبا هستيريا ، وخاصة بالنسبة للروحانيين المضطربين أمثال برجسون ٠ فتعريف علم النفس بأنه علم الروح هو تعريف ينقض نفسه بنفسه كما يقول العالم النفسي «بوليتزير» ٠

ويرى العالم النفسي « بوليتزير » أنه عندما جاء عصر العلوم الطبيعية وأراد علم الروح أن يصبح علما طبيعيا ، ارتدى رجال اللاهوت الملابس

البيضاء وأخفوا القديس توما الأكويني في اسطوانات التسجيل ۰

وما دام العصر قد أصبح عصر التصريحات الوضعية وانشاء المعامل ، وحلت تعبيرات الحساب والقياس محل عبارات الروحانية ذات الحرية والخلود ، فقد قرر رجال اللاهوت أن يساهموا في المعركة بهذا الجزء من قواتهم التي عرفت فيما بعد باسم السيكولوجيين التجريبيين أو العلميين ۰ ولم يكن همهم التمسك بالألفاظ انما انقاذ الفحوى ، وعلى عكس ما نظن كان هذا تكتيكهم الحقيقي ، أو بالأحرى قانون تطور السيكولوجيا خلال الخمسين أو الستين سنة الماضية ، وهذا يعني تبديل الشكل لانقاذ المضمون ۰

ويرى « بوليتزير » أنه ليس كل من ارتدى رداء الكهنوت بكاهن ، ومن هنا يمكن للكاهن أن يتخلى عن مسوحه البني اللون ويغيره برداء أبيض ويبقى رغم ذلك كاهنا ۰ اذ لما كان المضمون في خطر فلا يهم تغيير الشكل ، وعلى الأصح كان أهم شيء بالنسبة لهم هو تبديل هذه الواجهة ، فقبلوا كل أشكال الاخراج وعلى أي صورة من الصور ۰ فاذا

احتاج الأمر الى التخفي في شكل علماء فسيولوجيا فلا مانع ولا رادع ، ولو تطلب ذلك أن يتحولوا الى خشب مسندة ٠

وانطلاقا من هذا المبدأ أكد رجال اللاهوت أنهم أشطر وأنبع من صنعائهم دكاترة الطب والعلوم فعملوا على انجاح كل هذه الاستعراضات الهزلية للأطباء الفلاسفة ، والقصاصين الفسيولوجيين ، لأنهم لم يكونوا يؤمنون بنجاحها الحقيقي ٠ وهم يعلمون جيدا أن في مقدرتهم أن يستمتعوا بشكل دوري بواسطة صنائع أخرى مثل برجسون بلذة الادانة العلنية لعجز هؤلاء الذين لم ينتابهم العجز الا لأنهم كانوا في خدمة اللاهوت ٠

ويلاحظ أن الحفاظ على لاهوت الروح قد تعودوا أن يواصلوا تقلبات الحركة السيكولوجية خطوة خطوة ٠ فكل ما يؤدي الى انقاذ لاهوت النفس يكون جيدا ، وسيكون كل شيء جيدا أيضا في المستقبل طالما كان ما يقدمونه من ابتكارات جديدة منسجما مع ذوق العصر ٠

ولقد أثبتت الكنيسة دائما أنها تتمتع بحاسة تجارية مرهفة ٠ كما استطاعت دائما أن تعرض

بضاعتها بالأسلوب المناسب ٠ فقد بحثت دائما عن الشكل الذي يغوي الجمهور لتتقدم به بضاعتها القديمة ، وهذا هو بالدقة نفس التكتيك الذي تتبعه مع السيكولوجيا العيانية ٠

فالسيكولوجيا العيانية يجب ألا تكون غير مرحلة جديدة ، حلقة جديدة في السلسلة القديمة ٠ فهم يتصورون أن العياني هو موضة العصر ، ولذا فقد تبنوا الأسلوب العياني ٠ لأن هذا هو مطلب اليوم ، وهم يتمنون أن تكون كافة المحاولات للتصفية النهائية لسيكولوجيا الروح ضعيفة المفعول شأنها في ذلك شأن المحاولات السابقة ٠ فهم لا يريدون أبدا أن تكتشف أصناف جديدة ، أما اذا اقتصر الأمر على تغليف البضاعة وتسليمها فلا مانع لديهم من منح هذا الحق بشرط أن يظلوا هم أصحاب الامتياز ٠

ومن خلال التجارب والاتصالات التي يقوم بها علماء النفس تبين لهم أن هؤلاء الكهنة يعلنون بكل مناسبة أنهم على اتفاق مع علماء النفس من حيث المبدأ ، ولكن ما هو يا ترى هذا المبدأ ؟ فكل واحد يريد أن ينسب لنفسه اسم السيكولوجيا العيانية ،

لأن كل واحد يريد أن يظهر بأنه هو المنقذ للكنز القديم ، والجميع يطالبون باطلاق هذه التسمية على لاهوت الروح العتيق الذي يرغبون جميعا في انقاذه • وكل ما يطمع فيه أي واحد منهم هو أن يعترف له بأنه صاحب الفضل في ذلك أكثر من الآخرين •

أما البعض الآخر فيتصور أنه أكثر مهارة وشطارة ولباقة ، وهم في الحقيقة ليسوا سوى مجرد سذج بسطاء تافهين ان لم يكونوا شرا من ذلك • فعلى سبيل المثال يقول العالم النفسي « برنشفيك » حتى يبرر موقفه أنه كان دائما مناصرا لـ « مين دي بيران » •

ويرد عليه العالم النفسي « بوليتزير » فيقول : ولما كنا قد جعلنا من الدراما موضوعا للسيكولوجيا العيانية ذهب عالم آخر وهو سباير ليرد علينا فيقول : تقولون مثلا أنكم لا تعرفون ماهية الحدس ، والحدس هو « الحدث » الحاسم في دراما البحث الصوفي والفلسفي والعلمي والفني • وهكذا حلت البركات على الجميع : حيث شرع برجسون بالتأكيد من ظاهرة درامية حين جعل الحدس أساسا لمذهبه •

أما الذي يأخذه غيره من العلماء على أتباع السيكولوجيا العيانية وضيق فهمهم للمياني • كون العياني في الواقع يجب أن يكون الاطار الجديد الذي يتحتم أن يدخل فيه المذهب المدرسي ، ذلك لأن في أعماق كل دراما بلا استثناء نجد دائما الكليات الفلسفية • فالانسان تحركه دائما أفكار واتجاهات وعواطف وعقد أي يتأثر بهذه الكليات • وهذا يعني أننا سنواصل الاشتغال بالسيكولوجيا الكلاسيكية وان كنا سنسميها دراما • وسنحتفظ بنظرية الروح بأكملها ، ولكننا سنسميها نظرية عيانية ، وهذا كل ما في المشكلة •

وهنا ليست لفكرة السيكولوجيا العيانية الا أهمية ضئيلة ، الشيء الأساسي هو أن لدينا احساس بأن العياني هو « الموضة » ولهذا يعلن الجميع أنهم متفقون من حيث المبدأ • وهذا بديهي طالما ان الجوهر لم ولن يتبدل • هذا هو لب الشمسية ، وتتجمع النجوم عادة في مجرات تتألف الموضوع • فلو أننا دعونا الى سيكولوجيا مائية مثلا عوضا عن السيكولوجيا العيانية ، ولو غيرنا الدراما بالطريق اللبني ، الذي يعني ما يطلق على تلك المجموعة من النجوم التي تنتمي اليها المجموعة

كل منها من بلايين النجوم التي تتحرك وتظل مما كوحدة واحدة · واذا سلكنا الطريق اللبني هو كموضوع للسيكولوجيا لقال الجميع أشياء مماثلة ، وذلك بشرط أن تكون السيكولوجيا المائية هي الموضة العصرية · وعندها سوف يقول لنا حتما « برنشفيك » : لقد كنت دائما مناصرا لهذه السيكولوجيا المائية التي تتكلمون عنها ·

ويتابع العالم النفسي « بوليتزير » نقده ونقاشه فيقول (١) : ولكانوا قد ذكرونا أيضا بمناهج السوربون ــ في أيام دراستنا ــ حيث تعرضوا للسيكولوجيا المائية · وهل هناك موضوع لم تطرقه مناهج السوربون ؟

ويعبر لنا حينئذ « سبير » عن نفسه قائلا : أوافقكم على ضرورة البدء بالسيكولوجيا المائية ·· ولكنكم تقولون مثلا أنكم لا تعلمون ما هو الحدس ؟ أليس الحدس هو الفعل المبدئي لهذا الطريق اللبني ، والناتج عن البحث العلمي والفلسفي والصوفي والفني ·

---

(١) بولتزر : أزمة علم النفس المعاصر ص ٩١ .

ومما لا شك فيه بأن هؤلاء سيحاولون انقاذ السيكولوجيا الكلاسيكية ومعها لاهوت الروح باسم المائية والطريق اللبني ۰

وعندما يقولون لنا نحن متفقون على المبدأ ، أما من حيث كذا وكذا ۰۰ فهم يعبرون لنا بوضوح عن حقيقة نواياهم ۰ وحيث أنهم جميعا متفقون فيما بينهم فانهم يعتقدون باستحالة وجود أي خلاف حقيقي ۰

ولما كانوا جميعا أتباع مخلصون عن وعي أو غير وعي ، بفائدة أو بدون فائدة ، للاهوت ، فلا يمكنهم تصور فكرة وجود سيكولوجيا لا تخدم اللاهوت ۰ وكأنما يريدون أن يقولوا لنا : ينبغي أن تكونوا متفقين معنا في الجوهر فلا تحاولوا الظهور بعكس ذلك ۰ ولا تخلقوا المشاكل فخير الأمور الوسط ۰ وان تصريحاتكم تعتبر انذارا يدعونا لتبديل لغتنا وسنفعل هذا بكل سرور، فنحن متعودون على مغامرات الاصطلاحات وذلك لتجديد شبابنا ۰ ولكن لا لزوم لتعدي هذه الحدود ، ولا داعي للمبالغة من جانبكم ۰

وما يضر لو اكتفيتم بالنجاح الذي نهبكم اياه

حتى يحين الوقت ـ بعد أن تكونوا قد دافعتم عنا دفاعا مجيدا ـ ويصبح عليكم أن تناضلوا مع من سيدافع عنا خيرا منكم ، هذا هو هدفهم ، وتلك هي المشكلة الرئيسية في هذا الجدل • غير أنه لم يمد للتراث الخالد السيطرة على كل الناس • ونحن نعتقد أنه تقع على عاتق السيكولوجيا الجديدة مهمة أخرى أفضل من انقاذ الذهوت ، وأن السيكولوجيا العيانية ليست ببساطة غلافا للسيكولوجيا الكلاسيكية •

السيكولوجيا العيانية تراث مادي :

اذا تصورنا أن هناك تراث ضخم وعظيم لا بد وأن تنتسب اليه السيكولوجيا العيانية ، باعتباره التراث المادي الصميم • وهو بدوره يهدف الى أن تكون السيكولوجيا بدون حياة داخلية ، خصوصا عندما يرتبط الامر بالعمليات ، فهو لا يعترف بأية عمليات خارج نطاق العمليات المادية •

ويرمي النقد الذي يقوم على أساسه الى اثبات الطابع الاسطوري لمذهب الحياة الداخلية • ويدور المشروع كله حول المطامع الكبرى الاساسية للمادية في السيكولوجيا ، لأن السيكولوجيا العيانية ،

والسيكولوجيا المادية هما بالنسبة لعلماء النفس مترادفان ، كترادف السيكولوجيا الوضعية والسيكولوجيا العيانية تماما .

ويذهب بعض علماء النفس الحديث الى أنه لم يعد من الممكن الاكتفاء بوصف السيكولوجيا بالوضعية ، نظرا للظروف الراهنة في السيكولوجيا فكل السيكولوجيين أيا كانت اتجاهاتهم ينسبون الوضعية لأنفسهم . فيتصور أنصار النظرية الفسيولوجية القديمة انهم يحتكرون الوضعية باسم أجهزتهم القياسية ومتوسطاتهم الاحصائية ، وأنصار العالم النفسي برجسون يزعمون أنهم أصحاب نظرية أرقى وأشمل ، ناتجة عن تقلصاتهم الحدسية . وكما اعتبر استخدام الأدوات المعملية في الفسيولوجيا في القرن الماضي انتصارا للوضعية، فان الاعتراف بالطابع النوعي للظواهر السيكولوجية يعتبر اليوم انتصارا آخر للوضعية .

وحتى لو عاد القديس توما الاكويني الى هذا العالم من جديد فلن يتردد لحظة واحدة بدوره من أن يفرض سيكولوجيته باسم الوضعية . وهذا يعني أن الوضعية في مجال السيكولوجيا قد أصبحت

مجرد عنوان متفق عليه ، بينما غرق معناها الأساسي تماما في المجادلات والمناقشات ، وفي مطالبة الجميع بها شكليا ٠

ولهذا أصبح من الضروري نسيان كل الفروق الطفيفة ، والارتفاع فوق كل الاتجاهات ، والعودة الى المفهوم البسيط للوضعية ، وأن نذكر ما نسبه الجميع في ميدان المعركة ، وهو أن العلم الوضعي ينبغي أن يدرس الظواهر الحقيقية ٠

وكان يجب تصفية كل الاعتراضات التي ظهرت في ميدان السيكولوجية الى التعارض الحقيقي الوحيد ، وهو التعارض بين السيكولوجيا التي لا موضوع لها سوى الاسطورة ، والسيكولوجيا التي موضوعها الظواهر الحقيقية ٠ وهذا هو المغزى الاول للتعارض بين السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا التجريدية ٠ وعندما نستخدم تعبير سيكولوجيا عيانية فانما نريد فقط أن نسجل في مقدمة برنامج السيكولوجيا الضرورة الملحة اليوم ، وهي الاهتمام بالحقائق ٠

ويلاحظ بعض علماء النفس ان المطلوب في هذه الحالة هو اختراع أو بالأحرى ايجاد سيكولوجيا

جديدة ، فالسيكولوجيا العيانية ترتبط بكل بساطة بارادة هؤلاء الذين يطالبون بسيكولوجيا يمكنها أن تكون علما لا أن تكون عرضا على المستوى اللاهوتي الدوجماطيقي لما يجب أن يؤمن به الشعب ليظل النظام الاجتماعي قائما ٠ وهي تؤكده هذه الارادة في هذه النقطة الهامة وتبين وسيلة تحقيقها ٠

ويرى علماء النفس أنه كان من الممكن الاكتفاء بتعبير السيكولوجيا المادية ، لو أن السيكولوجيا المادية كانت شيئا حاضرا ، ولو لم تكن شيئا يطلب اتمامه ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فلسنا في صدد تعزيز ما يقصد عادة بكلمة المادية في السيكولوجيا ، أي السيكولوجيا التي تتجه اتجاها ماديا ، وهي ليست مادية بالفعل ، بل هي مادية مبتذلة ، لذا ليس بمقدورنا اليوم أن نعمل على احياء هذه المواقف الناقصة ، في مواجهة الهجوم الحالي الذي تقوم به الروحية والمثالية بصورة عامة ، فقد استخدمت تلك المواقف في لحظة ظهورها كوسائل لتجسيد الاهداف المادية ، ولكنها كانت عاجزة في الحقيقة عن تخريب بناء الروحية ،

وأصبحت اليوم عبارة عن مادية تعبيرية كثبت الروحية بواسطتها مناعتها وعدم قابليتها للهزيمة ٠

ولهذا لا بد وأن تكون المشكلة مرتبطة بأشكال المادية التي لم تعد تمثل سوى المكمل أو المتمم الرسمي للروحية ، وتقوم بدور الممثل المساعد في كوميديا السيكولوجيا ٠ فالمادية الكاملة والعلمية بالفعل هي شيء آخر غير مادية الفسيولوجيين والاطباء ذات النقد الساذج ٠ وينبغي تحقيقها في السيكولوجيا تبدلا جذريا في الطريقة التي تصاغ بها المشاكل الرئيسية،وكذلك في الوسائل المستخدمة في حلها ٠

وهنا لا بد لنا من أن نتساءل عن ماهية الطريق الذي تسلكه المادية التقليدية في مناخ السيكولوجيا ؟ انها تحاول أن تفسر الجوانب الروحية عن طريق المادة : الجهاز العصبي ، والأحشاء ، والغدد الصماء والكائن العضوي ككل،وتلك أكثر الطرق والمسالك كلاسيكية ٠

ويلاحظ أنه لم تتمكن أي من هذه المحاولات أن تصل الى هدفها ، فقد أجبرت منذ البداية أن تعهد بكل شيء الى التحسينات المقبلة في وسائل البحث

العلمي ، وان تكتفي باختراع روايات لم تؤد الا للمودة الظاهرة الروحية ، وبهذا تأكدت الاسطورة القائلة بأن السيكولوجيا لن تقوم لها قائمة بدون الروحية .

ولقد كان الفشل المتكرر للسيكولوجيات المستوحاة من المادية يعود الى النقص الأساسي في الوسائل المتاحة للمادية التي يستوحونها ، ذلك لأن المادية الطبية أو الفسيولوجية أو البيولوجية ليست سوى رد فعل سلبي في وجه الروحية .

وهذا النفي هو نظير تام لتأكيدات الروحية . من الواضح ان المادية القديمة قد صبت في قالب الروحية ، فهي اذن تقبل الأسلوب الذي تستخدمه الروحية في تحديد موضوع السيكولوجيا ، وتثير نفس القضايا ، وهي ببساطة تسمى مادة كل ما كانت الروحية تسميه روحا ، كما لو كانت ثلاجة كهربائية تختزن الروحية .

وجوهر المشكلة هنا أن الروحي وكل قواعد المدرس للروح أمور يؤخذ بها بوصفها مهمة ملزمة بشيء ما قد لا يعدو الغاء مع اضافة لوحة تذكارية في الجهاز العصبي لهذا الذي ألغي

ومن ثم بقيت السيكولوجيا أسيرة هذه المعارضة التي لم تنجح حتى اليوم في الخروج منها لأنها اكتفت بالبحث عن صورة المشكلة في نقيض المشكلة ، وهذا المنهج غير جدلي ، فالتمارض هنا بين المادة الروحية ، والمادة الفيزيائية ، أما أنواع التفكير المستخدمة في كل من النوعين ، وكذلك الاهداف فلا تزال مشتركة بينهما ، فليس لدى الروحانيين والماديين القدماء سوى خطة صراع ونزاع مشترك ، باعتبار أن كلا منهما يستخدم نفس العتاد الشكلي ٠

وحتى نتوصل بالفعل الى اصلاح وتقليم السيكولوجيا كان من المفروض أن نعد المدة لمهاجمة الاسلحة الشكلية وندمر خططها ومناهجها ، وكان ينبغي أن نوجد نقد للشكل يوجه الى صلب وصميم التأكيد والنفي بدلا من النقد المادي الذي اعتدناه في المواضيع والابحاث السيكولوجية خلال نصف القرن الاخير ، والذي فضل وضع النفي محل التأكيد والعكس بالعكس ٠

والواجب العلمي يدعونا بالحاح أن نتناول ببساطة نظام الروح كمذهب وأن ندقق في معالم

تركيبه قبل أن نندفع في أي تفسير أو ترجمة حرفية نحوه ◦ وهذا هو بالضبط ما يهمنا ، ولما كان مثل هذا النوع من النقد لا يوجد تقريبا ، لذا يجب أن نفكر في ابتكار اسلوب تكنيكي جديد خاص نلمس أنه ضروري حتى يطل علينا شيء جديد ◦

واذا ما فكرنا في السير وفق هذا المنهاج نكون قد أمسكنا بزمام ثلاثة أشياء هي :

١ ـ ان الروحية تعمل بشكل مرتب ومنظم بواسطة عدد من الاجراءات الذهنية المستخدمة في اختلاف وتنوع ظواهر الروح ◦

٢ ـ ان هذه الاجراءات الذهنية ليست أشكالا لا غنى عنها للفكر في أي تصور للواقع تتناوله السيكولوجيا ، ولكنها على الاقل تخدم أهداف التحول المستوحاة من مصالح لا علاقة لها بصورة قطعية بالعلم ولا باحتياجات الشرح والمناقشة والتوضيح عموما ◦

٣ ـ اننا لن نتمكن من السيطرة والتغلب على الروحية عن طريق الترجمة الحرفية ، ولكن

بازالة الاجراءات الذهنية التي تؤدي اليها ، يتحقق لنا هذا الامر ۰

وبفضل هذا النقـد الشكلي نتمكـن بوضوح بدقة متناهية أن نعلم بأن السيكولوجيا الكلاسيكية هي اسطورة متميزة بشكل ظاهر ومؤكد ۰ وبنفس الوقت يتبين لنا أن الوضـع الابتدائي للماديـة القديمة خاطيء ۰ فمن العبث اذن أن نحاول تحويل الاسطورة الى شيء مادي حتى نتمكن من القضـاء عليها في النهاية باسم العلم ، في حين أنها تفقد كل ميزة علمية متى أوضحنا طابعها الاسطوري ، الا أنه كان يجب أن يكون هذا التوضيح حقيقيا ، كأن ينبغي وصف وتعيين الاجـراءات الذهنيـة التي تحدثنا عنها ۰

ولما كان طابعها الاساسي يكمن في ظاهرة ان كل ما هو انساني عبارة عن تجريد منظم للاحداث الانسانية ، فلكي نتمكن من اختزالها الى عمليات ، فقد جمعنا كل هذه الاجراءات تحت اسم عام هو التجريد ۰

ومن ذلك يتبين لنا أننا لا نقصد هنا فقط تلك العملية المبدئية التي يسميهـا المنطق الكلاسيكي

بالتجريد . وقد التبس على البعض نقدنا للتجريد السيكولوجي بنقد التجريد المنطقي . لذلك اعتقد البعض أنهم واجهونا بحجة دامغة عندما قالوا أنه لا يمكن وجود علم دون تجريد ، وأن السيكولوجيا العيانية ينبغي أن تستخدم التجريد هي أيضا ، والا تخلت عن كونها علما ، وأصبحت خاطئة في جوهرها .

ولكن نقول بصراحة أن هذا هو الخلط المغرض والمقصود بعينه . فنحن نتكلم عن نوع معين من التجريد عرفناه . فنقدنا للتجريد ليس شكليا في عمومه ، ولكنه شكلي بالنسبة لعلم النفس فقط .

أما من حيث المنطق بصورة عامة فقد سبق أن حددنا اننا نقصد التجريد الذي لا يتناول الا العمليات الذهنية ، باعتبار أن المشكلة مشكلة بشر يعيشون ويعملون ويتصرفون ، ذلك التجريد الذي عندما يواجه واقعا ، يهجر باسم ضرورة التعبير عن نفسه عين اللحظة المكونة لذلك الواقع .

وعلى هذه الصورة يكون الاعتراض الذي نتحدث عنه لا يمكن أن يصيبنا الا اذا كنا نهدف بالسيكولوجيا العيانية الى نوع من أنواع الهوس

المباشر ، والا اذا كان هدفنا قاصرا على المساهمة في الجدل العاطفي والمنافق ضد المفاهيم بشكل عام ٠ ولكن السيكولوجيا العيانيــة ليست رومانتيكيــة جديدة ، وانما هي عدوة لدودة للتجريد حسب ما سبق أن ذكرناه ، وعدوة أيضا للمفاهيم الاسطورية للسيكولوجيا الروحية ٠

وعندما عرفنا السيكولوجيا التجريدية بأنهــا السيكولوجيا العيانية ، فاننــا لم نعد أن قمنــا بصياغة نتائج النقد الذي وجهناه حسب منهجنا ، اذ أن هذا النقد لم يكن موجها للقضايا بل لبنائها ، وهذا هو السبب في أنه لم يقصد مخاصمة القضايا التي يدافع عنها طرفا المخاصمة بل الاوضاع التي ولدت تلك القضايا ٠

وليس التعارض بين السيكــولوجيا الروحيــة والمادية على النحو الذي فهم به هذا التعارض حتى الآن يعطينا الدليل الواضح على وجود تناقض حول مجموعة من المسائل الكلاسيكية ، أما التعارض بين السيكولوجية العيانية والمجردة فيدل على اللحظة الحاسمة في المعركة ، وعلى النقطة المحددة التي ينبغي أن يعتمد عليها كل هجومنا على الروحية مهما كانت وكيف يمكن التخلص منها ٠

من المؤكد أن السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا المادية مترادفتان مثلهما في ذلك مثل ترادف السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا الوضعية . وهدفنا هو استرداد وضعي الوضعية والمادية من كل هذه السيكولوجيا التي أفسدتهما بأن تحلت بهما فقط ، واكتفت في نهاية الأمر بأن تحلم بالمادية والوضعية ، وهي لا زالت في اطار الروحية والمثيولوجية . لذا أردنا أن نبين السبيل المؤدي بصورة فعالة الى تملك شرعي لهاتين الصفتين .

السيكولوجيا العيانية نظام جديد :

بعد هذا النقاش الذي كان هدفنا منه هو أن نحدد طابع مشروعنا بأن نتجاوز التخطيط التكنيكي الذي سرنا عليه فيما قدمناه من صفات لنبين أن نقدنا للتجريد وحملتنا من أجل السيكولوجيا العيانية يرتبطان حسب رأي « بوليتزير » بالحركة المادية .

لذا ينبغي أن نورد هذا التوضيح الاضافي ، طالما لم نتحدث الا عن التناقض القائم بين المجرد والعياني ، ولم نشر بوضوح الى الدور الوظيفي لفكرة الدراما ، فقد يعتقد البعض أن الاتجاه

الايديولوجي للسيكولوجيا الميانية يكاد أن يكون غير محدد • والصيغ التي استخدمناها حتى الآن تعطي للموضوع دقة ولكنها في حد ذاتها لا تستطيع أن تلزم الا الذين تحركهم مقاصد تكنيكية مخلصة •

ومع هذا فهي تسمح للباقين الذين ما أن تظهر فكرة أو محاولة حتى يدورا حولهـا ، ويحاولوا بقدر طاقتهم ان كانت لديهم طاقة بالفعل أن يلعبوا بنصوصها • لهذا ساد الاعتقاد أننا نهدف الى تركيز دعائم بناء فلسفي جديد يقوم على فكرة السيكولوجيا العيانية ، نظام جديد يأملون طبعا أن يكون شكلا من أشكال المثالية ، ولكننا الآن بعد أن تحدثنا عن الطريقة التي تدخل بها السيكولوجيا العيانية في دائرة نفوذ المادية •

وليس علينا الا أن نضيف بأننا نقصد الشكل الحديث من المادية ولا نرمي الى التحديد الذي كانت المثالية تعقد عليه الآمال ، والذي اذا ما ظهر في محاولة علمية كان ذلك دليلا على وقوعها في الخلط والكتابة الادبية ، وسيخيب رجاء البعض، وسيقول الكثيرون أن السيكولوجيا العيانية ليست بالأهمية التي ظهرت بها أول الامر •

في الواقع أن السيكولوجيا العيانية وفدت بشيء ملفت من التجديد في وقت وفي بلد كان ولا شك في انتظار تجديدات ممتعة في المجال الفلسفي السيكولوجي يفتتح بها الموسم الفلسفي القادم ؞ لأنه رغم التهليلات الرسمية لبرجسون والحفاوة به بمناسبة حصوله على جائزة نوبل فقد سئمه الناس في فرنسا ؞

وكل الضوضاء والضجة الاعلامية التي حدثت أخيرا لا تدل الا على أنه في طريقه سائرا حتى يركز بشكله العياني في المتحف القومي ؞ فمن المقطوع به أنه لم يعد يجتذب اليه جمهور الأدباء ولا الفلاسفة الذين يغازلونه حتى يعبدوا طريقهم الذي سوف يوصلهم الى ريادة الصفوف ؞

وفي عرفنا واعتقادنا أن البرجسونية قد بدات تفوح منها روائح السهرات الفرنسية فيما قبل الحرب ، بينما أصبحت الموضة الآن للبارات الامريكية ؞ ثم ان التحليل النفسي قد أثبت للجمهور أنه من الممكن أن يتحمس الناس في علم النفس لاشياء أخرى غير الحدس والديمومة ، ففضلوا عقدة أوديب والرحلة داخل السائل

الرحمي على الخرافات الضعيفة مثل « الأنا الذي يتمدد » ، ويزداد اهتمام الناس بفكرة أن سلوكهم تحدده عقد رومانتيكية أكثر من اهتمامهم بفكرة ضرورات الحركة التي لا طعم لها ٠

ويلاحظ ان الحساسية قد تضخمت وأصبح غرق الفروق الدقيقة للمعاني قصصا تصلح للتافهين ولا يمكن مقارنتها بالملاحم الباهرة للعقد ٠ لذا لا بد من الترحيب بمزيج فلسفي معد بواسطة التحليل النفسي وبكل ما جاءت به السيكولوجيا المعاصرة من طرائف ٠ وكادت السيكولوجيا العيانية تنتهي الى هذه النهاية التافهة ٠ وعبر البعض اثر بعض تصريحاتنا ومواقفنا عن رأي مؤداه أننا والكلام هنا للعالم النفسي « بوليتزر » نريد أن نسير في ركاب ذوق العصر كوننا لا نقنع بالمزايا التي تعود علينا من عدم الالتزام السهل المريح ٠

لذا نراهم يأسفون أشد الأسف حسب زعمهم لأن علم النفس العياني وهو النجم الساطع في أجواء الفلسفة الادبية يتردى في تفاهة المغامرة السياسية ، وهم يعتبرون الاتجاه المادي للسيكولوجيا العيانية نوعا من السياسة ٠

ويرى بعض هؤلاء النقاد ان علم النفس العياني لن يتمكن من التخلص من القانون المشترك بين كل العقائد الذي يلزمها بجعل نفسها تحت حماية سلطة مادية سواء كانت الكنيسة أو أي حزب سياسي ∘ أما البعض الآخر فيرى أنه من المؤسف حقا أن هؤلاء يضحون بما تعتبر به امكانيات حركة شابة من أجل التنفيذ الآلي لبرنامج محدود الأفق ∘

وربما يتساءل البعض هل السيكولوجيا العيانية ذات اتجاه مادي ؟ حسنا ∘ ولكن ما علاقة هذا بالسيكولوجيا العلمية أو بعلم النفس بصورة عامة ؟ تقولون من ناحية أن السيكولوجيا العيانية والسيكولوجيا الوضعية مترادفتان ∘ وهذا يمكن فهمه ∘ ولكنكم تؤكدون من ناحية ثانية أن تعبيري سيكولوجيا عيانية وسيكولوجيا مادية متكافئان ∘

وهذا يعني أن السيكولوجيا الوضعية لا بد وأن تكون مادية ، وهذا غير مقبول لأنه لا يعدو أن يكون موقفا مسبقا وانحيازا ظالما ، وستتوقف المسألة دائما على مزاج علماء النفس ، كل منهم على حدة ، كما قال لنا أحد علماء النفس الألمان المشهورين ∘ والواقع أنهم يريدون أن يعتمدوا على أحد الحلين الآتيين في ردهم علينا ∘

والقول هنا دائما للعالم والناقد النفسي « بوليتزر » الذي يضيف أيضا : أما أن تكون السيكولوجيا العيانية وضعية دون أن تكون مادية ، واما أن تكون مادية دون أن تكون وضعية ٠

ولما كانت الوضعية مسألة عامة فان طابعها العام هذا سيجعل المادية أيضا ضرورة عامة ، بينما المطلوب جعلها مسألة خاصة مرتبطة بمحاولة فردية ٠ ولكن المشكلة ليست بهذه البساطة ٠ فهذا العلم الروحي تماما الذي يأملون ـ بعد ما أصابهم من فشل ـ أن يؤكدوا قبل نهاية الشوط أنه من علوم الروح مساق الى المادية بحكم أنه وضعي ، والمجال الوحيد المتاح له لكي يتخذ خط التطور الطبيعي الذي سلكته كل العلوم هو مجال المادية بالذات ٠

ويضيف « بوليتزر » قائلا : واذا كانت الوضعية تتجه بالسيكولوجيا بالضرورة نحو المادية ، فان هذا يعود بشكل مباشر الى كون الشرط الاول لوضعية السيكولوجيا يتفق تماما مع الهدف الاساسي للجهود المادية في السيكولوجيا ٠ فقد اتجهت المادية دائما في مجال السيكولوجيا نحو سيكولوجيا بلا حياة داخلية ٠

الشكل الاخير للممارضة التي عبرنا عنها في اصطلاحاتنا الفنية بالثنائي « مجرد ـ عياني » . وهذه المعارضة صادرة من ناحية السيكولوجيا المثالية من جانب ومن جانب آخر السيكولوجيا المادية .

الاتجاه الايديولوجي للسيكولوجيا :

يذهب العالم النفسي « بوليتزر » الى أن الأحاديث والآراء قد كثرت في هذه الايام حول الاتجاه الايديولوجي للسيكولوجيا . بعد أن اتضح افلاس السيكولوجيا ذات النزعة الفسيولوجية ـ البيولوجية ـ التجريبية . ولذا طرح السؤال حول نوع الاطارات النظرية والمعارف التي يتطلبها البحث السيكولوجي .

ومن البديهي أن لا نترك مسألة الاتجاه الايديولوجي للسيكولوجيا نهبا لمصادفات الاستلهام كما لا يمكن تسليمه ببساطة لمختلف المحاولات المثالية الحالية . فلا بد لنا من تحديد للاتجاه أكثر دقة وجدية . ومثل هذا التحديد يبدأ من طبيعة الظواهر التي تهتم بها السيكولوجيا . وينسجم وضع السيكولوجيا ، من وجهة النظر هذه ، مع

وانطلاقا من هـــذا المبدأ يتوجب عليها الغـــاء الظواهر الروحية بشكل أو بآخر ٠ ومع أننا لسنا هنا بهدف الغـــاء الظـــواهر الروحية لصالح المادة الفيزيقية ولكن اثبات الطابع الاسطوري للحيـــاة الداخلية يمثل بالفعل خاتمة هذه الجهود ٠وعندئذ لا نصبح بصدد مزاج ، فبمجرد أن نثبت أن الحياة الداخليـــة أسطورة يمكننـــا أن نكتشف تكوينهـــا التدريجي وأساليب تغذيتها ، وعندئذ فانهـــا لا ترجع مسألة تخص العلم ، لأن العلم الوضعي يهتم بالوقائع لا بتحوله الاسطوري ٠

ولهذا يمكننا أن نقول ان المادية استطاعت حتى في أكثر أشكالها سذاجة أن تتبين من خلال تعريفها للظاهرة السيكولوجيـــة الخطـــوة الأولى التي كان يتعين اجتيازها قبـــل أن تتمكـــن السيكولوجيـــا الوضعية من انجاز وتحصيل أي شيء ٠

وربما دار في خلدنا هذا التساؤل ما هو اذن مصير الاتجاه المادي في نقد الحياة الداخلية ، وما هي الروابط الوضعية التي تربط السيكولوجيـــا ــ غير المعترفة بالحياة الداخلية ــ بالمادية ؟والاجابة على هذا السؤال يتخلص في المكانيـــة استخلاص

وضع كافة العلوم الأخرى • فتتجه الفسيولوجيا اتجاها فيزيائيا ـ كيميائيا ، لأن معرفة الظاهرة الفسيولوجية تحتاج الى الفيزياء والكيمياء • غير أن تحليل الظاهرة الفسيولوجية نفسها هو الذي يبين هذه العلاقة العامة ، كما يؤكد المعارف الفيزيائية والكيميائية الخاصة التي تتدخل في كل حالة •

وينطبق هذا الامر على السيكولوجيا أيضا • ولكننا نحتاج هنا الى مفهوم واضح تماما للظاهرة السيكولوجية ، ووضعي بشكل دقيق • ولا يمكن أن تلتزم السيكولوجيا الوضعية بتحديد لاتجاهاتها تنطلق من تصور غامض أو أسطوري للظاهرة السيكولوجية •

ويرى « بوليتزر » أن موضوع السيكولوجيا يقوم على مجموع الظواهر الانسانية من حيث علاقتها بالفرد الانساني ، أي باعتبارها مكونات حياة الانسان وحياة البشر • فالزواج على سبيل المثال ليس ظاهرة سيكولوجية الا باعتباره زواجا ، أي عند اتمامه في ظروف معينة من ناحية أفراد بذاتهم •

القياس السيكولوجي لا من خلال تحليل الظواهر نفسها ، مع اعترافهم بضرورة المساهمة من جانب فلسفة الحياة • وهذه مشكلة لها أهداف في حد ذاتها •

ويذهب بوليتزر الى أن هذه الحالات تنطبق أيضا على الجريمة • فالجريمة لا تكون ظاهرة سيكولوجية الا باعتبارها أحد المشاهد الفعلية في الحياة الانسانية ، لأن الذي يرتكبها بالفعل فرد أو مجموعة من الافراد ليس كل ما في الجريمة • وبناء عليه ينبغي أن يكون السيكولوجي على معرفة صحيحة بالجريمة بغض النظر عن وقوعها الفعلي • أين توجد هذه المعرفة ؟ باعتبارها حدث اقتصادي اجتماعي (١) •

وليس بمقدورنا كما يقول « بوليتزير » أن نفهم الجريمة ، شأنها شأن أي ظاهرة سيكولوجية ، الا عن طريق مفهوم دقيق لدور السيكولوجيا ، أي بتحديد مضبوط للحتمية الفردية للجريمة ، وليس

---

(١) علماء النفس يؤكدون أن تعريف الجريمة بهذا الشكل الاقتصادي الاجتماعي ظلم وتفسق ويستدلون على ذلك في سيكولوجية الجناح وسيكولوجية جنون السرقة .

بمقدورنا أن نتوصل الى هذا التحديد الا بمعرفة التحديد الاقتصادي للجريمة . وبدون ذلك تكون السيكولوجيا قد تمدت مجالها ، وبتعديها لمجالها تكون قدتعدتأيضاالظواهر السيكولوجية الصرفة .

وهكذا فانها لا يمكن أن تعود الى الاستناد على الواقع وتصبح أسطورية لأنها ملزمة بتقديم رواية سيكولوجية حيث ينبغي أن تصمت السيكولوجيا وتترك الكلمة للاقتصاد . كما أنه لا يمكن أن توجد نظرية سيكولوجية الا في مجال النظرية الاقتصادية للجريمة . وليس بمقدورنا أن نتكلم عن الميكانيزم السيكولوجي للجريمة الا في اطار الميكانيزم الاقتصادي للجريمة ، وعندما تكون المشكلة حول ادراج الفرد داخل هذا الميكانيزم وتفسير دخوله هذا .

ويعتقد بوليتزر أنه بمقدورنا أن نطبق هذه الافكار على العمل وعلى الجريمة وعلى كل الظواهر السيكولوجية ، فهذه الظواهر ليست في الحقيقة الا ظواهر انسانية من حيث أنها مرتبطة بالفرد .

وتتطلب السيكولوجيا اذن معرفة الحدود

الخاصة بالظواهر الانسانية بما هي كذلك وبما هي مستقلة عن الفرد ° وهذه المعرفة ضرورية لكي يصبح من الممكن تحديد مجال السيكولوجيا وطرح المسائل بشكل صحيح ، وكذلك للمعرفة التفصيلية باتجاه وحدود ومدى الابحاث والاعتبارات السيكولوجية °

ولما كانت السيكولوجيا بكاملها لا تتحقق الا في اطار الاقتصاد ، فهي اذن تفترض توفر حصيلة من المعارف النابعة من المادية الجدلية على أن تعتمد عليها بصورة دائمة ° وتمثل المادية بالفعل القاعدة الايديولوجية الحقيقية للسيكولوجيا الوضعية °

وانطلاقا من هذه الأمور ينبغي أن لا نظن أن النتائج المترتبة على مثل هذا الاتجاه للسيكولوجيا تخص العادات البورجوازية للسيكولوجيين والسيكولوجيا فقط ، أي التصور وأحادية الجانب الناتجان من كون السيكولوجيا الكلاسيكية نظام نابع من مصالح الطبقة للسيطرة ويرعاه خدامها ° فهذا ليس في الواقع سوى جانب واحد من المشكلة °

ومن المؤكد أن تدرج المشاكل السيكولوجية في الأهمية والاجواء المالية للابحاث واتجاهها ، وأسلوب

اجرائها محدود بدرجة أو بأخرى بالمصالح الطبقية وهكذا ظلت قضايا السيكولوجيا حتى يومنا هـذا مجرد اسقاط للقيم البورجوازية ، وما الاستبطان الا التحويل العلماني للتأملات المسيحية ٠

وكذلك نلاحظ أن علم نفس الطفل يقوم على أساس أنه لا يوجدفيالعالم الا أطفال البورجوازية ٠ ومع أن السيكولوجيا حاولت أن تغني نفسها بالمنهج المقارن ، ولكن تطبيقات هذا المنهج تتعلق بقضايا وظيفية أساسا تجهل في الحقيقة كل ما قد يترتب على العداء بين الطبقات من وجهة نظر السيكولوجيا التي تميل بشكل ملحوظ الى الارتفاع فوق هـذا العداء ٠

ومن المؤكد أن العمـل لم يتحول الى مشكلـة سيكولوجية الا عندما أصبح الانتاج الرأسمالي في أمس الحاجة الى استغلال رشيد للفرد ، فراحـت السيكولوجيا تكمل في نطاق السيكوتكنيك المهمـة التي أخذتها على عاتقها دائما ٠ فبعد أن حولت السيكولوجيـا المعتقـدات التي كـانت ضروريـة لاستعباد الجماهير الى طبيعة مزيفة راحت تكتشف الوسائل التي تمكنها من استعباد الانسان تماما في الانتاج ٠

وقد نلاحظ في كل هذه المشاكل تبدلات وتعديلات في وجهات النظر الناتجة بالضرورة عن تحرر البحوث العلمية من الاغراض غير العلمية ، ولكننا لا نريد أن نتعرض لهذه التغيرات بل للطريقة التي تجعل السيكولوجيا نفسها داخلة في نطاق الحتمية الاقتصادية للظواهر الانسانية ، وعلى أساس هذه النقطة سنتمكن من أن نفهم لماذا كانت السيكولوجيا العلمية مادية بصورة قطعية ٠

ولما كان ينبغي اعتماد السيكولوجيا على معطيات الاقتصاد المادي ، فمن الضرورة وجوب المعرفة الدقيقة ببناء ووظيفة الاحداث الانسانية التي تتناولها السيكولوجيا ، لأن طابعها المادي بالمثل ناتج من أن تحديد الاحداث السيكولوجية نفسها هو تحديد اقتصادي ٠

وليست الحتمية السيكولوجية في حد ذاتها حتمية مطلقة فهي لا تؤثر ولا يمكن أن تؤثر الا من الداخل ، أي من خلال الحتمية الاقتصادية ٠ وتتوقف حدود الحتمية السيكولوجية ومداها على حدود ومدى الفرد نفسه ٠

وربما تكون للسيكولوجيا أهمية طالما كانت

تتناول الأحداث الانسانية في علاقتها بالفرد ، أما اذا اقتصرت على الظواهر الانسانية وحدها فانها تفقد هذه الأهمية • فلا كيان لسيكولوجيا العمل الا اذا كنا ننظر الى العمل من خلال علاقته بالأفراد وبمجرد استبعاد ربط الافراد بالعمل لا يعود العمل مشكلة سيكولوجية •

كذلك يكون الزواج ظاهرة سيكولوجية بقدر تفسيره لأسباب زواج فرد معين بفرد معين آخر دون أن نتجاوز ذلك ،وهكذا يتعين على السيكولوجيا دائما أن تنسجم مع التحديد الاساسي للظواهر التي تتناولها ، أي تحديد العوامل المادية فعلا •

واذا حاولنا أن نعتقد بعد أية مقارنة أو مقابلة يمكننا أن نقول أن السيكولوجيا تمثل بالنسبة للاقتصاد ، ما تمثله الفسيولوجيا بالنسبة للفيزياء والكيمياء • هذا اذا كان من الممكن اختزال الظواهر الفسيولوجية الى مجرد عمليات فيزيائية أو كيمائية ، أي أننا باتجاه علم يشكل مرحلة في الدراسة الكاملة للظواهر التي يتناولها ،علم مكرس لظواهر لا يستطيع ذلك العلم بمفرده أن يستنفذ دراستها •

حتى ان السيكولوجيا لا تملك على الاطلاق سر الظواهر الانسانية ، لأن هذا السر لا يدخل في نطاق السيكولوجيا . فالظواهر الانسانية تخضع لتحديد مادي وان كان هذا التحديد ليس هو المادة بعينها . ولذا فاننا نلاحظ أن السيكولوجيا الوضعية غير ممكنة الا على أرض المادية الحديثة ، النابعة من الدراسات الماركسية .

ومن المستحيل أن نحاول التعرض لتحليل وعرض هذه الابحاث في اطار هذه الدراسة الاولية والتخطيطية كما يعتقد الالمان . ولكننا نبغي فقط أن نبرز العلاقة الوثيقة والحميمة التي تربط السيكولوجيا بالماركسية ، ما دامت السيكولوجيا تتناول بصفة عامة مجموع الظواهر الانسانية الواقعية من زاوية حدوثها الفردي فقط . وستؤكد الأبحاث الوضعية بشكل ملموس هذه العلاقة أكثر مما ستثبتها أي اعتبارات عامة .

والجهة التي تتعلق بالتحديد المادي للظواهر الانسانية من الناحية السيكولوجية ، التي تعني الطريقة التي ترتبط بها الحتمية السيكولوجية بالحتمية المادية للظواهر الانسانية ، تظل المشكلة

بسبطة طالما كانت السيكولوجيا محاكاة للفيزياء ٠ فهناك مجموعة من العلاقات التي تحكم العمليات بصفة عامة ٠

ومن الملاحظ أن السيكولوجيا في الفترة الاخيرة قد تجاوزت المفهوم البسيط للتحديد كما عرفته السيكولوجيا الكلاسيكية ، حيث قل اهتمام السيكولوجيين من ناحية المظهر بتحديد العمليات في الحياة الداخلية ، أو تحديد عمليات الحياة الداخلية واستبدل بها العمليات التي يقوم بها الكائن العضوي ، وهي الاستجابات الكلية للفرد في مواجهة موقف ما ٠

مقارنة السيكولوجيا المثالية بالسيكولوجيا المادية :

بعد كل المقارنات والمطابقات التي تحدثنا عنها حول السيكولوجيا الكلاسيكية والسيكولوجيا الحديثة · لا بد لنا من التوصل الى أساس أزمة السيكولوجيا وهي مقابلة السيكولوجيا المثالية بالسيكولوجيا المادية ٠

ونحن لا ننكر بأن مقابلة السيكولوجيا الكلاسيكية بالسيكولوجيا الحديثة تتعلق فقط بالمحاولات

الصادقة أو غير الصادقة للتخلص من التقاليد التي سارت عليها السيكولوجيا منذ وجودها حتى هذا القرن الذي نعيش فيه ٠ وترتبط مقابلة السيكولوجيا المجردة بالسيكولوجيا العيانية بنقد هذه التقاليد كما أشرنا اليها سابقا ٠

وبالرغم من ضرورة هذه المقابلة وفائدتها العملية ، ولكن من عيوبها أنها تعزل السيكولوجيا بكل عيوبها وضرورات اعادة بنائها ، عن الوضع الحقيقي ، الذي تعبر عنه هذه العيوب والضرورات لذا يلزمنا أن نضع في أساس هذه المقابلة مقابلة أخرى أقل شكلية ، وبدلا من أن نقتصر أو بالأحرى نكتفي بالنظر في الجانب التكنيكي من أزمة السيكولوجيا ، لا بد لنا من أن نعتبر هذه الازمة حالة خاصة من حالات النزاع بين المادية والمثالية ٠

وبهذه الوسيلة يمكن نقد أسس السيكولوجيا في مجالها الحقيقي ، فكل المحاولات في السيكولوجيا تنتسب اما للمثالية أو للمادية ، شأنها في ذلك شأن المحاولات في الفلسفة ٠ ولكن النقد السيكولوجي المعاصر بدلا من أن يعترف بهذا الواقع فانه يعتمد الى التمويه في المعاني لكي يتمكن من اخفاء التعارض الحقيقي ٠

ولهذه الاسباب ينبغي ابراز هذا التمارض ، لنتمكن من أن نتناول فيما بعد التمارضات ذات الطابع التكنيكي العملي الصرف ◦

ومما لا جدال فيه أن الروحانية ، أو واقعية الحياة الداخلية ، أكبر دليل على المثالية في السيكولوجيا ◦ ومع ذلك فان مفهومي الروحانية والمثالية ليسا على نفس المستوى ◦ فالروحانية تكشف عن المثالية التي ولدتها ، وعليه ينبغي أن نرتفع من الروحانية الى مجال المثالية حتى نتمكن فيما بعد من التعرف على المثالية أينما وجدت ◦

وفي نهاية الأمر تتمثل الروحانية في بناء عالم وهمي على نسق الطبيعة الفيزيقية ، أي طبيعة ثانية ◦ ولا شك ان هذه مناورة بارعة حيث يحدث مزج دائم بين الطبيعتين ◦ وسيكون هناك بالتأكيد مفهوم لما يقال ولكنه لا يتعلق بالموضوع المقصود ◦ فواقعية احدى الطبيعتين ستخفي لا واقعية الاخرى وستتجه الانظار الى الأولى ونحن نتحدث عن الثانية ◦

وبهذه الطريقة يتم احلال واقع وهمي محل الواقع الذي لا يمكن دراسته ، وبذلك يتم استبعاد

جزء هام من الصيرورة من مجال الاشياء الموجودة ٠ وهذه هي السمة المثالية للروحانية ، فبدلا من دراسة الظواهر الواقعية للانسان يخترع عالم جديد لا واقع له ٠ وحتى لا يقومون بما هو مطلوب منهم يدعون أنهم يقومون بما هو أفضل ٠ وتحت ستار القيام بدراسة حقيقية للواقع نجدهم يقدمون وسائل بارعة لا نجد فيها عندما نحاول دراستها الا الوهم والخيال ٠

وربما يعمد العالم الروحاني الى سرد القصص الخرافية الاسطورية التي تعتبر بنظره نسيج وحده ٠ ولو لم تدلس السيكولوجيا على الواقع الانساني لما أصبح ما هو نسيج وحده الموضوع المفضل لديها ٠

ولو اكتفت السيكولوجيا بالحقيقة كما تظهر في التجربة الانسانية لما كانت في حاجة الى اختراع كل هذه الأساطير الخاصة بطبيعة الروحانيات ٠ ولكن لما كان الذين يعيشون في عالم الخيال مجبرين على الظهور في مظهر المشغولين في عملهم ، كذلك كانت السيكولوجيا في حاجة الى تصريحات غير عادية حول الطبيعة الرائعة للواقع ، ذلك الواقع الذي لا وجود

له ، لأنها تقصد أن تدرس الواقع مهما كان ◦ لذلك كان لا بد من تأكيد روعة واقع غير موجود حتى ينسوا ويدفعون غيرهم الى نسيان الواقع القائم ◦

وعندما يفبركون الحياة الداخلية فانهم يفتحون ثغرة كبيرة في صيرورة الاحوال الانسانية تؤدي ببساطة الى الفراغ والعدم ◦ وهكذا يأتي العمل الانساني من العدم ويعود الى العدم ◦ فهو يصدر من الحياة الداخلية التي (بسبب عدم وجودها) لا يحدث فيها أي شيء ، ثم يعود اليها ◦ وبادخال الحياة الداخلية في مفهوم الاحوال الانسانية بأساطير الجن والشياطين بعد استبعاد الجن والشياطين منها ◦ وتسمح الحياة الداخلية بالقفز في اللحظة التي ينبغي أن يحدث فيها شيء ، الى مسرح لا يمكن أن يحدث عليه أي شيء ◦ ولذا فان أي سيكولوجيا تعترف بطريقة أو بأخرى بالحياة الداخلية هي بالضرورة سيكولوجيا مثالية ◦ ولهذا السبب أيضا فان أي سيكولوجيا مثالية تعترف دائما بطريقة أو بأخرى بالحياة الداخلية ◦

ويذهب بعض علماء النفس الى أن السمة الأساسية للمثالية ، في السيكولوجيا وفي غيرها ،

تتمثل في تحويل الاشياء الواقعية الى عدم ، أيا كانت طبيعة هذا التحويل وطريقة وصف هذا العدم فيما بعد .

ونجد بالفعل في مجموع الاتجاهات السيكولوجية سلسلة متدرجة متصلة من درجات الروحانية ، ابتداء من أكثر الروحانيات غلاظة حتى أكثر المفهومات هباء للعدم . كما أننا نلاحظ فيها ان الصيرورة ليست سوى مجرد سحر ، فيتلاشى الانسان الذي يعيش ويعمل وتتلاشى معه الاشياء التي يعملها ، والاحداث التي يرتبط بها بحيث يترك مكانه لهذا اللاشيء الذي ينبغي أن يولد منه مرة أخرى بكل ما يعمل وما يعيش .

ومن المؤكد أن الاتجاهات السيكولوجية ذات المنطلق المادي قد احتجت دائما على هذا التحول وضد هذا التلاشي في العدم ، فلم تعترف مطلقا بأن شيئا ما يوجد ويعمل كما توجد وتعمل بقية الاشياء العادية يمكن أن يصبح فجأة لا شيء لمجرد استمراره في وجوده وعمله .

وهذا ما يحدث بالنسبة للاحساس ، فالمنبه يؤدي الى التنبيه الذي يليه الاحساس ، وتستمر

العملية ، ولكن الاحساس يصبح ـ باسم كل ما يوجد ويعمل ـ لا شيء . لهذا بدأ الفلاسفة والسيكولوجيين ذوي الاتجاه المادي ، أن التحول الفجائي للحركة الى فكرة والفكرة الى حركة وتحويل التقلصات الحشوية الى انفعالات ، والانفعالات الى ايماءات نوع من تحويل الشيء الى عدم ، وتحويل العدم واللاشيء الى شيء .

ولهذا حاولوا دائما الاحتفاظ بالشيء . وهذا هو السبب في أنهم بحثوا وما زالوا يبحثون عن الشيء الحقيقي الموجود منذ البداية ، أي المادة الكامنة وراء العاطفة والفكرة والارادة . ولكن هذا الشكل الاول للمادية لا يعبر الا عن العزم على عدم الاعتراف بالتحويل ، وهي الامكانية الوحيدة أمامه طالما استمرت السيكولوجيا في اثارة القضية الأساسية بالطريقة الكلاسيكية . جسم عار في مواجهة طبيعة عارية .

ويرى بعض علماء النفس أن المثالية وحدها هي التي تتمسك بالحكم السيكولوجي المسبق ، أي بالرأي القائل بأن في وسع السيكولوجيا تقديم تفسير نهائي لأي شيء . كما أن الحكم السيكولوجي المتحامل هو من جهة أخرى دليل دائم على المثالية .

وهكذا فان كافة المدارس التربوية المؤسسة على السيكولوجيا وحدها التي لا تتوقع التبدل الا بمعجزة تحدث في الداخل هي مدارس مثالية لأنها في نهاية المطاف تعتبر العدم منطلقا لحدث حقيقي أو مجموعة من الاحداث الحقيقية ۰ وينطبق هذا أيضا على المعرفة بالانسان بصفة عامة ۰

وفي الحقيقة ان السيكولوجيا كما يقول بعض علماء النفس لا يمكن أن تصرفنا بأي بداية ۰ فهي ليست في البداية ولكنها في الوسط ۰ فلا يوجد في الانسان أي شيء أو حدث أو ظاهرة تستطيع السيكولوجيا أن تدرسها دراسة كاملة ، أو ينبغي أن تقول الكلمة الاخيرة فيها ۰ فكل ما يحدث لانسان يتقرر بدقة من خلال مجموع الاحداث التي يعيشها ، ولكن هذه المجموعة من الاحداث مترتبة هي أيضا على البناء الاقتصادي ، وهنا يمكننا بالتأكيد أن نتحدث عن تحديد تفصيلي نقطة نقطة ۰

أما محاولة اعتبار التفسير السيكولوجي تفسيرا نهائيا ولو في معرفة الانسان فيكشف فورا عن الموقف المثالي بالنسبة لمجموع الاشياء الانسانية ۰

وفي ضوء هذه الآراء بمقدورنا أن نستنتج أن السيكولوجيا كما هي في العادة مثالية في الاساس ، واذ تجاوزنا عن الواقعية ، أي عن دراسة الحياة الداخلية التي لا تستطيع السيكولوجيا العادية أن نقوم بها ، لأن الحياة الداخلية ليست حقيقة ، وأخذنا في الاعتبار ما تقوم به فعلا لوجدنا أن السيكولوجيا هي النظام الذي يتناول الظواهر التي ينبغي تفسيرها بدلالات فحسب ، والذي يؤكد أنه توجد فعلا ظواهر تفسر هذه الدلالات ° والظاهرة السيكولوجية هي ظاهرة تبدو مترتبة على دلالة ، والتفسير السيكولوجي هو التفسير الذي يشرح الاشياء بالدلالات

وهذا هو بالدقة الشيء المستحيل ° ولا تظهر هذه الاستحالة بالطبع طالما كانت السيكولوجيا تختار ظواهرها من بين الاشياء الواقعية ° ولهذا تختار السيكولوجيا أشياء غير واقعية بالذات كنقطة بداية حتى لا تتبين هذه الاستحالة °ولكنها تجبر على الاعتراف بهذه الاستحالة بمجرد موافقتها على اتخاذ الاشياء الواقعية نقطة بداية °فالاشياء الواقعية لا تفسرها بالفعل الا أشياء واقعية ، ولذا لا بد من تبديل كل شيء ، لا بد من تغيير مفهوم

الظاهرة السيكولوجية لكي لا تهتم السيكولوجيا الا بالواقع ، ولا بد من تغيير الفكرة عن التفسير السيكولوجي حتى يفسر الاشياء بأشياء أخرى ٠ وهكذا يتلاشى كل مفهوم قديم لعلم النفس من حيث هو مفهوم مثالي في الاساس ٠

علم النفس والسيكوتكنيك :

اذا كانت السيكولوجيا لم تتمكن بعد خمسين سنة من المحاولات من اعطاء فكرة صحيحة عن أسسها ، فهي أيضا لم تستطيع تحديد الظاهرة السيكولوجية والمنهج السيكولوجي بطريقة يقبلها جميع علماء النفس ٠ فيعود السبب الى عاملين : من ناحية لا يمكن معالجة صميم تعاليم السيكولوجيا التقليدية وخاصة مذهب واقعية الحياة الداخلية وفقا لمفهوم العلوم الوضعية لأنها تنطلق من أصل غريب على التجربة ، ومن ناحية أخرى لا زالت هذه التعاليم تعيش بعناد غريب في أكثر المحاولات وتعرقل الجهود المبذولة ٠

هذه المشاكل جعلت الاهتمام الاول للمحاولات الجديدة الحديثة يتجه نحو تصفية السيكولوجيا

الكلاسيكية، اما بالتخلي تماما عن الافكار التقليدية واما بابراز خطأ أو عقم أساليبها الاساسية ٠

وقد أكدت خبرة البرامج المختلفة التي وضعت في الحقبة الاخيرة والتي لم يفلح أي منها أن يكون مقبولا تماما ان حل مشكلة أسس السيكولوجيا لن يتحقق عن طريق تأملات نظرية صرفة ، وان الطريقة الوحيدة لتصفية المفاهيم المرقلة هي استخلاص المنطلق الاساسي للابحاث السيكولوجية التي ترتبط بحكم اتجاهها ارتباطا وثيقا بالظواهر الحقيقية فضلا عن أنها تدور بطبيعتها خارج الاهتمامات والمشاكل التقليدية للسيكولوجيا الكلاسيكية ٠ وهذه هي حالة علم النفس الصناعي بالذات ، والسيكوتكنيك بصفة عامة ٠

وهذان العلمان أبعد من أن يكونا مجرد تطبيق للسيكولوجيا العادية ، وذلك بحكم الظواهر التي يدرسانها ، والاتجاهات التي تشملها هذه الظواهر على نحو عياني ٠ فعلم النفس الصناعي والسيكوتكنيك يتعديان التعريف الكلاسيكي للظاهرة السيكولوجية ويخرجان عن نطاق مشاكل السيكولوجيا التقليدية ٠ ومن المهم جدا من ناحية

البحث في حل مثل أسس السيكولوجيا ، أن نبحث عن كيفية استخلاص علم نفس عام عياني من علم النفس الصناعي والسيكوتكنيك ، وذلك خلافا لما تراه السيكولوجيا الكلاسيكية من ان علم النفس الصناعي والسيكوتكنيك ليسا الا تطبيقا لعلم النفس العام • على أن يكون ذلك العلم مختلفا بالتالي عن علم النفس العام المجرد الحالي الذي توصل الى مفاهيمه الاساسية وتقسيماته خارج نطاق التجربة •

وبمقدورنا أن نتصور سيكولوجيا جديدة وأصيلة لا تستند في أساسها على البيولوجيا أو الفسيولوجيا ، ومع ذلك تظل بعيدة عن المشكلات التقليدية للسيكولوجيا الكلاسيكية بل بعيدة على نحو جذري عن مفهوم الحياة الداخلية أيا كان الشكل الذي يتخذه •

ولكن يتعين على هذه السيكولوجيا المطلوبة تعريف الظاهرة السيكولوجية على أنها قطاع من حياة الفرد حتى تصل الى هذه النتيجة • فهي اذن سيكولوجيا عيانية لا تعني بالمشاكل الوظيفية المحببة لدى السيكولوجيا الكلاسيكية •

ومما لا شك فيه ان المشاكل الوظيفية لها هي أيضا معنى عياني ° فينبغي علينا أن نتبين كيف يمكن التعرض لها دون أن تتخذ دراستها ذريعة للاحتفاظ بالمخزون الميتافيزيقي للسيكولوجيا الكلاسيكية أو لاقحامه من جديد ، وبالتالي :

أولا : بدون واقعية الحياة الداخلية °

ثانيا : بدون المفاهيم التقليدية المتفرعة من النظرية المدرسية حول ملكات الروح °

ونلاحظ أن وجهة النظر المحددة هذه معمول بها في علم النفس الصناعي والسيكوتكنيك ° واذا نظرنا لهذين العلمين دون أفكار مسبقة وجدنا أنهما غريبان عن الواقعية الروحية ، وكل ما يمت بصلة الى الحياة الداخلية ، كما أنهما مدفوعان في أغلب الاحوال الى التخلص من المفاهيم التقليدية °

ومن المهم جدا أن نصعد من الظواهر الى المباديء حتى نتوصل الى علم النفس العام الذي يتولد من تطبيق متكامل ودقيق لوجهة نظرنا هذه ، وأن نستخلص علم النفس العام المطلوب ابتداء من المعطيات الفعلية في علم النفس الصناعي والسيكوتكنيك °

هذه هي المشكلة التي نبسطها و نطالب بضرورة التفكير بها بعد معرفة جواب السؤالين التاليين :

١ ــ كيف يمكن استخلاص علم نفس عام وضعي من المعطيات الحاليـــة لعلم النفس الصناعي والسيكوتكنيك ، أي علم نفس عام غريـــب تماما عن تعاليم الحياة الداخلية والاهتمامات المجردة لعلم النفس العام الحالي ؟

٢ ــ ما هي مباديء ومفاهيم علم النفس العام في المنظور المشار اليه ؟

وبمقدورنا اختصار هذين السؤالين وجعلهما في سؤال واحد هو : كيف نستطيع أن نتصور اليوم علم نفس عام مستخلص حقا وبدقة من التجربة ؟

« تم الكتاب »

الفهرس

بعد أن اكتملت في سبيـل موسوعة نفسية في ٢٤ كتاب أو ضمن ٦ مجلدات نقدم للقارىء العربي أسماء المواضيع وهي بالتسلسل :

١ ـ التنويم المغناطيسي
٢ ـ فصام الشخصية
٣ ـ الانهيار العصبي (الهستيريا)
٤ ـ مبادىء علم النفس
٥ ـ الاحلام
٦ ـ تغلب على القلق
٧ ـ تغلب على الخجل
٨ ـ الجنس عند فرويد
٩ ـ تغلب على الخوف
١٠ ـ الذاكرة
١١ ـ العلاقات الزوجية
١٢ ـ سيكولوجية الطفولة والمراهقة
١٣ ـ السلوك
١٤ ـ الشخصية الناجحة
١٥ ـ الإرادة
١٦ ـ الادراك
١٧ ـ الشذوذ النفسي
١٨ ـ السيكولوجية النفسية
١٩ ـ نقطة الضعف
٢٠ ـ علم النفس التربوي
٢١ ـ تطور المعالجة النفسية عبر القرون
٢٢ ـ علم النفس الحديث
٢٣ ـ الحياة الزوجية وعلم النفس
٢٤ ـ أصول علم النفس

الحياة الزوجية
وعلم النفس

في سبيل موسوعة نفسية

٢٣

الحياة الزوجية وعلم النفس

تأليف

الدكتور مصطفى غالب

منشورات

دار ومكتبة الهلال

بيروت - ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

الادارة العامة - بيروت شارع المقداد - بناية فرحات وحجازي
ص . ب : ٣ . . ٥ / ١٥

مقـــدمـــة

تتعرض الحياة الزوجيـــة في أغلب الأحيـــان للمصاعب والمتاعب التي قـــد تؤدي الى فصم عرى الحياة الزوجية ، والتسبب في ايجـــاد أجيال مـــن الأطفـــال المصابين بالعقـــد النفسيـــة والتوترات العصبية التي نتجت بالضرورة عن انفصام العلاقات الزوجية لكثرة التشـــاحن والتخاصم بين الـــزوج والزوجة داخل الأسرة ٠

ولما كانت الحياة الزوجية السعيدة تدخـــل الى البيت السعادة والهناء ، اذا كانت هذه الحياة مبنية على أسس واضحـــة بينـــة مـــن المحبـــة والتفاهم والانسجام المطلق بين أفراد الأسرة ٠ فقد أصبح من الضروري في حياتنا المصرية المتطورة أن تكون

العلاقات الزوجية منطلقة من الثقافة السيكولوجية لتحقيق التكامل النفسي الذي أهمله الانسان في هذا العصر المتقدم ٠

ونحن لا نشك مطلقا بأن أجدادنا كانوا على الأغلب سعداء في حياتهم الزوجية على الرغم من جهلهم بالقضايا النفسية ، والشعور الاجتماعي ، والتحليل النفسي ، والعقد النفسية ، والعيادات السيكولوجية ، ولكن تطور وتقدم نظام الأسرة بسبب المدنية الحديثة ، قد أوجد بالضرورة الحاجة الملحة الى تطبيق علم النفس والعلاج النفسي على أفراد الأسرة ، لكي نتمكن من توفير التفاهم والسعادة لهذه الأسرة ٠ حتى تظل متماسكة متراصة تلعب دورها الفعال في بناء المجتمع المتطور الحديث ٠

ان ما كان يفعله الأجداد بالسليقة أو بواسطة الادراك المباشر أو بالعقل السليم ، أصبحنا في هذه الأيام في أشد الحاجة الى أن نتعلمه و نتدرب عليه أو بالأحرى نهتم باكتسابه ٠ ولئن كان علم النفس هو علم الحياة البشرية في هذا القرن ، فاننا مع ذلك يجب أن نقر بأن « الحياة » أوسع ميدانا من « العلم » ٠

اذا ما أردنا أن نتعرف على أسلوب حياة الأسرة في المجتمع المتطور نلاحظ ان هذا الأسلوب هو الذي أوصلنا الى « انحلال نظام الأسرة » وهو الذي تسبب في تزايد حالات « التنازع الزوجي » ٠ واذا كان بعض علماء الاخلاق قد دأب على البحث حول « محنة الزواج » و « أزمات الحياة العائلية » ، فربما كان السر في كل تلك المشاكل العويصة التي يمر بها نظام الأسرة ، انما هو انفصام الرابطة التي كانت تجمع الانسان بالحياة ، وانعدام العلاقة التي كانت تشد الوجود البشري بالحقيقة الكاملة ٠

وانطلاقا من هذه المشاكل المعقدة الشائكة يمكننا أن نتأكد أن الانسان الحديث قد فشل في اختياره لشريكه الآخر ، وكأنما قد تمثر حسه الباطن الذي كان شعاعا ينير له الطريق الى«الشريك الموافق» أو بالأحرى الى « النصف المكمل » ٠ ولا يعني هذا أن المشاكل العائلية وليدة هذا العصر ، ومشكلات الصراع ، والتكيف ، والخلاف ، والانفصال ، من نتائج هذا التطور والتقدم ٠ ولكننا نرى بكل وضوح رغم ان المجتمعات القديمة قد عرفت معظم هذه المشكلات ، فان ما يميز حضارتنا الحديثة هو تمرض القيم الاخلاقية للانهيار والتردي

في بؤرة الفساد ، واستهتار الكثيرين بقدسية نظام الأسرة ٠

واذا ما رغبنا في تحليل الكثير من مشاكل « النزاع الزوجي » وجدنا أن تمرد الطرف الواحد على شريكه في الحياة الزوجية انما هو في ذاته تمرد على الزواج نفسه ! لذلك يقتضي الامر ويدفعنا الواجب الى الوقوف على أسباب هذا التمرد ، حتى نتوصل الى معرفة مدى مستقبل الزواج وحياة الأسرة في المجتمع الحديث الذي يعتبر بحق نظاما اجتماعيا متكاملا ٠

وما دمنا نبحث عن أصل الداء فلا بد لنا من محاولة تقديم الدواء المفيد الذي يعيد نظام الأسرة المقدس الى سيرها الطبيعي لنخلق أجيالا يظللها النظام العائلي المتكامل المثالي في حياتنا الاجتماعية المتقدمة ٠ ولا يغرب عن بالنا أن دراسة الدور « النفسي » الذي تقوم به الأسرة في حياة الفرد ، وما لهذا الفرد من منافع مفيدة تساعدنا على كل عمل اصلاحي أخلاقي واجتماعي نود القيام به ٠

وهنا لا بد لنا من تفهيم الفرد باعتباره عضوا فاعلا في المجتمع ما ينبغي عليه أن يسلكه في انفعالاته

واستجاباته تجاه المجتمع الـذي يعيش فيه ، وفي الوقت نفسه كون هذا المجتمع نفسه مخصصا لحماية الأفراد ، كما هو مجعولا لحماية العائلة ، والأسرة ، والاولاد ، والاطفـال ، مـن المشـاكل النفسيـة والاجتماعية ، والاخلاقية ٠

في هذا الكتاب حاولنا بقدر الطاقة ، واعتمادا على ما توفر لدينا من آراء وأفكار استخلصناها من أقوال وآراء علمـاء النفس ، أن نضـع المشكلات الزوجية موضع البحث والدراسة ، لنتعـرف على الأسباب والعلل الكامنة خلف هذه المشكلات ،فنقدم لها الحلول المختلفة ، ونستبعد ما ضعف احتماله من هذه الحلول ، مع الابتعاد عـن الادلاء بالأفكـار الحاسمة ٠

ومتى كانت لدى القاريء فكرة ولو قليلة عن السيكولوجية والمصطلحات العلمية ، أخذ بيدنـا وساعدنا على ايراد الحقائق العلمية النفسية ،التي يمكن الاستفادة منها عند محاولة اصلاح ما فسد من نظام الأسرة والمجتمع ٠

ومن المؤكد أن تعميم ونشر الثقافة السيكولوجية

وخاصة ما يرتبط منها بنظام الأسرة ، ودعم المجتمع العائلي ، وتحقيق ركائز الانسجام الزوجي ، يقدم للوطن والأمة أنجع وأنفع السبل لتخليصها ممــا تعانيه من مشاكل اجتماعية وأخلاقية عويصة .

بيروت في ١٩٨١/٤/٣

الدكتور مصطفى غالب

اختيـــار الزوجـــة

اذا اعتبرنـــا عملية اختيـــار الزوجـــة عملية سيكولوجية يؤديها الفرد عندما يحدد « موضـــوع حبه » معتمـــدا على بعض العوامل الاجتماعيـــة والأخلاقية والنفسية ، نكون قد وصلنا الى التقرير الواضح الذي يرى أنه ليس هناك ثمة انتقاء مطلق الحرية في هذا الموضوع · فالرجل كما هو معروف في أغلب الأحيان يختار زوجته من الوسط الـــذي يعيش فيه ، وفق بعض الشروط المتعلقة بالسن ، والحالة الاقتصادية ، والبيئة الثقافية ، والمكانـــة الاجتماعية ·

ولكن من الملاحظ في هذا العصر المتقدم أن آفاق الرجل قد أخذت بالاتساع ، فأضحى يتصل ببيئات

جديدة ، ويكوّن صداقات عديدة ، كما أصبح يغض الطرف عن بعض الشروط الاجتماعية التي كان ينظر اليها نظرة هامة أجداده ، ومع كل هذا فان اختيار الشريك لا زال مقيدا ببعض الشروط الاجتماعية التي يفرضها المجتمع على أفراده ٠

ومن الملاحظ عبر تاريخ الانسانية الطويل ان الرجل كان يأخذ شريكة حياته ، أو الفتاة التي يريدها أن تكون زوجة له وأم لأولاده ، عن طريق الخطف ، معتمدا على القوة ، ثم تطور هذا النضام مع مرور الأيام فأصبح الرجل يشتري زوجته بالمال ، أو عن طريق المبادلة ، وكان الشاب طالب الزواج يدفع هو أو أبوه أو أسرته مبلغا من المال يحدده ذوي الفتاة مقابل الحصول عليها ليتزوجها ، واذا كان عاجزا هو أو أسرته عن دفع هذا المبلغ يشتغل طالب الزواج عددا من السنوات في أملاك أهل الفتاة حتى تصبح الفتاة ملكا له ، كما فعل يعقوب عندما حصل على راحيل زوجة له ٠

وبعد مرحلة من تطور المجتمع في تلك الأوقات اشترط للزواج موافقة الأهل ، أو المسئول عن الفتاة ، فأضحى رأي العائلة أساس كل عقد زواج ،

ولم يكن للفتاة أن تتخذ أي قرار للاعراب عن قبولها أو رفضها ، وانما كان عليها أن تطيع وتنفذ أوامر رب العائلة ، الذي لم يكن بدوره يراعي في قبوله أو رفضه سوى مصلحة الأسرة وسمعتها وشرفها الاجتماعي .

وأخيرا وبعد مخاض عسير وطويل أصبح الزواج مبنيا على الموافقة الشخصية التي تملن عنها الفتاة ، ولم يبق في مقدور أحد ـ في معظم المجتمعات الحديثة ـ أن يفرض على المرأة قبول زوج لا ترغب فيه ، ولم يعد في وسع الآباء أن يتدخلوا تدخلا مباشرا أو غير مباشر في تحديد مصير ومستقبل بناتهم الزوجي .

ورغم كل هذا التقدم والتطور الذي أصاب المجتمعات الحديثة ، فلا يمكننا أن ننفي ما للعادات والتقاليد الاجتماعية من دور فمال في تحديد أسلوب كل مجتمع من المجتمعات ، بل كل بيئة من البيئات ، في عملية « الاختيار الزوجي » .

وتبدو معالم المجتمع واضحة في تحديد سن الزواج ، حيث أن بعض المجتمعات لا زالت تؤيد الزواج المبكر ، بينما نلمس مجتمعات أخرى قد

ابتعدت عن هذا الأسلوب المتأخر ، ووافقت على ضرورة اقتران الـزواج باكتمـال النضـوج في الشخصية .

وفي ضوء المعلومات التي أوردها علماء النفس والاجتماع بمقدورنا أن نحدد بصورة تقريبية السن الملائمة للزواج من الناحية السيكولوجية ، بعد أن يتم الاستعداد النفسي للزواج ، وهـذا الاستعداد برأي علماء النفس لا يتم عند الرجال قبل ال ٢٨ سنة ، وعند الفتيات قبل سن ٢٥ سنة .

في الحقيقة الشاب أو الفتاة قبل هذا السن قلما يدرك أو تدرك المعنى الحقيقي للزواج باعتباره صلة دائمة ، ورابطة قوية ، واتحادا عميقـا ، وركيزة أساسيـة لبناء المجتمـع الصحيح ، ولهذا ينبغي أن لا نساعد على فكرة الزواج المبكرة ، لأنه زواج يحمل في جوانبه بوادر ومعالم الفشل وأسباب الخيبة .

هذا الرأي ليس مستحدثا ولا جديدا انما سبق أن قال بـه العديد من العلمـاء والفلاسفـة عبر العصور ، وعلى رأس هؤلاء الفيلسوف الحكيـم

أرسطو الذي دعا الى ضرورة تحريم الزواج على الأحداث الذين لم يبلغوا بعد سن النضج ٠

واذا ما دار في خلد البعض بأن النضج الجنسي ربما يتم في سن مبكرة ، لذلك لا يمكن منع الشاب من الزواج ، فقد لا يستطيع مقاومة الاغراءات الجنسية التي تتكوم في أعماقه ، ونحن وان كنا نقر هذه الفكرة ولكن لا بد لنا من الاعلان أنه من الضروري التلفت بدقة وعناية الى النضج النفسي قبل النضج الجنسي ، لأنه لا بد لكل مقدم على الزواج في سن مبكرة من أن يفكر بوضوح بالاعتبارات الاقتصادية التي فرضتها مجتمعاتنا الحديثة ، التي لم تعد تجيز للشاب أن يتزوج في سن مبكرة قبل أن يؤمن مستقبله الاجتماعي والاقتصادي ٠

ونحن من جانبنا لا نشك أبدا بأن التطورات الاجتماعية الحديثة قد أثرت تأثيرا كبيرا على مستوانا السيكولوجي ، مما جعلنا لا نبلغ مرحلة « النضج الذهني » الا في سن متأخرة نسبيا عن مرحلة « النضج العضوي » ٠ وحينما يتزوج الشاب أو الفتاة في سن مبكرة ، أي قبل اكتمال نضج

الشخصية عند الواحد منهما ، فانه قد يحدث أن تنفصم عرى المحبة بينهما حينما تنضج شخصية الواحد منهما ، فتبدو له نقائض الآخر ، أما الشاب الحديث السن الذي لم تصقله التجارب وتمركه الأيام فقد يمزج بين الزواج والمغامرة العاطفية فيعتقد أنه يكفي للزواج بفتاة أن تروقه جنسيا ، أو أن يأخذ جمالها وسحرها وفتنتها واغراءاتها بمجامع قلبه ! غير أن الحقيقة لا تتفق مع هذه الأحلام الصبيانية لأن المغامرة ظاهرة مؤقتة عابرة ، بينما الزواج رابطة دائمة ومسئولية ضخمة تقوم على أسس مكينة من الثبات والاستقرار ٠

ويرى علماء النفس ان المغامرة ربما تكون ساحة صالحة للتدريب على الزواج والاستعداد لمواجهة بعض تبعاته الجنسية ، ولكنها ليست بالساحة الحقيقية التي تكسب فيها معركة الزواج السعيدة واذا كانت بعض القبائل البدائية تشترط للزواج أن يقدم الزوج لزوجته المقبلة رأس عدو نجح في قطعه ، فربما كان في مقدورنا أن نذهب الآن الى أن على الرجل الذي يرغب في الزواج أن يضع بين يدي فتاته كصداق يظهر رجولته رأسا

واعيا ، وعقلا مفكرا ، وادراكا واقعيـا لمفاهيم الزواج وأسباب السعادة الزوجية (١) ٠

واذا حاولنا مطالعة بعض الاحصائيات لحالات الزواج في البلاد المتعددة ، تبين لنا أن الرجـال يميلون عادة الى التزوج بنساء أصغر منهم سنا ٠ ولكن الفارق في السن بين الرجل والمرأة يختلف من بلد الى آخر ، فنراه في البلاد الأوروبية والامريكية لا يكاد يتجاوزه سنوات ، بينما نراه يبلغ في بعض بلدان الشرق حوالي ١٠ أو ١٥ سنة ٠ وقد يكون السبب في ذلك هو أننا ندفع بالفتاة الى الزواج في سن مبكرة ، قبل أن تستكمل نضجها النفسي ، بينما يجد الرجل نفسه مجبرا على التأخر في الزواج حتى يكوّن نفسه ماديا ، ويصبح مستعدا لتحمل تبعات الحياة الزوجية ٠

ونلاحظ أنه على الرغم مـن أن حظ الزواج بالنسبة الى الفتيات يقل في العادة بعد سن الخامسة والعشرين ، فان ظروف التعليم قد تشفع للفتاة المثقفة فتسمح لها بالزواج حتى سن الثلاثين ٠ ومع

---

(1) Y. Oswald & Shworry : The Psychology of Sex : p. 250.

ذلك فان الاحصائيات تدلنا على أن حظ الفتاة من الزواج حتى في البلاد الامريكية ، يأخذ في التناقص بعد سن ٢٢ • وهذا يبين بصراحة أن عامل السن لا يزال يلعب دورا أكثر أهمية في حياة المرأة منه في حياة الرجل •

واذا أردنا أن نلقي نظرة على العوامل السيكولوجية التي تساهم في عملية « الاختيار الزوجي » نلاحظ أن هناك من يرى ويعتقد بأن الرجل عادة يحاول الحصول على الزوجة التي تكون قريبة الشبه من أمه ، كما أن الفتاة تتزوج بالرجل الذي تشعر أنه يماثل أباها •

وهذا الاعتقاد ينطلق على الغالب من أفكار فرويد التي أوردها في نظريته عن عقدة أوديب التي ترى بأن الطفل يرتبط في طفولته بأمه ، وأن الأنثى تتعلق في صباها بأبيها • غير أن بعض علماء النفس الذين قاموا بتجارب عديدة لاحظوا أن اختيار الفتاة لزوجها متأثر بالصورة التي كونتها لنفسها عن « السوبرمن » أو الرجل المثالي أكثر مما هو متأثر بالصورة التي علقت في ذهنها عن والدها •

ومن المؤكد أن هناك عوامل لا شعورية تلعب

دورها في عملية الاختيار الزوجي ° وربما ستتحدد علاقة الزوج بزوجته على أساس علاقته أثناء الطفولة بأمه ، كما تتوضح علاقة الزوجة بزوجها في المستقبل على أساس علاقتها أثناء الطفولة بأبيها ° فالطفلة التي تلمس أن أمها تحصل على كل ما تريده من زوجها عندما تستخدم سلاح الفتنة والاغراء ، تتخذ من هذا السلوك مثالا لما يجب أن تكون عليه علاقتها في المستقبل مع زوجها °

والطفل الذي عرف كيف يحصل على رضاء والدته بطريقة معينة ، ربما يحاول فيما بعد أن يرضي زوجته مستخدما نفس الطريقة ° والفتاة التي درجت منذ الطفولة المبكرة على اتخاذ موقف عدائي من والدها قد تنتقي عند الزواج زوجا تقدر أن تتابع ضده هذه الوسائل العدائية °

ويعتقد العالم النفسي آدلر ان الزوج المخدوع ربما يكون في بعض الأحيان طفلا مهملا لم يلق من أمه سوى الصد أو عدم الاكتراث والاهتمام ° وانطلاقا من هذه الآراء يمكننا أن نذهب الى أن آثار الطفولة لا بد من أن تفعل فعلها في الحياة الزوجية للشخص البالغ ، وهي تظهر في نوع الشريك الذي

يحاول اختياره الشخص ، وطريقة التعامل التي يتخذها نحوه ، وأسلوب الحياة الذي يسلكه في كل حياته الزوجية .

وبالاضافة الى هذه العوامل توجد عوامل أخرى شعورية تعمل عملها في اختيار الرجل لزوجته ، واختيار المرأة لزوجها . حيث أن لدى كل شخص « صورة مثالية » للمرأة كما يجب أن تكون ، فحينما يحاول هذا الشخص اختيار روجته ، يعمد بقدر طاقته وحسب امكانياته ، من الاقتراب من هذا المثل الأعلى الذي كونه في مخيلته . ولكن هذه « الصورة المثالية » ربما تكتسب صفة خيالية ، فيصبح طالب الزواج « رومانتيكيا » لا يلاحظ الأمور على واقعها ، أو قد تموه حقيقتها فلا يتمكن من التكيف مع الواقع الذي يعيش فيه . وليس أخطر على الحياة النفسية للشاب أو الفتاة من أن يعيش أو تعيش في عالم سحري عامر بالخيالات البراقة والأحلام الخداعة ، فلا يكون في وسعه فيما بعد أن يتكيف مع الحقيقة والواقع (الذي لا يخلو أبدا من ضعف وقصور ونقص) .

وانطلاقا من هذه الأمور ينصح علماء النفس كل زوج أو شاب مقدم على الزواج بأن يبتعد

بنفسه عن الخيالات الجميلة والأحلام السعيدة التي هي أشبه ما تكون بأحلام اليقظة في سن المراهقة ٠ وهذا لا يعني أن يتنكر الشاب طالب الزواج لمثله الأعلى عند الاختيار أو أن يحاول الابتعاد عن القيم والمناقب التي طالما عرف في نورها معنى الحياة ، ولكن نرى من واجبنا أن نقول ان الشخصية الناضجة لا تصدر في اختيارها عن تصورات خيالية أو أوهام رومانتيكية ، بل تبحث وتنقب عن « الشريك » الموافق الذي يمكن أن تؤسس معه حياتها على مباديء من التعاون الكامل والتفاهم الحقيقي ٠

وهذا يعني أن الرجل الناضج لا يفتش عن « المرأة المثالية » كهدف أساسي ينطلق منه لتحقيق فكرة الزواج منها ، انما يفتش عن الشريكة المخلصة التي تكون موضع ثقته ، وتقدر جهوده ، وتشجعه على مضاعفة نشاطه وابداعه ، وتأخذ بيده ليتمكن من المضي في الطريق التي شقها لنفسه ٠ وهكذا ينبغي أن تكون المرأة ، كون الفتاة الناضجة لا تبحث عن الرجل المثالي الذي صورته في مخيلتها قبل نضوجها ، بل تفتش عن الزوج الأمين الصادق الذي يمكن أن يقف بجوارها لمواجهة مصاعب الحياة ،

والذي تتوفر فيه كافة الشروط التي تثق بها وبأنه سوف ينفذها بدقة واخلاص ·

ويرى العالم النفسي آدلر عندما يتحدث عن رابطة الحب أن هذه الرابطة هي خليط من القوة والحنان ، لأن كلا من الرجل والمرأة يريد أن يحيط الآخر بعنايته ، وأن يسبغ عليه عطفه وحنانه من جهة ، كما أنه يريد أن يركن اليه ويتلقى منه العطف والرعاية من جهة أخرى · فالحب هو نوع من التوازن بين حاجة المرء الى تلقي الرعاية كأنما هو مجرد طفل ، وحاجته الى رعاية الآخرين كأنما هو أب مسئول · واذا كان العطف الذي يسبغ على الشخص دليلا على قيمته ، فان الرعاية التي يسبغها على غيره هي دليل على قوته ·

وهكذا نلاحظ أن المرأة أو بالأحرى الزوجة تركن الى زوجها وتعتمد عليه ، غير أنها في الوقت نفسه تحب أن تشرف على تدبير أموره والاهتمام بتلبية حاجاته · والزوج يحب أن تكون له زوجة يحميها ويغار عليها ، ولكنه في الوقت نفسه على استعداد لأن يقبل منها العطف والرعاية ·

وانطلاقا من هذه الافكار التي أوردناها يمكننا

أن نتبين أن الاختيار الزوجي متأثر بعوامل داخلية وخارجية : فهو من جهة متأثر ببعض العوامل الداخلية مثل الحاجة التي يحس بها الشخص الى العثور على رفيق وشريك مثالي ، والصورة التي يكوّنها لنفسه عن « شريكة حياته » على نحو ما ينبغي أن تكون ٠ ومن ناحية ثانية محدد ببعض الظروف الخارجية مثل محل الاقامة ، والعنصر الذي ينتسب اليه الشخص ، والطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها ٠

ويستدل من الاستفتاءات التي أجراها بعض علماء النفس في أمريكا حول معرفة ماهية « المثل الأعلى » الكل من الشاب والفتاة في المدارس العليا ، أن ٤٤٣ فتاة أمريكية قد أجمعت على أن أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في « الرفيق المثالي » هي بحسب ترتيبها في الاهمية :

١ ـ العقل الناضج ٠ ٢ ـ الميل الى النظافة والعناية بالمظهر ٠ ٣ ـ الصحة الجيدة ٠ ٤ ـ قوة الشخصية التي تسمح بالاعتماد عليه والثقة به ٠ ٥ ـ الميل الى المرح والسرور ٠ ٦ ـ الطهارة الجنسية ٠ ٧ ـ السمعة الطيبة التي تدل على

احترام الناس له ٠ ٨ ــ أن يكون محبوبا من أهله وذويه ٠ ٩ ــ أن يكون نشيطا في عمله ٠ ١٠ ــ أن يكون لبقا في حديثه ٠

أما الصفات التي يرغب فيها الشبان (وكان عددهم في ذلك الاستفتاء ٤٢٦ شابا) في « الرفيقة المثالية » فهي بحسب ترتيبها في الاهمية :

١ ــ العقلية الناضجة ٠ ٢ ــ الصحة الجيدة ٠ ٣ ــ المظهر الحسن ٠ ٤ ــ النظافة والاهتمام بالملبس ٠ ٥ ــ المرح والحبور ٠ ٦ ــ الشخصية المكتملة التي يمكن الاعتماد عليها ٠ ٧ ــ الطهارة الجنسية ٠ ٨ ــ الرغبة في العمل والنشاط ٠ ٩ ــ الروح الدينية والتردد على الكنيسة ٠ ١٥ ــ أن تكون الفتاة محبوبة من أهلها وذويها ٠

من هذه الاستفتاءات يتأكد لنا بصراحة أن « المثل الأعلى » في النواحي الزوجية لدى الزوج والزوجة يعتمد بالدرجة الأولى على العقلية الناضجة التي استكملت نموها النفسي ، مع الاهتمام بالناحيتين الاجتماعية والجسمية ، مما يدل على أن فكرة « تكامل الشخصية » متجسدة في وعي كل من الزوج والزوجة في أمريكا ٠

واذا ما رغبنا أن نقوم بمثل هذه الاستفتاءات في البلاد العربية لوجدنا أن الصفات التي يتطلبها كل من الفتى والفتاة في « رفيقه المثالي » أو « رفيقها المثالي » لا بد من أن تأتي مختلفة عن الصفات التي حددت في المجتمع الاميركي ° فالطهارة الجنسية والشرف والسمعة الطيبة تتربع في بلادنا على عرش الصدارة ، وذلك عائد الى بعض العوامل الدينية والاجتماعية والبيئية °

ورغم كل هذا فلا نزال في بلادنا نهمل أهمية العوامل الداخلية في الاختيار الزوجي بدليل أن تكامل الشخصية قلما يكون موضع اختيار الشاب لشريكة حياته ، فضلا عن أننا غالبا ما نهتم بالتفكير في مسائل تعدد الأسرة ومركزها الاجتماعي ومستواها المادي وما الى ذلك من مواصفات °

ويذهب بعض علماء النفس العرب الى أن صعوبة الالتجاء الى تطبيق مثل هذه المعايير النفسية عند الاختيار في مجتمعات لا زالت تقاليدها تحول دون تعرف الشاب على شريكة حياته على الوجه الأكمل ، واذا كان مجتمعنا الحديث قد شرع في تحرير المرأة ، فلا بد لهذا التحرير من أن يتبعه تصحيح شامل لكافة الأوضاع والتقاليد والعادات

الاجتماعية الميتة القديمة البالية ، لأنهـا لم تعد صالحة وكافيةلحماية الأسرة منالتصدع والانهيار .

واذا كـان العديد مـن شبابنـا المتعلم لا زال يلتجيء الى الزواج بالأجنبيات ، فربما كان السر في ذلك يعود الى التعرف على شخصية الفتاة الاجنبية المؤكد قبل الزواج ، بينما في بلادنا لا نزال نحيط فتياتنا بستار كثيف من الغموض والسرية لا سبيل الى اختراقه الا بعد فوات الأوان ! ومن المؤكد أن هذه الاوضاع السائدة في بلادنا سوف تزول بفعل الزمن وتطور العصر ، ولكنها قد تسبب في تقويض العديد من البيوت ، اذ كيف يتأتى « الوفاق » بين شخصين يجهل أحدهما الآخر ؟

ربما يعتقد البعض بأن الوفاق ظاهرة طبيعيـة لا بد من أن تتولد في كل مجتمع عائلي سوي ، ولكن هذه الظاهرة الطبيعية في حاجة دائمة الى عوامـل ممهدة ، وهي قلما تتوفر في الزواج السريع الذي يتم على عجل دون أن تسبقه فترة تعارف حقيقي . ولعل هذا هو السبب في أن لمرحلة « الخطبة » أهمية كبرى في حياة الزوجين ، نظرا لأنها هي التي تسمح للاختيار الزوجي بأن يؤسس وفق دعائم قوية من الاختبار .

وفي الحقيقة أن فترة الخطبة هي أقرب ما تكون الى نظام اجتماعي يقوم على « المحاولة والخطأ » ، وهي الوسيلة الوحيدة التي تسمح لكل من الشاب والفتاة بأن يتجاوز دوامة التصور الخيالي متجهـا نحو دوامة التجربة الواقعية ٠

ونحن لا ننكر بأن الخطبة التي تدوم بضعة أيام هي عبث لا طائل تحته ، كما أن الخطبة التي تدوم سنة واحدة على سبيل المثال قد تسمح للخطيبين بأن يتحققا من حسن اختيارهما ، ومدى قوة أو ضعف الرابطة الزوجية التي ستجمع بينهما ٠

نظرات وآراء علماء النفس متناقضـة حول « الخطبة » فبعضهم يرى أنها عقدا ملزما كعقـد الزواج ، بينما يعتقد البعض الآخر أن الخطبـة مجرد مرحلة اختبار ، لا بد من اجراء عدة تجارب قبل الاقدام بصورة نهائية على الزواج ٠

ونحن وان كنا نفضل ونرجح عملية الاختبار سواء عن طريـق التعارف أو الخطبـة ، باعتبار مرحلة الاختبار ليست سوى مرحلة نفسية هامـة ، وأداة دفاع قوية ضد كل ما يتوجب على الزواج السريع مـن أخطار وشرور ٠ ولكننـا نفضل أن

تبتعد عملية الاختبار هذه عن التجارب الجنسية التي تطبق في بعض البلدان الأوروبية والامريكية، وينبغي أن تظل الفتاة متمسكة بكرامتها وشرفها وتحاول بقدر طاقتها أن تبتعد عن الغوص في أوحال الشهوة والتجارب الجنسية التي يمجها المجتمع في بلادنا ، وتسبب للأسرة الأذية وسوء العاقبة •

واذا ما نظرنا الى بعض علماء النفس نلاحظ أن أدلر على سبيل المثال يبالغ في تقرير أهمية البيئة كعنصر أساسي يقوم عليه كل بناء الشخصية ، فالوراثة بعرفه عنصرا هاما يلعب دورا فعالا في الحياة الزوجية • فاذا كان الزوج يجلب معه عند الزواج مثلا نصف « الوراثة » التي سيفرضها على أبنائه من بعد ، فانه هو الذي يتخير بنفسه ذلك النصف الآخر الذي يكمل عناصر هذه الوراثة •

لذا ينبغي على الزوج أن يتروى قبل أن يقدم على اختيار النصف الآخر الذي سيشترك معه في تحديد بنية النسل • وحينما يختار الرجل شريكة حياته ، والمرأة تختار شريك حياتها ، فهذا يعني أنهما يشتركان معا في اختيار الوراثة الكاملة التي سيفرضانها من بعد على أبنائهما • وليس من شك في أن ضيق أفق الشاب ، أو فرط خجله ، أو رغبته

اللاشعورية في تجنب المخاطر ، أو خوفه من الدخول في بيئات لا عهد له بها ، كل هذه الاسباب أو بعضها قد تدفع به الى الالتجاء الى بنات العمومة المباشرة ، مما يؤدي بالتالي الى ضعف الذرية ، أو ظهور بعض الخصائص السيئة في أعقابه ٠

الانسجام الزوجي :

يعتقد علماء النفس والمجتمع أن العوامل التي توفر الانسجام والتوافق بين الزوجين ، يمكن تحديدها باعتبارها سؤثرة فعالة في توفير التكيف ، وخاصة تلك العوامل التي ترتبط بالقضايا الجنسية ، ولكن القضايا الجنسية ليست العامل الوحيد الذي تتحدد على أساسه علاقة الزوج بالزوجة ، كون تاريخ الزوجين ربما لعب دورا هاما في تحديد السلوك العام الذي سوف يتخذه الواحد منهما بازاء الآخر ، نظرا لأن كلا منهما يحمل في جعبته منذ البداية آثار الأنماط السلوكية التي تعود على اتخاذها تجاه والديه وأقربائه في عهد الطفولة والمراهقة ٠

ويذهب بعض أنصار المدرسة الفرويدية من علماء النفس الى أن العديد من العلاقات الزوجية

الصريحة ليست سوى « رموز » لأدوار ومواقف تكونت في عهد الطفولة نتيجة لسلوك الطفل بشكل معين نحو أبيه أو أمه أو اخوته أو أقربائه ◦ وقد يسلك الزوج تجاه زوجته نفس السلوك الذي كان يسلكه ازاء أمه التي كان يعتمد عليها أثناء الطفولة ، أو سلوكه نحو أخته التي يكن لها البغض والكراهية ، أو سلوكه نحو شقيقه الذي كان يحبه ويقدره ◦

وهكذا ربما تكون الحال بالنسبة للزوجة فانها ربما اتخذت نحو زوجها نفس المواقف التي كانت تتخذها أيام الطفولة نحو أبيها ، أو أخيها أو أختها الكبرى ◦ وقد يتدخل عامل « التناقض العاطفي » في الموقف ، فيتخذ الزوج من زوجته مواقف متنوعة تقابل أدوار متعددة لعبها في صباه نحو أمه أو أخته أو أخيه ◦ فالزوج الذي كان في صباه طفلا مدللا قد يستمر في استخدام نفس الأساليب التي كان يعتمد عليها في طفولته ، بغية اثارة اهتمام زوجته على نحو ما كان يثير اهتمام والديه ◦

وفي أغلب الأحيان يكون لهذه الانفعالات السلوكية التي تكونت أثناء الطفولة دور رئيسي في تحديد مصير الأسرة ، والعمل على نجاح الزواج

أو فشله . واذا ما تلفتنا الى مشكلات الانسجام والتكيف والتوافق ، لاحظنا أن هناك علاقة مباشرة بين السعادة الزوجية والفترة اللازمة لتحقق الانسجام والتوافق والتكيف بين الزوجين : فكلما كانت هذه الفترة قصيرة ، كان احتمال الانسجام والتكيف في الزواج أكبر ، وكلما كانت المواقف التي فشل الزوجان في تحقيق الانسجام فيها أقل ، كان احتمال وصولهما الى تحقيق السعادة الزوجية أكبر .

ويعتقد بعض علماء النفس الذين أجروا تجارب عديدة حول هذه الأمور والمشاكل أنه قد تأكد بالتجربة أن الانسجام بين الزوجين في مجال النشاط الجنسي هو أصعب مظاهر الانسجام وأحوجها الى عنصر الوقت . وربما تكون صعوبة الانسجام راجعة في بعض الأحيان الى وجود بعض آراء سابقة لدى الزوجة عن الجنس باعتباره أمرا مخالفا للقواعد الاخلاقية السليمة ، أو بالأحرى شرا أو رذيلة لا بد من الغوص في أعماقها ، أو عن العملية الجنسية بكاملها باعتبارها انفعالا سيئا خال من اللذة والاستمتاع . وعندما تقبل الزوجة على العمليات الجنسية وهي مزودة بهذه الأفكار ، فانها

بالتأكيد سوف تواجه صعوبات كبرى في أن تكيف نفسها مع النواحي البيولوجية الضرورية للحياة الزوجية .

ويذهب علماء النفس الى أن الانسجام الجنسي يتوقف على عوامل كثيرة من أهمها التربية الجنسية التي يتزود بها كل من الزوجين ، ومدى خبرة كل من الزوج والزوجة بالنشاط الجنسي ، ودرجة الاشباع التي يبلغانها في علاقتهما الجنسية ، ومدى ارتباط الدافع الجنسي عند كل منهما بعدد مرات الجماع وأسلوب الواحد منهما في الاستجابة للآخر .

لقد أجرت احدى الباحثات بالقضايا الجنسية عدة اختبارات توصلت منها الى حقيقة هامة تؤكد أن الاستعداد للحياة الجنسية عامل هام تتوقف عليه السعادة الزوجية . وهذا يعني أن هناك علاقة وثيقة بين الخبرة الجنسية ودرجة ارتياح كل من الزوجين للتجربة الجنسية الأولى . وعندما تأتي هذه التجربة منسجمة ، فان هناك احتمالا كبيرا في أن تكلل الحياة الزوجية بالنجاح . ولكن عندما تأتي هذه التجربة فاشلة وتسبب الآلام ، فمن المحتمل أن يتبعها فشل في الحياة الجنسية المستقبلة .

ويرى بعض علماء النفس أنه من الخطأ التوهم أن فشل التجربة الجنسية الأولى ، يعقبها فشل متواصل في كل أدوار الحياة الجنسية المقبلة ، لأن الفشل في الانسجام الجنسي ربما يكون تعبيرا رمزيا عن انعدام الانسجام في مجالات أخرى ، حيث يصبح الاختلاف الجنسي نتيجة لا سببا للشقاق القائم بين الزوجين . ولعل هذا هو ما عناه بعض علماء النفس عندما قال : ان الحياة الجنسية للزوجين هي الجهاز الدقيق الذي يسجل أعمق الاضطرابات التي تطرأ على الزواج ، حتى حينما تكون كل المظاهر توحي بالهدوء والاستقرار التام .

وفي ضوء هذه الافكار يمكننا أن نؤكد أن للعامل الجنسي أهمية كبرى في تحقيق الانسجام والتوافق بين الزوجين ، بدليل أن هناك احتمالا في أن يتم الانسجام بين الزوجين حينما تكون شدة الدافع الجنسي عندهما متطابقة ، بينما يزداد احتمال الشقاء في الحياة الزوجية عندما تزيد قوة الدافع الجنسي عند المرأة عنها عند الرجل .

وترى العالمة النفسية « كاترين دافيس » أنه ليس ثمة علاقة مباشرة بين استعمال موانع الحمل ودرجة السعادة الزوجية ، ولكنها قد لفت نظرها

حوادث الاجهاض التي كـانت تحـدث لدى الأسر الشقية بصورة أكبر ممـا هي عليـه لدى الأسر السعيدة (١) .

واذا ما ألقينا نظرة خاطفة على آراء علمـاء النفس حول قوة الدافع الجنسي لدى كـل مـن الزوجين ، نلاحظ أن الآراء مختلفة حول مدى صحة الرأي القائل بازدياده عند الرجل عنه لدى المرأة ، على الرغـم مـن اعتراف العديديـن بأن نشاط المراهقين الجنسي أكبر من نشاط المراهقات .

والرأي الذي يأخذ به الكثيرون هو أنه اذا صح وجود مثـل هـذه الفوارق الجنسيـة بين الزوج والزوجة ، فانها لا تعود الى عوامل بيولوجية وانما ترجع في النهاية الى عوامل اجتماعية وثقافيـة . ويستدل على صحة ذلك بعض علماء النفس نتيجة لملاحظاتهم في احتمال بلوغ النساء المثقفات درجة الاشباع الجنسي أقل في المتوسط من احتمال بلوغ النساء الماديات مثل هذه الدرجة .

---

* Katherine B. Davis : Factors in the Sex Life p.p. 76 - 77.

ويبدو أن علماء النفس لم يتوصلوا حتى الآن الى تحديد العلاقة الدقيقة الموجودة بين المستوى الاجتماعي لكل امرأة، ونوع انفعالاتها واستجاباتها أو بالأحرى طريقة سلوكها تجاه الرجل . ولكن البعض من هؤلاء العلماء لاحظ أن الأزواج والزوجات الذين ينحدرون من مستوى اجتماعي راق هم في العادة أميل الى التسامح فيما يتعلق بمشاكل الجنس من الأزواج والزوجات الذين ينحدرون من أوساط اجتماعية متدنية .

ومهما يكن الأمر ، فان مسائل الانسجام الجنسي تحتل أهمية كبرى في حياة الزوجين ، خصوصا وأنها تحدد درجة التآلف التي تتم بين الزوج والزوجة . وليس من شك في أن الزيجات السعيدة هي وحدها التي يتحلل فيها الزوجان من ملابسهما عند الجماع ، وهي وحدها التي يستطيع فيها كل من الرجل والمرأة أن يتجول في المنزل عاريا دون خجل أو حياء !

ولكن هناك حقيقة هامة يجب أن لا تغرب عن بالنا وهي أن الفترة الأولى من الحياة الزوجية لا بد من أن تكون فترة تكييف جنسي ، وسواء قصرت هذه الفترة أو طالت ، فان نتائجها لا بد من أن تكون

على صلة وثيقة في كل مراحل الحياة الزوجية المقبلة ٠

ويذهب علماء النفس الى أن الانسجام الزوجي ليس سوى مظهر واحد من بين مظاهر أخرى كثيرة للسعادة الزوجية ٠ وهذه المظاهر قد تؤثر على الحياة الزوجية ، مثل عادات الزوج والزوجة ، وأسلوب كل منهما في الانسجام ، وعلاقتهما بالأسرتين المتصاهرتين ، وطريقتهما في تمضية أوقات فراغهما ، وآرائهما الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠

وهذه العوامل عندما تتنازع وتتصارع بعضها مع بعض فانها قد تتحكم في كل مصير الأسرة ، أو هي قد تؤثر على الاتجاه العام للحياة الزوجية ان نحو السعادة أو نحو الشقاء ٠ وهنا لا بد لنا من طرح هذه العوامل واستعراض العلاقة بينها وبين التكيف الزوجي خاصة وأن هذه العوامل تؤثر وتتأثر بعضها بالبعض الآخر ٠ ولنضرب مثلا لذلك فنقول : ان ثمة ارتباط وثيق بين النازع الجنسي والنازع المادي ، فان الزوجة عندما تشعر بتفوق زوجها عليها من الناحية الاقتصادية ، نظرا لأنه هو الذي يكسب عيش الأسرة ، فانها قد تحاول أن

تقوم بضرب من التعويض في المجال الجنسي بـأن تحرم زوجها جنسيا ، أو بأن تضن عليه بمحاسنها وفتنتها وغنجها ودلالها ، الا اذا قبل بعض الشروط التي تمليها عليه ، وهكذا نلاحظ أن الزوجة ربما لا تقبل الاستسلام لزوجها الا لقاء بعض الامتيازات المادية أو الوعود الشرائية ، خصوصا اذا كانـت امرأة جميلـة وأنيقـة تعشـق اللباس والزينـة والتجمل ٠

والذي نعلمه من خلال التجارب التي أجراهـا أصحاب الاختصاص أنه بمجرد انتهاء شهر العسل فان العروسين يجدان نفسيهما مضطرين الى مواجهة مشكلات الانسجام والوفاق التي لم تخطر لهما على بال ٠

وهنا تبدأ الأحلام بالتبخر بفعل الحقيقة ، فلا يجد كل طرف بدا من أن يحاول فهم الآخر على ما هو عليه في ضوء الواقع الأليم ، ويكتشف في شخص شريكه مخلوقا مهملا لا يعنى بالمظهر ولا يلتفت الى النظافة ، ولا يحرص على الأناقة ، مما قد يتولد عنه في نفس أحد الزوجين شعور بالنفور من الطرف الآخر ٠ وعلى الغالب تكون مثـل هـذه المشاكل الصغيرة سببا في احساس الزوجة بأنها قد أساءت

الانتقاء ، أو أنها قد هبطت الى مستوى اجتماعي غير مستواها ، مما يؤدي الى حدوث التنازع بينها وبين زوجها ، أو قد تفقد الزوجة كل شعور بالاحترام والتقدير نحو شريك حياتها ۰ وسرعان ما ترتبط هذه المشاكل الصغيرة بمشاكل أكثر منها أهمية وأعمق دلالة ، فلا يلبث الخلاف أن يدب في أعماق الأسرة ۰

ويلاحظ علماء النفس ان المشكلة المالية التي قد تكون مناسبة لظهور اختلافات جوهرية بين الزوج وزوجته ۰ باعتبار أن القضايا المالية وسوء التصرف في ادارة المنزل قد تجبر الزوج على القيام ببعض الملاحظات ، التي ربما أدت الى ازدياد الخلافات وتطور المشاكل بين الزوجين ۰

والظاهر ان علماء النفس يذهبون مذاهب متناقضة متعارضة حول أهمية المادة في الحياة الزوجية ، فيرى البعض منهم الى أن المركز الاقتصادي للعائلة قلما يكفي لتوفير أسباب السعادة للزوجين ، اذا كانت أسباب الانسجام السيكولوجية معدومة بين الطرفين ، بينما يعتقد البعض الآخر أن الفقر والعوز والحاجة الى المال عوامل هدم قوية في مرتكزات ودعائم الأسرة ، خصوصا في المجتمعات

الحديثة حيث تزداد تكاليف الحياة ويرتفع مستوى المعيشة ◦

وعلى العموم ليس بمقدور أي انسان أن ينكر ما للمال والمادة من دور فعال في صميم العلاقات القائمة بين الزوجين ◦ ويظهر تأثير المادة على السعادة الزوجية حينما يؤدي اسراف الزوج أو الزوجة الى الاستدانة ، فلا تلبث هموم البيت ومشاكله من أن تصبح حملا ثقيلا لا طاقة للطرف الآخر باحتماله ، وتصبح الحياة الزوجية في نظره جحيما لا يطاق ◦

وربما يحدث أحيانا أن يرتبط اهمال الزوج بشعور الزوجة نحوه بنوع من القصور فنراها تحاول أن تنتقص من قدره بأن تكشف أمام الناس عن مظاهر اهماله ، وفي مثل هذه الحالات ، تتخذ مظاهر الاختلافات البسيطة في السلوك الشخصي أهمية رمزية تتصل بأمور أخرى ذات شأن في ميدان الانسجام العام بين الزوج والزوجة ◦

وتظهر هذه المشكلة بوضوح عندما يكون تعلق الزوجة بأسرتها أكبر من تعلقها بزوجها ، أو عندما يجد الزوج نفسه مجبرا على قطع بعض علاقاته

القديمة مع أصدقاء ظل مرتبطا بهم طوال حياته السابقة ٠

ولما كان الزواج كما يقول علماء النفس يغير من مجرى الحياة التي اعتادها في السابق كل من الزوج والزوجة ، حيث يضطر كلا منهما الى أن يكون ويؤلف اتصالات وعلاقات جديدة ، أو أن يبتعد عن بعض العلاقات القديمة ، مما قد يترتب عليه ارتباك مؤقت في حياة الفرد ، أو تبدل مفاجيء في عاداته المألوفة ٠ وكثيرا ما يحدث أن تعترض الزوجة على أن يتابع زوجها علاقاته القديمة ، فلا يكون منه سوى أن يمنعها من التردد على بعض صديقات الطفولة أو المراهقة ، مما قد يؤدي الى استياء الزوجة ونزوعها نحو المقاومة ٠

ويرى علماء النفس أن هذه المشكلة تأخذ طورا أكثر أهمية في البلاد الأوروبية والاميركية ، عندما تكون صداقة الزوج أو الزوجة مرتبطة بالجنس الآخر ٠ فيتدخل عامل الغيرة ، ويحرص الزوج على أن تمتنع زوجته عن استقبال أصدقائها القدامى ، أو تصر الزوجة من جانبها على أن يقطع زوجها كل علاقة مع زميلاته في الدراسة أو رفيقاته في الطفولة والمراهقة ٠

وعندما يكون للزوجة عمل لها فيه أصدقاء كانت على صلة بهم قبل الزواج ، فانها ربما لا تستسيغ الابتعاد عنهم ، وتعتبر ما يذهب اليه زوجها في هذا الشأن ضغط مفاجيء على حريتها ، فهي لا تفهم سر ضرورة مقاطعة الاصدقاء التي لا تجمعها بهم أية علاقة جنسية أو غرامية ° وهكذا الحال بالنسبة للأزواج وخاصة في أوروبا وأمريكا، حينما تضطرهم طبيعة عملهم الى التعامل مع نساء لا تجمعهم بهن سوى رابطة العمل ، فلا ترغب زوجاتهم بمثل هذه الملاقات ، بل تصر الواحدة منهن على أن يقلع زوجها عن مواصلة مثل هذه العلاقات زاعمة أنها على ثقة من أن لها طابعا غراميا ، ولا ريب أن الاصل في هذه المخاوف والقلق هو أفكار المرأة التقليدية حول الغيرة الجنسية ، ورغبتها العميقة في المحافظة على زوجها لها وحدها، وحرصها على ابعاده عن مسببات الخيانة الزوجية °

وفي بلادنا الشرقية الامر يختلف كلية عن هذه المشاكل التي استعرضناها ، كون المشاكل على الغالب ترتبط بأسرة الزوج أو الزوجة ، حيث يشعر كل من الطرفين أن الطرف الآخر لا زال يحل من نفسه أسرته وأهله منزلة كبرى قد لا تمادلها

منزلته هو عنده • وقـد نلاحظ أن زوجـا نشأ وترعرع على التعلق بأمه ، ودأب على النظر الى الكون بما فيه من خلال أمه ، بحيث لم يعد في وسعه حتى بعد الزواج أن يقطع الملاقات التي تشده الى أمه ، أو أن يقلع عن المقارنة في كل لحظة بين زوجه وأمه ، معربا بوضوح عن ايمانه بأن المرأة المثالية لم توجد ، وحتى اذا وجدت يجب أن تكون مماثلة لأمه ، وليس من الفريب أيضا أن نرى في مجتمعاتنا الشرقية امرأة ظلت بعد الزواج طفلة تعتمد في كل شيء على أمها ، ولا يمكنها أن تتصرف في أمور بيتها الا على ضوء ما تمليه عليها أمها ، مما قد يسبب للزوج الأذية كونه يرغب أن تكون زوجته شخصية مستقلة تصدر في أفعالها عن وعي ناضج وتفكير شخصي •

ويقرر بعض علماء النفس العرب أن مثل هذه الزوجة أو ذلك الزوج انما ينقصه نضج الشخصية الذي يسمح للفرد بأن يستقل في تفكيره وسلوكه عن والديه أو من كان يحل محلهما • ولكن حتى اذا كانت شخصية الزوج أو الزوجة ناضجة مكتملة ، فان مجرد الاقامة مع أسرة أحدهما قد تكون كافية

لتوليد الكثير من المشاكل النفسية والاجتماعية في حياتهما الزوجية ٠

ويرد علماء النفس السبب الى اختلاف كل من الجيلين اللذين تنتسب اليهما الأم والزوجة ، فضلا عن اعتقاد الأم بأن الزوجة شخصية غريبة قد استأثرت بابنها دون أدنى حق ، مما يوجب ظهور الغيرة بينهما ، وتنافسهما بشتى الأساليب في العمل على اكتساب عطف الرجل ٠

وربما تمتد مشكلةالانسجام الزوجي الى مجالات أخرى غير المجال العشقي أو الجنسي، والمجال المادي أو الاقتصادي ، والمجال الأسري أو الاجتماعي ، فيشعر كل من الزوجين بضرورة العمل على تحقيق نوع من الانسجام بينهما في المجال الديني أيضا ٠ وتبدو هذه الحاجة عندما يكون ثمة اختلاف جوهري في العقيدة أو المذهب بين الطرفين ، كأن يكون الزوج مسلما سنيا والزوجة شيعية ، أو الزوجة مسيحية والزوج مسلم ، أو الزوج درزيا والزوجة مسلمة سنية ٠

وهذه الفروق الدينية أو المذهبية عندما تقترن بالتعصب من جانب أحد الطرفين ، فانها قد تحدث

أثرا سيئا على السعادة الزوجية ، خصوصا عندما تبدأ مشكلة التربية الدينية بالنسبة الى الأولاد ٠ وحتى عندما يكون لدى الزوجين بعض التسامح الديني ، فان الاختلاف لا بد وأن يقع بين وجهات النظر حول بعض القضايا الاخلاقية والفكرية والاجتماعية ، أما ظاهرة مكشوفة أو مستورة باطنية ، أو بصورة صريحة وواضحة ٠

ويذهب علماء النفس الى أن الانسجام بين الزوجين ليس مجرد عملية سيكولوجية تقترب بنضج الشخصية واكتمالها ، وانما هو أيضا ظاهرة سوية توجبها طبيعة الحياة الانسانية التي لا تكف عن التطور والنمو ٠ والحقيقة أن الفرد ـ حتى بعد الزواج ـ لا زال في مرحلة الترقي والنمو ، وهو على الرغم من كونه ناضجا أو راشدا ، فانه يجد نفسه مجبرا باستمرار على أن ينسجم ويتكيف مع العالم الخارجي الذي تتسع آفاقه أمامه ، والذي يجلب له عددا غير قليل من المشاكل الجديدة (١) ٠

والخطر الذي يتهدده من خلال مراحل نضجه ،

---

(1) Cf. C. Y. A Study of 250 Successeful Families, age p. 242.

انما هو خطر الارتداد أو التقهقر ، أعني احتمال العودة الى حياة الطفولة ، أو الرجوع الى مراحل سبق له اجتيازها • وهذا هو السبب في أن للذكريات القديمة والتجارب السابقة أهمية في حياة الفرد ، حتى بعد الزواج • وفي مثل هذه الأوضاع كثيرا ما يكون التحليل النفسي مفيدا كونه يساعد على العودة الى تلك المراحل السابقة التي مر بها الفرد ، فيسمح لنا بأن نفهم تلك التجارب فهما عميقا ، وأن نتوصل الى معرفة دلالتها الحالية بالنسبة اليه •

وما دامت المشكلة الجوهرية التي تعترض الزوجان في مطلع حياتهما الزوجية انما هي ضرورة اهتمام كل منهما بالآخر على نحو ما يهتم بنفسه ، فانه لا بد لكل منهما من أن يعمل جاهدا في سبيل التخلص من تلك « النرجسية » المتطرفة التي توجد لدى كل منهما في السنوات الأولى من الطفولة • وهنا يتمثل الخطر في أن « النرجسية » قد لا تتراجع وتختفي ، وانما هي تواصل زحفها لدى أحد الطرفين أو لديهما معا ، فيصبح الزوجان أكثر نرجسية مما كانا عليه من قبل وهما منفصلين ! لذلك تكون الصلة وثيقة بين « الارتداد » أو

« النكوص » وبين « النرجسية » أو « المشق الذاتي » ، لأن التقهقر الذي نذكره هنا انما يعني العودة الى مرحلة سابقة من حياة الشخص ألا وهي مرحلة « النرجبسية » .

والخلاصة أن الانسجام الزوجي هو عبارة عن عملية سيكولوجية لا بد من أن تتم في مستهل الحياة الزوجية ، والا فان الأسرة لا بد من أن تتعرض في المستقبل لخطر الانحلال أو التفكك .

السعادة الزوجية :

استعرضنا فيما تقدم من صفحات عمليات الانسجام التي تتم بين الزوجين في مطلع حياتهما الزوجية ، وسنستعرض الآن عوامل النجاح في الحياة الزوجية اعتمادا على المعلومات التي بسطناها حول أسس الانسجام الزوجي .

وهذه الأسس التي تنشأ وتترعرع داخل الأسرة منذ مطلع الحياة الزوجية هي بمثابة العوامل الحاسمة التي تعمل على بقاء الأسرة أو تفككها . وهذه الأساليب ربما تتخذ طابع التعاون والتآزر والتماسك ، أو طابع التشاحن والتباغض

والتنازع . وكثيرا ما تقترن الحياة الزوجية في أيامها الأولى بالكثير من مسببات « التنازع » فيكون كل من الزوج والزوجة في حالة توثب متواصل ، ومواجهة فعلية ، وكأن كل طرف يحرص منذ البداية على أن يحدد موقفه تجاه الآخر قبل فوات الأوان ، ولكن ضروب التنازع الزوجي لا تقتصر على بداية الحياة الزوجية ، بل هي قد تصبح ظاهرة تقليدية في أساليب التعامل بين الزوجين ، فضلا عن أنها قد تظهر بصور عديدة تختلف في الشدة والضعف .

وربما يكون التنازع جادا عنيفا يبدو فجأة ثم لا يلبث أن يختفي ، أو قد يكون ظاهرة مزمنة مألوفة تكاد تقترن بكل أساليب التعامل فيما بين الزوجين . وقد يتخذ طابعا خفيا يحرص كل من الزوجين على كتمانه وستره ، أو قد يكون ظاهرة علنية مكشوفة تجري تحت سمع الناس وبصرهم .

وقد يشمل هذا التنازع أكثر أوجه التعامل بين الزوجين ، وربما يبدأ التشاحن بين الزوجين حول مسألة جزئية كاسراف الزوجة أو بخل الزوج ، فلا يلبث أن يمتد الى الملاقات القائمة بين الأسرتين المتصاهرتين ، واختلاف المكانة الاجتماعية لكل من

الزوج والزوجة ، وتباين المزاج والمشرب لدى كل منهما ، وتفاوت سن الزوج عن سن الزوجة ، واختلاف شدة النازع الجنسي عند الواحد منهما عنه لدى الآخر .

ويلاحظ علماء النفس أن طبيعة « التنازع الزوجي » تختلف بحسب تربية الزوجين : فهي قد تتخذ صورة عبارات تهكمية تحمل أكثر من معنى ، أو هي تشتعل فتتخذ صورة نزاع حاد لا يخلو من الشتائم والتطاول اللفظي ، أو هي تشتد حدة فتصل الى درجة التضارب والاشتباك بالأيدي . وهذا التنازع يتوقف الى حد ما على الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها كل من الزوجين . ولكن المهم في هذا التنازع النتيجة التي يفضي اليها ، والدلالة السيكولوجية التي تنطوي عليها . فقد يكون الصراع بمثابة تعبير عن عملية مواجهة تتحقق من خلالها أسباب « الانسجام » ، أو قد يكون وسيلة عنيفة للتفاهم يعقبها الصلح والانسجام ، أو قد يكون معول هدم يؤدي ان عاجلا أو آجلا الى تفكك الأسرة وانحلالها ، سواء باتفاق الزوجين على الانفصال أو الطلاق ، أم بالتجاء كل منهما (أو أحدهما) الى سياسة الاهمال وعدم

لاكتراث أو سلوك دروب الخيانة وعدم التقيد بالوفاء ۰

وعندما يرغب الزوج والزوجة أن يكون هذا النزاع أداة انحلال ، بل وسيلة مجدية توصل الى الانسجام والتوافق والتفاهم ، فانه من الضروري أن لا يترك الزوجان أسباب النزاع تتسع بينهما حتى لتكاد تشمل كل مظاهر التعامل الزوجي ۰ وهذا يعني أنه اذا كان هناك اختلاف بين الطرفين ، فان من واجبهما العمل على حصر هذا النزاع في دائرة محدودة ، حتى لا تستشري أسباب النزاع بينهما ۰ ولا بد في مثل هذه الأحوال من العمل على الوصول الى اتخاذ بعض تصميمات مشتركة سريعة ۰

ومثل هذا « الانسجام » لا يمكن أن يتم الا اذا تذكر الزوجان ضرورة التخلي عن بعض الأحلام والنظرات الخيالية المثالية ، حتى يواجها الموقف على حقيقته ، بأن يعملا على تأسيس عادات سلوكية مشتركة ، ومواقف وجدانية منسجمة ۰ وهنا لا تصبح بوادر هذا النزاع هدامة مخربة الا اذا اشتدت وقويت وارتفعت درجة حرارتها ، فأصبح لها طابع الدوام والاستمرار ۰

وفي الحقيقة أن المشاحنات اليومية اذا أصبحت مزمنة ، فانها تفرض على الأسرة جوا قاتما من التوتر النفسي ، وحتى لا يدوم هذا التوتر ويصبح الأسلوب السائد في تمامل الزوجين أحدهما مع الآخر يعطي دفعا شديدا لتنمية أسباب العداء ، ويصبح كل تصرف يقوم به أحد الطرفين مدعاة للمؤاخذة من جانب الآخر ، ويصبح الجو العائلي قلقا عبقا بأعاصير ورياح التشاحن والتباغض . وهذا ما يحدث لدى الاشخاص العصابيين على الخصوص ، لأن الشخص العصابي هو أقل الناس صلاحية للزواج وأكثرهم تعرضا لأزمات النزاع الزوجي . وليس السبب في ذلك براجع الى أن الشخص العُصابي لا يتمتع بأي قسط من النضج النفسي فحسب ، وانما هو يرجع الى أن مثل هذا الشخص لا يملك من « البصيرة » ما يستطيع معه أن يفهم ضرورة التبادل وأهمية الاخذ والعطاء في صميم الحياة الزوجية .

وربما كانت الخطورة الكبرى في التعامل مع شخص عصابي انما تنحصر في جهله بالمسئولية ، وفقدانه لكل ثقة في نفسه ، فضلا عن اعتقاده

الخاطيء بأن في بذل الذات للآخر انتقاصا من قدره .

ولما كانت السعادة الزوجية تعمق أواصر المحبة، والتعاطف ، والمشاركة بين الزوجين ، فهي تختلف في منطلقاتها عن بذور الكراهية ، والشقاق ، والنزاع التي تذرع في دروب الزوجين عندما يحل الاختلاف محل الوفاق والانسجام ، وتزداد الحياة الزوجية صعوبة وتعقيدا ، اذا لم يجمع بين الزوجين مصلحة الأسرة المشتركة .

وعندما نرغب في بحث المظاهر الحقيقية الفعالة للسعادة الزوجية ، فسوف تبدو لنا هذه المظاهر عبارة عن مقولات ذاتية تحتمل من المعاني ما لا سبيل الى حصره ، وفي الغالب يكون الطرفان المتعاقدان سعيدين، بينما يكون زواجهما في الحقيقة لا يكاد يمت بصلة الى تسميته بالزواج ، وعلى سبيل المثال ان بعض الزوجات اللائي اقترن بأزواج يكبرهن بما يزيد عن عشرين أو ثلاثين سنة . قد يتمتمن بسعادة لا شك فيها . ومثل هذه الزيجات كثيرا ما تكون موفقة حينما لا يكون للزوجة من هدف سوى البحث عن الأمن والطمأنينة .

ويذهب بعض علماء النفس الى أن الفتيات اللائي يقدمن على مثل هذا الزواج هن فتيات شاذات لا تنهد الواحدة منهن الى الحصول على زوجا تكون معه على قدم المساواة ، بل تهدف الى الحصول على بديلا لوالدها تجد لديه العون والمساعدة والاستقرار ٠ وهذا يعني أن مثل هذا الزواج الذي يبدو في الظاهر زواجا سعيدا موفقا هو في الحقيقة زواج زائف ، لا يطبق عليه اسم الزواج السعيد ، على الرغم من ظهور علامات السعادة الذاتية على كل من الطرفين ٠

وليس الزواج المليء بالمنازعات والمشاحنات والمشاكل التي لا تنتهي الا تجسيدا للزواج الحقيقي الذي لا تقدر كل العوامل على هدمه بشرط أن لا يتسلل النزاع العائلي الى صميم العلاقة الزوجية ٠

ويرى علماء النفس أن الزواج السعيد ليس سوى تلك العلاقة الاتحادية التي تنمو وتترعرع بين شخصيتين ناضجتين متكاملتين ، فتسمح لكل من الرجل والمرأة بأن يحقق أكبر قسط ممكن من « القبول الشخصي » ٠ واستنادا على الاحصائيات التي قام بها بعض علماء النفس والاجتماع بهدف معرفة نسبة النجاح في الزواج ، حيث عرفوا أن

ثلثي أو ثلاثة أرباع الاشخاص المشتركين في هذه العملية يتمتعون بزواج سعيد ٠ ولكن يجب أن نلاحظ أن قيمة مثل هذه النتائج محدودة ، لأن الناس عادة يرفضون أن يقروا بفشلهم في الزواج ، ويميلون الى الاعتقاد بأنهم سعداء في زواجهم ٠

ولكن عندما نستعرض بعض التقارير الاحصائية التي يقدمها الأطباء والمحللون النفسيون فاننا نجد أن عدد السعداء من الازواج والزوجات لا يكاد يعدو ٤٥ ٪ أو ٥٠ ٪ على الأكثر ٠ والسر الذي يكمن خلف هذا الاختلاف في النتائج يعود الى أن ثقة الشخص بالطبيب أو المحلل النفسي أكبر ، مما يعمل على توليد جو من الصراحة بينهما ، ومن ثم فان من الطبيعي أن تكون التقارير الطبية والنفسية أصدق من الاحصائيات العادية ٠

ومن الملاحظ أن احدى العالمات الامريكيات قد وجهت الى حوالي ٣٤٤ شخصا من الطبقة المثقفة عدة أسئلة حول الزواج الموفق أو الأسرة السعيدة ، فتمكنت أن تجمع من خلال اجاباتهم حوالي ٢٢٠٨ شروط أصر المساهمين في هذه الاحصائية على ضرورة توافرها في الحياة الزوجية السعيدة ٠

وعندما يوقع هذا العقد ويعترف به رسميا لم في مجموعات بحسب ترتيبها في الاهمية ، تمكنت من حصرها في عوامل أربعة :

١ ـ عوامل ترتبط بالسمات الشخصية ،والحالات الانفعالية ، والعلاقات المتبادلة بين أفراد الأسرة ٠

٢ ـ عوامل ترتبط بالمركز الاقتصادي للأسرة ، وتشمل الدخل ، وحسن تدبير شؤون المنزل ، ووجود نظام مالي وميزانية للأسرة ٠

٣ ـ عوامل تتعلق بالافكار العامة السائدة في المنزل ، بما في ذلك المثل العليا للزوجين ، ونظرتهما الى القيم الاخلاقية والدينية ٠

٤ ـ عوامل اجتماعية تتصل بعلاقات الأسرة الخارجية ، وطريقتها في تنظيم أوقات فراغها وأساليبها في تغطية وقت الفراغ بالراحة والتسلية ٠

ويبدو أن هذه العالمة لم تكتف بهذه الاجابات بل عادت فوجهت الى المساهمين السؤال التالي : ما هي

التجارب المفيدة والاستمدادات القيمة التي أعانتك على تحقيق أسباب الانسجام مع زوجك ؟ فتلقت الردود التالية :

١ ـ قد يكون للخبرة في مجالات أخرى أثر هام على الحياة الزوجية ، خصوصا اذا كان من شأن تلك الخبرة أن تمد صاحبها بسعة الأفق وبُعد النظر ورحابة الصدر ·

٢ ـ ليس من شك في أثر التربية التي تلقاها المرء أثناء الطفولة على كل حياته الزوجية ·

٣ ـ للدراسات السيكولوجية والالمام بمباديء علم النفس ومعرفة طبيعة الطفل آثار واضحة على السعادة في البيت ·

٤ ـ من الضروري لأجل تحقيق الانسجام التجربة فاما بالنجاح واما بالخطأ ·

٥ ـ من الأهمية الاستفادة من تجارب الآخرين ·

٦ ـ لا شك أن للاطلاع أثره على السعادة الزوجية ·

ولم تقف هذه العالمة عند حد السعادة الزوجية بل طرحت أسئلة أخرى تتعلق بالأمور التي تقف

تجاه تحقيق السعادة البيتية ، وتحول دون تحقيقها في الأسرة • وحصرت النتائج بالأمور التالية :

١ ـ العامل الاقتصادي •
٢ ـ تدخل حماة الزوج في شئون الأسرة •
٣ ـ عدم توافر العون اللازم لادارة شئون البيت ورعاية الاطفال •
٤ ـ أسرة الزوج •
٥ ـ حدوث مرض أو عاهة لأحد الزوجين (١) •

ويذهب أحد علماء الاجتماع الذي قام ببحث حول معايير التكيف الزوجي أو أسباب السعادة الزوجية الى أنه لا بد من تثبيت الحب حول شخص الزوج أو الزوجة • وعلى الزوجين أن يعملا على تقوية ودعم الأساليب الصحيحة في التآزر والتعامل والتوافق ، مع ضرورة الحرص على الابتعاد عن الاحتكاك والمنازعات الشخصية وخاصة داخل المنزل • ومن الأهمية بمكان أن يقوم الزوجان بأعمال مشتركة توفر لهما وحدة القصد وامتزاج الهدف ، مع الانتباه الى ضرورة تكوين ذكريات

(1) Cf. C. Y. A Study of 250 Successful Families, VII, 54.

مشتركة ، والعمل على تقوية وسائل التماسك والتعاون في كل مناسبة ٠

ويرى هذا العالم أنه لا بد للزوجين من أن يكفل الواحد منهما للآخر أقصى حد ممكن من الاشباع الجنسي ، والرضا الشخصي ٠ وعلى الزوجين أيضا أن يتعاونا على حل مشاكلهما الاقتصادية حلا مرضيا ومقبولا من كلا الطرفين ٠ ولا بد من أن يوفر كل طرف للطرف الآخر أكبر قسط من الحرية في التعبير عن نفسه والعمل على تنمية امكانياته الشخصية ، بشرط ألا يكون في هذه الحرية أي تعارض مع الرابطة الزوجية والحياة الأسرية ٠ وهذا يعني أنه لا يمكن أن يكون ثمة انسجام زوجي ان لم يعترف كل طرف بشخصية الطرف الآخر اعترافا كاملا منجزا (١) ٠

تجارب وأبحاث علماء النفس والاجتماع حول الأسرة والسعادة الزوجية كثيرة تعد ولا تحصى منهم من بحث العوامل السيكولوجية في السعادة الزوجية ومنهم من تنبأ مسبقا بنجاح أو فشل الزواج، ومنهم

---

(1) Willard Waller : The Family; A Dynamic Interpretation p. 434.

من عالج مشاكل الانسجام والتكيف والتوافق الزوجي مقدما الدلائل والاحصاءات العلمية الدقيقة ، مما أدى الى نتائج دقيقة مجدية في ميدان علم النفس العائلي .

وسنقدم رأي العالم النفسي لوك الذي شاء أن يتوصل الى مجموعة من النتائج العامة التي تلخص كل مرتكزات الانسجام الزوجي وفق الشكل التالي:

١ ـ السعادة في الزواج مقترنة بالانسجام ، وليس الطلاق الا بمثابة تعبير عن انعدام الانسجام .

٢ ـ ليس انفصال الزوج عن الزوجة سوى تجمع بطيء لمجموعة من عمليات النزاع المتعاقبة أو المشاحنات المتواصلة .

٣ ـ يتوقف الانسجام على نمو أواصر المحبة والتعاطف ، وتزايد الاهتمامات المشتركة ، وتعدد معالم النشاط المزدوج، واتخاذ مواقف متشابهة ، والايمان بقيم مشتركة ، واحترام كل فرد لشخصية الآخر .

٤ ـ يستلزم الانسجام في الزواج بالضرورة نوعا من الانسجام مع أسرة الطرف الآخر .

٥ ــ لا بد للانسجام من أن يحتوي العلاقات الجنسية ، وهذه لا بد أن تقوم على الحب والاشباع المتبادل .

٦ ــ ينبغي للانسجام بين كلا الطرفين أن يتقبل عن قناعة تامة مسئوليات الزواج وتبعات الحياة العائلية .

٧ ــ يتوقف الانسجام على قدرة كل من الطرفين على التبادل العاطفي والاستجابة له .

٨ ــ يتصل الانسجام الزوجي اتصالا مباشرا بالحياة الاجتماعية العامة وعدد الاصدقاء المشتركين (١) .

هذه المرتكزات الأساسية التي اكتشفها العالم النفسي لوك تعطينا الدليل الواضح على أهمية الانسجام الزوجي ، والتكيف الجنسي ، وتظهر الدور الذي تقوم به هذه الركائز في ضمان السعادة الزوجية ، وتبين أن الزواج ليس مجرد علاقة بيولوجية صرفة تقوم بين رجل وامرأة ، وانما هي

---

(1) H. J. Locke : Predictinge Adjustment in Mariage Ch. XVe.

روابط عميقة توجب الاشباع الجنسي نفسه نوعا من الاستعداد السيكولوجي ٠

ومما لا شك فيه في أن الزواج السعيد انما هو تلك الرابطة أو العلاقة المتجددة التي لا تعرف الكلل ولا الملل ٠ وليست الرابطة الجنسية وحدها هي التي توجب التنويع والتجدد ، وانما تقوم الحياة الزوجية بأسرها على الوفاء والاخلاص الذي يوجد نفسه بنفسه ، وهذا يعني أن الزوج السعيد يلمس في زوجه كل يوم مخلوقا جديدا ، وان كانت هي بعينها ذلك المخلوق الذي أولع بحبه يوما ، وان مرور الأيام ليزيد الشريكين انسجاما واتحادا ، فلا يشعران بالارتياب والملل ، مؤكدين متانة الرابطة الوثيقة التي تجمع بين قلبيهما وجسديهما ، فيتقاسما أعباء الحياة حلوها ومرها ٠

الأسرة ودورها في المجتمع :

يقرر علماء النفس والاجتماع أن الزواج لم يعد مجرد ظاهرة سيكولوجية تهم الفردين اللذين اختار كل منهما الآخر ، ولكنه أصبح عبارة عن ظاهرة اجتماعية ينبغي على المجتمع قبولها والتصديق بها ، لذلك نلاحظ ان أغلب المجتمعات

الانسانية تعترف بشرعية الزواج أو عدمها ، وهذا الاعتراف يجسد الصفة الجمعية التي يتخذها الزواج حينما يصبح « عقدا » رسميا مسجلا لدى الدوائر المسؤولة في الدولة أو المجتمع ٠

وعندما يوقع هذا العقد ويعترف به رسميا لم يعد مجرد مسألة فردية تخص شخصا أو شخصين ، وانما يصبح ركيزة ثابتة من نظام الدولة والمجتمع ٠ وفي الحقيقة أنه لما كان للزواج نتائج تتعدى الزوجين ، وتشمل الأبناء الذين هم نتيجة لهذا الزواج ، فقد أصبح من الضروري أن تتدخل المجتمعات في ارادة الأفراد ، لصيانة مستقبل الأبناء وحمايتهم من الاخطاء الناتجة عن الاهمال أو التربية السيئة من قبل الآباء ٠

لهذه الأمور أوجبت معظم القوانين والشرائع من أجل حماية الأسرة أن يكون الزواج قائما على الثبات والاستمرار ، لأن في هذا الاستمرار مصلحة الوالدين من ناحية ، ومصلحة الابناء من ناحية أخرى ٠ ولا يمكن أن يعطي الزواج كل ثماره الا اذا نظر اليه على أنه رباط أبدي لا انفصام له ، والا لكان في امكان أي طرف من الطرفين ، ولأتفه الاسباب أن يعود عنه في أية لحظة ٠

ولهذا لا بد للرابطة الزوجية من أن تكون دائمة حتى يتسنى للوالدين أن ينهضا بتربية أبنائهما ، ومن مصلحة المجتمع أن تكون الرابطــة الزوجية متينة غير معرضــة للانهيار ، والا لأصبح الاتحاد الحر هو الشرعة السائدة في المجتمع نتيجة لوجود الطلاق ۰ ومن المؤكد أن المجتمع الذي تسيطر عليه الصلات الجنسية الحرة لا بد من أن تتولد فيه أدوار اجتماعية خطيرة تؤدي بصورة حتمية الى الانهيار الخلقي ۰

وهذه الاسباب جميعها هي التي تجعــل مــن الأسرة نظاما اجتماعيا تحرص كل المجتمعات في كافة الظروف والأوقات على التمسك به واستبقائه قويا صلبا لا تؤثر فيه عواتي الايام ، وظروف الاحوال ، كونه دعامة متينة للمجتمعات السليمة ۰

ويذهب علماء النفس والاجتماع الى أن الأسرة ليست سوى مجتمــع صغير يتشكل مــن والديــن يتبادلان المحبة ويتقاسمان المسئولية ، ومن أبنــاء يقوم الوالدان على تربيتهم واعدادهم لمستقبــل يضمن لهم وسائــل العيش المــادية والاجتماعيــة والنفسية ۰

والأسرة في مجتمعاتنا الحالية يمكن أن تقوم بمدة وظائف مفيدة وهامة نلخصها بما يلي :

١ ـ انها تكفل للملاقات الجنسية أكبر قيمة عاطفية ممكنة ٠

٢ ـ انها تتعهد الاطفال بالتربية في وسط تعاطفي قائم على الحكمة والتعقل ٠

٣ ـ انها تعد الفرد للحياة الجمعية القائمة على الأخذ والعطاء ٠

٤ ـ انها تعد الطفل بطريقة لا شعورية لحياة زوجية مرضية في المستقبل ٠ وهذا يعني أن الأسرة ـ لا الفرد ـ هي الخلية الاجتماعية الأولى أو الوحدة الجمعية الحقيقية ٠ وعلى الرغم من أن المجتمع الأسري قد أصبح في هذه الايام هدفا للكثير من التجنيات ، فضلا عن أنه قد تعرض لاخطار الانحلال في بعض المجتمعات الأوروبية والامريكية، فان الأسرة لا زالت هي الخلية الاجتماعية الأولى ٠

ويرى علماء النفس والاجتماع أن الآراء قد اختلفت حول الاصل الذي صدر عنه نظام الأسرة ،

فظهرت في هذا المجال نظريتان رئيسيتان : النظرية التطورية والنظريــة الاجتماعيــة ° وسنستعرض بعض معالم هاتين النظريتين تعميما للفائدة °

ان الفكرة الأساسية التي تقوم عليها النظرية التطورية هي أن الاشكال العليا للتفكير والحضارة مثلها كمثل الاشكال العليا للكائنات الحيــة قــد صدرت بطريــق التطور عــن الاشكال الدنيــا ° وانسجاما مع ذلك فاننا اذا رغبنا أن نجد الاصل الذي صدرت عنه البشرية ، فليس علينــا الا أن نصنف النماذج البشرية المختلفة أو النظم الاجتماعية المتعددة ، معتمدين على درجة كل منهما من الكمال، وعندها سوف نعثر على أن أكثر نقصا هو بالضرورة أقربها الى البدائية °

وعندما نحاول أن نطبق هذه الفكرة على النظام العائلي نلاحظ أنه لا بد أن يكون الاجتماع البشري قد بدأ باتخاذ صورة فوضى جنسية تشبه الحالــة التي يحيا عليها الحيوان ° ثم لم يلبث الابناء أن التفوا حول الأم ، بينما ظل الأب مجهولا أو بالاحرى شبه مجهول ، فظهر النظام الاموي ، وتطور نظام الأسرة من جديد ، فظهر النظام الابوي الذي أصبح فيه الرجل هو رأس الأسرة °

ولقد قام النظام الأبوي في الاساس على تعدد الزوجات ، ثم لم يلبث أن استحال الى نظام واحدي يقترن فيه الرجل بزوجة واحدة . ولكن الأسرة بعد أن وصلت الى نهاية مراحل تطورها ، لن تلبث أن تنحدر من جديد ، فيعود الاتصال الجنسي الحر الى الظهور ، بعد أن تكون الأسرة قد اجتازت مرحلة انتقال يتخذ فيها الطلاق ظاهرة اجتماعية مشروعة .

واذا ما حاولنا الاطلاع على تاريخ البشرية نلاحظ أن الشيوعي (كارل ماركس) قد حاول أن يدخل هذه النظرية في صميم ماديته التاريخية ، فذهب الى أن الزواج الواحدي ليس الا « بناء فوقيا » للاقتصاد الرأسمالي ، لأن أهداف الوالدين هي توريث أبنائهم من بعدهم كل ما يمتلكون ، لهذا توجهت البشرية الى الأخذ بالنظام الواحدي في الزواج .

ولقد نافح عن هذه النظرية بعد ماركس أنجلز وبيبل واعتبراها نظرة اشتراكية الى الأسرة حتى تزول الرأسمالية ، لذلك لا بد من أجل تكوين الأسرة من أن يخضع هذا التكوين لتغير جوهري . وحينما تتحول أدوات الانتاج الى الملكية المشتركة ،

فان الأسرة الفردية لن تعود هي الوحدة الاقتصادية للمجتمع .

وهذه النظرية تفسر لنا أن الاقتصاد العائلي سرعان ما يستحيل الى اقتصاد اشتراكي ، وتصبح التربية اللازمة للأبناء عملا جماعيا تقوم وتشرف عليه الدولة ، وسيكون على المجتمع أن يأخذ على عاتقه رعاية الاطفال جميعا شرعيين كانوا أو غير شرعيين .

وانطلاقا من هذه الافكار الماركسية الشيوعية لا بد من أن يكتب على قمم الاعقاب الزوال والانقراض ، بسبب الباعث الاجتماعي الجوهري الذي لا زال حتى هذه الأيام يقف سدا منيعا بين الفتاة وبين أن تمنح نفسها بدون خوف أو تردد لذلك الرجل الذي تريده .

ويعتقد علماء النفس الذين ناقشوا هذه النظرية التطورية حول تعليل نشأة الأسرة ، أنها لا تستند على وقائع ثابتة ، بل تقوم على مسلمة لا دعم لها من الحقيقة والواقع . وليس أدل على صحة هذا النقد من أن البحوث الأنثروبولوجية التي قام بها علماء الاجناس لم تكون مؤيدة لهذا الهدف التطوري .

في الحقيقة أن الافتراض الذي يرى أن النظام الأسري قد عبر مرحلة الفوضى الجنسية ، ثم مرحلة النظام الأموي ، ثم مرحلة النظام الأبوي ، هو مجرد فرض لا ينهض على صحته أي دليل ٠ ذلك ما أكدته الدراسة التي قام بها بعض علماء النفس والذين ذهبوا الى أن النظرية التطورية ليست سوى حالة وهمية لا نجد لها نظيرا في أي مجتمع من المجتمعات ، وأنه ليس ثمة ما يثبت أن هذه الحالة قد وجدت في أية مرحلة من مراحل تطور البشرية ٠

ويبدو أن الذي دفع أصحاب نظرية التطور الى افتراض وجود مثلها هو أنهم وجدوا في الزواج الواحدي أعلى صورة من صور النظام العائلي ، فكان لا بد لهم من أن يفتشوا عن أدنى صورة من صور الزواج حتى يجعلوا منها نقطة البدء في هذا النظام الاجتماعي المعقد ٠

واذا حاولنا معرفة جذور النظام العائلي من خلال المعلومات التي تتوفر لدى أصحاب المدارس الاجتماعية لمسنا أن بعض هؤلاء العلماء يذهب الى أن الأسرة لا تقوم على صلات الدم أو رابطة القرابة ، وانما انبثقت جذورها من وحدة التوتم، أي عن طريق انتماء وانتساب الافراد في العشيرة

أو القبيلة أو الفخذ الى توتم واحد ٠ والتوتم كما هو معروف عبارة عن مثال نباتي أو حيواني ، أو أي مظهر من مظاهر الطبيعة ، تجعله العشيرة أو القبيلة رمزا لها ، ويجسد معها وحدة اجتماعية ، وتمنحه كل صفات القدسية (١) ٠

وانسجاما مع هذه النظرة التوتمية فان المجتمعات البدائية لم تعرف الفوضى الجنسية أو بالأحرى الزواج الجمعي ، وانما كانت تمارس منهج التطوريين الاتنوجرافي ، الذي يعني أن الرجل كان في هذا المنهج التطوري مجبرا على الزواج من خارج عشيرته ، كون نظام التحريم والمنع كان يشمل كل نساء العشيرة ممن يتبعن توتم عام واحد ٠

وانطلاقا من هذه الافكار يرى علماء النفس أن أول شكل من أشكال الاجتماع العائلي كان يتجسد في العشيرة التوتمية التي تتألف من أفراد يعتقدون بينهم وبين أنفسهم أنهم ينحدرون من أصل واحد تجسده وحدة التوتم ٠ ثم لم يلبث النظام الأموي أن ظهر الى عالم الوجود ، فأضحت الأم هي الواسطة

---

(١) الاسرة والمجتمع : علي عبد الواحد ص ٧ .

التي تنتقل عن طريقها الحقوق المختلفة الى الافراد، وأصبح الطفل يتخذ توتم أمه مع كل ما يتوجب عليه من حقوق ٠

ولهذا يفهم علماء الاجتماع ان الابن كان يرث عن أمه لقبها ، فيصبح اسمه مقترنا باسمها ٠ ثم تطور النظام العائلي بطريقة تدريجية حتى بلغ مرحلة النظام الأبوي التي تعطي الابناء حق اكتساب لقب الأب ، أو بصورة أوضح توتم الأب ٠ وبعد أن كان السلف في هذا النوع من الأسرة هو الرئيس والحاكم المطلق ، أصبحت الجماعة العائلية أو المجتمع الأسري يتكون من الزوجين وأبنائهما ، وأصبح الأب هو عميد الاسرة التي جعلته مع الزوجة يتمتعان بحقوق متساوية ٠

وانطلاقا من هذه الصورة أصبحت المواريث في أغلب البلاد الأوروبية تنتقل عن طريق النساء كما تنتقل عن طريق الرجال ، وأصبح حق المرأة المتزوجة مكفولا تمارسه ضمن حقوقها المدنية ٠

ولكن هذه الافكار على الرغم من انتشارها الواسع على مختلف الاشكال ، فانها قد لاقت بعض النقد والمعارضة من قبل بعض علماء الاجتماع

واعتبرت مبالغا فيها ولا تنسجم مع الحقيقة والواقع • فالاعتقاد بأن العشيرة تستوعب الأسرة ، خطأ لا يمكن أن يدلنا على الطريق القويم ، لأن العشيرة لم تتمكن في يوم من الايام أن تستأصل الأسرة أو تحل محلها ، بل كانت في الحقيقة مجرد وحدة أخرى تزيد من صعوبة الروابط الاجتماعية بزيادتها لصلات الفرد الواحد •

ولم يكن نظام العشيرة بمثابة نظام كلي ساد عند كافة الشعوب البدائية ، أما نظام الأسرة فقد كان على العكس من ذلك مطبق بعناية ودقة عند كافة هذه الشعوب البدائية • لهذا فقد رأينا انطلاقا من هذه المباديء ان التوتمية ليست هي الصورة البدائية للأسرة ، والأدلة على ذلك كثيرة يمكننا أن نستخلصها من بعض القبائل والشعوب البدائية التي عرفت كلها نظام الأسرة الواحدية القائمة على تساوي الحقوق وثباتها • ولهذا بمقدورنا أن نؤكد بأن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى ، لا في المجتمعات الحديثة فقط ، وانما في المجتمعات البدائية أيضا •

واذا كانت الأسرة قد وجدت منذ وجود هذا الكون ، وظهر فيها هذا النظام ، وخاصة عند بعض

الحيوانات العليا ، فانه لا بد من أن يكون لهذا النظام الاجتماعي دلالة وأهمية ٠

ويعتقد علماء النفس والاجتماع الذين ناقشوا هذه الأمور كثيرا أن هذا النظام انبثق من حاجات الفرد ، دون أن يكون قد فرض عليه فرضا ، لا بد من أن يكون نظاما قويا متين الدعائم والمرتكزات ٠

واذا كانت الطبيعة نفسها ـ حتى قبل تدخل اليد البشرية ـ قد عملت على ظهور المجتمع العائلي ، فانه ينظر الى هذا النظام الاجتماعي الغريب ، على الرغم من مرور الايام وتعاقب الدهور على أنه عبارة عن معالم تدل على أن الأم كانت مجبرة على رعاية أبنائها والاستقرار معهم ضمن حياة عائلية منتظمة ، تتولى ادارة شئون الأسرة ، كما كانت الملكية تنتقل منها الى أولادها ٠

وقد يكون كما يلاحظ علماء الاجتماع أشهر نظام أبوي عرفه التاريخ في حياة الأسرة هو نظام الأسرة الابوية الكبيرة الذي يماثل نظام قدماء العبريين ٠ واذا ما رجعنا الى العهد القديم المذكور في التوراة نلمس وصفا دقيقا لمثل هذه المجتمعات العائلية الكبيرة ، كأسرة ابراهيم ، واسحق ، ويعقوب ٠

وكانت هذه المجتمعات العائلية تظهر أن الآباء فيها كانوا يعنون عناية فائقة بالأبناء ، كما أن الأبناء يكنون لآبائهم كل تقدير واحترام ٠

ومما لا شك فيه بأن المباديء التي قدمتها الأسرة العبرية للعالم قد فعلت فعلها في توطيد مرتكزات النظام العائلي الذي أسبغ على الأسرة نوعا من التماسك والاتحاد ٠ وكان من نتائج هذا الاتحاد والاخلاص والوفاء في محيط الأسرة العبرية ، أن تمتع المجتمع العبري بقدرة هائلة على البقاء والتماسك ٠ ولولا تلك الوحدة العائلية لانقرض ذلك المجتمع عن آخره ، ولما قامت له قائمة ٠

ويبدو أن قوة المجتمع العائلي في هذا النظام الاجتماعي قد عملت على ظهور مبدأين عامين أخذت بهما الديانتان الاسرائيلية والمسيحية ٠ وقد تكون الفكرة عن أبوة الله للناس جميعا قد انطلقت من فكرة عائل الأسرة أو رئيسها الكبير ٠ وأما فكرة أخوة الناس بعضهم لبعض فقد كان ظهورها نتيجة لتقدم وتطور المسئولية الاجتماعية في الأسرة العبرية ٠

واذا تطلعنا الى الأسرة الرومانية القديمة ، في

القرن السابع قبل الميلاد ، فاننا نلاحظ أنها كانت تسير على النظام الأبوي الكبير الـذي فيه يرأس العائلة أكبر الذكور فيها ، والذي جعل هذه الأسرة قوية متماسكة كونها كانت تنهج نهجا دينيا يشجع على تقديس وعبادة السلف ٠

وكان المجتمع بدوره يقوم على أسس واضحة صريحة تقربه مـن آلهة الآبـاء والأجداد ، وكان المسكن الذي تسكنه الأسرة قريب الشبه بالمعبـد الذي يشرف عليه رئيس الأسرة الذي كان يملك قوة الـه حقيقي يسيطر سيطرة تامة على النساء والاطفال ٠ وعلى الرغم من أن الأب المشرف على المنزل كان يمثل قوة مطلقة تتحكم في كـل أفراد الأسرة ، فانه لم يكن يصدر في أفعاله عن تعسف وهوى ، بل كان يعمل وفقا لما يعتقد أنه ارادة السلف ٠

أما الملكية فقد كانت حقا مشروعا لأكبر الذكور في الأسرة ، وكان التصرف في هذه الملكية يتم بما فيه مصلحة المجتمع العائلي بأسره ٠ ولم يكن من حق أكبر الذكـور (أو رب الأسرة) في العهـود الرومانية القديمة أن يقوم بتحرير أو كتابة وصية ٠ ولكن بمجرد وفاة رب الأسرة ، فقد كانت الملكية

تنتقل بطريقة آلية الى أكبر الأحياء من الابناء . ولم يكن الطلاق معروفا في ذلك الوقت ، بل كان الزواج عمليا غير قابل للانحلال .

وعلى الرغم من أن نظام الأسرة كان أبويا صرفا ، فكانت النساء والاطفال تحت سيطرة رأس الأسرة ، ولكن الاسرة قد بلغت من الرقي درجة لم تبلغها في أي مجتمع قديم آخر ، الا المجتمع العبري . واذا ما حاولنا مقارنة الاسرة الرومانية بالأسرة العبرية لاحظنا أن الاسرة العبرية كانت في الدرجة الثانية من حيث الاستقرار والثبات والمثالية .

ولكن وضع الأسرة الرومانية لم يدم على هذه الحال طويلا ، اذ سرعان ما دب في جسدها الفناء والانحلال . وحينما بلغ هذا الانحلال أقصاه ، لم تلبث روما نفسها أن انهارت هي أيضا ودب فيها الانفكاك ، والفناء . ولقد رافق هذا الانحلال والدمار العديد من الظواهر الاجتماعية وفي طليعتها ما أصاب الأسرة عندما بدأت تفقد مكانتها الدينية ، وراح الناس ينظرون الى الزواج على أنه مجرد عقد مدني ، مما أدى بالتالي الى اهمال مكانة الأسرة والاستخفاف بها وبما كان لها من فاعلية وقيمة ، وأخذت سلطة الأب تضعف شيئا فشيئا ،

وأصبح من حقه باديء ذي بدء أن يكتب وصية ، ثم لم يلبث هذا الحق أن اتسع فبعد أن كان يجوز للأب أن يوزع تركته بين أبنائه ، أصبح من حقه أن يورث من يشاء ٠

وكذلك أصبح من حق النساء أن يحصلن على الملكية اسوة بالرجال ، ثم أصبح لهن حق الطلاق من أزواجهن في القرن الثاني قبل الميلاد ٠ وهكذا استطاعت نساء الطبقات الاجتماعية الكبرى أن يحصلن على التحرر ، وأصبح لهن مطلق الحرية في أن يتصرفن كيفما شئن ٠ ولم تلبث تلك الحرية حتى استحالت الى اباحية مطلقة ، ففلبت الحرية الشخصية على كل وازع أخلاقي أو رادع شخصي للدوافع الجنسية ٠ وأصبح الناس يتزوجون بحرية ويطلقون بحرية ، وانتشرت بينهم بدعة الزواج المؤقت ، وصارت العلاقات الجنسية أمرا مشاعا لا ضابط له ، وعمت الاباحية الجنسية بين الرجال والنساء على السواء ، وظهر نظام الرفق أو النكاح القائم على المتعة الجنسية فقط ٠

والعامل الرئيسي الذي ترك طابعا فعالا في المجتمع العائلي بكامله ظهور المسيحية ٠ التي ما كادت تتسلل الى الفرب حتى أخذت دعائم الأسرة

تتوطد في كافة أنحــاء أوروبا ∘ وراحت مباديء الدين الجديد تفعل فعلها بعد انحلال المجتمــع في روما حيث بلغت الأسرة الرومانية أقصى درجة من درجات التفكك والانهيار ∘

ومن الملاحظ أن المسيحية قد أخذت على عاتقها أن تقوم مــن اعوجاج نظــام الأسرة الرومانية ، وبالفعل نجحت في بنــاء حياة عائلية سليمــة في المجتمع الأوروبي ، على غرار الحياة العائلية التي عـُرفت قديما في المجتمع العبري ∘

ويذهب علماء الاجتماع الى أن المسيحية قــد رفعت بصورة جدية من شأن الأسرة وحققت نوعا من المساواة بين الرجل والمرأة ، وأعادت الى الأسرة طابعها الديني فجعلت من الزواج سرا مقدســا ، وحاربت بقوة وصلابة كل ميل الى اعتباره مجرد عقد مدني ، وبذلك أعــادت الى الأسرة الثبــات والطمأنينة والاستقرار ∘

ولما ظهر الاسلام في الشرق وفي البلاد العربيــة بصورة خاصة حارب الكثير من البدع والانحرافات الاخلاقية التي كانت تسود المجتمع العائلي ، وعمل على دعم أواصر الأسرة بشتى السبل ∘ ولم تقتصر

مهمة الاسلام على تحريم وأد البنات بل قضى على المديد من عادات النكاح التي كانت سائدة في مجتمعات العرب قبل الاسلام ٠

وعلى الرغم من أن الاسلام قد أباح تعدد الزوجات ، ولكنه أوجب على الزوج أن يعدل بين زوجاته ، كما جعل من الفقر أو ضيق ذات اليد حائلا دون ممارسة هذا الحق ٠ وكذلك لم يجحف الاسلام حقوق المرأة ، بل أعاد اليها شخصيتها المدنية ، فجعل لها من الحقوق مثل ما لزوجها ، ولم يلزمها عند الزواج بأن تختفي وراء زوجها ، أو أن تمحى كل معالم شخصيتها في شخصية زوجها ٠ ولئن كان الاسلام قد أجاز الطلاق على نطاق واسع، غير أنه لم يترك المرأة تحت رحمة الرجل ، بل أوجب على الرجل النفقة ومؤخر الصداق ، وبذلك عمل على تحرير المرأة ، ورفع شأن الأسرة ، وأقام المجتمع العائلي على أسس قوية صلبة ٠

الأسرة المتوافقة :

الأسرة المتوافقة المنسجمة بعضها مع البعض تحقق سعادة الزوجين ، وتكفل مصلحة الابناء ، وتخطو بالمجتمعات خطوات كبرى نحو التقدم

والتطور ، واذا اعتبرنا التوافق والانسجام بين أفراد الأسرة الواحدة يوفر الطمأنينة والاستقرار، فلا بد لنا من معرفة الجوانب المادية ، والجوانب النفسية ، والجوانب الاجتماعية ، التي تحقق للأسرة الحديثة التكامل بصدق اذا نجحت هذه الأسرة في تطبيق الانسجام بين وظائفها المادية والنفسية والاجتماعية •

وفي الحقيقة ان الرابطة الزوجية ليست مجرد رابطة جنسية ، أو وحدة مادية تحقق مصلحة الطرفين ، وانما هي رابطة روحية ، ووحدة عاطفية ، وسعي مشترك في سبيل تحقيق مثل أعلى موحد •

يرى علماء النفس والاجتماع أن الأهداف الروحية لا يمكن أن تتحقق الا وفق أسس مادية ، باعتبار أن أسمى الأهداف الاخلاقية هي في حاجة دائما وأبدا الى مرتكزات حسية تعتمد عليها، ولهذا فان « الأسرة المتوافقة » لا يمكن أن تتحقق الا على أساس من الوراثة الصالحة أو التكوين البيولوجي السليم •

ولما كانت الأسرة بمفهوم علماء الاجتماع هـ

الأداة البيولوجية التي تنتقل من خلالها السمات الوراثية من جيل الى آخر ، كما أنها الوسيلة الطبيعية التي تكفل للمولود الصغير العناية والرعاية حتى يبلغ من العمر حوالي عشرين سنة ٠ فقد وجب أن تكون الاستعدادات الوراثية لدى كل من الأبوين سليمة ، لأن مهمة تربية الطفل في هذه الحالة تجد أمامها مواد صالحة يمكن تنميتها واستخدامها بفاعلية ، ولكن عندما تكون العوامل الوراثية لدى الوالدين ضعيفة ، فان كل تربية يتلقاها الاطفال لا يمكنها أن تعوض النقص الوراثي ٠

ولم يغفل علماء النفس والاجتماع هذه النواحي فقدموا الكثير من المعلومات المتعلقة بالقوانين والانظمة التي تتحكم في الوراثة والتطور واختلاط الأجناس ، كما توصل البعض من هؤلاء العلماء الى بعض الحقائق العلمية الاكيدة عن الوراثة النباتية والوراثة الحيوانية ٠ مما أدى بالتالي الى دعوة صريحة تهدف الى تطبيق قوانين الوراثة على الكائنات البشرية ، من أجل العمل على تحسين نسل أبناء البشرية ٠

وقد كان أول من دعا الى هذه الحركة جالتون في

نهاية القرن التاسع عشر ، وهو الذي أطلق لأول مرة اسم « علم تحسين النسل » على تلك الدراسة العلمية التي يهدف من خلفها الى تحقيق برنامج يضمن لكل طفل أن يولد مزودا بتركيب عضوي سليم • وهذا العلم الجديد قد أصبح في هذه الايام يوجه كل اهتمامه على تطبيق مباديء الوراثة والتغير على الحياة البشرية ، من خلال الأسرة بصفة خاصة •

وهناك وسيلة أخرى يعتقد أصحابها أنه لا بد من منع الاشخاص الذين يقل مستوى حالتهم الصحية عن المعدل المطلوب للشخص السليم ، من الزواج وانجاب النسل • وانطلاقا من هذا الاعتقاد قامت حركة تهدف الى وضع نظام شديد لا يسمح بالزواج بموجبه الا لأولئك الاشخاص الذين يقدمون شهادات طبية تدل على صلاحيتهم للزواج من مكتب صحي معترف به أو من طبيب رسمي •

واذا ما أردنا أن نفسر هذا الهدف وما الغاية منه تبين لنا بصورة مؤكدة بأنه اذا طبق أي طبقت عملية فحص المرشح للزواج سواء الفتاة أو الشاب استطعنا الحصول على أجيال ونسل قوي يتمتع

بالصحة الجسدية تساعده على تحقيق السعادة للمجتمع وللأفراد معا ٠

ويرى علماء تحسين النسل ان باستطاعة الدولة أن تنمي الشعور بالمسئولية الزوجية وتطبق الفحص الاجباري للمرشحين قبل اتمام عملية الزواج في سبيل المصلحة العامة لدى الأفراد والجماعات ٠ وربما اعتبر البعض أن قيام الحكومة بهذا الفعل يعتبر تدخلا في ارادة الفرد وحريته ، ولكن الحرية بمفهومها الاجتماعي ليست قيمة في ذاتها ، وانما هي وسيلة تساعد على تحقيق سعادة الافراد والمجتمع معا ٠ وأما اذا اعترض البعض وذهب الى أن من حق الفرد الضعيف أو المريض أن يتزوج ، فنرد عليه بأن من حق المجتمع أيضا أن يقف حائلا دون التناسل الغير صحيح الذي يولد أجيال ضعيفة مشوهة تصبح عالة على ذلك المجتمع ٠

ونحن لا نشك بأن منع بعض الاشخاص من الزواج ربما يؤدي الى زيادة عدد المواليد من الاطفال غير الشرعيين ، لذلك لا بد لعلماء النسل من أن يسيروا وفق منهج حكيم مبني على التدرج واعداد الرأي العام ، حتى لا يجد نفسه تجاه عملية تمرد واستياء ٠

وفي الحقيقة ان العوامل التي تؤثر في اختيار الزوج أو الزوجة في المجتمعات الحديثة لا تكاد تعدو عوامل الحب أو الثراء أو المركز الاجتماعي ۰ وليس من النادر أن يتحكم عامل الثروة وحده في اختيار الرجل لشريكة حياته (أو العكس) ، دون مراعاة لأي عامل آخر سواء أكان بيولوجيا أو جنسيا أو سيكولوجيا ۰ وهنا يتدخل علماء تحسين النسل فيحاولون اقناعنا بأن الوراثة الصالحة أو الاستعداد الجسمي السليم لا بد وأن يأتي في ترتيب الاهمية قبل عامل الثروة أو المركز الاجتماعي أو أي عامل آخر ۰

وحججهم في ذلك أن الثراء الذي لا يقترن بالصحة ، والمركز الاجتماعي الذي لا ترافقه وراثة سليمة ، انما يؤديان الى قيام زواج فاشل يعتمد على بواعث واهية ۰ وهكذا يحرص علماء تحسين النسل على تأكيد أهمية « عامل الدم » فيرون أن الزواج الذي يتم بين صغار السن أو ضعاف الاجسام أو شواذ العقول هو زواج مقضي عليه بالفشل منذ اللحظة الأولى ۰

وانطلاقا من هذه الافكار يلاحظ علماء تحسين النسل ان دعامة الأسرة الناجحة هي الاستعداد

الوراثي الممتاز ، والحيوية الجسمية الفائقة ، والمستوى الصحي الكامل • ولذلك ينبغي أن نربي النشء بحيث نزرع في عقله فكرة « الوراثة السليمة » ، حتى يعتمد على اختيار شريكه المثالي على عوامل الصحة الجيدة والحيوية البالغة ،عوضا من أن يعتمد في اختياره على الثراء أو المركز الاجتماعي •

ومما لا شك فيه أن علم تحسين النسل له فروع عديدة أهمها تلك الفروع الوقائية التي تنهد الى وقاية الأبوة من سموم النوع البشري ، وفي طليعتها الادمان على الخمر ، وتعاطي المخدرات بأنواعها وأشكالها • وقد ثبت أن المشروبات الروحية تؤثر تأثيرا سيئا على الاعضاء التناسلية ، فضلا عن أنها تضر بتكوين الخلايا نفسها •

وعندما يتحرك المجتمع لوقاية أفراده من الشرور الناتجة عن الادمان على الخمر ، فانه انما يحصن نفسه من شرور تلك السموم الاجتماعية الخطيرة التي قد تورده موارد التهلكة • ولا بد من الاشارة أيضا الى الامراض التناسلية التي تفتك بالأعضاء التناسلية وبصورة خاصة أعضاء المرأة

فتسبب أحيانا المقم ، أو تعرض الجسم لآلام عضوية حادة • وكذلك ميكروبات السل ربما تؤثر على الخلايا النوعية فتعمل على ظهور جيل ضعيف لا يقوى على المقاومة ، أو نسل مريض لا طاقة له على العمل • وليس لعلم تحسين النسل الوقائي من هدف سوى العمل على ابعاد الأسرة عن ويلات كل تلك المساويء الاجتماعية الهدامة •

ولا يغفل أيضا علم تحسين النسل عن تحذير الأفراد من أجل وقايتهم من خطر التزاوج بين النماذج البشرية المتنافرة ، وذلك لأنه حينما تكون السمات الوراثية لدى الأبوين متباينة كل التباين ، فان من المحتمل أن يتسبب عن هذا التباين ظهور سمات متنافرة لدى الابناء • وربما يحدث أن يرث شخص ضخم الجسم قلبا صغيرا ، أو العكس • وقد يجد الشخص في نفسه دوافع قوية متعارضة يرجع الأصل فيها الى وجود تنافر عضوي في صميم تكوينه البيولوجي •

ويرى بعض علماء تحسين النسل أن تنافر السمات النفسية قد يظهر بوضوح في نسل الوالدين اللذين تختلف طبيعة كل منهما النفسية عن طبيعة

الآخر اختلافا شاسعا • ومثل هذا التنافر قد يتسبب في حدوث صراع نفسي عميق في صميم الحياة النفسية لدى هؤلاء الأبناء ، مما قد يؤدي الى عجزهم عن التصرف في المواقف المختلفة التي تواجههم ، نتيجة لتصارع تلك القوى المتعارضة في باطن نفوسهم •

واذا ما ذهبنا مع علماء تحسين النسل نلاحظ أن هؤلاء يرون أن ضعف الذرية وانحطاط قدرتها العقلية يعود في أغلب الأحيان الى عامل الوراثة • وهذا هو السبب في فشل الزواج بين الاقرباء ، خصوصا عندما تكون درجة القربى وثيقة فلا يكون ثمة عناصر جديدة تترتب على مثل هذا الاقتران •

وتؤكد قوانين الوراثة أن ضعف الذرية جسميا أو عقليا غالبا ما يأتي نتيجة لهذا الزواج الذي يتم بين ذوي القربى ، اذ تنتقل الى الأعقاب كل الصفات السيئة الثابتة في الأصول القريبة ، وبعض الاستعدادات الضعيفة أو الشاذة في الاصول البعيدة •

وهذه الظاهرة ربما تشاهد في العائلات الريفية التي تحافظ على العصبية ورابطة الدم ، كما قد

تشاهد في بعض السلالات المالكة التي ترفض التصاهر مع أية أسرة عادية من أبناء الشعب ٠ وعلى الرغم من أن علم تحسين النسل يحرص على ضرورة اختلاط الاجناس ، فانه مع ذلك يرفض الزواج بين الاقارب لأن هذا الزواج يؤدي الى ضعف الذرية ، كما يرفض زواج الاجانب لأنه يقود الى التنافر ٠

ومن أجل أن ينظموا الذرية نادى علماء النسل بفكرة « الأبوة المنظمة » التي تعني ألا يصبح الشخص أبا الابناء على قصد ورغبة ، لا بطريق الصدفة والاتفاق ٠ وهم لذلك يدعون الدولة الى ارشاد المتزوجين الى ضرورة تحديد النسل ،والعمل على مساعدتهم عمليا في هذا السبيل عن طريق فتح عيادات تناسلية للجمهور حتى يقف كل فرد على الوسائل الفعالة لتنظيم نسله والتحكم في عدده ٠

ويرى علماء تحسين النسل أنه لا بد من أن يفهم الأفراد أهمية انجاب النسل على فترات متباعدة حتى لا ترهق الأم ، أو لا تكون ضحية لجهل الرجل ٠ وليس من شك في أنه حينما ينظر الرجل الى المرأة على أنها مجرد آلة لانجاب النسل ، أو حينما يفض

الطرف عن التفكير في المستوى المادي الذي يجب أن يكفله لبنيه ، فانه عندئذ قد لا يهتم في أن يحـــدد نسله أو على الأقل أن ينظمه على فترات ، وأما حينما يدخل في اعتباره صحة الأم وضرورة التوفيق بين عدد نسله وبين امكانياته المادية ، فهنالك لا يكون غرضه من الزواج هو انتاج أكبر عدد مـــن الأبناء ، بل العمل على توفير أسباب الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية لعدد محدود من الابناء ٠

وفي هذه الأيام المتقدمة المتطورة أصبح العديد من الأزواج يميلون الى الاخذ بفكرة تنظيم النسل وتحديده ، وهذا يعني أن تكون الأبوة فعلا مرادا ، والا تأتي عن طريق الصدفة ، أو نتيجة لباعث أو دافع جنسي أعمى ٠ وفضلا عن ذلك فانه ينبغي على الوالدين أن يمتنعوا عن انجاب النسل حينما يلم بأحدهم مرض قد يكون خطيرا مثـــل (السل والزهري) ، أو حينما تكون هناك اعتبارات صحية أخرى تفرض الامتناع عن انجاب الاطفال ٠ وفي كل هذه الحالات لا بد من أن تكون القاعـــدة هي مراعاة صحـــة الأم ، ومستقبل الطفـــل ، وعـــدم التضحية بالشخص السوي العادي في سبيل شخص منحرف شاذ ٠

هذه مجمل الآراء التي ينادي بها علماء تحسين النسل ، وهي تعطينا الدليل على أن الفكرة السائدة عندهم هي أن الجسم السليم ، والعقل السليم ، هما الضمان الوحيد لتكوين المواطن الصالح ٠ وهذا العلم من المؤكد أنه لا يلتفت الى القيم الروحية ، والمباديء الاخلاقية الانسانية ، وفكرة المسئولية الجمعية ، فضلا عن أنه لا يقيم وزنا كبيرا لعامل خطير هو البيئة ، ولكن من الثابت أن علم تحسين النسل ينطلق دائما الى جانب علم التربية ، لأن علم التربية هو تعلم الفرد كيف يعمل على الارتقاء بنفسه نحو درجة عليا من الحيوية ، وكيف يضمن لنسله وراثة صالحة أو تركيبا بيولوجيا ممتازا ٠

ويرى بعض العلماء أن المجتمع العائلي يمكنه عن طريق التربية أن يعمل على تحسين البيئة المادية والروحية التي يترعزع فيها النسل ٠ ولذا يمكننا أن نقول بأن علم تحسين النسل يتيح للأفراد والجماعات أن تزيد من قوتها الجسمية وقيمتها الروحية ، فيقضي بذلك على الاجيال الضعيفة عقليا وجسميا ٠

وانطلاقا من كل هذه الافكار تبين لنا أن النوع البشري لا بد من أن يتكاثر بطريقة انسانية تليق

بموجودات ناطقة تتمتع بالعقل والارادة • وهذا يعني أنه اذا كان الحيوان متمددا في صلاته الجنسية بغريزة عمياء حتمية هي غريزة التكاثر ، فان الانسان على العكس من ذلك يعرف الغاية التي تهدف اليها تلك الغريزة ، وهو يملك من القوة ما يستطيع معه أن يخضعها لعقله وارادته •

وانسجاما مع ذلك فان الأسرة البشرية لا بد من أن تقوم على الزواج الواحدي الذي يضمن للزوج والزوجة أكبر قسط من التعادل ، كما يضمن للأبناء أعلى درجة من العناية • ولا بد لنا ما دمنا نتحدث عن المميزات الاجتماعية لهذا النظام العائلي ، من الاشارة الى تاريخ النظام التعددي في الزواج •وهو الذي يعني النظام الذي تقترن فيه المرأة بعدة أزواج ، والذي عرف من قديم الزمن عند بعض القبائل البدائية • ولا زال هذا النظام قائما في بعض أقاليم التبت حيث تحتاج الأسرة الى جهود أكثر من رجل في سبيل العمل على النهوض بتبعات الحياة العائلية ، خصوصا وأن ظروف المعيشة في تلك البلاد غاية في الصعوبة والعسر • ولكن يبدو أن هذا النوع من الزواج يكاد يكون نادرا ، كما أنه

يقترن ببعض الظروف الاقتصادية المعينة أو ببعض الشروط الاجتماعية الخاصة .

ويلاحظ أن النظام التعددي المشهور في الزواج ليس سوى نظام تعدد الزوجات ، وهو ذلك النظام الذي يقترن فيه الرجل بأكثر من زوجة في وقت واحد . ولفظ الزواج التعددي يعني أنه يشمل نظام تعدد الأزواج ونظام تعدد الزوجات على حد سواء .

ويذهب علماء الاجتماع الى أن نظام تعدد الزوجات قد اقترن في الاصل بنظام الرق ، وذلك لأن النساء المسبيات في الحروب كن يصبحن زوجات أو خليلات أو رقيقات للرجل الذي يأسرهن . والخليلة لم تكن سوى زوجة في حكم الرقيقة . وكذلك عرف نظام شراء الزوجات في المجتمعات التي كانت تقبل تعدد الزوجات ، فكان رئيس العشيرة أو القبيلة يشتري مجموعة من النساء ، على نحو ما يشتري قطعة من الارض أو قطيعا من الماشية ، بهدف زيادة الثروة والملكية .

ويُروى أن عدد الزوجات في بعض الأحيان كان يصل الى المئات أو الألوف ، فكان لدى سليمان

الحكيم على سبيل المثال لا الحصر ٧٠٠ زوجة و ٣٠٠ خليلة ، بينما بلغ نساء الملك في لوانجو حوالي ٧٠٠ زوجة ٠

ويذهب بعض الباحثين الاجتماعيين الى أن نظام تعدد الزوجات ، حتى في البلاد التي أخذت به أو مارسته بالفعل ، لم يكن نظاما عاما سائدا لدى كل الطبقات ، وانما كان نظاما خاصا لم يتجاوز دائرة الطبقة الممتازة أو طبقة الأشراف ٠ وهذا يعني أن النظام التعددي لم يظهر الا بعد أن زاد حظ المجتمعات البشرية من الثراء ، فأصبح في استطاعة رجل واحد أن يتكفل باعالة جيش من النساء والاطفال ٠

وليس من المؤكد ما يراه بعض علماء الاجتماع بأن نظام تعدد الزوجات يكاد يكون قاصرا على الطبقات الثرية ، كوننا نشاهد حتى الآن في بعض البلدان العربية ان هذا النظام منتشر لدى الطبقات الفقيرة والمتوسطة بدرجة لا تقل ان لم تزد عن درجة انتشاره لدى الطبقات الغنية ٠

وقد تكون أهم الدوافع التي تعمل على انتشار هذا النظام التعددي في بعض المجتمعات هو قوة

الدافع الجنسي لدى الرجل ، أو رغبته في توسيع أسرته وتخليد اسمه ، أو اعتماده على الاطفال لمساعدته في الاعمال الزراعية ، أو حبه للنسل وميله الى ترك أكبر عدد ممكن من الذرية ، أو نزوعه الى اظهار ثرائه وعلو مركزه الاجتماعي ٠

أما الزواج الواحدي الذي فيه يقترن الرجل بزوجة واحدة ، فهو بلا شك أكثر أنواع الزواج تعبيرا عن نضج الشخصية البشرية ، لأن فيه من الثبات والاستقرار ما يعطي الحياة زخما من الاستقرار والاستمرار ٠ واذا كان الزواج الواحدي أصدق تعبيرا عن الطبيعة البشرية من أي نوع من أنواع الزواج الأخرى ، فذلك يعود الى ميل أبناء البشرية الطبيعي الى رد الكثرة الى الوحدة ، أو الانتقال من التعدد الى الواحدية ، كما ان من أخص خصائص الكائن البشري الناضج نزوعه نحو صورة ثابتة من صور العلاقة الجنسية ٠

ويرى علماء النفس أنه لا بد من أن تأتي على الرجل لحظة يشعر فيها بحاجته الى تحقيق شيء حاسم ذي طابع نهائي ، والاقتران بشخصية فريدة يرتبط بها الى الأبد ، وان حياة لم يحقق فيها

الانسان شيئا حاسما ، ولم يتمكن من خلالهـا أن يصل الى غاية ، لهي حياة فاشلة ضائمة ، ان لم نقل شاذة منحرفة ٠

ومن المؤكد ان الشخصية الناضجة التي تنزع نحو الثبات والاستقرار سرعان ما تعرف أن الزواج الواحدي سنة الطبيعة ، وأنه لا بد للرجل من أن يربط مصيره بشخصية واحدة يخلص لها وتخلص له ، ويتعاون كلاهما على تحقيــق هدف مشترك وغاية موحدة ٠ وهكذا يكون الزواج عبارة عن اتحاد أبدي يتم بين رجل واحد وامرأة واحدة ٠

ومن المؤكــد علميــا واجتماعيــا ان الزواج الواحدي يكفل للأبناء الرعاية التامة ، لأن الزوج والزوجة يتحدان في هــذا النظــام اتحادا كامــلا ويشتركان في العمل سويا لما فيه مصلحة أبنائهما ٠

ويلاحظ علماء النفس ان الأسرة القائمــة على الزواج الواحدي يتوافر فيها أرفع أنواع الحــب والتعاطف والانسجام الوجداني، والوفاء الخالص ٠ بينما في الزواج التعددي قلما يتمكن الأب من بذل ذاته لكل فرد من أبنائه على حدة ، أو لكل زوجة

من زوجاته على حدة ، نظرا لكثرة أبنائه وتعدد زوجاته • والأبوة في هـذا النظـام تفقد معناها الصحيح وتكاد تكون معدومة في هذا النظام •

مع الملاحظـة بأن تعدد الزوجـات يولد بينهن الغيرة والحسد والتباغض ، كما يعمل على ابتعاد أبناء كل زوجة عن أبناء غيرها من الزوجات • وأما في الزواج الواحدي فان كلا من الأب والأم يضحي بكل شيء في سبيل العنايـة بالأبنـاء والعمل على تربيتهم تربية صحيحة •

والزواج الواحدي كما يستدل من التجارب التي قام بها بعض العلماء يخلق بين الزوجين روابط عائلية أقوى بكثير مما نلاحظه في غيره من أنظمـة الزواج • وتتمتع الأسرة القائمة وفق هذا النظام بدرجة رفيعة من الاتحاد والانسجام والتوافق • فنشاهد ونلمس الحب والتعاطف سائدا بين الأبوين وبين الأبناء ووالديهم ، وبين الابناء بعضهم مـع البعض ، بينما تكون الروابط القانونية والعلاقات الدموية في هذا النظام أكثر بساطة وأقل تعقيدا مما هي في أي نظـام آخر ، ولذلـك فان مظاهر الاحتكاك وأنواع التنازع أقـل ظهورا في الزواج الواحدي منها في أي زواج آخر •

وفي الحقيقة ان أهم ما يميز هذا النظام هـو ارتفاع درجة التماسك والتضامن العائلـي بـين أفراده • ولهذا فان الأسرة الواحدية تفمل بطريق غير مباشر على تنمية التماسك والانسجام والتفاهم في الحياة الجمعية ذاتها •

ويذهب علماء النفس الى أن النظام الواحدي في الزواج يضمن لكل من الآباء والأبناء طول الانسجام والتماسك والبقاء • كون الآباء عندما يصبحـون شيوخا لا يلقون العناية الكافية من أبنائهم الا في ظل هذا النظام الواحدي • وأما في ظل النظـام التعددي ، فان الزوجة الطاعنة في السن سرعان ما تجد نفسها وحيدة مهجورة ، فلا يكون عليها الا أن تقضي بقية أيام حياتها في صبر وألم ومرارة •

واذا تطلعنا الى الأبناء نرى أنهم قلما يهتمون بأبيهم ، وذلك لأن البيت الذي تكثر فيه الزوجات هو بيت لا تسنح فيه الفرصة للأبناء بأن يرتبطوا بعاطفة المحبة مع أبيهم ، فضلا عن أن الأب نفسه كثيرا ما يكون كل اهتمامه موجها نحو العنايـة بزوجاته ، بينما يهتم الأبناء في ظل النظام الواحدي بأبويهم الطاعنين في السن ، نلاحظ الوالدين في ظل

النظام التمددي يقضون شيخوخة كئيبة تلفها الوحدة والانقباض والملل والحزن ٠

وانطلاقا من هذه الآراء والافكار يمكننا أن نتبين أن الأسرة المتكاملة لا بد من أن تكون أسرة متحدة قائمة على نظام الزواج الواحدي ، لأن الطابع المميز لهذا النظام هو الثبات أو الاستقرار، وتلك ميزة لا بد منها للاتحاد الزوجي حتى يصبح متكاملا ٠ ولن يكون تكامل في الأسرة الا اذا كان كل من الزوجين قد بلغ مرحلة من النضج يمكنه معها من أن يفهم معنى الارتباطات ، وقيمة الاستقرار ، وأهمية الثبات ٠

ولن تكون للطفل أسرة متكاملة متضامنة مستقرة الا اذا كان له أبوان متعاونان يصدران في كل أفعالهما عن روح المشاركة والتعاون والاتفاق ٠ وليس يكفي أن يكون الوالد أبا عاقلا أو حارسا أمينا ، أو أن تكون الأم والدة محبة أو مربية ممتازة ، وانما ينبغي أن يكون الوالدين شاهدا باتحادهما ، ناطقا بتعاونهما ، حتى تكون أسرة حقيقية يحيا في ظلها الطفل ويطمئن اليها ٠ ولا بد من أن يكون الجو الذي يترعرع فيه الطفل جوا

عاطفيا دافئا عامرا بالحب ، لأن جو التشاحن والخصام والنزاع قلما ينسجم مع الصحة النفسية للطفل .

ويرى علماء النفس ان الأسرة المتكاملة ليست تلك التي تكفل لأبنائها الرعاية الاقتصادية والاجتماعية والصحية فحسب ، بل هي تلك الأسرة التي تهيء لهم الجو النفسي الملائم أيضا . ومن هنا فان مجرد وجود الطفل في بيت واحد مع والديه لا يعني دائما أنه يحيا في أسرة أو أنه يلقى العناية الأبوية الكافية .

وقد لمس بعض علماء النفس أن الرعاية التي يتلقاها الطفل من جانب والديه ، ومن جانب أمه على وجه الخصوص ، هي العامل الاساسي في تكوين صحته النفسية والعقلية . وليس في مقدور أية مؤسسة اجتماعية ، أو أية هيئة تربوية أن تقوم بهذا العبء الهام الذي يقع على كاهل الوالدين ، خصوصا في السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل .

ويذهب بعض هؤلاء العلماء الى أن نوع العلاقة التي تنشأ بين الطفل وأمه منذ الاشهر الأولى من حياته قد تؤثر تأثيرا عميقا على كل حياته المستقبلة

ولم يعد هناك خلاف بين علماء النفس حول تأثير السنة الأولى من حياة الطفل على مستقبل صحته النفسية ، اذ أجمع الكل على أن حرمان الطفل من عطف وحنان أمه ابتداء من السنة الأولى من حياته لا بد من أن يؤثر تأثيرا سيئا على مستقبله ◦

وليست هناك أية قوة يمكنها أن تحل محل عطف وحنان الأم ، باعتبار أن الأمومة ليست وظيفة آلية يمكن أن تقوم بها أية هيئة توفر للطفل الغذاء والمأوى ، وانما هي علاقة انسانية حية تبدل من معالم الشخصية لكل من الأم والطفل ◦

ولا بد لهذه العلاقة من أن تطبع بطابع الاستمرار ، لأن الاستمرار ليس ضروريا لنمو شخصية الطفل فحسب ، وانما هو ضروري لنمو شخصية الأم أيضا ◦ وكما أن الطفل في حاجة الى الشعور بأنه ينتمي الى أمه ، فان الأم أيضا هي في حاجة الى أن تشعر بأنها ملك لطفلها ، وهي لن تستطيع أن تهب نفسها له في اخلاص تام ووفاء مطلق الا اذا توفر لها هذا الشعور ◦

ومما لا جدال فيه أن الرعاية المستمرة التي تقدمها الأم لطفلها ليل نهار ، ليست بالشيء الكثير

على أم تجد لذتها الكبرى في أن ترى ابنها يجتاز مرحلة الطفولة ، ويتدرج خلال مراحل الحياة الى أن يصبح رجلا مستقلا يعتمد على نفسه ٠ فالأم تعلم حق العلم أن طفلها بأمس الحاجة اليها ، وهي على ثقة تامة من أن رعايتها هي التي تضمن لـه أسباب النمو والتطور والتقدم ، ولهذا فانها تشعر بلذة الأمومة والرعاية ، وتحس بأن طفلها هـو موضع سعادتها وحنانها ٠

ويرى علماء النفس أنه على الرغم من أهمية الأسرة في نمو الطفل وتطوره ، وعلى الرغم من خطورة الدور الذي تلعبه الأم في رعاية الطفل ، فان الأسرة ربما تتسبب أحيانا في انحراف الطفل أو ميله الى الشر والفساد ٠ وربما كانـت أهـم الاسباب التي تؤدي الى عجـز الأسرة عن القيـام بمهمتها هي النقص العقلي ، أو سوء الحالة المادية للأسرة ، أو ضيق البيت بأفراده العديدين ، أو اهمال رب الأسرة لزوجه وأولاده ، أو اصابة أحد الوالدين بعاهة أو مرض مزمن ، أو فشل الزوجين في حياتهما العائلية ، أو انفصال أحد الزوجين عن الآخر ، أو تحطم الأسرة بسبب الطلاق ٠

ويؤكد علماء النفس انطلاقا من هذه الاسباب

أن تكامل الأسرة رهن بالصحة العقلية التي يتمتع بها كل من الزوجين ، كما أنه يتوقف الى حد كبير على نوع العلاقة التي تنشأ بينهما وبين أبنائهما منذ البداية ٠

ويعتقد علماء الاجتماع بعد تجارب عديدة أجروها على العديد من الأسر في مجتمعات مختلفة ان الأسرة المتكاملة هي خير مدرسة يتعلم فيها الطفل فضائل الحياة الجمعية ٠ والأسر المتحدة بمفهوم علماء النفس هي التي تخرج دائما للمجتمع مواطنين صالحين يرتبطون أشد الارتباط بالبيئة التي ترعرعوا فيها وتعلموا حبها ورضعوه مع لبن الأم ٠ وليس هناك مكان أفضل من الاسرة يتمكن فيه الطفل من أن يتلقن الطاعة والنظام واحترام حقوق الآخرين ، وسلوك مسلك اجتماعي صحيح ٠

والأسرة المتكاملة المطمئنة المستقرة هي خير مجال يتمكن فيها الطفل من التعود على السلوك الاخلاقي المستقيم ٠ لذلك يمكننا أن نعتبر الأسرة المدرسة الأولى التي تتم فيها الخطوات الاساسية في تدريب وتعليم الطفل ، والمراحل الجوهرية من مراحل التربية والتعليم ٠ والآباء أقدر الناس على

تعليم أبنائهم مبادىء الصحة الجسمية ، والجنسية ، والنفسية ، والعقلية ، والاجتماعية ٠

قضايا الطلاق والانفصال :

عندما نحاول أن نستقصي قضايا الطلاق والانفصال في المجتمعات الحديثة نلاحظ ان قضايا الطلاق والانفصال ليست بدع اجتماعية لم تمر بها سوى العصور الحديثة ، وانما هي ظواهر اجتماعية عرفت في أغلب المجتمعات القديمة حيث كان الزواج لا يتخذ صورة عقد قطعي لا عودة عنه ، بل صورة اتفاق مؤقت يمكن العدول عنه ٠

ويرى علماء الاجتماع الذين تتبعوا هذه القضايا عبر التاريخ أن الاسباب الداعية الى الطلاق في تلك المجتمعات القديمة قد اختلفت أسسها ومرتكزاتها ، فعلى سبيل المثال كانت الزوجة في بلاد الغال تطلق زوجها لمجرد أن حلقه سيىء الرائحة بينما أوجب النظام الصيني للطلاق بعض الشروط مثل العقم أو العاهة المستديمة ، أو الخيانة ، أو عدم انسجام المزاج ، أو عدم احترام أحد الزوجين لأقارب الآخر ٠

ويذهب علماء النفس الى أن السببان الرئيسيان اللذان قد أجمعت معظم الشرائع على اعتبارهما ذريعتين قويتين للطلاق هما العقم والزنا ٠ وان الطلاق ليبدو في نظر الفرد حقا مشروعا : فان الخطأ الذي يرتكبه المرء في اختياره للشريك الآخر لا ينبغي أن يكون سببا في تعاسته وحرمانه الى الأبد ، وانما يجوز له أن يتلافى خطأه ، بدلا من أن يواصل تحمل نتيجة فعل لم يكن على علم مسبقا بما سيترتب عليه ٠ ولكن المجتمع نادرا ما يأخذ بهذه الحجة ٠ فان من مصلحة المجتمع أن يحترم الزوجان عقد الزواج ، نظرا لأن نتائجه تتعدى الطرفين المتعاقدين وتمتد الى الأبناء ٠

ونلاحظ في بعض المجتمعات أن الدولة والسلطة الدينية تزوجان أي رجل بأية امرأة ، دون أن تهتم بمعرفة ماضي حياتهما وما يترتب على هذا الماضي من نتائج ، ولكن بمجرد أن يتم هذا الزواج فان الابواب سرعان ما تغلق في وجه المتعاقدين ، فلا يصبح في وسعهما الانفصال بنفس السهولة التي تعاقدا فيها ، واذا كان من واجب السلطات في كل المجتمعات أن تزيد من صعوبة الانفصال والطلاق ، فذلك من أجل مصلحة الابناء من جهة ، وحتى تلزم

الراغبين في الزواج بأن يعيدوا النظر ويدققوا في كيفية الاختيار من جهة أخرى ٠

وربما يكون من السهل أن يتمتع المرء بمباهج بلد غريب زاره مع احتفاظه بتذكرة العودة في محفظته ، ولكن الامر لا بد من أن يكون مختلفا كل الاختلاف اذا عرف المرء أنه قد هاجر الى ذلك البلد للاستقرار بصورة دائمة ، وأن طريق العودة قد أغلق نهائيا أمامه ٠

ولكن بعض المجتمعات الحديثة لا تعترف بالطابع النهائي الحاسم للزواج ، فالقانون الروسي على سبيل المثال الذي ظهر سنة ١٩٢٦ ميلادية يؤكد على أن الطلاق حق مطلق للفرد ، وأن في استطاعة أي طرف من الطرفين المتعاقدين أن يحصل عليه بمجرد تقديمه لطلب يرفعه الى المحكمة يعرب فيه عن رغبته في حل رابطة الزوجية ٠ وهذا يعني ان الطلاق في قانون سنة ١٩٢٦ كان أسهل من الزواج ، لأن الزواج كان يستلزم ارادة كل من المتعاقدين ، بينما الطلاق لم يكن يقتضي سوى ارادة أحد المتعاقدين ٠ ولهذا كان الطلاق في روسيا أسهل من الزواج ، ولكن روسيا سرعان ما تذكرت الاخطار الاجتماعية

التي تتوجب على هذا النظام ، خصوصا وأن نسبة حالات الطلاق في سنة ١٩٣٥ ميلادية قد بلغت حوالي ٤٤ ٪ من عدد الزيجات المعقودة بالفعل ، فلم يلبث المشرع الروسي أن عمد الى تضييق دائرة الطلاق في تشريع جديد ظهر سنة ١٩٣٦ ميلادية . ثم ظهر قانون آخر جديد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٤ ميلادية كان الهدف الاساسي منه حماية الأسرة الروسية والعمل على تدعيم مرتكزات الزواج .

وصدرت الأوامر الى المحاكم توجب ضرورة التدقيق الشديد في طلبات الطلاق ، وعدم الموافقة على حل نظام الأسرة الا في الحالات الضرورية القصوى . ويلاحظ علماء الاجتماع انطلاقا من هذه الانظمة والقوانين أن المجتمع الروسي قد كان منذ الثورة الروسية سنة ١٩١٧ ميلادية حتى هذه الأيام بمثابة حقل تجارب اجتماعية ، فلم تأتي رجعة المشرع الروسي الى الاعتراف بأهمية النظام العائلي سوى نتيجة لتجارب متعاقبة مر بها المجتمع الروسي نفسه ، فاستطاع من خلالها التوصل الى ادراك ضرورة العمل على تضييق دائرة الطلاق ، وزيادة احترام الافراد لنظام الاسرة .

أما في الولايات المتحدة الامريكية فقد بلغت حوادث الطلاق نسبة لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم ٠ ففي سنة ١٩٠٦ ميلادية كان عدد حوادث الطلاق في أمريكا وحدها يزيد عن عدد حوادث الطلاق في سائر بلاد العالم الأخرى بنحو ٢٠٠٠٠ حادثة طلاق ٠ وأما في البلاد الأوروبية فقد كانت هناك حالة طلاق واحدة لكل ثلاثين زواجا تعقده الكنيسة في فرنسا ، وحالة طلاق واحدة لكل ٤٤ زواجا يتم في ألمانيا ، وحالة طلاق واحدة لكل ٤٠٠ عقد زواج في انكلترا ، بينما بلغت النسبة في الولايات المتحدة ١١ الى ١٢ ، والى ٦ أو ٥ في بعض المدن الامريكية ٠

وأجرى بعض العلماء احصائيات أخرى جديدة سنة ١٩١٦ ميلادية فتبين أن هناك ست ولايات أمريكية زادت فيها حالات الطلاق في احدى السنين عن حالات الزواج ، وكانت نسبة الطلاق على سبيل المثال في ولاية نيفادا الى نسبة الزواج كنسبة ١ الى ١٫٥٤ ، وفي ولاية انديانا كنسبة ١ الى ٥٫٩٤ ٠ ولكن دلالة مثل هذه الاحصائيات حسب رأي علماء النفس محدودة ٠ لأن الناس في أمريكا كثيرا ما يهاجرون الى مدينة رينو بولاية نيفادا حتى يحصلوا

على الطلاق في فترة قصيرة لا تتجاوز عدة أسابيع ، ثم يعودون بعد ذلك الى ولاياتهم الاصلية ٠

ولهذا فان نسبة الطلاق تزيد في تلك الولاية عن نسبة الزواج ، في حين أن أهل الولاية أنفسهم ربما لا يكونون مولعين بالطلاق كما قد يتوهم البعض لاول وهلة ٠

وفي سنة ١٩٢١ ميلادية لاحظ علماء الاجتماع أن عدد حالات الطلاق لم يتناقص ، بل لقد بلغت نسبة الطلاق في الولايات المتحدة ككل حوالي ١ الى ٩ (حالات زواج) ، وبذلك فاقت أمريكا بلاد اليابان وضربت الرقم القياسي في كثرة حالات الطلاق بها ٠

وفي سنة ١٩٣٠ ميلادية بلغت نسبة الطلاق الى نسبة الزواج حوالي ١ الى ٩ر٥ ٠ ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، فارتفعت نسبة الزواج والطلاق معا ، وزادت في الوقت نفسه نسبة عدد المواليد ٠ وأكدت الاحصائيات في سنة ١٩٤٦ ميلادية أن نسبة الطلاق في الولايات المتحدة قد بلغت أكثر من ١ الى ٤ (حالات زواج) ٠ ولكن ربما كان من الخطأ أن نقيس نسبة حوادث الطلاق بنسبة حالات الزواج في سنة واحدة بعينها ، اذ ربما تكون حالات الطلاق

مرتبطة بزيجات قديمة (تمت في سنوات أخرى) ٠ وهذا يعني أن قياس نسبة الطلاق يجب أن يكون بالنسبة الى عدد المتزوجين جميعا ، لا بالنسبة الى عدد الزيجات التي تمت في العام الذي يجري فيه الاحصاء فقط ٠

ويرى علماء النفس من خلال هذه الاحصائيات أن حوادث الطلاق قد تعددت بشكل خطير منذ النصف الثاني من القرن الماضي ، حتى في بعض البلاد المحافظة مثل انجلترا ٠ ففي سنة ١٩١٤ ميلادية كان عدد حوادث الطلاق ٨٥٦ ، وفي سنة ١٩٢١ ارتفع الى ٣٫٥٢٢ ، ثم بلغ حوالي ٤٠٠٠ في عام ١٩٢٨ ، ولم يلبث هذا الرقم أن قفز الى ٣٥٫٨٧٤ حالة طلاق في عام ١٩٤٦ ٠

أما المعلومات التي لدينا عن حوادث الطلاق في البلاد العربية ، فتكاد تكون معدومة نظرا لعدم وجود مهتمين بمثل هذه الاحصائيات الدقيقة ، ولكن يمكننا أن نقول بأن هذه الظاهرة الاجتماعية متفشية على نطاق واسع في معظم البلاد العربية التي تعمل بموجب القوانين المدنية المنسجمة مع نصوص الشريعة الاسلامية ٠

ومن المعروف أن نسبة حالات الطلاق آخذة في التزايد ، خصوصا في المدن والمراكز الصناعية ٠ ونسبة الطلاق تقل دائما في القرى والريف عنها في المدن ، وكما زاد حظ الريف من التمدن والتطور ارتفعت نسبة الطلاق فيه ٠

ويلاحظ بعض علماء الاجتماع العرب ان هناك عوامل أخرى غير التي ذكرناها تؤثر في ارتفاع نسبة الطلاق أو هبوطها فيالبلاد العربية مثل العامل الديني ، ومدى كبر حجم الأسرة ٠ وعلى سبيل المثال نسبة الطلاق تزيد بصورة عامة عند المسلمين، بينما هي أقل عند الكاثوليك ، وهي في البلاد الغربية قد تزيد بشكل ظاهر لدى الاشخاص الذين لا ينتسبون الى أي دين ٠

ويعود السر في ذلك الى أن المتدينين يرون في الزواج رابطة مقدسة أو سرا الهيا ، بينما ينظر اليه اللادينيون على أنه مجرد عقد تتحكم فيه العاطفة الشخصية ، ففي الامكان فسخه اذا دعت الضرورة الى هذا الفسخ ، أو اذا انتفت أسباب قيامه ٠ وأما ما يتعلق بحجم الأسرة فقد لوحظ أن نسبة الطلاق قد تبلغ الضعف أو أربعة أمثالها عند

الأسر التي لم تنجب أطفالا عنها لدى الأسر الكبيرة التي تضم أطفالا عديدين ٠

ويفسر علماء الاجتماع هذه النظرة لأن الاسرة الكبيرة تزيد من الروابط الاجتماعية التي توحد بين الزوجين فتقف حائلا دون التفكير بالطلاق أو الانفصال ٠ وهذا لا يعني أن وجود الطفل في الأسرة يحمي الاسرة من التفكك والانحلال ، انما حينما تتزايد أعباء الرجل ، خصوصا عندما يزيد عدد أطفاله عن الحد المعقول الذي يمكن معه احتمال تبعات الأسرة ، فقد يعمد الى هجر زوجه في اللحظة التي تكون فيها على وشك الوضع ٠

وانطلاقا من هذه الآراء التي أوردناها لا بد لنا من التعرض للجوانب السيكولوجية التي ينطوي عليها الطلاق معتمدين على آراء علماء الاجتماع الذين يذهبون الى أن الطلاق مرض اجتماعي خطير، وأن على الدولة أن تجد لتوقيف أمواجه العاتية ، وذلك بايجاد القوانين والتشريعات ، وكذلك رجال الدين مطالبون هم أيضا بتحريم الطلاق أو منعه بصورة جذرية حتى تتوفر للمجتمع الحديث السلامة والاطمئنان وعدم بعثرة وتفرق أبنائه ٠

وفي الحقيقة ان مشكلات الطلاق هي واحدة من تلك المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي لبما يصعب فيها التوفيق بين رغبة الفرد في الحرية وحرص المجتمع على الاطمئنان والاستقرار . والطلاق بدوره صورة لتلك الحياة الزوجية التي ينعدم فيها التكيف والانسجام أكثر مما هو عرض لداء خطير يلزم أن تتدخل الدولة نفسها لملاجه بسطوة القانون .

ومن المؤكد أنه عندما ينظر الرجل والمرأة الى الزواج على أنه مجرد عقد مدني يمكن التخلص منه في أية لحظة ،فان هذه النظرة ربما تكون وحدها المسئولة عن تعرض الزواج للانهيار في سرعة وسهولة . وقد لاحظ علماء النفس أنه كلما أصبح الطلاق ميسورا سهلا ، ازداد استهتار الناس بالزواج كنظام اجتماعي ، وزادت حوادث ومشاكل الطلاق والانفصال .

واذا نظرنا الى فكرة الطلاق بذاتها نظرة جدية نلاحظ أنها تتولد لدى الزوجين أو لدى أحدهما فجأة ، وربما سبقتها بعض الخطوات التمهيدية من اشتعال نار التشاحن والخلافات والمشاكل التي لا

حصر لها ، والتي تقف حائلا دون العودة الى الانسجام والتوافق والتفاهم والتراضي أو بالأحرى الهدنة الطويلة أو المؤقتة حسب كبر الخلافات وصغرها .

ويذهب علماء الاجتماع الى أن العديد من مراحل الخلاف الزوجي قد تكون مرتبطة بالمشاكل الجنسية ، حيث لا يكون ثمة توافق وانسجام بين الطرفين من ناحية الدوافع الجنسية أو طريقة الاشباع أو عدد مرات الجماع أو ما الى ذلك ، ومثل هذه الخلافات قد تزرع بين الطرفين بذور التوتر الوجداني والصراع النفسي ، فلا يكون في مقدور أحدهما تحمل الآخر .

وفي أغلب الأحيان تأخذ الزوجة على زوجها أنه لا يعاملها بلطف ورقة ، ولا يقترب منها بشغف وحنان ، بل يجعلها أداة لمتعته ووسيلة لارضاء غريزته واطفاء نار شهوته الجامحة ، دون أن يفكر بعاطفتها أو حالتها الوجدانية التي تصطخب في أعماقها .

وربما يكون الخلاف الجنسي بين الزوجين ناتج عن جهل الزوج بطبيعة المرأة ، أو عدم اهتمامه

باشباع حاجتهـا الى العطف والحنـان والحـب ٠ وسرعان ما يدب الخلاف بين الزوجين ، ويمتد من دوامة الجنس والحياة العاطفية الى مظاهر أخرى أكثر أهمية تتعلق بصميم الحياة العائلية ٠

وقد يكون الخلاف بسيطا تافها في أول الامر ، ولكنه سرعـان مـا يتطـور ويرتبط بموضوعات عديدة ، ويتفاقم خطره ويبدأ بالتأثير على التماسك العائلي حيـث تبـدو معـالم الضعف ، وبوادر الانحلال ٠ وهنا يشرع أحد الطرفين بالتصريـح العلني بأنه لولا الاطفال والأبناء لفضل فصم عرى الزواج ، واذا لم تدارك هذه المشاكل الطفيفـة وتعالج بحكمة وروية فانها معرضة للتفاقم ، فلا يعود أحد الزوجين أو كلاهما مما يجد سببا للابقاء على رابطة لا تجلب له سوى التعاسـة والهمـوم والشقاء ٠

وانطلاقا من هذه المشاكل تبرز فكرة الانفصال والطلاق في مخيلة أحـد الطرفين باعتباره الحـل الأوحد للخلافات بينه وبين الطرف الآخر ٠ وربما تكون هذه الفكرة أي فكرة الافتراق قد ظلت كامنة في ذهن الزوج أو الزوجة أشهرا أو سنوات ، ولكن

بمجرد أن يجسدها أحد الطرفين صراحة ، فان النزاع الزوجي لا يلبث أن يمر في مرحلة خطيرة من مراحل ازدياد عنفه وتطوره .

ومنذ تلك اللحظة ، يصبح الطلاق هدفا يتردد على لسان كل من الزوجين أو أحدهما على الاقل في كل مناسبة . وقد يؤدي التفوه بهذه الكلمة للمرة الأولى الى صدمة نفسية لدى الطرف الآخر ، أو ربما يؤدي الى اشعال نار النزاع القائم بين الطرفين أو ربما يمهد السبيل لبعض المحاولات السطحية للمصالحة والهدنة المؤقتة . وفي بعض الحالات قد تتردد كلمة الطلاق على لسان أحد الزوجين مئات المرات دون أن يتخذ أي اجراء لتنفيذ هذه الكلمة بالفعل .

من المؤكد أن ترديد كلمة الطلاق في كل مناسبة يؤدي الى اتساع شقة الخلاف والى تصدع ركائز البنيان العائلي ، فتتعدد مظاهر التنازع بين الزوجين ، ويظهر لكل منهما بجلاء أنه لم يعد بمقدوره أن يكمل عيشه مع الطرف الآخر تحت سقف واحد في جو مكفهر قاتم من الكراهية والخلافات المتواصلة الدائمة . فلا بد اذن من

الاقدام على الانفصال والطلاق بعزم وتصميم ، وهنا يقر القرار على اتخاذ الخطوة الحاسمة من أجل الخلاص من التوتر النفسي الذي يتغلغل في قلب الأسرة ۰ ثم يأتي بعد ذلك التصرف الفعلي ، كأن تضب الزوجة عفشها وأمتعتها هادفة الى مغادرة المنزل والتوجه الى بيت والديها ، أو كأن يخرج الرجل من البيت على أن لا يعود اليه ، فيخيم على المنزل جو عاصف من التوتر العاطفي ، وتسيطر على الحياة العائلية الكآبة والحزن ۰

وربما نلاحظ في هذه الحالة أن أعصاب أحد الطرفين (خصوصا الزوجة) قد تنهار انهيارا كاملا فتتطلع الى الانفصال على أنه مأساة كبرى من مآسي الحياة ، بينما نجد أن الانفصال والطلاق في بعض البلاد الأوروبية والامريكية يتم في جو مم البرود المصطنع أو عدم الاهتمام المفتعل ، فيغادر أحدهما الآخر دون أي وداع انفعالي عنيف ۰ ثم هناك أخيرا قضية الطلاق الاجرائية نفسها ، وهذه ربما تطول أو تقصر ، وقد يتوجب عليها أحيانا التشهير بسمعة الزوج أو الزوجة ، ولكنها في أغلب الأحيان لا بد من أن تقترن بالكثير من المشكلات المتعلقة بالنفقة وتربية الأولاد ومؤخر الصداق

وشتى التسويات المادية ... وهكذا يتم الطلاق بعد فترة عصيبة من النزاع الحاد والتوتر النفسي العنيف .

يقول علماء النفس والاجتماع : اذا ما نظرنا الى تأثير الطلاق على الزوجين تبين لنا أن الفترة التي تعقبه مباشرة لا بد من أن تتخذ صورة « أزمة نفسية » يجتازها المطلق بمفرده ، ويجد فيها نفسه مجبرا على مواجهة مشكلات جديدة أهمها مشكلة اعادة التكيف مع ما استجد من ظروف بعد الطلاق .

وهنا يكون على المطلق أن يحقق نوعا من التوافق أو التكيف مع ظروف معيشته الجديدة ، وفي مقدمها حياته العاطفية ، وعاداته اليومية الجديدة ، وضرورة تنظيم صلات اجتماعية جديدة، وربما ينبغي على المطلّق أن يعمل على استرجاع احترامه لنفسه ، أو أن يتحمل الآثار المترتبة على الطلاق في دائرة عمله أو مسئولياته الوظيفية ، كما ينبغي عليه بصورة خاصة أن يحاول حل النزاع الداخلي الذي يتفاعل في أعماق نفسه ، وأن يجد لتحقيق الاتزان العاطفي المقترن باشباع بعض الدوافع الذاتية .

ويعتقد علماء النفس ان أهم مشكلة تواجه المطلّق في حياته الجديدة هي ضرورة اعادة تنظيم حياته العاطفية في ضوء انفعالاته النفسية الجديدة . وغالبا ما تكون العلاقات الجنسية بين الزوجين المتنازعين المنفصلين قد انقطعت منذ زمن طويل وقبل تنفيذ الطلاق بالفعل (أو هي على الأقل لا بد من أن تكون قد أصبحت علاقات سيئة لا تحقق أي اشباع جنسي لكل من الطرفين) ، وهذه الحالة نفسها هي التي تتسبب في ازدياد الصراع النفسي القائم بينهما طوال الفترة السابقة على الطلاق .

وعندما يتم الطلاق قانونيا وشرعيا ، فان المطلّق سرعان ما يلتجيء الى أساليب منحرفة في الاشباع الجنسي ، كأن يعتمد على سبيل المثال على العشق الذاتي ، أو كأن ينصرف الى حياة بوهيمية لا رادع فيها ولا وازع ، أو كأن يعمد الى الانتقام من الطرف الآخر بأن يؤلف علاقات غرامية مع أكبر عدد ممكن من أفراد الجنس الآخر .

وربما يحدث أحيانا أن تكون العلاقات الغرامية قد نشأت قبل الطلاق ، كأن يكون الزوج قد تعرف بامرأة أخرى استولى حبها على قلبه ، فيكون الطلاق

في هذه الحالة بمثابة اعتراف بالواقع ، وحينما يكون كل من الزوجين قد اتجه بعاطفته ـ قبل الطلاق ـ نحو شخص آخر ، فان الطلاق عندئذ لا يتخذ طابع المأساة ، بل يكون مقدمة لعلاقات غرامية جديدة ربما أدت الى زواج جديد .

ويلاحظ علماء النفس بأن المرأة المطلقة كثيرا ما تحتاج في الفترة التي تلي طلاقها الى وقت أو فرصة تسترجع فيها ثقتها بنفسها ، وتعالج نفسها فيها من الاحساس بالاثم والنقص والاحتقار الذاتي . وربما يزيد شعور المطلقة بالاضطهاد الذي أصابها من قبل زوجها ، فتزيد من كراهيتها له وحقدها عليه ، حتى ربما يصل بها الحقد الى درجة كراهية جميع الرجال في شخص زوجها ، وكثيرا ما تشجع المطلقة بناتها على النفور من الرجال ، زاعمة أنهم ليسوا سوى ذئاب كاسرة ، فتصرفهن عن التفكير في الزواج أو الخروج في صحبة الرجال .

وربما تجد المطلقة نفسها مجبرة على صد الكثير من الرجال ، ممن يقبلون عليها في الحاح بقصد الزواج ثانية أو تكوين علاقات غرامية جديدة معها،

آملين في اشباع حاجاتهم الجنسية عندهـــا ، لمجرد أنهم يعلمون أنها قد أصبحت حرة لا تخضـــع لأي رجل • ولكن من المعروف في هذه الحالات أن المرأة المطلقة تلتجيء الى والديها أو أهلها تلتمس عندهم المسكن والمأكل ، ولو أن هذا المسلك كثيرا ما يزيد من شعورها بنقصها وفشلها في الحياة •

وربما تلتمس المطلقـــة مخرجا من مشاكلهـــا العاطفية في الشراب أو القمار أو المرض العصبي أو أي منطلق رمزي آخر تتحرر بواسطته من الكبت الوجداني والعاطفي التي ترزح تحت وطأته •

ولا بد لكل من المطلق أو المطلقة من أن يصطدم بالصعوبات الناتجـــة عـــن ضرورة اكتساب عادات جديدة • فالمطلق مثلا قد يجد من الصعب أن يعتاد حياة العزوبة التي لا تخلو من السأم والوحـــدة ، والمطلقة قد تشعر بفراغ المنزل بعد أن تركهـــا زوجها وحيدة فيه ليس هنـــاك من يعطف عليهـــا ويمنحها الحنان والحب •

وفي بعض الأحيان قد يشعر كل منهما بالحرمان الجنسي ، خصوصا حينما يكون الزوجان قد تعودا

بعض العادات الجنسية لفترة طويلة ، فيجد الرجل نفسه مدفوعا للبحث عن زوجته السابقة ، وقد تتم بينهما بعض الاتصالات الجنسية حتى بعد الطلاق ٠

ولا شك أن الوحدة التي تعقب الطلاق هي المسئولة في كثير من الأحيان عن عودة الرجل الى زوجته السابقة (أو العكس) ، على الرغم من كل الصعوبات التي قد تكتنف طريق العودة ٠ ولكن حتى اذا استمر كل منهما في موقفه ، فان شعوره بالتحرر من الزوجية قد يكون متصورا أكثر مما هو حقيقي ٠

وقد تجد الزوجة نفسها مدفوعة بدون أن تدري الى الحديث عن زوجها السابق ، وبيتها القديم ، والمناسبات المختلفة التي مرت بها خلال حياتها الزوجية ، وهذا الحديث نفسه حتى اذا اقترن بالنقد والذم ، أو اتخذ صورة عدائية ، فهو يدل على استمرار المطلقة في الاهتمام بزوجها السابق ، على الرغم من الانفكاك الشرعي القانوني لكل علاقة زوجية بينهما ٠

وربما يجد المطلق نفسه مجبرا على تكوين صداقات جديدة ، والتخلي عن صداقات أخرى

قديمة • وقد يكون الاحساس بالاثم هو الذي يحول بين المطلق أحيانا وبين التردد على أصدقائه القدامى ، اذ يخيل اليه أن هؤلاء لا يوافقونه على المسلك الذي اتخذه ، أو أنهم سيبادرون الى لومه ومعاتبته ، ولذلك فانه يفضل البحث عن أصدقاء جدد •

ويؤكد علماء الاجتماع أنه حتى في المجتمعات الحديثة التي يسودها جو من الحرية أو التحرر ، فان الزوجين المطلقين ربما يجدان حرجا شديدا في أن يترددا على الأوساط الاجتماعية التي كانا يترددا عليها قبل الطلاق • ولكن المطلقة قد تضطر أحيانا الى البحث عن عمل ، نظرا لسوء حالتها المادية بعد الطلاق ، أو لرغبتها في تركيز كل همها في نشاط جديد يبعدها عن التفكير في الماضي ، فتجد نفسها تجاه مواقف جديدة عليها أن تتكيف معها على الوجه المقبول •

وفي بعض المجتمعات الأوروبية والامريكية ، قد يضطر الرجل نفسه بعد الطلاق الى البحث عن مهنة جديدة ، نظرا لأن طبيعة عمله الحالي (خصوصا اذا كان مدرسا أو رجل دين) لا تنسجم

مع حالته الاجتماعية كونه مطلقا ٠ ولا بد للمطلق أو المطلقة من أن يعمل أو تعمل على اعادة تنظيم الحياة الباطنة الخاصة به أو بها ، بحيث تجد أو يجد السبيل الى حل شتى أنواع النزاع التي تتكوم في نفسه أو نفسها ٠

وليس على الشخص المطلق حسب رأي علماء النفس الا أن يجتهد في الوصول الى درجة من التكامل يتمكن بواسطتها من أن يتكيف مع ما استجد حوله من ظروف ٠ وربما كانت هذه الظروف أصعب بالضرورة أو أعسر مهمة تقع على كاهل المطلق في حياته الجديدة ، وهي مهمة مواجهة الصراع النفسي القائم في باطنه ، أو حل مشكلات هذا الصراع النفسي التي تولدت عن تجربته الفاشلة ، وهذا يعني أن مشكلة الطلاق ترتبط ارتباطا قويا بمشكلة اعادة التكيف ٠

ومن الطبيعي أن لا يهمل علماء النفس الآثار المترتبة على الطلاق بالنسبة الى الأبناء ، فيذهبون الى أن أبناء المطلقين كثيرا ما يجتازون تجربة ممضة عندما يجدون أنفسهم في قلب بيت مفكك أو أسرة منهارة ٠ ولكن آراء هؤلاء العلماء قد اختلفت

حول مدى تأثير الطلاق على حياة الابناء ، فـرأى بعضهم أن في الطلاق تحطيما تاما للمجتمع العائلي، بينما ذهب البعض الآخر الى أن معيشة الطفل في وسط أسرة غاب عنها عميدها قد تكون أحيانا أهون شرا من الحياة في وسط أسرة لا يكف فيها الوالدان عن التشاحن والتنازع والعدوان ·

والحقيقة أن الاطفال الذين يترعرعون في بيئة يسيطر عليها النزاع والخلاف كثيرا ما يكتسبون مزاجا عصبيا حادا ، وعقليـة مبعثة ، وعاطفـة مشتتة ، وفوضى في التفكير · وربما يكون مـن الافضل لمثل هؤلاء الاطفال أن يبتعدوا عن تلـك البيئة المتوترة ، اما بوضعهم في مدرسة داخلية أو بفضل أحد الوالدين عن الآخر ·

وربما يعترض البعض على هذا الرأي مدعيـا انه مهما كان من أمر الخلاف القائم بين الوالدين ، فانه لمن الافضل بكثير أن تظل الأسرة قائمة ، لأن الاطفال في حاجة دائما الى سند عاطفي ورعايـة فعالة من قبل الأم والأب مجتمعين · هـذا الى أن الاسرة بطبيعتها مجتمع صغير فيه مـن الاحتكـاك والتعاون مثل ما في المجتمع الكبير ، فمن الطبيعي

أن يكون فيها خلاف في الرأي وتنازع حول الكثير من الأمور (كما أن فيها تعاونا ومحبة ، أو على الاقل مجرد محاولات من أجل تسوية المسائل بالتفاهم والمناقشة) • وبتعبير آخر ، فان التنازع كالحب هو مظهر من مظاهر التعامل العائلي •••

وتجاه هذين الرأين المتعارضين ربما يكون من الصعب أن نجد حلا نهائيا نقنع به في جميع الحالات اذ أنه ربما يكون من المستحيل أن نعثر على مبدأ يصدق في كل الاحوال • غير أننا نميل الى الاعتقاد بأنه لا يمكن لأية هيئة خيرية أو جمعية أن تعوض الاطفال عن حنان الأم وعطف الأب ، خصوصا في السنوات الخمس الأولى من حياته •

وحتى نتمكن من اعطاء فكرة واضحة عن هذه المشكلة لنفرض أن الطلاق قد تم بالفعل ، فما هو أثر هذه المشكلة على الابناء ؟ يرى بعض علماء النفس ان طلاق الوالدين يتخذ في نظر الابناء صورة أزمة خطيرة ، بينما يذهب البعض الآخر الى أن الطلاق ربما يضع حدا لموقف عائلي لا يطاق ، فلا يلبث الأبناء أن يصبحوا أسعد وأهدأ بعد انفصال أحد الزوجين عن الآخر •

ولم تلبث المشاكل حتـــى تتجدد في الأسرة اذا تزوج الوالد المطلق أم الأم المطلقة للمرة الثانية ، لأن هذا الزواج الجديد لا بد من أن يزيد الازمة صعوبة وتعقيدا بالنسبة للأطفال ، كونه ســوف يجبرهم على محاولة التكيف مع الزوجة الجديدة أو الزوج الجديد ٠ ومهما يكن الامر فان موقف الطفل من مشكلة طلاق أبويه يتوقف على عوامل كثيرة ، لعل أهمها تكوينــه النفسي ، وردود أفعال آلــه وأقربائــه نحوه ، بالاضافــة الى بعض الظروف المحيطة به (من مادية وخلافه) التي ربما تكون خارجة عن نطاق ارادته وارادة أقربائه ٠

وليس من السهل أن نقطع بما لسن الطفل من تأثير على موقفه من طــلاق أبويه ، ولكــن بعض علماء الاجتماع يعتقد أن الطفل الصغير ربمـــا لا يتذكر ما يحصل بين الأبوين من نزاع ، بينما يؤدي الطلاق حتما لدى المراهق الى احساس حاد بالنقص ، وصراع نفسي عنيف يلامس عاطفة ولائــه نحو والديه ، وشعور قوي بالخزي والعار أمام الناس ٠

وهذه الأمور مجتمعة تتوقف على حالة وأوضاع الأسرة الاجتماعية ، ونوع المعايير الاخلاقية السائدة

في المجتمع . ويرى بعض العلماء أنه عندما يصبح الطلاق حقيقة واقعة في وقت يكون فيه الابناء مثلا في المدارس العليا أو الثانوية ، فان هذه الواقعة لا بد من أن تسبب أزمة خطيرة تكتنف حياتهم . ولكن تغير نظرة بعض المجتمعات الى الطلاق ربما يؤثر على عودة الطفل أو المراهق نحو هذا الموقف ، فلم يعد أبناء المطلقين يواجهون مثل هذه المشكلات العاطفية الخطيرة التي طالما تحدث عنها علماء النفس بمزيد من التفصيل والاطناب .

وانطلاقا من هذه النظرة أصبح بعض العلماء يميل الى أن المشكلات التي يلقاها أبناء المطلقين قد لا تختلف كثيرا عن المشكلات التي تواجه غيرهم من الاطفال في الأسر العادية . بالفعل ان درجة التوتر لا بد من أن تكون أكبر لدى أبناء المطلقين ، ولكن مشكلة العلاقة بين الطفل ووالديه موجودة في كلتا الحالتين .

ورغم كل هذا فلا يمكن لأي انسان واعي أن ينكر أن النمو العاطفي لدى الطفل يتطلب نوعا من الاستقرار في الأسرة التي يعيش فيها ،وأن أي نزاع أو تصدع أو خلاف يسيطر على هذه الأسرة لا بد من أن تصيب نتائجه الحياة العاطفية للطفل .

وربما تتغير نظرة الرأي العام الى مشكلة الطلاق ، فيتضمن المجتمع للطفل عدم التعرض لذلك الاحتقار الناتج عن موقفه العائلي الخاص ، وقد نستطيع تجنيبه الكثير من المشكلات العاطفية الناتجة عن الطلاق وانفصال الأب والأم بصورة نهائية عن الاسرة ٠

ومن المؤكد أن انفصال الابوين وتفكك الاسرة يؤدي حتما الى دخول الاطفال في تجربة نفسية عسيرة لا بد من أن يمروا بها ٠ وما على المسئولين عن هؤلاء الأطفال الا تدارك الأمر ومحاولة منح هؤلاء الاطفال المزيد من الحب والعطف فعسى أن يعوضهم هذا الحب وذلك العطف عن حنان أحد الأبوين المنفصلين بواسطة الطلاق ٠

وبعد هذا العرض المفصل الشيق لمشاكل الطلاق ونتائجه على الأبناء نرى لزاما علينا أن نتلفت بهدوء واتزان الى مشكلة زواج المطلقين ، حيث يذهب بعض علماء الاجتماع الى أن الشخص المطلق قلما ينجح في تجربته الجديدة نظرا لعدم قدرته على التكيف من جديد ، وقد تساءلت احدى المطلقات يوما عن السر في فشلها المتواصل في الزواج فقالت :

لست أدري لماذا يلاحقني الحظ التعس دائما وأبدا، فلا يقع اختياري الا على الشخص الذي لا يصلح لي ولا أنسجم معه أثناء الحياة الزوجية ؟

ومن الطبيعي أن يجيب علماء النفس على هذا التساؤل فيقولون أنه نظرا لخطأ أسلوبها في الحياة ، فان هذه السيدة تجد نفسها مجبرة الى أن تكرر باستمرار خطأ واحد بعينه ٠ وهكذا نلاحظ أن المرأة التي تريد أن تؤكد نفسها سرعان ما يقع اختيارها على رجل ضعيف تجد فيه ضالتها المنشودة، فاذا ما شقيت في حياتها معه وأرادت أن تتخير رجلا آخر لم تلبث أن تعثر على مخلوقا عاجزا يحقق حبها للسيطرة ، فلا يكون زواجها الثاني سوى ترديد لخطأها السابق ٠

ويرى علماء النفس الذين عالجوا أمثال هذه المشاكل النفسية والاجتماعية أن المرأة التي تبحث أولا وبالذات عن رجل غني ، قد تتزوج رجلا بعد آخر فلا تكون حياتها سوى فشل يتبعه فشل ، لأنها لم تختار الشخصية التي ترتاح اليها بل المادة التي تطمع فيها ٠

والرجل الذي ينهد الى الاقتران بزوجة تفوقه

في الذكاء أو العلم أو المركز الاجتماعي ، لا بد من أن يكرر التجربة عدة مرات قبل أن يصيبه الفشل ويتلقى درسا قاسيا • وفي كل تلك الحالات ، كثيرا ما يوالي المطلق (أو المطلقة) تجاربه الأليمة ، دون أن ينجح في الوصول الى سر فشله المتكرر •

ويذهب علماء النفس الى أن من واجب الشخص المطلق الذي يتزوج للمرة الثانية أن يراعـي بعض القواعد ، ومن أهمها الابتعاد بصورة كليـة عن الاشارة الى الزوجة السابقة ، خصوصا عندما يتولد خلاف أو نزاع بينه وبين الزوجة الجديدة • فليس أخطر على هذا الزواج الجديد من أن يعمد الزوج الى عقد مقارنات بين الزوجة الثانيـة والزوجـة الأولى ، حتى ولو كانت تلك المقارنات في مصلحة الزوجة الجديدة •

وعلى العموم يعتبر علماء النفس الحديث أن مشكلة الطلاق هي من أعقـد المشكلات النفسيـة والاجتماعية في حياة الأسرة كونها تمس شغـاف الزوجين والأبناء والمجتمع نفسه •

واذا كان من المؤكد أن كل زواج لا يدوم هو بالضرورة زواج شاذ ، فان من غير المعقول أن نجعل

من هذا الشذوذ قاعدة نبني عليها أسس الحياة الزوجية • اذ أن لا سبيل الى تقوية روابط الأسرة الا اذا فهم الاجيال معنى قدسية الزواج ، ومثالية الرابطة الزوجية ، وضرورة التفرقة بين العوارض الغرامية العابرة وبين العلاقات الزوجية الخالدة الدائمة •

مصاعب الحياة الزوجية :

مشكلات الحياة الزوجية التي استعرضناها في هذا الكتاب من كافة جوانبها جديرة بالعناية والاستقراء ، ولكننا لم نتطرق الا بالقدر الذي اقتضاه البحث الى المصاعب التي يواجهها الزواج وتبعات الأسرة ، اذ لا بد لنا من تقديم بعض الارشادات التي أقرها بعض علماء النفس وقالوا بأنها ربما توفر السعادة والاستقرار والاطمئنان ، وتجنب الأسرة الخلاف والنزاع والتفكك •

يؤكد علماء النفس ان الزواج في سن مبكرة جدا يؤدي في أغلب الأحيان الى بذر بذور الشقاق والخلاف والمشاحنات ، لذلك فهم ينصحون بالابتعاد عنه ، ومما لا شك فيه أن الزواج عبارة عن ظاهرة طبيعية يمكن أن يقبل عليها الرجل في أي مرحلة من

مراحل حياته ، ولكن الزواج أيضا مهمـــة نفسية واجتماعية لا يستطيع أن ينهض بها الا من بلغ سن النضج النفسي والعقلي ، فأصبح في مقدوره أن يفهم معنى الاستقرار ، أو من تلقى من الاستعداد العقلي والتهيئة الجسمية ما يستطيع معه أن يواجه تبعات الحياة الزوجية بوعي وتبصر وحسن تصرف ٠

وقد يرشدنا البعض الى أن نتزوج لنتخلص من متاعبنا الجنسية وهمومنا العاطفية ، ولكن ليس الزواج هو العلاج الناجع لكافة أمراضنا النفسية أو هو الحل لجميع المشاكل الشخصية ٠ وليس هو أيضا العلاج الذي ينفع في مجال الاعراض النفسية، ولن يقدم لنا السعادة الخالصة على طبق من ذهب ٠

انما ينبغي دائما وأبدا أن نضع نصب أعيننا بأن الزواج له مشاكل كثيرة تتطلب الحل السريع قبل أن تتطور هذه الأمور التي ربما بدت بسيطة في أول الأمر ثم تطورت حتى يصعب حلها ، وعقبات الزواج الكؤود تستوجب قدرا غير قليل من النضج حتى يكـــون الزواج ناجحـــا ومفيـــدا يـــؤدي الى الاستقرار والهناء والسعادة ٠

ورغم كلما يحمله الزواج من مشاكل وصعوبات

فنحن لا ندعو الى الخوف منه أو التهرب من المسئولية كوننا نعرف حق المعرفة أنه ليس أدعى الى الفشل في الزواج من الاقدام عليه بروح التردد والخوف والفزع من المستقبل ، باعتبار أن الحياة الزوجية شأنها شأن كل تجربة تواجه الانسان في حياته ، وهي مهمة تقترن بالكثير من مظاهر المحاولة والخطأ ،ولكنها ليست بالمهمة العسيرة التي لا يتمكن الانسان من أن ينهض به الا الراسخون في علم النفس ، أو العالمون بأسرار فن الحب ٠

ومن المؤكد أن الخوف من الزواج هو المسئول في أغلب الأحيان عما قد يصيب الرجال من ضعف جنسي ٠ فالرجل الذي يشعر في أعماقه بأن الاتصال الجنسي ليس مجرد رمز للزواج ، وانما هو الزواج نفسه في صورة مصغرة ، فان عجزه الجنسي انما هو الدليل على أنه يخاف حتى رمز الزواج نفسه ، وربما يكون هذا هو السبب في أن بعض الرجال يقعون على الغالب في حب نساء متزوجات ، وكأنما بذلك يريدون أن يضمنوا لأنفسهم مقدما عواقب تجربة الزواج ، ما دام طريق الاتصال الجنسي مغلقا أمامهم في مثل هذه الحالات ٠

وينصح علماء النفس كل شخص يرغب في

الزواج وتكوين أسرة ، أن يحاول أن يواجه الواقع كما هو ، ويعمل بنشاط على أن يمزج العاطفة بالعقل • لأن أحلام الشباب مهما كانت جميلة ، وخيالات السعادة مشمة ، ولكن الشاب الذي يترك العنان لخيالاته وأحلامه ، سرعان ما يصدمه الواقع المر ، فلا يلبث أن يصاب بخيبة أمل شديدة حينما يتحقق من أنه لم يكن يحيا بين الناس وفي دنياهم ، ولم يكن يشاهد من الحياة الا خيالاتها وأحلامها •

وانطلاقا من هذه النصائح والارشادات يرى علماء النفس ان على طالب الزواج أن لا يحاول خداع نفسه أثناء الخطبة ويتوهم بأنه على استعداد للتخلي عن أسلوب حياته الماضية لكي يبدأ حياة جديدة ، بل عليه أن يتذكر دائما أن كثيرا من الزيجات قد تحطمت بسبب الخداع اللاشعوري • والوعود الكاذبة الخيالية التي يغدقها الخطيب أثناء الخطبة بقصد تضليل شريكة حياته المقبلة لن تلبث الحياة الزوجية أن تكشف عن استحالة تنفيذها لأن انعدام الامانة في مثل هذه الاحوال قد يكون لا شعوريا أو بحسن نية ، ولكن من المؤكد أن الشخصية الناضجة الواعية قلما تسمح لنفسها بأن تستسلم لعملية خداع النفس أو تضليل الذات •

ومن الأمور المؤكدة أن النجاح في الزواج ينطوي على شيء أكثر من مجرد العثور على الشخص الصالح أو الشريك الموافق ، لأنه يتطلب أن يكون الزوج أيضا شخصا صالحا أو شريكا موافقا ،وليس أسهل من أن نتهم الزواج بأنه نظام فاشل ، ولكن اذا علمنا أن الناس هم الذين يفشلون — لا الزواج نفسه — تبين لنا أن كل ما هنالك هو أن الفاشلين في حياتهم الزوجية هم الذين يحقدون على الزواج لأنه النور الساطع الذي تكوكبه الحياة على الشخصية ، فتكشف عن عيوبها للناس ، وتظهر نقائصها في ضوء النهار الساطع ٠

وفي الحقيقة أن الزواج كثيرا ما يكون مناسبة لاظهار نقائص أبناء الانسانية أو وسيلة للكشف عن بوادر ضعفهم ، فلا تحاول اتهام زوجك بالغلظة أو القسوة أو سوء النية ان هي اكتشفت فيك عيوبا لم تخطر لك على بال ، ولا تحمل على نظام الزواج لمجرد أن زوجتك لم يعجبها بعض تصرفاتك ، بل حاول دائما أن ترى نفسك من خلال نظرات شريكة عمرك ، وليس هناك ما يمنع من العمل بموجب توجيهات المرأة التي قبلتها زوجة لك ، حتى تتوصل

الى حل بعض مشاكلك النفسية ، وتصبح ناضج الشخصية .

وضع نصب عينيك أن الحياة الزوجية السعيدة هي تلك التي تقوم على ادراك الشخص لمزايا شريكه وعيوبه ، مع قبوله في الوقت نفسه لتلك العيوب باعتبارها جزءا من مقومات شخصية الشريك الذي اختاره لنفسه .

ويذهب علماء النفس أن على الزوج أن لا ينتظر أن يأتي الحب منذ بداية الحياة الزوجية حبا ناضجا مكتملا ، لأن الجانب الحسي من الحياة الزوجية ـ وخاصة بالنسبة للمرأة ـ هو في حاجة الى تهيئة طويلة وتربية دقيقة .

وليس على الزوج الا أن يحاول تلافي وقوع العبء الاكبر في التربية عليه ، فقد يتهيأ للزوجة فرصة استكمال نموها الجنسي ، فليحاول أيضا الزوج مزج الدافع الجنسي بعواطف الحنان والرفق واللطف ، مع مراعاة ما لعامل الزمن من أهمية قصوى في تحقيق الانسجام المنشود بين الطرفين ، حتى يفسح مجالا للحب أن يترعرع في ظل حياة زوجية متكاملة .

ويذهب علماء النفس الى أن الزواج بدون دافع جنسي ليس زواجا مثاليا أو زواجا طاهرا ، وانما هو ليس بزواج على الاطلاق ، باعتبار أن الملاقات الجنسية ليست سوى مظهر حسي للاتحاد الشخصي الذي يتم بين الزوجين ، ولكنها في بعض الأحيان قد تكون سببا في دعم أواصر الزوجية أو تقوية أسباب الاتحاد بين الزوجين حينما تكون بعض عوامل الضعف قد أخذت تدب في أوصال الرابطة الزوجية .

وينصح علماء النفس الزوج بأن يحاول تكييف سلوكه بما يتفق مع سلوك شريكة حياته ، اذ من المستحيل أن يتحقق الانسجام والتوافق بينهما ان لم يتنازل كل منهما عن بعض أنماطه السلوكية القديمة ، حتى يتلاقيا في منتصف الطريق . واذا كان بعض الأزواج يصر منذ البداية على الاحتفاظ بكل عاداته القديمة فانه بذلك انما يعلن عن عدم استعداده لأن يحيا حياة زوجية سعيدة تكون ركائزها التعاون المتبادل والتفاهم المشترك .

ومما لا شك فيه أن الزواج السعيد ينمو في جو عامر بالثقة والحرية والاحترام المتبادل ، فليس

أخطر على السعادة الزوجية من أن يميش الزوجان في جو قاتم من الشكوك المستمرة ، والريبة الدائمة، أو في محيط خانـق مـن الضغط المتوالي والقسر المتواصل ◦ واذا كانت الثقة لا تولد الا الثقة ، فان الريبة أيضا لا يمكن أن تولد الا الريبة والشك ◦

ويرى علماء النفس أنه على الزوجـة أن لا تنظر دائما الى زوجها على أنه انسان كامل ومثالي لأن أخطر ما يواجه الحياة الزوجية في بدايتها أن يهبط الستار عـن الشخص المحبوب فيظهـر على صورته الحقيقية ، بعد أن كان الطرف الآخر قد جعل منه مثاليا كاملا ، ولا بد من تقبل شخصيـة الشريك على ما هي عليه ، دون أن نطلب منها أن تكون صورة طبق الاصل عن شخصيتنا ◦

في الحقيقة أننا جميعـا نرى في التشابـه بين الزوجين مظهرا من مظاهر الاتحاد ، ولكن الشخص الذي يريد لزوجه أن تكون على شاكلته في كل شيء، انما هو شخص لم ينضج بعد نفسيا ، بدليل أنه كالطفل لا يستطيع أن يحب شخصا آخر غير نفسه ◦ واللباقة فعـل مـن الأفعال التي تحقـق السعادة الزوجية ، وهـي السحر الـذي ينفـذ الى أعماق

الشريك في كل لحظة ، وقول الكلمة المناسبة في الوقت المناسب ، والتصرف على النحو المقبول في كل مناسبة ، والابتعاد عن الخطأ ودوافع النزاع في كل صغيرة وكبيرة من أهم الاسباب المؤدية الى السعادة والاستقرار ∘

ويلاحظ علماء النفس أن الزوج اللبق الذي يعرف كيف يلبس لكل حال لبوسها هو أقرب الأزواج جميعا على أعتاب السعادة ∘ فان اللباقة تحقق في الحياة الزوجية ما لا يحققه المال أو الجمال لأنها الكفيلة بأن تضمن للزوجين السكينة والهدوء والاستقرار والطمأنينة ∘

ولما كانت السعادة الزوجية ليست منحة أو هبة بل هي كسبا ، فانه لا بد لضمان هذا الكسب من تعاون كل من الزوج والزوجة في سعي حثيث من أجل العمل على تحقيق أسباب التكيف ، وتجنب دواعي الخلاف والنزاع والتشاحن ، وزيادة عوامل وأسباب التوافق والانسجام ∘

ويحذر علماء النفس الزوج من خطرين شديدين يتهددان باستمرار كل سعادة زوجية : النقد اللاذع المتواصل والغيرة الحاسدة المتشككة : فالزوج الذي

لا هم له سوى البحث عن نقائص زوجه ، والاجتهاد في اظهار عيوبها أمام الناس ، والعمل على ابراز مظاهر ضعفها في مناسبة وفي غير مناسبة ، انما هو زوج أحمق يهدم عشه بيده ، والزوجة التي لا همَّ لها سوى تعقب حركات زوجها ، وتتبع أخبـــاره ، والتشكك في كل تصرفاته ، والغيرة من كل معارفه وأصدقائه ، انما هي زوجة حمقاء تدفع بزوجها الى الخيانة ، دون أن تعلم أنها هي المدانة ، فروح النقد وروح الغيرة هما السمان الخبيثـــان اللذان طالما عملا على تقطيع أوصال الأسرة وتحطيم دعائم السعادة الزوجية .

وليس أجمل وقعا على مسامع الزوجـــة مـــن ترديد كلمات الحب والهيام والاعجاب كلما سمحت الفرصة بذلك ، فان من طبيعة المرأة أن ترتاح الى عبارات الحب يوجهها لهـــا شريك حياتهـــا ، وهي أحرص ما تكون على أن تتأكد من أنها لا زالـــت الفتاة الجميلة التي استطاعت يوما أن تكسب قلب زوجها ، فلا تكتف بأن تقول في نفسك : انها تعلم أنني أحبها ، بل افصح لها عن حبك ، وبثها شوقك ، كما كنت تفعل في بداية عهدك بمعرفتها .

ان كلمة « أنا أحبك » قد تفعل أحيانا فعـــل

السحر في نفس المرأة ، خصوصا اذا اقترنت بدلائل الوفاء وامارات الاخلاص ، فلماذا تضن على زوجك بهذه الكلمة الصغيرة التي لا تكلفك كثيرا ، والتي قد تحمل في ذهن زوجك معاني تأكيد العهد وتجديد الحب ∘

ولا بد للرجل المتزوج من أن يبني حياته الزوجية على فهم عميق لسيكولوجية المرأة ، لأنه اذا عرفها وعلم أن أنوثة المرأة لا تكتمل الا بالأمومة ، فانه لن يحرم هذه الزوجة حقها الطبيعي في أن تصبح أما ، مع العلم بأن الزواج ليس مجرد اشباع جنسي ، أو توافق مزاجي ، أو انسجام عاطفي ، انما هو أيضا تعاون على تأليف أسرة جديدة ، وتضافر مشترك على تربية النسل والعمل على تنشئته وتربيته ∘

وهنا يجب لفت نظر الزوج الى عدم جعل زوجته جهازا آليا تنحصر كل مهمته في انجاب النسل وانتاج الاطفال ، بل عليه أن يحاول أن ينظم النسل بما يتوافق مع الظروف المادية والاجتماعية ، وما يضمن صحة الزوجة ∘

وينصح علماء النفس أن تكون تربية الاطفال

همّ الزوجين الاكبر في حياتهم الزوجية ، لأن المرء يكتسب أسلوب حياته في السنوات الأولى من طفولته، والطفل الذي ينشأ على الغش والكذب والتضليل ، والاخلاق السيئة ، سواء في لعبه أم في عمله أم في علاقته مع اخوته ، أو رفاقه ، لن يلبث أن يصبح في المستقبل زوجا خائنا ورجلا غادرا ومواطنا خداعا سيء السمعة والاخلاق ٠

والاستعداد للزواج انما يبدأ منذ الطفولة المبكرة ، لأن الأسرة السعيدة هي التي تنتج الاولاد والاطفال السعداء والازواج الناجحين ، ولا شك أنه اذا شب الطفل وفيا مخلصا ، يؤدي عمله بأمانة ويتعامل مع الآخرين بصراحة ، فانه لن يكون في المستقبل الا رجلا مخلصا وزوجا وفيا ، يوفر السعادة ويؤمن الاستقرار والطمأنينة لأسرته ٠

وعلى العموم وفي نهاية المطاف يمكننا أن نقول بأن السعادة الزوجية تتوقف الى حد كبير على سعادة الآباء في حياتهم الزوجية ، وسعادة الابناء في مرحلة الطفولة ، وانعدام كل صراع مع الأم ٠

وقد تأكد عن طريق التجارب التي أجراها

علماء النفس أن الأبنــاء المحرومين الأشقياء هــم الذين يصبحون فيما بعد آباء صالحين ، وأمهات فاسدات ٠ وانطلاقــا من هــذا المبدأ فان عملية التكيف والانسجام الزوجي تستلزم شروطا عديدة يرجع بعضهــا الى عوامــل بعيــدة ترتبط بحياة الزوجين في السنوات الخمس الأولى من طفولتهم ٠ ولهذا يقرر علماء النفس أن مدى مقدرة الشخص على التكيف في الزواج انمــا تتحدد منذ طفولته المبكرة ٠

« تم الكتاب »

الفهـرس

بعد أن اكتملت في سبيل موسوعة نفسية في ٢٤ كتاب أو ضمن ٦ مجلدات نقدم للقارىء العربي أسماء المواضيع وهي بالتسلسل :

١ ـ التنويم المغناطيسي
٢ ـ فصام الشخصية
٣ ـ الانهيار العصبي (الهستيريا)
٤ ـ مبادىء علم النفس
٥ ـ الاحلام
٦ ـ تغلب على القلق
٧ ـ تغلب على الخجل
٨ ـ الجنس عند فرويد
٩ ـ تغلب على الخوف
١٠ ـ الذاكرة
١١ ـ العلاقات الزوجية
١٢ ـ سيكولوجية الطفولة والمراهقة
١٣ ـ السلوك
١٤ ـ الشخصية الناجحة
١٥ ـ الإرادة
١٦ ـ الادراك
١٧ ـ الشذوذ النفسي
١٨ ـ السيكولوجية النفسية
١٩ ـ نقطة الضعف
٢٠ ـ علم النفس التربوي
٢١ ـ تطور المعالجة النفسية عبر القرون
٢٢ ـ علم النفس الحديث
٢٣ ـ الحياة الزوجية وعلم النفس
٢٤ ـ أصول علم النفس

أصول

علم النفس

في سبيل موسوعة نفسية

٢٤

أصول

علم النفس

عرض وتقديم

الدكتور مصطفى غالب

منشورات

دار ومكتبة الهلال

بيروت - ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

الادارة العامة - بيروت شارع المقداد - بناية فرحات وحجازي
ص . ب : ٥٠٠٣ / ١٥

مقدمة

حقيقة علم النفس قائمة على انتشار المعرفة بالقضايا النفسية التي تعترض كل كائن حي في حياته اليومية في هذا العصر المتطور الذي توصل فيه الانسان الى التنقل بين الكواكب والأفلاك ، معتمدا على اكتشافاته العلمية ، واختراعاته الصناعية التي شملت العديد من المناحي الصناعية الانتاجية ، التي وفرت للانسان الراحة والسعادة والطمأنينة ٠

ومما لا شك فيه بأن هذا العصر هو عصر الخبرة النفسية وغسل الأذهان والعقول من المعلومات الخاطئة ، وجعل انسان هذا العصر يتمتع بالقدرة الفائقة على التفكير وفق أسس منطقية يمكنها

التحكم بسلوك الانسان وانفعالاته في محيط مجتمعه وبيئته .

وعلم النفس في هذه الأيام أصبح ضرورة حتمية من ضروريات المجتمعات المتقدمة المتطورة ،وخاصة ما يتعلق منها بالصناعة والشركات ، والجيوش ، والوظائف الأساسية في الدولة ، ثم الهندسة الانسانية بشكلها الشامل ، التي تعتبر بحق وصدق محاولة موفقة لجعل الانسان ينسجم ويتوافق مع الآلة .

ويرى علماء النفس الحديث أن الهندسة الانسانية بشكلها الحديث تعتبر احدى المحاولات التي ساهمت فيها ارشادات علماء النفس في الصناعة ، التي تنظر الى الانسانية في صورة أكثر كفاية وفاعلية ، وتفكير مجدي ، وتأمل عميق .

والطريقة العملية التي ينهجها علم النفس العام المتطور تهدف الى دراسة الشخصية الانسانية وتحليلها وفق برامج هادفة الى معرفة ذكريات هذه الشخصية القديمة والحديثة،انسجاما مع انفعالاتها وأحاسيسها ومشاعرها ، وهذه الفكرة الجامعة المنسقة تؤدي بعلماء النفس الى أقصى درجات

التحليل والبحث والاستقصاء ، من حيث الأساس الذي تقوم عليه نظريات التحليل النفسي التي اكتشفها فرويد وطورها فيما بعد علماء لتنسجم مع العصر الذي يعيشون فيه ٠

ورغم دقة التحليل لتقلبات النفس الانسانية ، تلك النفس التي تعتبر أكثر الحقائق تقلبا وأقلها قابلية للبحث والاستقصاء ، فان فضل علماء النفس على اكتشاف أسباب الانفعالات والدوافع التي أوحت بها أوصلتنا الى نظام الذاكرة بأكمله الذي يختلف في كل فرد عنه في غيره من الأفراد ٠ لأن الافراد لا يكونون ذكرياتهم اللاوعيية حول دافع مركزي بعينه لا يتغير فيهم جميعا كالدافع الجنسي مثلا ، بل يلاحظ أن لكل فرد طريقته الخاصة التي يختار بها تجاربه من بين جميع التجارب الممكنة ٠

واذا رغب المحلل النفسي أن يعرف ويختبر أسلوب حياة شخص ما من الاشخاص ، صغيرا كان أو كبيرا ، ينبغي عليه بعد أن يستمع قليلا الى ما يشكو منه ، ثم يسأله عن ذكرياته القديمة ، ثم يوازن بين هذه الذكريات وبين ما يأتي على ذكره من الحقائق الأخرى ٠ وأسلوب الحياة كما يؤكد علماء النفس لا يتغير أبدا في معظم أجزائه ،

فالشخص الواحد يظل هو بعينه محتفظا بشخصيته وبوحدته •

ويعتقد علماء النفس ان أسلوب الحياة يتكون من طريق السعي وراء هدف للتفوق خاص ، ومن أجل ذلك يجب أن نتوقع أن تكون كل كلمة ، وأن يكون كل انفعال وكل شعور ، جزءا أساسيا من خط العمل كله ، ويكون خط العمل هذا في بعض النواحي أوضح منه في البعض الآخر ، ويحدث هذا بصورة خاصة في الذكريات القديمة •

ومن واجب المحلل النفسي أن لا يفرق بين الذكريات القديمة والحديثة ، لأن الذكريات الحديثة تنطوي هي أيضا على هدف العمل ، كما تنطوي عليه الذكريات القديمة • وايجاد هدف العمل هو مبدأ لحياة أسهل وأكثر هداية للانسان ، لأنه من السهل في ذلك الوقت أن نكشف الستار عن أهداف تحليلنا ، ويمكن أن نتأكد بأن أسلوب حياة الشخص لا يتبدل تبدلا ملحوظا •

واذا عاد المصاب بعقله وذاكرته الى ماضيه ، فمما لا شك فيه أن كل ما يتردد في ذاكرته سيكون من الأمور الهامة من ناحية الانفعالات النفسية •

وكذلك نستطيع أن نجد فيها بابا ندخل منه الى معرفة شخصيته ٠ ولا يمكننا أن ننكر أن للذكريات التي نسيت شأنا ما في أسلوب الحياة وفي المثال الاول للانسان ، ولكن من الصعب علينا في كثير من الحالات أن نعرف الذكريات المنسية أو الذكريات اللاوعيية ٠

مع العلم بأن الذكريات الوعيية واللاوعيية تشتركان في أن كليتهما تؤدي الى هدف التفوق نفسه ، وأن كليتهما جزء من المثال الاول الكامل ، ولذلك ينبغي أن نعرف الذكريات الوعيية واللاوعيية جميعا اذا وجدنا الباب مفتوحا أمامنا لهذه المعرفة ٠

في هذا الكتاب الذي استعرضنا فيه بعض الحقائق المتعلقة بعلم النفس وتطوره في هذا العصر الذي نعيش فيه ، آراء وأفكار جديرة بالمطالعة كونها تفيد كافة العاملين في الحقول النفسية ، من الطب النفسي الى التحليل النفسي ، فعسى أن نكون قمنا بواجبنا وقدمنا كل نافع ومفيد ٠

بيروت في ١٥/٣/١٩٨١

الدكتور مصطفى غالب

مرتكزات علم النفس

يمتاز علم النفس المعاصر بأنه أصبح يهتم بدراسة أحوال الانسان النفسية كاملة شاملة من كافة جوانبها ومنطلقاتها السلوكية والانفعالية ، أكثر من اهتمامه بالأمور الجزئية العقلية والنفسية لذا يمكننا أن نسميه علم شمول السلوك الانساني، التاريخي المنصرم ، والواقعي المستقبل ، ككائن مجرد مطلق يعيش في مجتمع حضاري له تأثيره الفعال على سلوك الفرد وانفعالاته واستجاباته ٠

ولا يغرب عن بالنا ما للمجتمع الحضاري من تأثير تاريخي وسلوكي يشكل العاطفة والأحاسيس والمشاعر لدى الفرد الناهد الى العيش في بوتقة أخلاقية انفعالية تنهد الى تأمين قيم ودلالات تؤثر

في الدعوة لبناء علم نفس يغوص في أعماق انسان هذا العصر المتقدم ليستخرج الامراض والاوبئة والاصابات التي تحد من نشاطه وتملأ حياته خوفا وقلقا وعدم استقرار ٠

ويمكننا أن نؤكد بأن انتشار علم النفس الواسع باعتباره علما تطبيقيا يمس الحياة اليومية للفرد المتقدم ٠ مع أن هذا العلم بمفهومه العصري لم يتجاوز المائة عام ، كما ان التحليل النفسي لا يكاد يتجاوز الخمسين عاما ٠ اذ من المعروف أيضا ان الحقائق النفسية المرتبطة بهذين العلمين لم تخرج من قاعات التجارب والبحث والاستقصاء بالجامعات والعيادات الخاصة والمخابر ، في استنتاجات العديد من الاطباء في نواحي كثيرة من بلدان العالم المتحضر ٠

لهذا وللنشاطات التي يقوم بها علماء النفس في هذا العصر في كافة المجالات النفسية يمكننا أن نسمي هذا العصر بأنه عصر علم النفس والتحليل النفسي كما هو عصر الكيمياء أو بالأحرى القنبلة الذرية بأنواعها وأشكالها وأفعالها التي أعطت نتائج باهرة في كافة المناحي والمجالات ٠

ولكن العلماء الذين اختصوا ومارسوا علم

النفس قد لفتهم دوامة من التعقيد والغموض نتيجة أفعالهم وتجاربهم واستنتاجاتهم ، وهم بذلك ينهدون على الغالب الى تحقيق مصلحتهم الذاتية الخاصة ٠

وهذا ظاهر واضح من خلال المعلومات التي تنشر عنهم في أجهزة الاعلام وتحيطهم بهالة ضخمة مفتعلة سواء كانت صحيحة أو باطلة ، مما أثر في فهم الشعوب لمفاهيم ومنطلقات علم النفس المعاصر ومقاصده العلمية ، حتى أن المعلومات التي تكونت عند الغالبية العظمى من الشعوب أصبحت مع الأسف الشديد لا تنسجم مع واقع علم النفس الحقيقي ، لما تجمع فيها من معلومات ومعارف خاطئة بعيدة تمام البعد عن الحقيقة والواقع ٠

ولا نستغرب اذا وجدنا علماء النفس قد لمسوا لدى مرضاهم سوء فهم وادراك يعرقلان معاملتهم وعلاجهم لعدة أشهر ، أو بالأحرى لبضع سنوات ٠ وكذلك لاحظ أساتذة علم النفس في الجامعات أنه من الضروري عند استقبال طلاب جدد في موسم جديد غسل أذهانهم وعقولهم من المعلومات الخاطئة قبل القيام بالقاء محاضراتهم حتى يكون لهذه المحاضرات أثر انشائي فكري عقلاني بناء ٠

وقد يكون أسيء فهم علم النفس كونه أصبح شائعا ومنتشرا على هذه الصورة بين الجماهير . باعتباره يتناول موضوعات يعتقد الناس بصورة دائمة أنهم على علم ومعرفة تامة بها • لأن الرجل العادي لا يتردد أو يتأخر عندما يتعلق الموضوع بأحكام يصدرها على الطبيعة الانسانية وشذوذها بل يصل الأمر به الى ستر هذه الحقائق بسهولة دون أن يعيرها أي اهتمام •

فالحكم القديمة المتوارثة والامثلة العامة مثل قولهم : « اذهب الى النوم مبكرا » أو « يجب أن تعمل باستمرار اذ ليس هناك وقت للعب لأن الحياة قصيرة » و « ما زالت المياه تجري في المناطق المنخفضة » •

فهذه الحكم والامثال التي أخذناها عن الأجداد وأجداد الاجداد ، تشكل في الواقع مجموعة من المتناقضات الواضحة ، يجد خبراء علم النفس ، والطب النفسي ، والتحليل النفسي معا في هذه المنطقة التي تحددها تلك الحكم المتوارثة ، ولكن تفسيرهم لما تهدف اليه هذه الحكم الاختلاف فيه ظاهر بيِّن ، لأن كل منهم يفسره في مجاله الخاص به •

ان خبير علم النفس مثلا يحاول أن يفهم بطريقة علمية كيف يرى ويسمع الناس ؟ ولهذا فان اهتمامه يختلط بمهمة العالم الفسيولوجي ، الذي يحاول هو كذلك البحث عن كيفية تعلم الأفراد وكيف يشعرون ويعبرون عن مشاعرهم ، وكيف يتعاملون في سلوكهم أو لا يتعاملون مع الآخرين ٠ وهنا يتقابل الاخصائي النفسي مع الاخصائي الاجتماعي ٠

ويرى بعض المتتبعين لهذه المشاكل ان الاخصائي النفسي الذي كان في يوم من الأيام يشتغل في البحوث العلمية والتدريس في الجامعات ، بدأ في استخدام المناهج العلمية في ملاحظة وقياس السلوك الانساني ثم عمل على تثقيف الآخرين بهذه المعارف ٠ وهناك من علماء النفس من اهتم بالعلم من حيث حقائقه ونظرياته حيث كشف الكثيرون منهم عن أسرار علم النفس التطبيقي وذلك في محاولتهم استخدام معارف علم النفس لمساعدة الناس في أن يعيشوا حياة سعيدة وأفضل وذات فعالية أكبر ، وقد يعمل البعض منهم مثلا في توجيه الشباب لاختيار مهنتهم وهواياتهم ، أو تقديم توصياتهم لرجال الاعمال في كيفية توفير ظروف العمل لموظفيهم وعمالهم ٠

والى جانب هؤلاء يوجد العديد من الاخصائيين

النفسيين يعملون بعلم النفس الاكلينيكي ، ويحاولون مساعدة المصابين بالمشاكل الانفعالية أو سوء انسجام الشخصية • وكذلك نرى بعض الأطباء يهتمون بسيكولوجية الانسان ، ويحاولون دراسة ومعالجة الأفراد الذين قد أصابهم المرض •

ويعد الطبيب النفسي متخصصا في علاج الذهان ، كما يعالج الاضطرابات الاقل حدة والتي تعرف بالعصاب • ويمارس كذلك خبراء الطب النفسي نشاطهم في المستشفيات العامة والخاصة • ويفتح أغلب هؤلاء الأطباء عيادات خاصة يعالجون فيها مرضاهم الذين لا تستدعي حالتهم الاقامة في مستشفى عام • ويعتبر خبير التحليل النفسي نوعا من خبراء الطب النفسي ، فهو كذلك طبيب يعالج المرضى بالأمراض العقلية ويستخدمون في هذا السبيل نماذج خاصة من العلاج الذي سبق واكتشفه استاذهم فرويد وطوره •

وربما يقضي المحلل النفسي ساعات طويلة ليستمع الى مريضه ويناقش أحداث ماضيه وحاضر حياته وأحلامه ـ بما فيها أحلام اليقظة ـ حتى يستخلص في النهاية أنماط المشاكل « اللاشعورية »

الخفية لديه وتبرز الى درجة يمكن معها استئصالها والقضاء عليها ٠

ويبدو في هذه الأيام أن العديدين من علماء النفس أخذوا يستخدمون المصطلحات النفسية مثل : المنبسط ، المنطوي ، التوتر ، التصعيد ، والسيكوماتي ٠٠٠ وهناك من يتحدث حول تصرفات الزوجة مع الزوج ، وعن التعامل مع الأولاد ، ورؤساء العمل ، وعن الاتجاهات والهوايات ، والانفعالات والاستجابات السلوكية في المجتمع الذي نعيش فيه ٠

ومع مرور الايام غزا الطب النفسي ، والمعالجة النفسية ، والتحليل النفسي كافة المجتمعات المتحضرة ، وأصبح الطبيب النفسي صورة مألوفة لدى الجماهير وبصورة خاصة بعد أن أصبح شخصية بارزة في عالم الدعاية ، وامتلأت كافة المرافق بشخصية الطبيب النفسي الذي يحاول معالجة بعض المصابين بالأمراض العقلية ، أو المدمنين على المشروبات الكحولية ٠

وقد يتساءل المرء عن أسباب هذا الغزو النفسي للمجتمعات المتحضرة ، فيجيب على هذا السؤال

بعض المهتمين بالمعارف النفسية فيقول : « من المعروف أولا أن هناك كثيرا من الأفراد لا يعطون علم النفس حقه من التقدير والاحترام ، وهو ذلك العلم الذي يبحث عن معتقدات الفرد عن نفسه ومجتمعه ٠

ويمكن لهذا العلم أن يزدهر في دولة تسلطية ديكتاتورية أو في دولة تدعمت فيها أفكار الاهتمام بالفرد والحرية الفردية ٠ ويفترض هذا العلم وبخاصة بالنسبة لتطبيقاته العملية عن قياس الاستعدادات أو في مجال الهندسة الانسانية أن الرجال جميعا ما هم الا بشر يستحقون الاهتمام والدراسة ، وهذا الاتجاه بالطبع رفاهية علمية ويحتاج الى مستوى عال من الحياة لكي يسانده ٠

ويتفق هذا الاتجاه مع ظاهرة التفاؤل العام التي توجد في المجتمعات المتحضرة ، وبخاصة في جوانبه العلاجية التي تعتمد على مسلمة قوامها أنه يمكن تحقيق شيء ما تجاه الامراض العقلية أو الحزن الانساني بصفة عامة ٠ ويتخذ علم النفس موقفا متسامحا وطيبا تجاه الاطفال الذين يعتبرون مشكلة عارضة في الثقافة الاجتماعية » ٠

ويرى بعض علماء الطب النفسي سببا آخر للاقبال على خدماتهم للمجتمعات المتطورة ، ويعتقدون أن السبب في ذلك يكمن في الثورة الجنسية التي ظهرت في السنين الاخيرة ° وتنسب هذه الثورة عادة الى التحليل النفسي ، الا أن ذلك يعد من الاخطاء الشائعة التي تكثر في هذا المجال °

ان المحللين النفسيين لا يدعون الى الاباحية الجنسية ، وعادة ما يتخذون موقفا غير مشجع تجاه ظاهرة الطلاق ° ولقد كان فرويد نفسه جامدا في هذا المجال ، بل انه من الطبقة المتوسطة التي تكتفي بزوجة واحدة ، واعتبر قصة « توم جونز » التي انتشرت في القرن الثامن عشر حادثة لحياته °وعمل خلفاء فرويد من بعده على أن يكونوا في حلقة معينة بالنسبة للمستويات الخلقية بقدر ما هم عليه من غموض بالنسبة لأفكارهم النظرية ° ولا توجد صلة بين هؤلاء وبين الثورة الجنسية ، وهي الثورة التي أكدت دراسات عديدة وجودها قبل ظهور علماء النفس في المجتمعات الاميركية والأوروبية ° ويشعر علماء النفس غالبا ان الامراض النفسية التي يعاني منها مرضاهم لا تعود الى الصراعات والفوضى التي خلفتها هذه الثورة الجنسية °

ومما لا شك فيه ان الامراض النفسية ،وخاصة الذهنية والعقلية منها لا تزال من المشاكل الكبرى في الحياة الاجتماعية المتطورة في كافة أنحاء العالم ، وغالبا ما نعثر على الدليل لدى كل فرد حين تغلق أبواب المصحات العقلية وراء صديق عزيز عليه أو شريك أعمال له ، أو زوجته ، أو أحد أطفاله وأولاده ، أو صبية حسناء كانت تجاورنا في المسكن ، ويستدل من أحدث الاحصاءات التي جرت في أميركا أن حوالي مليون وربع فرد قد دخلوا المستشفيات الاميركية ، كان حوالي ٧٥٠ منهم قد دخلوا المصحات العقلية ٠

وهذا الرقم كما يقول العالم النفسي هافمان يقص علينا الحكاية الاليمة،اذ لا توجد المستشفيات الكافية أو الأسرة الكافية لاستيعاب مرضى الامراض العقلية ٠ اذ تبين أن حوالي ٣٠٠ ألف مريض يحتاجون الى العلاج لا يجدون مكانا لهم في المصحات العقلية ٠

ونلاحظ بالاضافة الى ذلك أن المرض العقلي والاضطرابات في الشخصية يلعبان دورا كبيرا في وقائع الانتحار والجرائم وجنوح الأحداث وتعاطي المخدرات ومشكلة الادمان على المشروبات الروحية ٠

وقد جاء في احدى الدراسات المتخصصة التي قامت بها احدى الدوائر الامريكية ان مشكلة الادمان على المشروبات الروحية تصيب ٣ر٨ مليون امريكي في الوقت الحاضر ، وعند قيام الاطباء النفسيين بدراسة هذه المشاكل المتعددة الجوانب لا يسعهم سوى الدهشة والتساؤل تجاه اهتمام الرأي العام ببعض الامراض الاخرى مثل اضطراب النمو العضلي (١٠٠ ألف مريض في الولايات المتحدة) ومرض شلل الاطفال (٣٨ ألف حالة في العام) ٠

ولا يوجد هناك تقدير يتفق مع الحقيقة بالنسبة للعصابيين ، وهم المصابون بمرض يعتبر أخف نمط من أنماط الاضطراب العقلي ، والذي يجعل الكثيرين في حالة بائسة معوقة دون أن تخلع عنهم بالضرورة الاهلية اللازمة للعمل اليومي ٠

ويعتقد أغلب المحللين النفسيين تحفظا أن ثلث البالغين من الجنسين مصابون بالعصاب ٠ وهناك فريق منهم يرون أن كل فرد عصابي ما عدا أولئك الذين حصلوا على تحليل نفسي كاف ٠ ويعتمد ذلك بصورة كبيرة على تعريف العصاب ، وهو الامر

الذي من الصعب الوصول اليه ، فلا يوجد خبيران متفقان على أسباب العصاب ودرجاته ٠

ويمكن تعريف العصابي بصفة عامة بأنه ذلك الذي يعاني من قلق شديد أو مخاوف لا مبرر لها ٠ وقد تكون أعراض هذا المرض متعددة مثل : التوتر ، الاكتئاب ، الأرق ، السبات العميق ، الخوف من الازدحام،أو الخوف من ركوب الطائرات والسيارات ، أو الخوف من الأماكن المزدحمة ٠

وعندما كان الرجل العادي يتحدث عن « الانطواء » و « عقدة النقص » ، كان العصابي يعتبر عصبيا ٠ واذا ما انهار الفرد تحت الضغوط الحياتية التي تقع عليه يقال : انه قد أصيب « بانهيار عصبي » ٠ ولكن هذا النوع من المرضى يؤلفون جزءا من المشكلة ٠ ولن يلقى مرضى العصاب الاعتراف الا من بعض الخبراء في هذا المجال حتى في أيام العصر الذهبي لعلم النفس ٠

ويلاحظ من خلال تتبعنا لأفكار ونظريات علماء النفس أن هؤلاء العلماء يعتقدون أن المدنية المتطورة المتقدمة هي السبب الرئيسي لهذه المشاكل

النفسية التي تفشت في مجتمعاتنا الحديثة ، وان العقل الانساني أصبح غير قادر على الانسجام مع الضجة والسرعة وتعقيد الحياة العصرية بصورة خاصة حيث تتوفر حرية الحركة ويواجه الفرد كل يوم عيوب هذه الحرية فيخضع مرغما لتلك الضغوط القوية التي تزداد يوما بعد يوم ٠

واذا ما لمسنا بالفعل ما للمدنية من ضغوط فان بعض الخبراء يعتقدون ان هذه الضغوط لا تؤدي حتما الى الاضطراب أو الشذوذ والانحراف الذي يواجه الفرد ٠ واذا ما عدنا أدراجنا الى الوقت الذي ظهر فيه العلاج النفساني والطب النفسي بصورته الحديثة وذلك في حوالي سنة ١٨٠٠ ميلادية ، وجدنا أنه كان يعمل على مداواة المشاكل العقلية باعتبارها أمراضا عضوية أو عملا من أعمال الشيطان أو رغبة ارادية من المريض بالسلوك المنحرف ٠

ولم تحرز معالجة الهذاء أو الشذوذ في أول الامر نجاحا ملحوظا ، لأن العمل في هذا المجال لم يكن موفقا بصورة كاملة وشاملة ، كما أن العديد من الاطباء كانوا يبتعدون طواعية واختيارا عن

هذا التخصص التقليدي الذي يتطور بصورة بطيئة للغاية ۰

ولم يكن للطبيب النفسي شهرة كبيرة أو تأثير كبير بين الأفراد ، حتى جاء فرويد وطلع على العالم بنظرية التحليل النفسي التي طورها ونماها بعد دراسة وتجارب على مرضى العصاب ومشاكلهم ، وخاصة أولئك الذين كانوا يترددون على عيادته ۰ ولفتت نظرية فرويد في التحليل أنظار الاطباء بصورة خاصة تدريجية حتى أصبحت موضع نقاش بين المثقفين في العالم لمدة ربع قرن من الزمن ۰

وعرضت نظريات فرويد الاساسية على الجماهير ، الامر الذي أعطاها زخما قويا في مضمار الشهرة والانتشار ۰ ومنذ ذلك الوقت أصبح للتحليل النفسي تأثير خاص على من يشرفون على وسائل الاتصال في المجتمعات الراقية ، سواء أكانوا من الأدباء أم من الكتاب ، أو من الفنانين ۰

ولما أطلت الحرب العالمية الأولى بوجهها الكالح بدأ العالم يهتم بقيمة الاختصاصي النفسي ، وذلك عندما اكتشف ان هذا الاختصاصي يمكنه أن يقوم

بالمعجزات ، حيث استطاع قياس ذكاء المجندين ومدى استعدادهم للتعليم ٠

وفي عام ١٩٢٠ بلغ عدد المشتركين في الجمعية الامريكية لعلم النفس ٤٠٠ عضو بين رجل وامرأة كان أكثرهم يقومون بالتدريس في الجامعات ٠ وفي عام ١٩٤٠ زاد عدد هؤلاء الى ٣٠٠٠ عضو حيث ترك أغلبهم الجامعة للعمل في مجالات علم النفس التطبيقي ٠

وهكذا سجل علم النفس دفعة كبيرة الى الامام خلال الحرب العالمية الثانية عندما طلبت حكومة الولايات المتحدة من علماء النفس الاجابة على عديد من مشاكل البحوث والدراسات التي توجد تحت التجربة بما في ذلك مشاكل التدريب والدعاية ٠

ولما كانت الحوكمات عازمة على دفع نفقات التجارب العملية وتدريب اخصائيين في علم النفس فقد وجد هذا العلم مجالا واسعا للانتشار ٠ واليوم نلاحظ أن عدد أعضاء جمعية علم النفس الامريكي قد بلغ ١٦٠٠ عضو ، ويعمل نصف هؤلاء في

التدريب والنصف الآخر يتنقل بين الانشطة الاجتماعية الأخر : فمنهم من يعمل بفعالية كخبراء في الصناعة ومستشارين في الجامعات ، واداريين قادرين في أقسام العمالة التابعة للدولة ، ومشرفين على صياغة الاختبارات النفسية وتطبيقها في الجيش ، ومستشارين في مشاكل التربية في المدارس الحكومية والخاصة ، ومشرفين على عمليات قياس الرأي العام ، ومتخصصين في علاج الامراض العقلية في المصحات والمستشفيات ٠

ولا تزال تثار من وقت لآخر مناقشات ومناظرات حادة بين الاخصائيين النفسيين ، والمحللين النفسيين والاطباء النفسيين من غير التحليليين ، وربما يتذكر طلاب الجامعات أن أي كتاب في علم النفس كان في السابق لا يهتم بالتحليل النفسي كما يجب ، الذي كان علما لا تثبته التجارب المخبرية ، وتعوزه المكانة الحقيقية في مضمار العلم ٠

وكان علماء التحليل النفسي يعتبرون رجال علم النفس خبراء ذلك العلم الواضح السهل ذو الجوانب السطحية للشخصية الانسانية ٠ ولم يكن هناك ما يربط بين رجال علم النفس ورجال

التحليل النفسي في تلك الأيام سوى استخفافهم المشترك لكل ما لا يعد محللا نفسيا •

وكان رجال علم النفس والتحليل النفسي يعتقدون بضرورة معاملة الامراض العقلية على أساس وظيفي بالدرجة الأولى ، وهذا يعني أن المشكلة ترتبط بخليط من العمليات والضغوط العقلية التي يجوز ألا يمكن الكشف عنها عن طريق الحوار الدائر بين المصاب والخبير •

ويميل كثير من الاطباء النفسيين غير التحليليين من جهة أخرى الى الاعتقاد بأن الانحرافات العقلية ربما ارتبطت في يوم من الايام بالعوامل الفيزيقية التي سيكون في الامكان علاجها بواسطة جرعة من دواء معين مثلها في ذلك مثل علاج بعض الامراض الخطيرة (كالزهري والسل) التي يمكن مداواتها بالبنسلين •

وكان خبراء الطب النفسي من غير المحللين مسئولين في الماضي عن انتشار هذه الآراء والتكنيكات كالجراحة في الفص الأمامي من المخ وطريقة الصدمة الكهربائية ـ وما زالوا يعتقدون حتى اليوم في الاستخدام الواسع للعقاقير المهدئة •

ولا تزال هذه الجدران الزائفة ترسل من حين لآخر بريقا لامعا ، الا أنها ليست بالقدر الذي كان لها في الماضي . وباستثناء بعض الحالات الخاصة نجد أنه لا توجد هناك مجالات حول مدارس لعلم النفس أو الطب النفسي ، وان أكثرية العاملين في هذه الحقول يتحركــون بصورة تقريبية في نفس الاتجاه .

ولقد أصبح مــن الأمــور الروتينية في أكثــر المستشفيات اليوم أن يعمل الطبيب النفســي أو المحلل النفسي مــع الاخصائي النفسي في عــلاج مريض واحد وذلك مع الباحث الاجتماعي الــذي يشكل على الغالب المحور الثالث في هذا الفريق .

ونلاحظ عندما نلقي نظرة سريعة على هــذه التطورات في مجال علم النفس أن الطب النفسي وعلم النفس قد وصلا بصورة عامة بعد أن أصاب كل منهما أجدادنا بصدمة كبيرة وأثار عداء ونقمة الفلاسفة ـ الى درجة من التطور أكسبتهما الاحترام والتقدير . ولقد كان من المستحيل التقريب بين أفكار التحليل النفسي والافكار الدينية في حيــاة فرويد ، لأنه كان يعتقد أن الطقوس الدينية ما هي الا مظاهر عصابية .

ولكن نجد اليوم أن المحللين النفسيين أكثر اعتدالا من فرويد في آرائهم ، بل هم في أغلب الأحيان متدينون ٠ وبمقدورنا أن نقول : ان نمط السلوك الانساني الذي يدعو اليه المحلل النفسي يؤلف عودة الحياة الى المباديء الدينية التي تناساها البشر وهي الأمانة والتواضع واتباع القاعدة التي تحث على فعل الخير والابتعاد عن الشرور ٠

منطلقات نفسية حول السمع والرؤية والكلام :

منذ عهود الفلاسفة الاغريق والنقاش لا يزال متواصلا حول السؤال التقليدي: كيف نرى ؟ وكيف نسمع ؟ وكيف نشعر ونتذوق ؟ وكاد بعض هؤلاء الفلاسفة أن يعطينا الجواب الصحيح فذهب الى أن الاشياء جميعها ترسل نوعا من المادة غير المنظورة التي تتسرب الى جوانبنا وتفرض نفسها على عقولنا ٠

ولكن الفلاسفة الذين جاؤوا بعد هذه الفترة وحتى عصرنا الذي نعيش فيه لم تتوفر لديهم الوسيلة المناسبة التي يمكن بواسطتها معرفة الخطأ من الصواب ٠ لأن منهجهم كان يقضي بضرورة التأمل والتفكير ، فيما اذا كانت تلك الاشجار وهذه

الجداول التي نشاهدها حقيقة أم خيالا ؟ وهل هي شيء نتصوره ونخمنه ؟ وهل يبدو العالم لشخصين مختلفين متشابها ؟ وهل اذا سقطت شجرة على الارض دون أن يشاهدها أحد يكون لها صوت ؟

هذه الأسئلة وما شابهها كانت موضع جدل ونقاش استمرت فترة طويلة ولا يزال أوارها مشتعلا هذه الايام دون أن يصل فيها أحد من الفلاسفة الى قرار يكشف فيه عن منطلقاتها النفسية والعقلانية والانفعالية السلوكية ، ذلك لأن كل فيلسوف كان حرا في انتقاء اجاباته ومناقشة الأسئلة وفق الطريقة التي تناسبه وتشبع ميوله ورغبته الكامنة في أعماقه ٠

ولما شرع علماء النفس باستخدام الأساليب والمنطلقات العلمية كان من الطبيعي أن يوجهوا اهتمامهم الى ذلك السر القديم عن كيفية انطباعات الانسان في عالمه الخارجي ٠ وكانت سيكولوجية الحس والشعور منذ حوالي مائة عام أحد مجالات الدراسة والبحث والتجارب وما زال هذا المجال من الميادين التي يحصل منها علماء النفس على أفضل النتائج العرفانية ٠

ومما لا شـك فيه ان سيكولوجيـة الحس أو الشعور أضحت في هذا العصر الى جانب سيكولوجية التعليم ، مـن المواد المفضلـة للدراسة في كافـة الجامعات العالمية ، لأنها تعتبر الخطوة الأولى التي يقطعها الدارس لفهم تاريخ علم النفس والطـب النفسي معا ٠

ويبدو من خلال الدراسات والابحاث النفسية التـي ظهـرت في هـذا العصر ان علمـاء النفس المعاصرون قد امتازوا عـن زملائهم السابقين في أنهم قد دخلوا المختبر النفسي للبحث والتفتيش عن حقيقة هـذا العلـم ، حيـث استنبطوا مشاكـل الاحساس الذوقي ، وبحثوا بشكل تجريبي عـن مدى حساسية لسان الانسان ، فوجدوا أن أطراف الاعصاب هي التي يتم بهـا التذوق ، وهي التي تجعل اللسان خشنا بحيث لا تكون له صفة الحساسية المطلقة بالمرة ٠

ويمكن لهذه الاعصاب التي بمقدورها التمييز بين أربعـة أنواع من المـذاق فقط ، وهي التي نسميها : الحلو والمر واللاذع والمالح ٠ وظهر أن كل ما نعتقد في أنه يتصل بالمذاق ما هو الا متصل

بالرائحة ، والدليل على ذلك عدم وجود مذاق للطعام عندما يصاب الفرد بالزكام أو بالبرد الشديد • وعمل علماء النفس بالنسبة للرائحة على اجراء القياسات بطريقة تخدم بها التكنيكات التي يبتعونها • لقد عرفوا على يد الفسيولوجيين أن نهاية أعصاب الحساسية للرائحة تكمن في فتحات الأنف من الداخل على مستوى يوجد في أسفل العينين •

وعندما يحاول الانسان أن يتحسس رائحة قوية فانه يقربها من أنفه ثم يستنشق الرائحة بقوة • ولكن ما هو القدر اللازم للاستنشاق ؟ وكيف يمكن لشخصين أن يستنشقا الرائحة بنفس القدر ؟ وحتى يتوصل علماء النفس الى قياسات غاية في الدقة استخدموا زجاجة ضغط مجهزة بقطع للأنف تدفع بواسطتها نحو أعصاب الشم كمية من البخار ، مخلوطة بالمادة الموضوعة تحت التجربة بتركيز معين معروف • وقد وضعت العينة من الاشخاص في غرف زجاجية يمكن فيها السيطرة على المادة المركزة التي يتعرضون لها •

هذا هو الفرق الاساسي الواضح بين علم

النفس المعاصر والمحاولات التجريبية الأولى التي أجراها الانسان لمعرفة ذاتـه عن طريق التأمـل والخلوة مع النفس في أي مكان منعزل • والـذي نعلمه من خلال تجارب علماء النفس ، وعلمـاء الطـب النفسي ، وعلمـاء الفسيـولوجيـا ، أن احساساتنا تعتمد على أطراف الاعصاب التي تنفعل مع أي منبه فيزيقي من العالم الخارجي •

وربما يكون هذا المنبه صوتا أو ضـوءا أو موجات حارة أو باردة تمر خلال الهواء ، أو شظية قنبلة أو قذيفة أو رصاصة في مهب الريح • ومن الثابت أن للحواس كفاية مدهشة ، حيـث لاحظ علماء النفس مثلا أن الأنف يستطيع أن يكتشـف رائحة عطرة مختلطـة في الهواء بنسبـة جزء الى ٣٢٫٢٥٠ مليون جزء من الهواء • ويمكن للعين أن تميز ما يقدر بمليون درجة من الظلال وكثافة الألوان • وكذلك بمقدور العين أن تتكيف مـع الظلام وتكتسب حساسية بصورة كبيرة لأي قدر من الضوء ، كما تستطيع في الليالي المظلمة أن ترى لمسافة خمسين ميلا •

وهذه التجارب المخبرية أظهرت سيكولوجيـة

الحواس التي تؤكد أن للعين قوة تمييز واضحة بجانب حساسيتها الكبيرة : الامر الذي يؤلف قاعدة هامة تثير الاستغراب ° وربما يعلم كل طالب في مدرسته في هذه الايام المتقدمة أن للعين عدسة تعمل كما تعمل عدسات آلات التصوير °

وأن كل انسان يستخدم آلة تصوير ذات خلفية من الزجاج ، يعرف أن عدسة آلة التصدير تقلب الصورة رأسا على عقب وتنقل اليمين الى اليسار ° وهكذا فان العين البشرية تعكس الصور رأسا على عقب ، ولكن هذا الوضع المعكوس للصور لا يؤدي الى أي استغراب أو حيرة ، كوننا نظل نلاحظ الأشياء في وضعها الطبيعي كما هي °

ان الحواس الانسانية لها علاقة كبيرة بهذا الامر بصورة تزيد على الكفاية الفيزيقية ، اذ أنها تعمل بطريقة يمكن القول عليها : أنها طريقة ذات معنى ° ومن الثابت أن انطباعاتنا عن العالم الخارجي يمنح لنا صورة مستقيمة للاشياء وترتبط هذه الانطباعات كل منها مع الاخرى وتشكل أنماطا لها معنى °

ويعتقد علماء النفس أن الانسان عندما يسير

في الطريق تقع كل صورة تصل الى العينين على الشبكية ما دامت هذه الشبكية تتحرك أيضا ٠ ولكن هذا الانسان لا يشاهد ما يحيط به من مبان ومخازن تتخذ مراكز متغيرة ، انما يراها وكأنه يذهب اليها للتعرف عليها ٠ ومن ناحية أخرى اذا كان الانسان في قطار ولا يشاهد من النافذة شيئا سوى قطار آخر يتحرك ، فانه يعتقد أنه يتحرك لأن ذلك هو الذي يحدث عادة للقطار ٠

وفي بعض الأحيان تسقط صورة باب مربع الشكل على الشبكية مهزوزة ومنحرفة وذلك بفعل زاوية النظر ٠ وعندما نشاهد شاشة التليفزيون لأول مرة ندرك أن الصور التي عليها مستطيلة ، ولكنها تعود بعد ذلك الى حالتها الطبيعية ٠ وهكذا نعثر على قاعدة مقنعة تعني أن الصور التي نشاهدها منتظمة الشكل ٠

وهذه التجربة تقدم لنا مثالا عن كيفية أن انطباعاتنا الحسية تتأثر بمجموع ما لدينا من معارف ومعلومات ٠ يقوم شخص بقطع بعض عناوين الصحف أو المجلات بحيث تكون جميعها بحجم واحد ٠ ويسير هذا الشخص أمامك بعد أن

يبرز من حين لآخر أحد هذه العناوين ويبتعد حتى يصل الى أقصى نقطة تستطيع فيها قراءة العنوان من بعيد .

وفي كل مرة يعرض فيها هذه العناوين يبعدها مباشرة حتى لا تتأثر معارفك بما يقوله .وعندما يصل الى حد الرؤيا بالنسبة لك ويعرض أحد عناوين الصحف أو المجلات التي لا تستطيع فيها رؤيتها يقوم بقراءتها ثم يعرضها عليك مرة أخرى وهو في مكانه . وهنا تجد أنك تستطيع قراءتها وتتعجب من أنك لم تستطع ذلك من قبل. وهناك ظاهرة مشابهة عكسية تصادف كل شخص خلال حياته اليومية .

فنحن نرى من بعيد وجها نعتقد أنه وجه صديق نعرفه ونجزم أننا نراه فعلا ، ولكن عندما نقترب من صاحب الوجه نجده شخصا غريبا عنا بالمرة . وقد نرى كلبا يرقد ميتا في الطريق ، وعندما نقترب منه نجد أنه ليس كلبا انما هو قطعة ثياب قديمة . وفي مثل هذه الحالات تخدعنا عيوننا ولكنها في الوقت نفسه تبذل جهدا مستمرا في جعل الصور التي نراها ذات معنى .

وينشغل علماء النفس بلعبة تعرف بالسمع الكاذب ، وهي عبارة عن سماعتين صنعتا خصيصا ، بحيث اذا ما وصلت الاصوات الى الأذن اليمنى والعكس صحيح • وبما أن قدرتنا على تمييز وتحديد اتجاه الصوت تعتمد على الأذن التي تلمسها موجاته أولا ، فان الانسان يعتقد أن « السمع الكاذب » سوف يعطي له شعورا زائفا تماما للاتجاه ، وفعلا يتحقق ذلك لمدة حيث أننا نرى سيارة تمر من اليسار الى اليمين عندما نسمع الصوت قادما من اليمين الى اليسار •

ولكن بعد فترة من الزمن عند استخدام هذه السماعات نجد أنها تفقد قدرتها على التضليل ، اذ أن جهاز الحس يتأقلم معها • وقام علماء النفس بتجارب أيضا استخدمت فيها عدسات منظار السباق التي تعكس الأشعة التي تدخل العين بحيث تسقط الصور على الشبكية بشكلها المعتاد بدلا من سقوطها بالمقلوب ، الشمال جهة اليمين والعكس •

وفي أول الأمر كان من يستخدم هذه النظارات يصاب بالفزع ، ويمر بفترة صعبة حتى لا يسقط على مقعده أو يعتمد الى الحائط • وبعد عدة أيام يصبح الوجود بالنسبة اليه عاديا مستقيما ويتمكن

من التحرك آليا في الاتجاه الصحيح على الرغم من أنه لا يرى الاشياء معتدلة من خلال نظارته ٠

ومن المؤكد أن حواسنا سليمة ، ولكن أعيننا ترى فقط جزءا من المدى الكلي لأطوال الموجات الضوئية ، فهناك مثلا ورقـا حساسا للتصويـر بالأشعة تحت الحمراء ، يمكن له أن يحصل على صور لا تستطيع رؤيتها بالعين المجردة ٠ ولا تستطيع أذننا أن تسمع جميع الاصوات ، فالكلب يرد على صفير الهدوء الذي يسجل ربع القدر اللازم للصوت الذي تستطيع أذن الانسان أن تضبطه ٠ ولكثير من الأسماك مناطق للتذوق على أجسادها ، لها حساسية على مسافات بعيدة تزيد على حساسية الانسان على التذوق ٠

وفي تحليل آخر يقول علماء النفس : ان الحواس ربما تكون معيبة ، ذلك لأنها لا تميل بصورة كافية لضبط الطبيعة الحقيقيـة للأمور ، فنحن نـرى ونشعر مثلا بالمنضدة الصلبة على الرغم من أننا نعرف أن الفيزيقيين يؤكدون أن المنضدة مكونة من عدة الكترونات دقيقة تدور في حركة مستمرة ، وبين كل الكترون وآخر يوجد فراغ واضـح ٠

ولأسباب علمية نلاحظ أن حواسنا تقوم بعمل رائع اذ أنها تبلغنا ما نحن في حاجة الى معرفته ◦

وكانت هذه النتيجة التي وصل اليها علماء النفس الذين سجلوا تقدما وتطورا في الميادين الأخرى لعلم النفس ، باعتبار أن التعليم من أهم الميادين التي حازت على اهتمام علماء النفس ، وما زال هذا الاهتمام حتى هذه الأيام ، كون التعليم حسب اعتقادهم هو مفتاح دراسة السلوك البشري ◦

لأن الانسان بمفهومهم لم يولد وهو يعيش تحت سيطرة الغرائز ، ولم يتكون على شكل أنماط عصبية على غرار تلك التي تحث سماك السلمون على سبيل المثال على الهجرة من أعالي الأنهار ، أو تساعد مثلا طير الهزاز على بناء عشه التقليدي وينشد أناشيده التقليدية ◦ والطفل ما هو الا ورقة بيضاء ناصعة ◦ ويعرف كيف يمتص ويصيح ويخاف من الاصوات العالية أو من السقوط على الأرض ◦ ولكن كل شيء في حياته ينبغي أن يتعلمه ويستفاد منه ◦ بل ان ما نطلق عليه اسم الشخصية أو السمات العاطفية ما هي الا نتيجة لعمليات تعلم معقدة للغاية ◦

ويظهر ذلك جليا عندما نجد فردا يحب موسيقى الأوبرا ، والآخر يطرب من موسيقى الرقص ، وان انسانا آخر قد يكون حسن الاخلاق ، والآخر شديد الانفعال ، وأن انسانا آخر يفضل العزلة والوحدة، والاخر يعشق الصحبة والحياة الاجتماعية ٠

ويعتقد علماء النفس أن التعلم والحياة مترادفان ٠ وكان العالم النفسي بافيلوف أول من قام بالتجارب على التعلم ، وهو الذي وصل الى المبدأ المشهور المعروف باسم الفعل الشرطي ٠ فعندما يوضع الطعام مثلا في فم الكلب يظهر لعابه ، وهذا ليس سوى انعكاس يحدث بصورة طبيعية حتى ولو أن الكلب لا يفكر في هذا اللعاب ٠

وقد وجد بافيلوف أنه اذا ما دق جرس في كل مرة قبل أن يحصل الكلب على طعامه ، فان الجرس في ذاته يثير لعابه ٠ وقد تعلم الكلب أن يثار لعابه عند سماعه صوت الجرس أو بصورة أدق كان اللعاب شرطا منعكسا لصوت الجرس ٠

في الواقع لقد وجد بافلوف أن الكلب يفرز لعابه ليس عند سماع صوت الجرس فقط ، ولكن

عندما يسمع أصواتا مشابهة ۰ ومن هنا أطلق بافلوف قاعدته القائلة بوجوب تعميم المنبه ۰ فاذا ما كان لنا رد فعل على منبه معين فيستحق هذا الرجع على كل منبه آخر يشابهه في كثير أو قليل ۰

وربما كان الكثير من المشاعر التي لا نجد لها تفسيرا ، وكذلك المخاوف التي تنتابنا ونحن في مرحلة البلوغ ، قد تكونت بهذه الطريقة في حياة الطفولة ۰ غير أن بعض علماء المدرسة السلوكية ذهبوا الى أنه لا يوجد في حياة الانسان سوى شرط منعكس ، أو استجابة تتلو استجابة أخرى بصورة حتمية ۰

ومما قاله جون واطسن زعيم السلوكيين : أنه يستطيع تجميع دستة من الاطفال الأصحاء وبتمرين انعكاساتهم يمكن أن يتحولوا الى أي شيء يريده ، كأن يجعلهم مثلا أطباء أو محامين ، أو شحاذين أو لصوصا ۰

ولكن علماء النفس يقررون أن الفعل الشرطي ما هو الا شكل واحد من أشكال التعلم ، بل انه من أكثر الاشكال ظهورا وبروزا ۰ فنحن نتعلم بالمحاولة والخطأ مثل فأر التجربة الذي يسير في

الممر الصحيح في محاولته للبحث عن الطعام ٠ فالانسان و بعض أنواع الحيوان يتعلم عن طريق النظر الى أغوارها ٠ نحن ننظر الى المشكلة و نفكر فيها ثم نجد في النهاية حلا لها مثلنا في ذلك مثل القرد الذي أجرى عليه عالم النفس « كوهلر » تجاربه ، والتي بواسطتها حل القرد أخيرا مشكلة الموز والعصاتين ٠

لقد كان لدى القرد عصا ليس لها الطول الكافي لكي يلمس بها قرن الموز الذي يوجد خارج القفص ٠ ولكن العصاة كانت من الطول بحيث يمكن بها لمس عصا أخرى أطول توجد خارج القفص ٠ وبعد محاولات على العصاتين والموز طرأت للقرد الفكرة وأصبح الموز في قبضة يده ٠ وبذلك تحطمت نظرية التشجيع الذاتي التي تقول : ان الانسان هو وحده الذي يفكر ٠

ويلاحظ ان علماء النفس قد أجروا تجارب عديدة على الحيوان محاولين البحث عن الحقائق المرتبطة بعملية التعلم ٠ وحقق هؤلاء العلماء الكثير في بحوثهم حول كيفية شروع الانسان في تعلم جميع المهارات في كافة الظروف والمناسبات ،

ومن التجارب التي أجروها على الحيوان والانسان توصلوا الى بعض القواعد العلمية ذات الفائدة الكبيرة لأي فرد يرغب في اكتساب علوم ومعارف جديدة أو مهارات جديدة ٠ ولمباديء التعليم آثار كبيرة في المدارس حيث قضت بصورة واضحة على فكرة « الانتقال » التي سادت مجال التعليم مدة طويلة من الزمن ٠

لقد كان هناك اعتقاد جازم ورأي صريح وواضح ،ان تعليم اللغة اللاتينية، واللغة اليونانية بطريقة معينة يعمل على تدريب العقل وتنظيم تفكيره ، وهكذا يكون العقل على استعداد لتعلم أشياء أخرى بسهولة أكثر ٠

ولكن علماء النفس أكدوا أن تعلم هذه اللغات صالح فقط في تعلم الموضوعات النظيرة مثل اللغات الأخرى التي لها أصل لاتيني أو يوناني ٠ اذن فاللغة اللاتينية أو اللغة اليونانية ليس لها تأثير في قدرة الطالب على التعلم الا باعتبارها أداة لمعرفة الطالب الجيد وموقفه تجاه دروسه ٠

ولقد ثبت أنه من الأسهل السير الى الامام في دراسة اللغة الفرنسية بدلا من قضاء كثير من الوقت

في دراسة اللغة اللاتينية أولا ٠ ومن المؤكد أنه من المفيد دراسة المهارات المرتبطة بالرياضيات في عالم الآلة السائد اليوم ، والتي تدل على شيء من الانتقال ٠ فالطلبة الذين لم يحصلوا قط على دراسات في الجبر يستطيعون تقبل مادة الهندسة بنفس القدر بالنسبة للذين حصلوا على قدر من هذه الدراسات ٠

ان الانتقال في بعض مواقف التعلم لا يؤدي فقط الى الفشل ، بل يجسد أيضا عقبات حتمية ٠ وهناك مثال يطلق عليه علماء النفس « الانتقال السلبي » بالنسبة لسائق السيارة الذي ينتقل من عربة ذات محول عادي للحركة الى عربة أخرى ذات محول آلي ، اذ ينبغي عليه أن يتعلم عدم استخدام قدمه اليسرى عند تحويل السرعة وفقا للعادة القديمة التي تعودها ، وبذلك فهو يتعلم طرق وأساليب جديدة ٠

ويلاحظ علماء النفس ان الانتقال السلبي قد يثير المسنين الذين يكتشفون صعوبة كبيرة في الاقلاع عن عاداتهم القديمة في أخذ الاشياء أو القيام بالأعمال ٠ وقد يكون الانتقال السلبي سبب احتمالنا للحوادث ٠

ويعتقد علماء النفس ان واضعي نماذج الطائرات لا ينبغي عليهم اقتراح وسائل جديدة للرقابة في الطائرة بصورة تخالف تلك التي تعود عليها ربان الطائرة حتى الآن خشية من أن يتحول ربابنة الطائرات الى ممارسة عادتهم القديمة في لحظات الضيق أو الاجهاد ، ويجب تطبيق نفس هذه القاعدة بالنسبة لتعلم بعض المهارات الرياضية ·

ولقد وجد علماء النفس أن أفضل طريقة لتعلم أي شيء أن يمر الفرد بفترات تجريب وتدريب بسيطة تتخللها فترات راحة · أما التعلم بواسطة الكتابة المطبوعة فان القراءة ثم محاولة التسميع بصوت عال للمادة المقروءة تعد أفضل من القراءة فقط ·

ويقترح علماء النفس اذا كانت فترة الدراسة مثلا ساعة واحدة فانه من الافضل ممارسة القراءة لمدة ١٢ دقيقة فقط ثم التسميع لمدة ٤٨ دقيقة بدلا من القراءة طول الوقت · ويرون أنه ربما كانت أفضل الوسائل تقسيم الوقت مناصفة بين القراءة والتسميع · ويكون التعليم سهلا للغاية عندما يتعلق الامر بالبواعث القوية ، يعني أن يكون

الطالب في حاجة شديدة للتعليم ، كما أن أفضل طريقة للاحتفاظ بالبواعث القوية أن يكون الطالب متتبعا لآخر في حالة تقدم مستمر ٠

وهناك ميدان آخر للتعليم يتسع لنصائح علماء النفس وهو ميدان القراءة ٠ حيث تبين أن هناك كثيرا من علية القوم الذين درسوا في معاهد عالية يقرءون ببطء وبصورة تثير الشفقة أحيانا ٠ولقد اكتشف علماء النفس أن المشكلة مع هؤلاء تتجسد في حركات أعينهم ٠

ان الذين يطالعون بسرعة قد عودوا عيونهم في غفلة عن ذاتهم على أن تحتوي كلمتين أو أكثر بلمحة واحدة ٠ وهكذا فان عيونهم في حركتها من اليمين الى اليسار على سطر واحد لا تقف سوى خمس أو ست مرات ٠ أما من يقرأون ببطء فقد وقعوا في عادة التوقف على كلمة أو على كل مقطع في الكلمة الواحدة ، وهكذا تقف عيون هؤلاء أكثر من عشرين مرة في السطر الواحد ٠

ويبدو أن علماء النفس قد اكتشفوا أن من يتمهل في المطالعة يستطيع بسهولة زيادة حركات عينيه ، ويمكن تحقيق ذلك على النحو التالي :

يحدد أحد الطلاب دقيقة واحدة لكي يقرأ خلالها من كتاب سهل للغاية ، أو مقال في صحيفة يومية أو مجلة بأكبر سرعة يستطيعها دون أن يفقد المعنى بالنسبة للسطور التي يطالعها •

وحتى يتمكن من ضمان عدم فقدان المعنى والاتجاه يكون من الاحسن أن يسأله من يجري عملية القياس عما يقرأه • فيحسب عدد الكلمات التي يطالعها في دقيقة واحدة • ثم يقوم بنفس التجربة مرة أخرى في اليوم التالي مع محاولة زيادة السرعة في القراءة • وما من شك في أن الذين يجرون التجربة سوف يجدون أنهم بعد عدة أسابيع يستطيعون قراءة ضعف الكلمات في الدقيقة عما كانوا عليه في بداية التجربة ، وانهم يستطيعون كذلك الآن تذكر الكلمات بصورة أفضل •

ويعتقد علماء النفس ان الانسان عندما يقوم بمثل هذه التجارب ليس بمقدوره رؤية ما يحدث فعلا في الجهاز العصبي خاصة وان لهذه النظرية علاقة بالتكوين الذي يعرف بالوصلة ، يعني ذلك الرباط الذي يوجد بين نهاية أحد الألياف العصبية وبداية الآخر ،

من المؤكد ان انقباض العصب الاول يحدث فراغا ناتجا عن انتقال قوة الانقباض الى العصب الثاني • ولكثير من الوصلات ارتباطات متعددة ومتنوعة حيث تذهب قوة الانقباض الى اتجاه أو اتجاهات متعددة •

ومما يلاحظه علماء النفس ان العقل الانساني ما هو الا عبارة عن مجموعة من الوصلات مثله في ذلك مثل محول التليفون الضخم • ويرى هؤلاء العلماء انه ما أن يتم ربط الوصلة حتى يكون من السهل لدفعات العصب أن تتخذ لها نفس المسار ثانية •.

ولقد فهم بعض العلماء ان النسيان ما هو الا مجرد أمر يتعلق ويرتبط بالممرات التي تذبل اذا لم تستخدم ثانية ، ولكن الدراسات الحديثة دللت على أن الممرات لا تذبل تماما • وحتى يؤكدوا قيمة النسيان وسرعته ذهبوا الى أن مستوى منحنى النسيان الذي يمكن تطبيقه على أي معرفة لا تستخدم ولا تمارس لمدة من الزمن •

ويعتمد علماء النفس الحديث على أن للنسيان ذكريات قديمة يعتريها الظلام ، وفي بعض الأحيان

الستر بغلاف رقيق عن طريق تداخل كثير من تجاربنا وأفكارنا . ويمكن على هذا الاساس القول : ان عتولنا تشابه اللوح الذي يكتب عليه ويكتب ثانية دون أن يشطب أي شيء عنه . والطفل يبدأ حياته التي تكون كاللوح النظيف ، وان كل شيء ينقش ويكتب عليه يظل واضحا بارزا من السهل تذكره .

ومتى شب عن الطوق وخاصة في هذا العالم المتطور السريع الحركة والتقلب المعقد ، الذي نتعلم فيه أشياء كثيرة ، ونمتص الانطباعات المتتالية فاننا عندما نحاول التذكر لا يسعفنا الحظ ، ومتى ازددنا كبرا ونموا وتقدما في السن نزداد نسيانا وضياعا للذاكرة .

الحياة اليومية وعلم النفس :

لم يهمل علماء النفس الحديث الحياة اليومية للانسان العصري ، حياته في المدرسة ، أو المصنع ، أو المكتب ، أو كرجل أعمال ، أو أي فرد يمارس مهنة لها ارتباط في المجتمع الذي يعيش فيه . لذلك أجروا تجارب ودراسات عديدة حول كافة المهن والممارسات المعروفة في المدنية الحديثة المتطورة .

ومن معطيات الدراسات والتجارب التي أجريت انبثق العلم التطبيقي الذي يعرف بعلـم النفس الصناعي ، الذي أصبح الهدف الأمثل الذي يقبل عليه رجال الصناعة والاعمال ، كما أن مشكلـة تطبيق المعارف العلمية على المشاكل العمليـة في الصناعة وغيرها مثار اهتمام علماء النفس ٠

ولما كـان علماء النفس في العهـود القديمـة يتساءلون عما اذا كانت الاعمال متوافرة لكـل الطلبة الذين يبدون اهتماما بها ، فقد أصبـح اهتمامهم في هذا العصر ينصب على العكس ٠ يعني أن هؤلاء العلماء قد أهملوا النفس الجامعة واتجهوا نحو الصناعة ومكاتب الدولة التي تدفع لهم مرتبات أعلى ٠ ولذلك ثارت مشكلة ما اذا كان العلم قد تجمد على مستوى معين بسبب نقص العاملين في هذا المجال ٠

ويرى بعض علماء النفس أنه ربما يكون أفضل تطبيق الاختبارات النفسية ، سواء كانت اختبارات ذكاء على النحو المعروف قديمـا ، أو الاختبارات التي تتعلق بجسم الانسان وقياس ادراكه العقلي ٠ وهناك في هذا المجال اختبارات فرديـة واختبارات جماعية ، واختبارات تحررية ، وأخرى شفوية ٠

وقد أكدت الاختبارات النفسية أن لهذه الاختبارات قيمة مؤكدة ، كما تبين أن بعضها مجرد كلام لا فائدة منه . وهناك أيضا اختبارات للمهارات الفيزيقية مثل المهارة اليدوية ، ومهارة الأصابع عند بعض ذوي المواهب ، كما هو الحال في الاستعداد الفني أو الموسيقى ، وكذلك سمات الشخصية مثل المنبسط والمنطوي وسمة الرجولة وسمة الأنوثة .

ويلاحظ ان عملية انتاج وطباعة وادارة وتسويق الاختبارات قد دخلت ضمن اختصاص نشاط رجال الاعمال وأصحاب الثروات الضخمة . وتستعين الشركات بهذه الاختبارات لمعرفة مدى نشاط العاملين فيها . وكذلك الجيوش والقوات المسلحة تستعين بهذه الاختبارات لمعرفة صلاحية الملاحين لقيادة الطائرات أو السفن أو الغواصات أو الرادارات ، أو الاعمال الكتابية أو الميكانيكية .

ويبدو أن نتائج هذه الاختبارات النفسية قد تستخدم وفق أحدث أساليب الاحصائيات النفسية . وكان الشخص الذي تطبق عليه يوضع في سلم يعرف « بالسلم المئيني » وكان تسجيل ٧٥ ٪ يعني أن هذا الشخص أفضل من ذلك الذي سجل ٧٤٫٩ ٪

من الذين طبق عليهم هذا الاختبار ، ولكنه لا يفضل الخمسة والعشرين في المائة الباقين وتسجيل ٥٠ درجة ، يعني أن هذا الشخص يقف موقفا وسطا ، وأن تسجيل رقم واحد يضعه في نهاية السلم ٠

وقد أدى هذا الاختبار الى تعريض الاختبارات النفسية على أساس أنها تحاول أن تنتهي بالعلاقات الانسانية الى نظم معدلات آلية كئيبة ٠ وقد اعتبر بعض علماء النفس ان هذه الاختبارات النفسية تدخل في المسائل الخاصة لا يجوز تطبيقها على الأفراد ٠ ولكن تبين ان مجرد المقابلة التقليدية التي كانت تطبق قبل ظهور الاختبارات ما هي الا نوع من الاختبار يخضع فيه المرشح لأفكار المختبر عن الكيفية التي يجب أن يتكلم بها هذا الاول ٠ وهكذا كانت فترة الحكم على الاختبارات التي يراد لها أن تكون مجرد اجراء مقنن ٠

ان الامر الوحيد الذي تتميز بـه الاختبارات النفسية هو أنها تحاول أن توجد معادلات بطريقة علمية دقيقة ٠ ولقد برهنت احدى التجارب ودلت على عينة من الأفراد قامت بانتقاء وظائفها على أساس احدى الاختبارات النفسية ، على أن ٢٩

شخصا قد نجحوا في هذه الوظائف في مقابل فرد واحد فشل في وظيفته ٠

وظهر في دراسة أخرى لم تحصل على هذا التوجيه والارشاد أن معدل النجاح الى الفشل هو ٥٠ ــ ٥٠ ٠ وربما كانت النتائج التي وصلت اليها دراسات القوات المسلحة أكثر استعراضا ٠ لقد كان الجيش الامريكي يخضع المجندين لاختبار ذكاء عام حيث تستبعد نسبة ١٠ ٪ الاخيرة وتعتبر غير صالحة للعمل في الجيش ٠

ويلاحظ ان الجيش استخدم بعد الاختبارات النفسية اختبار الاستعدادات في مجالات الشيفرة بالراديو والاحتفاظ بالعمل ، والمهام التكنيكية ، والقتال ، وبعض المهمات العسكرية الاخرى ٠ وباضافة التدريب الحالي والتعيين الى هذه الاختبارات وجد الجيش أنه يستطيع أن يحصل على مستوى التجنيد ويعتبره كافيا له ، كما لو أنه قد حصل على ٢٠٪ من الدرجات أعلى في اختبار الذكاء ٠

ويبدو من ذلك أن الاختبارات النفسية قد تأكدت نتائجها ، وأنها ذات كفاية كبيرة اذا ما

عرف استخدامها . ويستخدم كثير من هذه الاختبارات الآن ولكن ليس لها قيمة وأهمية كبيرة . ان عملية صياغة اختبار جيد ودقيق لأي قدرة من قدرات الانسان تعتبر عملية صعبة وطويلة للغاية .

واذا فرضنا مثلا أن الغاية هي اجراء اختبار على سائقي عربات النقل على النحو الذي كان يفعله الجيش الامريكي على مدى خمس سنوات . ان أول اجراء يتم في ذلك الاختبار هو تقرير اختبارات مستوى ترخيص القيادة للسيارات في الولاية والتي أجريت على كثير من الأفراد حتى الآن . وهذه الاختبارات تدل عادة على القليل أو بالأحرى على أن المرشح لتطبيق الاختبار عليه يتنفس وغير مصاب بالعمى .

وكانت الخطوة التالية بعد ذلك هي محاولة الكشف عن العوامل التي تساهم في تكوين سائق جيد للسيارات ، أي أن يكون السائق الجيد يختلف عن السائق الرديء في مجال الخصائص الفيزيقية ، والمزاج ، وزمن الرجع ، وأنماط المعرفة المختلفة ، والعادات . وما ان تتحدد ماهية هذه الخصائص التي تجعل من السائق سائقا جيدا ، فيتم بعد ذلك

توجيه الاختبار لكي تقاس هذه الأمور السابقة ، ثم تطبق على آلاف من الافراد لكي يعرف من يشكل نتيجة جيدة و نتيجة رديئة ٠

وتجري عملية تتبع لهذه الحالات ، لمعرفة ما اذا كان في مقدرة الاختبار التفرقة بين وقائع النجاح ووقائع الفشل ٠ وتحتاج هذه العملية لوقت طويل و نفقات طويلة ، ومبالغ باهظة ينبغي انفاقها بدون انتظار أي نجاح ٠

وبعد عمل مضني ومجهد توصل علماء النفس في الجيش الى اختبار لسائقي سيارات النقل الذي بدا وكأنه دقيق بما فيه الكفاية ، ولكنه مع ذلك فشل في التطبيق بصورة واضحة ٠

ومن المؤكد في عصرنا الحاضر أن الاختبارات النفسية تستخدم بصورة واسعة مع أن هذه الاختبارات ليست دقيقة كونها لم تختبر ولم يتوفر لها الصدق ٠ وهذه الاختبارات ما هي الا وجهة نظر شخص واحد عن شروط الاختبار الجيد ، ولذلك ليس لها قيمة علمية تزيد على قيمة أسلوب رجل الاعمال التي كانت تؤسس على منطق الأمور ٠

ويطبق هذا الأسلوب من الاختبارات في بعض الشركات لاختبار الموظفين الاداريين التنفيذيين .

ولما كان لم يقم أي فرد من التأكد علميا عما يساهم في تكوين الموظف التنفيذي الجيد ، نظرا لأن الصفات المنتظرة في هذا الموظف قد تختلف بصورة كبيرة من عمل الى آخر أو من شركة الى أخرى ، فقد يصبح من المتعذر معرفة كيفية استطاعة أي فرد في العالم الحصول على مثل هذا الاختبار .

ان الاختبارات الجيدة قد وجدت بصورة دائمة طريقا للخطأ عند التطبيق بسبب الحماسة الزائدة على الحد في المجال العملي . ولقد وقع بعض رؤساء موظفي الشركات فريسة لفكرة أنهم يستطيعون تحديد أفضل وأبرع الاشخاص في مجموعة من المرشحين ، ولذلك يرفضون توظيف أي شخص آخر .

وقد يرتكب هؤلاء أخطاء فاحشة تعين أصحاب النكتة السريعة ، ومن يتسم بالصبر والتحمل في أعمال المصاعد مثلا ، أو تعيين من يتسم بالقدرة

على الكلام لبيع المواد الغذائية ° وربما يكون للاختبارات النفسية فائدة اذا ما استخدمت هذه الاختبارات فيما ينبغي أن تستخدم به ، وأن يكون هذا الاستخدام بواسطة خبراء في علم النفس ° ولقد واجه بعض علماء النفس الذين انتقلوا الى ميدان الصناعة واستسلموا لمغريات النتائج السريعة ، الانتقاد الشديد من أكثر رفاقهم العلماء تحفظا °

ان اكتشافات علماء النفس للعديد من الأمور الهامة التي لها فائدة كبيرة في المصانع والمكاتب والشركات قد بينت أن التعب يلعب دورا فعالا في العمل بشكل يزيد عما كان يتصوره رجل الاعمال التقليدي ° أي أن أي عامل يصل الى أقصى ذروة له فيزيقيا أو عقليا في فترة مبكرة من النهار حتى يندمج بحرارة العمل ، وبعد ذلك يضعف نشاط العامل بصورة سريعة حتى أنه لا يحقق أي شيء بالمرة في نهاية اليوم °

ويعتقد علماء النفس أنه لا توجد فائدة تذكر حتى في أوقات الحرب أو في الحالات المستعجلة الوافدة من زيادة ساعات العمل الاسبوعي من ٥٤

ساعة الى ٦٠ أو ٧٠ ساعة ، باعتبار أن زيادة ساعات العمل الاسبوعي من ٤٠ ساعة الى ٥٤ ساعة بنسبة ٢٦ ٪ لن تزيد انتاجية العمل في أي مكان بصورة أكثر من المعتاد ٠

ولهذا فان ساعات العمل الاربعين في الاسبوع مثالية من وجهة نظر فعالية العمل في الساعة ٠ ومن الأمور التي يؤكدها علماء النفس ان ساعات الراحة ذات فائدة كبيرة لمساعدة فعالية العمل ، فالعامل الذي يتلكأ فترة ما ثم يعمل فترة أخرى يحقق عملا بصورة أكبر من ذلك الذي يحاول العمل طول الوقت ٠

وقد ثبت من تجربة أجريت على عينة من الفتيات يقمن بلصق البطاقات أنه قد زاد انتاجهن بمقدار ١٣ ٪ عندما منحن عشر دقائق راحة في منتصف اليوم ٠ وقد زادت الفتيات التي تعمل في جميع السلاسل الخاصة بالدراجات انتاجياتها بمقدار ١٣ ٪ أيضا بعد أن منحن راحة لمدة ٥ دقائق في نهاية كل ساعة ٠

وتبدو الراحة حتى في أكثر الاعمال عنفا وجهدا من الأمور المثالية ٠ وقد أشار أحد علماء النفس

الى أن الفرد الذي يقوم بعمل عضلي خفيف في ٨ ساعات يجب أن يستريح حوالي ١/٦ الوقت الذي يسجل به أقصى ذروة للفعالية في العمل ٠

ويعتقد علماء النفس الذين أجروا تجارب عديدة على العمل والعمال ان زيادة الانتاج تعتبر روح العامل المعنوية ، وهي الهدف الذي يجذب انتباه علماء النفس الصناعي منذ تجارب بعض الشركات في هذا الحقل في عام ١٩٢٧ ميلادية ٠ وبدأت تلك التجارب بالقاء الضوء على الجانب الهندسي لبعض الشركات ، اذ كانت هذه الشركات ترغب في معرفة حجم الضوء الذي يحقق أعلى مستوى للانتاج في مختلف الاقسام عندما تقوم الفتيات بتجميع الاجهزة ٠

وفي ضوء استغراب الجميع تم اكتشاف أنه ما أن قامت بعض الشركات بتجربة الضوء حتى ارتفع الانتاج ، بغض النظر عن ارتفاع أو انخفاض « الوات » ٠ وزاد الانتاج كذلك عندما تظاهر عمال الكهرباء بازالة مصابيح الاضاءة في الاقسام ثم أعادوها مرة أخرى دون أن يلاحظ أي فرد ذلك ٠ لقد كان هناك شيء غريب في الواقع وظلت

الشركات تبحث عن هذا الشيء لمدة خمس سنوات تالية ٠

وانطلاقا من هذه التجربة منحت الشركات الفتيات فترات راحة سواء على شكل ساعات محددة أو تحديد ساعات الاسبوع ، وسار الانتاج كما هو في زيادة مستمرة ٠ وعندما سحبت بعض الشركات هذه الامتيازات جميعها فقد زاد الانتاج مرة ثانية ٠ وأخيرا لم يكن هناك سوى احتمال واحد هو أن العاملات يستجبن للاهتمام الذي أظهرته الشركات بهن والذي ظهر بصورة واضحة يوما بعد آخر ٠ لقد اعتقد هؤلاء ان الشركات تهتم بهن ولذلك شعرن بالأهمية وقمن بعملهن بجد ونشاط ٠ وكانت حالتهن المعنوية على مستوى عال من الحيوية أثرت في الانتاج وذلك بصورة تزيد على تأثير الجوانب الفيزيقية لظروف العمل ٠

ويعتقد علماء النفس على عكس الحال حيث ظهر أن الرجال الذين يعملون في نفس المصانع أقل انفعالا في أعمالهم من الفتيان ، وانهم يظهرون اهتماما أكثر بالمسائل العملية ٠ وتؤكد الدراسات بين الرجال أن العمل لا يعد بالنسبة لهم عاملا

أساسيا ٠ ولا يمكن للمصانع شراء الولاء عن هذا الطريق مثل تحسين وجبات الطعام أو تنظيم مناقشات رياضية ، وهي الامور التي جربت وظهر عدم فعاليتها ٠

ان ما يلفت الانتباه هو مدى الدفء أو البرودة في علاقات العامل مع رؤسائه أو مستشاريه ، وكذلك كمية الاحترام التي توجد لدى كل منهم تجاه الآخر ٠ وقد أصبحت مسألة حسن معاملة الموظفين من أكبر مهمات علماء النفس ٠

واذا ما توغلنا أكثر في مجالات علم النفس الصناعي نلاحظ أن علماء النفس منذ فترة طويلة عرفوا ان احدى المشاكل الخطيرة في مجال العمل والصناعة هو العامل غير المتوافق ، أي ذلك العامل أو العاملة التي توجد في حالة عاطفية غير عادية ، بحيث يصبح من المستحيل معها توافر الفعالية في العمل ٠

ولقد أظهرت دراسة أجريت في مغزل للحرير ان الاضطرابات العاطفية والعقلية تسبب ضياع قدر من الوقت والنقود يزيد عن تلك التي تسببها الامراض المعدية والحوادث معا ٠ وكانت هناك

دراسة سابقة على ٤٠٠٠ حالة عمال فصلوا من أعمالهم ، وأظهرت الدراسة أن حوالي ٢/٣ هذه الحالات قد فشلت بسبب عدم الأهلية الاجتماعية التي تتجسد في قلة العلاقات مع الزملاء من العمال ومع الرؤساء ، وذلك علاوة على عدم القدرة على القيام بالعمل .

وقد أظهرت دراسة احصائية حديثة على عاملات الهاتف أن ⅓ هؤلاء — ومن اللاتي يعانين من مشاكل شخصية — مسئولات عن ظاهرة الغياب والتمارض والحوادث . وأشارت احدى الدراسات الى واقعية أنه ربما كانت ٨٠ ٪ أو ٩٠ ٪ من حوادث العمل ترجع الى الاخطاء الانسانية ، وأنها قد وقعت من عمال يبدو أن لديهم نكبة أو مصيبة يطلق عليها علماء النفس اسم « الميل الى ارتكاب الحوادث » .

وقد أظهر كثير من هؤلاء العمال نوعا من الانماط التي ترتكب الحوادث في نفس الايام والاسبوع أو نفس الساعات في اليوم . ويشعر بعض علماء النفس من ناحية أخرى أن أصعب العمال على الاطلاق هو ذلك الذي لم يرتكب حادثة

قط ، أو ذلك الذي لا يشعر بأنه في حاجة الى البقاء في المنزل لأنه مريض ولكنه يذهب الى العمل وهو في حالة فيزيقية منخفضة ومزاج رديء بحيث يجري كل من حوله من الروح المعنوية والفعالية في العمل .

ويذهب علماء النفس الى أن هناك مشكلة عمالية أخرى تتجسد في ظاهرة الادمان على الكحول والمشروبات الروحية ، حيث يمهد من يتعاطاها الطريق اليها أمام زملاءه تغطية لهروبه من العمل حتى يشبع رغبته في كأس يتناولها .

ويقدر علماء النفس ان كل عاملين من ١٠٠ عامل يدخلون في هذه الطائفة وتتراوح أعمار هؤلاء بين ٣٥ الى ٥٥ عاما ، وهذه الفئة هي الفئة التي تعتمد عليها الصناعة ويشكلون أعلى مستوى في اللباقة اذا لم يدمنوا تعاطي هذه المشروبات الروحية .

وقررت بعض الشركات الكبرى أن توفر لعمالها الخدمات الطبية الفعلية مجانا ، وكذلك المعالجة النفسية . وسمت هذه الخدمات « الارشاد » ولكن

نجاح هذه الخدمات لا يزال محدود بسبب نقص الوقت واستحالة توفير العلاج الطبي النفسي الكافي والمعاملة الفعالة لمن يرغب فيها ٠

غير أن آثار هذا العلاج أصبح واضحا بلا شك ، كونه ينعكس على الظروف المعيشية للعامل في بيته بحيث تجعله أكثر سعادة من أولئك الذين يعيشون حوله ٠ وقد تبين كذلك أن توفير الارشاد يقلل بصورة كبيرة من كمية العمل الذي يقوم به كل من رؤساء الاقسام والمستشارين الذين يقع على كواهلهم سماع المشاكل الشخصية للعامل ٠

ويبدو أن الموظف التنفيذي في ذلك الفريق الذي يعاني من المشاكل النفسية في مجال الصناعة يتمتع بامتيازات لممارسة رغبات الشركات تجاه الحاجات النفسية للعمال ٠ وربما كان لهؤلاء النصيب الاكبر في هذه المشاكل ٠ فكلما ارتفع الفرد في سلم مناصب الصناعة زادت مخاوفه تجاه فرص البقاء في المستوى ، وكلما زادت فرص مقارنة نفسه بزملائه ومنافسيه بحيث لا يقف الى جانب نفسه ويطمئن الى مركزه ٠

ويرى علماء النفس انه اذا ما أضفنا التوتر

الذي يعاني منه المدير التنفيذي فانه لا يبقى لديه شيء يستطيع الاعتماد عليه ، وفي ذلك يحتاج الى شخص ثالث يمهد اليه بمشاكله • لقد زار أحد المديرين التنفيذيين الطبيب النفسي التابع للشركة، وشكا من أنه قد أصبح غير ملائم للظروف الحاضرة بسبب النبوغ الذي أبداه أحد مساعديه • وفي نفس الوقت زار المساعد الطبيب النفسي أيضا يشكو اليه من أن مهارة ونبوغ رئيسه المباشر ستمنعه من الاستمرار في العمل بكفاءة مع صاحب العمل •

ومن المسائل المؤكدة في هذا العصر المتطور أن خدمات الطب النفسي في مجال المديرين التنفيذيين قد قطعت شوطا بعيدا من التقدم والازدهار خاصة بعد أن حظيت بموجة عارمة من الدعايات حتى أن مدراء بعض الشركات قد كلفوا علماء النفس بفحص رؤساء الاقسام والمديرين الآخرين بالذات• فعمد هؤلاء العلماء الى استخدام بطاريات لاختبار الاستعدادات ، ومدى الذكاء ، وقوة الشخصية ، وأجروا مقابلات مع جميع الرؤساء التنفيذيين •

وعندما انتهت الاختبارات قدم علماء النفس

تقاريرهم التي جاء فيها أن رئيس الشركة هو المسبب للمشاكل • ذلك لأنه انسان قلق ، بخيل يتردد عند اتخاذ القرارات ولا يرغب في تفويض الامر لغيره • مما أهاب بالمدير بعد صراع مرير الى محاولة تقديم استقالته ولكن الجميع شجعوه على البقاء في منصبه مع اعادة تحديد مهام الموظفين التنفيذيين وأن يعطي لهم سلطات أكثر واختصاصات أوسع في معالجة المشاكل بحيث يترك العويض منها اليه •

وفي نهاية المطاف استعاد الموظفون جميعا اهتمامهم بالعمل ولم يصبح نشاط المدير عقبة في نشاط وجهود الآخرين ، ولا يعتبر جميع المديرين الذين يبحثون عن خدمات علماء النفس من أولئك الذين يرغبون بصراحة تقدم وتطور شركاتهم ، انما أعطى استخدام علم النفس على مستوى المديرين دفعة قوية لتطور هذا العلم وتقدمه في مجال الصناعة •

واذا ما حاولنا استقراء مباديء بعض الشركات نلاحظ أن أغلبها قد وجهت العناية اللازمة للارشاد النفسي ومنح هذه الخدمات المرتبة الأولى في أهداف

ومباديء الشركة . لذا نجد علماء النفس يقدمون النصائح والارشادات للمدراء التنفيذيين بصورة أشمل مما كانت عليه في السابق ، والتي كان يمدهم بها أطباء العائلة والتي تتلخص في أن يحصل على اجازة يقضيها في مكان ما عندما تشتد الازمة وتزداد المشاكل ، أو أن يغير مسكنه اذا ما أصبحت الأمور غير محتملة . ان الكسل الاجباري الناتج عن الاجازة غير المرغوب فيها ، أو زيادة قيود العمل الجديد هي آخر ما يفكر فيه اليوم المدير التنفيذي .

ويعتقد علماء النفس ان الهندسة الانسانية التي تعتبر احدى المحاولات التي ساهمت فيها تعاليم الخبير النفسي في الصناعة ، محاولة هادفة للنظر الى الانسانية في صورة أكثر فعالية وكفاية . ولكن تغير الحال في هذه الأيام حيث أصبحت الهندسة الانسانية ليست سوى محاولة لجعل الآلة تنسجم مع الانسان .

ويرى بعض خبراء النفس ان جهاز الهاتف اليدوي الجديد يعتبر مثلا صحيحا على هذه المحاولة السابقة . لقد تم تصميم هذه الاجهزة عن طريق قياس وجوه آلاف من البشر ، وأجريت كذلك عدة

تجارب استخدمت فيها أجهزة من أوزان مختلفة ۰ ولهذا وجدنا أن الجهاز الجديد أخف من الجهاز القديم المعروف ، وظهر كذلك أنه أقصر ، وقد صمم البوق بزاوية تناسب أكبر عدد من الناس ۰ وقد حصرت أرقام الهاتف خارج الفتحات بدلا من داخلها ، الامر الذي يوفر صفة الانسجام ويسهل الاستعمال ۰

من المعروف ان التصميمات الصناعية تؤسس عادة وفق قواعد ومباديء مختلفة ربما اعتبرت بعضها سهلة ميسرة عند التنفيذ ، وهو ما كان متبعا منذ سنين طويلة ، ويعتبر عداد النور الموزع في كل مكان والذي يشتمل على عدد كبير من المؤشرات التي تتحرك في مختلف الاتجاهات مثلا حيا على الهندسة الانسانية الرديئة ، ولذلك نلاحظ أنه قد استبدل بآخر يمكن قراءة أرقامه على النحو الذي يشاهد في عداد السرعة الخاص بالسيارات ۰ كما ان السيارات التي يعكس فيها الزجاج الواقي من الهواء الآلاتها الداخلية يعتبر مثلا آخر للخطأ في الهندسة الانسانية ۰

وهناك العديد من المعامل والمصانع والشركات

العامرة بالتصميمات الرديئة كمركز الرقابة غير المناسب للآلات ، والعمل الروتيني الذي يتطلب الوقوف مدة طويلة والانحناء والسير • والقوات المسلحة من جانبها قد عمدت في الحرب العالمية الثانية الى استخدام الهندسة الانسانية على نطاق واسع ، ذلك لأن العتاد العسكري قد أصبح على درجة كبيرة من التعقيد ، وظهرت ضرورة تخصص العناصر التي تعمل عليه •

فلقد ظهر على سبيل المثال لا الحصر ان أبراج المدافع في قاذفات القنابل التابعة للبحرية صغيرة للغاية لا تتسع الا لشخص واحد قصير القامة ، وهو الأمر الذي لم يكن متوافرا في أفراد البحرية الامريكية • وكانت هناك أجهزة تصويب للقنابل في طائرات سلاح الطيران تستطيع نظريا أن تضرب برميل من المخللات ، ولكن فشل الانسان في استخدامها يجعله يخطيء التصويب على مدن بأسرها •

هذه الاخطاء مجتمعة ومنفردة جعلت خبراء الهندسة الميدانية توجه اهتمامها الى المجالات العسكرية فتعالج بعض الأمور البسيطة مثل تغيير

شكل أزرار الرقابة في الطائرات حتى يتمكن الطيار من أن يعرف بمجرد اللمس أنه قد أمسك بجهاز الهبوط أو ذراع الذيل ٠

وأصبح العمل في هـذا المجال معقدا للغايـة ويحتاج للعبقرية ٠ حيث أعد خبراء علم النفس كثيرا من الأدوات التي توضع بالطائرات في مراكز محددة بحيث تكون مؤشراتها في جهة واحدة عندما تكون الطائرة في حالة جيدة ٠ وتعمل البحريـة الامريكية على اعادة تصميم نظام مقعد الطيار بحيث تستبـدل فيه جميـع الأدوات والعـدادات بصورتين الكترونيتين يمكن للطيار أن يقرأهمـا بلمح البصر ٠

ولقد فكر علماء النفس في مشاكل الصيانة ، فصمموا العتاد بصورة أصبح معهـا مـن السهل اصلاح الآلات مباشرة ودون أي عناء ، لأن الاجهزة الالكترونية تلون في هذه الايام عند تصنيعها ، ولذلك يكون من السهل على رجل الصيانة أن يتتبع الدوائر الالكترونية ٠

ولم يقف نشاط علماء النفس عند هذه الأمور بل عكفوا على معالجة وتبسيط وتحسين التدريب

المسكري ◦ لذلك قاموا في بعض الحالات باعادة تصميم الاجهزة المستخدمة مثل نظام الرقابة البحري على السفن الذي كان يحتاج التدريب عليه حوالي أربعة أو خمسة أسابيع ، ولكن بعد تدخل علماء النفس أصبح لصبي في العاشرة من عمره أن يدير ويعالج هذا الجهاز من أول محاولة ◦

ولا بد لنا من الاشارة الى مجال آخر لعلم النفس يعرف بسيكولوجية الحرب وهو عبارة عن اصطلاح انتشر في السنوات الاخيرة على أساس أنه علم بامكانه أن يقود الرجال للقتال أو وضع السلاح جانبا عند الحاجة الى القتال ◦ وعلى هذا فان المنادين بالعزلة والانزواء لن يجدوا بدا من هجر هذه الآمال ◦ ولا يزال استخدام البحوث والدراسات في مجال الدعاية موضع نقاش وجدل بين علماء النفس حيث يرى الكثيرون منهم أنها لا معنى لها ، أما بالنسبة لسيكولوجية الحرب فانها لا تزال في مرحلة نظرية ولم تصل بعد الى درجة التطبيق الفعلي ◦

وقد أشار أحد علماء النفس الى أنها تشبه الامبراطورية الرومانية المقدسة التي لم تكن

رومانية ولا مقدسة . وعلى هذا الاساس لا تعتبر سيكولوجية الحرب من تطبيقات علم النفس ، وهي في نفس الوقت لا تعد من أنواع الحرب . أما حقيقة اسمها فيعود الى دعاية قديمة غلفت باسم اسطوري حديث .

أسس التحليل النفسي :

في هذا العصر الذي تقدم فيه علم النفس تقدما ملحوظا أصبح التحليل النفسي من أكبر المساهمين في ميدان علم النفس بصورة عامة . لأن للتحليل النفسي فعالية كبيرة ارتبطت بالمحلل النفسي بالذات ، الذي يمكنه استخدام الذكريات القديمة والخيالات في تجارب الكشف عن الأسلوب الخفي لحياة شخص ما .

ومن المؤكد ان دراسة الذكريات ليست سوى وسيلة من مجموعة كبيرة من الوسائل التي يمكن اصطناعها لدرس وتحليل كل شخصية ، وهي بدورها تقوم على قاعدة استخدام الجزء المنفصل لتفسير الكل المتصل . ذلك أن في مقدورنا أن نلاحظ حركات وانفعالات واستجابات الشخص

الجسمية واتجاهاته العقلية ، الى جانب ذكرياته القديمة ·

والحركات أو بالأحرى الانفعالات نفسها تجسد اتجاهات الشخص العقلية أو قل ان الاتجاهات العقلية مغمورة فيها ، كما أن هذه الاتجاهات تعبر هي أيضا عن اتجاهه العام في الحياة ، ذلك الاتجاه الذي يتكون منه ما نسميه « أسلوب الحياة » ·

واذا حاولنا أن نعرض لحركات الجسم فنرى اننا نحكم على الشخص من طريقته في الوقوف والمشي والحركة والكلام وما الى ذلك ، على أننا لا ندرك في جميع الاحوال أننا نصدر على الشخص حكما قائما على أساس هذه الاشياء ، غير أن ما نشعر به من عطف عليه أو كره له قد أوجدته في جميع الاحوال هذه المؤثرات بعينها ·

ان صورة المحلل النفسي بنظراته التي تجسد التركيز الحاد المتزايد انتظارا لابداء الرأي في اشارة قد تكون لها معنى ، واستخدام هذه الاشارة لفك مكنون السر في اللاشعور · هذه الصورة تجعل من المحلل النفسي شيئا غامضا غريبا نصفه طيب

ونصفه الآخر يثير الخوف بحيث يشكل منه طراز غير عادي من الرجال ·

ويرى علماء النفس الذين تحدثوا عن التحليل النفسي ، والمحلل النفسي ، أن الأساليب التي يعمل المحلل النفسي على أساسها والتي تشمل ما خلف الاهداف العلاجية لا تختلف عن بعض الافكار الأساسية لنظرية فرويد في التحليل النفسي ·ومثل هذه الافكار منبعها اللاشعور ، والكبت ، والدور الاخير للرغبات البدائية في فترة البلوغ ·

ويلاحظ أن العالم النفسي الشهير « بنيامين سبورك » الذي تأخذ رأيه حوالي ٨ ملايين عائلة في شأن الامراض ومشاكلها ، وخاصة بالنسبة للاطفال قد أسس هو كذلك تحليلاته النفسية انسجاما مع مباديء فرويد · ولكنه طلع على العالم بدراسات البواعث ، وسيكولوجية الحرب باعتبار أن كثيرا من الانفعالات يمكن أن ترسم خطاها الى البواعث التي لا يشك فيها أحد أبدا · وحتى أولئك الذين يعلنون أن التحليل النفسي لا معنى له يرون أن زلقات اللسان ، والمواعيد التي تنسى ، والميل الى الحوادث ما هي الا انعكاسات ذات معنى

لمشاعر حقيقية تراودهم ، وشخصيات فعلية تلبسهم وهو ما يعتبر أحد اكتشافات فرويد ٠

ولا نغالي اذا قلنا أن من يعمل اليوم في ميادين علم النفس والطب النفسي يقبل بطريقة أو بأخرى ان جزءا مما ذهب اليه فرويد صحيح ومنسجم مع الواقع والحقيقة تماما وله أهمية كبيرة ، وهو من الذين كانوا للأمس القريب أكثر المنتقدين لفرويد ٠

ومن المؤكد أن فرويد كان أول من طلع على العالم بفكرة التحليل النفسي بعد التجارب العديدة التي قام بها في هذا المجال ، واذا ما أردنا تشبيه العاملين اليوم في مجال التحليل النفسي ، والذين أسهموا مساهمة فعالة في نشر وتعميم أفكار فرويد بعد ادخال بعض التطورات عليها ، والتي تنسجم مع العصر المتطور الذي نعيش فيه ، نجد أن كل محلل نفسي ليس بمقدوره تكوين سوى قلة من المحللين وبعد تضحيات كبيرة من وقته وجهده ٠

ولا بد لنا هنا من الاشارة الى أن المعاملة التقليدية في علم النفس ما هي الا استهلاك صرف للوقت ٠ فاذا ما عمل المحلل النفسي ٤٨ ساعة في

الاسبوع وهو أعلى ما تتحمله البشرية في هذا الظرف الصعب التي تتطلبه مهنة مثل التحليل النفسي ، فانه يتمكن من معالجة حوالي عشرة مرضى في وقت معين اذا زاره كل منهم عددا من الزيارات تدور بين ثلاث وخمس مرات في الاسبوع ٠ وربما يظل كل مريض تحت التحليل لمدة تتراوح بين سنتين الى خمس سنوات ، وأحيانا مدة أطول ، فان المحلل النفسي لن يقوم بتحليل أكثر من ١٥٠ مريضا في حياته العملية ٠ ونظرا لأنه يوجد في العالم كله حوالي ١٤٠٠ محلل نفسي ، وأنه يوجد تحت التحليل ١٤٫٠٠٠ شخص فانه لن يزيد من أتموا التحليل عن ١٠٫٠٠٠ شخص ٠ وهكذا نجد أن جميع المحللين الأحياء ومرضاهم السابقين والحاضرين قد تتسع لهم مدينة متوسطة الحجم ٠

واذ رغبنا في معرفة وضع المحللون النفسيون المادي فلا نقول أنهم من الأثرياء اذ أن أغلبهم يخططون ميزانياتهم كل شهر مثل أي انسان عادي في هذا العصر المتقدم ٠ ومن النادر أن نجد محللا نفسيا يتقاضى ٥٠ دولارا في الساعة اذ أن الغالبية العظمى تتقاضى ٢٠ دولارا فقط ٠ ويتحدد دخلهم

بعدد الساعات التي تخصص للعمل والتي تقل عادة بسبب المحاضرات والدروس والمقالات والخدمات المجانية التي يقدمونها ولا يتقاضون عنها شيئا ٠ ومع ذلك فهم لا يموتون جوعا ولكنهم في نفس الوقت لا يجمعون ثروة تزيد على ثروة طبيب متوسط متخصص في مدينة كبيرة ٠ ولا يقوم المحلل النفسي بعمل يزيد على عمل الانسان العادي ٠

وتبدأ عملية اعداد المحلل النفسي منذ أن يحصل على درجته الجامعية ويرى رفاقه في الدراسة يتفرقون سعيا وراء الرزق ٠ وينبغي على المحلل النفسي أن يحصل على دبلوم في الطب وتدريب شاق على التحليل قد يصل الى ثلاثة أعوام بين مستشفى الامراض العقلية ومحلله الخاص الذي يدفع له نفقات التحليل مثله مثل أي مريض عادي يلجأ اليه ٠ ويكون المحلل النفسي عادة مستعدا لمقابلة أول مريض له عندما يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، وأن يكون قد وصل الى درجة عميقة من ثقافته التحليلية ٠ وربما يصل المحلل النفسي الى سن الخمسين قبل أن يصفي ديونه ويعتبر نفسه منذ ذلك الحين مستقلا عن غيره ٠

ولا يوجد كما يقول علماء النفس أي محلل

نفسي يمكنه أن يؤكد بأنه سيكون له نشاط مستقر . والسبب في ذلك يكمن في طبيعة المعاملة التحليلية وهو الأمر الذي ينبغي أن نقوله بصراحة ووضوح : انه يجب على المحلل النفسي أن يكون مجهولا لا لون له ومحايدا كلما أمكن . ولا ينجح هذا الطبيب في معالجة أصدقائه وأقاربه أو أي شخص آخر له علاقات اجتماعية معه . ويعني هذا أنه لا يستطيع استغلال دخول أصدقائه ومعارفه في المجتمع ، الامر الذي يعتمد عليه الاطباء البشريون في ممارستهم لمهنتهم .

ونلاحظ أن مرضى المحلل النفسي بسبب اصابتهم ليسوا مستقرين ، والاغنياء من هؤلاء المرضى بصورة خاصة الذين يمكنهم دفع نفقات التحليل لا يستمرون طويلا في ارتياد عيادة الطبيب المحلل ، انما يجدون الاعذار في تغيبهم المتواصل بزعم السفر أو في مغامراتهم العاطفية التي تؤدي بهم الى فترة من الراحة المؤقتة ، وبذلك يظنون بأن مشاكلهم النفسية قد حلت .

وفي بعض الأحيان ينقطع المريض فجأة عن العلاج بسبب اعتراضات أفراد العائلة الذين قد

لا يثقون في التحليل النفسي ، ويخجلون من التردد على المحلل النفسي ، أو يصابون بالهلع الشديد في مواجهتهم بالحقيقة التي لا مفر منها والتي تشير الى أن المرضى الذين يعالجون بالتحليل النفسي تتدهور حالتهم قبل أن يسيروا في طريق الشفاء والتقدم ، وكما يقول المحللون النفسيون أن المشاكل الانسانية الحياتية تتجه نحو التدهور الدائم وتتشابه فيما بينها ، ويشعر المحلل بانطباع مفاده أنه ينصب الى جهاز تسجيل يكرر نفس الاسطوانة مرات ومرات ٠

ومن المشاكل الممجوجة لدى المحلل النفسي أن يظل محتفظا بادراكه ووعيه في مثل هذه الحالات ٠ واذا كان المريض من ناحية أخرى غير متوازن يسيطر عليه التوتر فان المحلل يقاوم ويدافع بكل قوة لكي يحتفظ بمشاعره في أعماق نفسه ٠

وبعد ساعات من العمل الشاق مع مريض سيء المزاج يجد المحلل أحيانا أنه من الصعوبة بمكان أن يعود الى منزله لكي يواصل الاهتمام بأهله وبمشاكل زوجته وحكايات أطفاله مع لعبهم ٠

ورغم أن فرويد يجعل للجنس دورا أساسيا

بالنسبة لاصابة الاشخاص بمرض العصاب ، فذلك الامر لا يحتاج الى نقاش خلال العمل اليومي للمحلل النفسي ، الذي يختلف كثيرا عن تلك الصورة التي يعتقد فيها الرجل الطبيعي ° اذ مـن المؤكد أن المحلل النفسي لا علاقة له بالفساد وسوء السيرة أو بذلك المحب الولهان الذي ذاع صيته على كافة الأفواه °

والمحلل النفسي قبل كل شيء هو طبيب بشري والاطباء عادة محافظون وربما كان السبب في ذلك أن أي شخص ضعيف الوزن لا يحمل نفسه مشقة هذا الشوط الطويل من البحث حتى يتخـرج في النهاية طبيبـا ° وبصرف النظر عـن النظريات المختلفة التي يعمل المحلل النفسي في ميدانها نجد أنه من وجهة النظر العملية انسان شجاع ومواطن مخلص لوطنه وعائلته °

ويعتقد علماء النفس ان الفرد العادي يعتبر ضعيفا في مجال مهنة التحليل النفسي ° على الرغم من أن المحلل النفسي يمكنه أن يفهم ويواسي ويحد من عصبية زميله المثقف ، قد يفقد كل ذلك عندما يتعامل مع الجشع والقسوة والادمان على الخمـر

والجريمة التي تتمثل في نمط العصابي المادي بين الطبقات الاجتماعية الدنيا • ومع ذلك يوجد العديد من المحللين النفسيين الذين يمكنهم العمل بفاعلية في السجون وفي أماكن جنوح الأحداث على الرغم من أن هذه الأماكن تحتاج الى خدماتهم بصورة كبيرة •

واذا ما أردنا أن نعرف الأسس المتعلقة بالتحليل النفسي لا بد لنا من القاء نظرة خاطفة على نظرية فرويد في هذا المجال التي بيَّن فيها العلاقة المتينة بين العقل الانساني والشخصية ، والتي شبهها بجبل الثلج الذي يظهر جزء منه للعيان بينما تظل البقية الباقية منه تغوص تحت الماء •

والأمثلة التي نأخذها من خلال مجتمعاتنا الحديثة والتي تؤكد صحة هذه النظرية عديدة ، فالأم التي تعتقد أنها تملك حب العطاء والسخاء عندما تعامل أولادها مدفوعة بواسطة الحب الغيري الذي يضحي بالذات • ومع ذلك نلاحظ أن الباعث الحقيقي هو أن تربط أولادها وتقيدهم بمصيرها وتسيطر عليهم سيطرة تامة وتمنعهم في بعض الأحيان من الزواج وتجعلهم وقفا عليها طوال حياتها •

وقد يكون الانسان متدينا يذهب لأداء الصلاة كل يوم ويكون شديد الالتصاق بزوجه وأولاده ، ومع ذلك يحاول التخلص بسرعة من شركائه في العمل . وقد نعتقد ان مثل هؤلاء من البيروقراطيين ولكنهم في الحقيقة ضحية لعدم التوازن بين ما يعتقدون هم في أنفسهم وبين ما يفعل اللاشعور بهم .

ويرى علماء النفس أنه ربما كان هناك مثال أفضل للاشعور وهو ما يرتبط بظاهرة الايحاء التي تلي التنويم . فقد يأمر من يقوم بالتنويم الشخص الخاضع له أي المنوم بأن يستيقظ من نومه وينهض من مكانه دون أن يقول له أي شخص ذلك ، ثم يفتح النافذة عندما يسمع صوت عطسة صادرة من منومه .

ومن المؤكد أن الشخص المنوم يقوم بذلك . واذا ما سألته لماذا فعل هذا فانه يبحث عن أعذار لا تتفق مع الواقع . فقد يقول : ان الغرفة تحتاج الى الهواء النقي دون أن يخالجه الشك في أن السبب الحقيقي هو سبب لا شعوري .

ويعتقد فرويد ان الجزء الجوهري في اللاشعور هو الهو الذي يمثل الجانب اللاشعوري في الشخصية

الانسانية التي تحتوي على الدوافع الغريزية البدائية المطلقة الوثاق . فالطفل في سريره غير قادر على التفكير على غرار الانسان البالغ ، وهو يشبه الحيوان الصغير ولذلك فهو مخلوق منطلق المشاعر .

وهذه المشاعر حسب رأي فرويد تتحكم فيها قوتان : الأولى أن يكون مصدرا للحب ومحلا له ، موضعا للتدليل وخاضعا للحماية ، وأن يظل كامنا في دفء وسعادة . وهذه كلها مشاعر تشكل نمطا معقدا للسلوك الذي يتمحور حول ما يعرفه البالغون باسم « الاندفاع الجنسي » .

والقوة الثانية تتجسد في الصراع في سبيل السيطرة وعند الحاجة في سبيل الهدم والتخريب ، وبمعنى أصح في سبيل العدوان . ويعتقد فرويد ان هذين الموجهين لدى الطفل لا حدود لهما على الاطلاق . لأن الهو أعمى غير مستقر وصاحب مطالب عاجلة يرغب في الاشباع الكامل المباشر لأقل نزوة طارئة . ولا يتسامح الهو أمام أي تأخير أو عقبة . انه يرغب في امتلاك أي شيء يعترض طريقه .

وعندما يصاب بالاحباط يكون هناك رد فعل دموي غاضب ° وعندما يشب الطفل يتعلم كيف يسيطر ويتعامل مع اندفاعاته ، ولكن الهو يظل نشيطا في حياتنا جميعا ، كونه نوع من الحيوان غير الكامل النمو الكثير الطلبات ، والذي يفكر بصورة بدائية غير منطقية وأحيانا بصورة تجعل أحلامنا غريبة غبية ، ويجعل مشاعرنا هذيان وثرثرة كما لو أصيب الانسان بالحمى °

أما الشعور أو الادراك فهو الذي يعتبر الجزء الحساس في عقل الانسان ، والذي ينمو بنمو الطفل ، وهو يعني باعتقاد فرويد الأنا ° والأنا بمفهوم فرويد هو حقيقتنا الذاتية كما نحلم ونفكر فيها ، ويفعل الأنا كل ما يتمكن في سبيل مساعدة الذات للوصول الى الحياة الصحية المشبعة في اطار الحياة المحيطة بنا ، كما أن الأنا يجيز اشباع الرغبات البدائية بدون ضرر أو خطر ، ولكن عندما يشعر بالخطر الذي يداهمنا فانه يتماسك ويتشجع ويقف حائلا بينه وبيننا ، معتمدا على وسائل عديدة لتحقيق هذا الدفاع ضد مطالب الهو التي ينتج عنها الكبت °

وهذا يعني أن الرغبات العدوانية وكل ما

يتعلق بها سواء كان الموقف الذي توجد فيه أو الصراعات التي تؤدي اليه ، تدفع الى الوراء ،تدفع الى اللاشعور وتبقى هناك الى أجل غير مسمى • ولا نشعر بها بعد ذلك ما عدا في حالة تسللها الى أحلامنا وتأملاتنا عندما تنهار مواقع تحصيناتنا الدفاعية •

ويرى علماء النفس أن هناك صراع دائم لجعل الهو يسلك الطريق المستقيم ، ولذلك يحتاج الأنا الى حليف آخر ليمد له المساعدة كطرف ثالث في هذا الصراع المعقد الدائم ، وهو ما يسميه فرويد « بالأنا العليا » التي يعرفها الرجل العادي بالادراك والوعي وهو ذلك الصوت الخافت الذي يعلمنا دائما عن الصحيح وعن الخطأ •

ولكن بعض علماء النفس يعتقد بأن هذا التفسير سطحي بصورة واضحة لأن الأنا العليا في أغلب الأحيان لا ترتبط باللاشعور مثلها في ذلك مثل الهو ، وأن رغباتها وتكوينها غير منطقية وغير مستقرة مثلها في ذلك مثل رغبات الأنا العمياء ، ونحن على ادراك بالأنا العليا لأنها تضع مستويات من الخطأ والصواب ، ولكن الأنا العليا تفعل ذلك

دون علمنا كما أن مستوياتها جامدة غير واضحة تنهد الى الانتقام أكثر من أي شيء في عقولنا المدركة .

ويذهب علماء النفس الى أن الأنا العليا تتكون على مثال نمو الطفل من نتاج الصراع المعروف بعقدة أوديب ، وهذه العقدة لا يعتبرها المحللين النفسيين صدمة ، انما هي مصاحب حتمي للنمو يخضع للرقابة والملاحظة في كل مرحلة من مراحلها . ان الطفل في الفترة ما بين سنتين وست سنوات يدخل في نوع من الحب والكراهية في علاقته مع الأبوين ، وهي مشاعر تزيد في قوتها عن أي مشاعر يحس بها بعد ذلك في حياته . وهنا نلاحظ أن الطفل بدأ يميز بين العالم الخارجي ويدرك أن هناك آخرين معه .

وانطلاقا من هذه الآراء تصل رغبات الهو للجنس والشفقة بصورة غير مستقرة وتقع على أول شيء في يد الطفل . لذا يشعر بأول أحاسيس مرتبطة بالجنس ويرغب في امتلاك أمه كلية بقدر ما يفهم من الامتلاك من معنى . ويكون هذا الحب بلا حدود .

وهذه الانفعالات تنطبق أيضا على الكراهية التي تتولد عند الطفل لأبيه الذي يمثل عنده الغريم الذي يشاركه في حب أمه ٠ ومع هذا فهو يشعر الى جانب غضبه الشديد من والده بالخوف من أن يقدم والده على الانتقام منه ولذلك فان كل حركة منه تعبير عن هذا الخوف ٠

والذي يزيد الأمور تعقيدا ان طلبات الطفل غير المحددة ولا المستقرة للحب من أمه لا يجد لها قبولا ، لذا تندفع رغبة الهو عنده الى العدوان ضدها ٠ فبجانب حبه المطلق لأمه يكرهها أيضا بشدة ، الامر الذي ينقل مركز هذا الحب الى والده ٠ ولذلك نلاحظ أن الطفل قد دخل في حب وكراهية وخوف تجاه الوالدين معا وفي نفس الوقت ٠

ويعتقد فرويد ان الفتيات أيضا يعانين نفس هذه الانفعالات ولكن المراكز الوجدانية عندهن تتسلل الى الأب حيث أنها تحس وتشعر بأن الأم غريمة لها ٠ هذا ما يعطينا الدليل الواضح المؤكد على أن مشاكل هذه الانفعالات العاطفية المخيفة لا حل لها وذلك التوحيد مع الوالدين يعتبر من الآليات التي بواسطتها يمكن حل هذه المشاكل ٠

ويرى علماء النفس أن التوحيد يمثل ويجسد أحد مصطلحات نظرية التحليل النفسي المعروفة ، وليس من اليسر وصف هذه العملية التوحيدية ، ولكن يمكن أن نذهب باختصار : أنها تعني أن الطفل يمتص في كثير أو قليل والده في شخصه ، وبصورة خاصة يمتص تلك المناحي التي ترتبط بعنصر الطاعة والنظام عند والديه .

وقد يحل الطفل حبه وكراهيته لوالديه بأن يكون متهما بواسطة أن تأخذ نفسه قوتهما وسلطتهما ويقنع نفسه بأن حبه وكراهيته شيء غير منطقي وبغيض . وانطلاقا من هذا الرأي تصبح أحكامه الخلقية أو ما يدركه من صفات ومناقب خلقية عندهما أناه الأعلى .

ويشد من أزره في ذلك السيطرة على رغبات الهو التي تثير له كثيرا من المتاعب وخاصة بالنسبة لعقدة أوديب . ومع ذلك فان الأنا العليا بعد فترة معينة تسيطر عليه . وكما كان يفعل والده فانه يعاقبه أو يهدد بمعاقبته للاعتداءات التي تقع منه . ولما كانت مستوياته قد وضعت بصورة جامدة خلال فترة الطفولة فان معنى الجريمة والذنوب تعتبر غير مستقيمة ولا منطقية مطلقا .

هذه صورةسهلة للفايةللتكوين العقلي الانساني كما يراها العالم النفسي فرويد • فأنا الواعـــي يحاول أن يجعل سلوكنا ذا معنى وله أساس ،ولذلك فهو يبذل كل جهد في سبيل اشباع بعض رغبات الهو غير المستقر دون التعرض لغضب وانتقـــام الأنا العليا •

ويلاحظ ان فرص الوقوع في الخطأ خلال عملية التوافق والانسجام هذه غير محددة • فمثلا اذا لم تكون الأنا خطوط دفاع مناسبة لأن يكون الفرد عضوا في المجتمع أو على الاقل عضوا في مجتمـــع نظيف فانه سيصبح منحرفا محبا للشغب •

واذا كانت خطوط الدفاع من ناحية أخرى قوية متينة للفاية فانه قد يقع في مشاكل عويصة رديئة • ان زيادة الكبت للرغبات الجنسية تجعل الفرد غير قادر على التمتع بالحياة الجنسية العادية أو يحصل على العاطفة السوية باعتباره بالفا • كمـــا ان زيادة الكبت للرغبات العدوانية تجعل الفرد غـــير قادر على الاعتمـــاد على نفسه في عمليـــة الاخذ والعطاء في مجال المنافسة •

ومما لا شك فيه ان تقيد الأنا العليا ستلقي

بالحياة كلها في المشاعر غير المقيدة التي لا تسيطر على النفس ∘ وهذا هو السبب فيما يصطلح عليه بعقدة النقص مع أن فرويد لم يدخل هذا المصطلح ∘ وبمقدار ، يتحكم الجانب الشعوري من العقل ــ الأنا ــ في سلوك الفرد ، ويصبح السلوك مقبولا وسويا ، وبمقدار ما تتحكم المشاعر الطفلية والاحقاد اللاشعورية (مطالب الهو السوداوية البدائية ومطالب الأنا العليا الجامدة غير المرنة) في السلوك ، فان الفرد يميل الى أن يصبح غبيا مثيرا لألم عصابي غير مرضي ، ان ما يحاوله المحلل عند معالجته للعصابي هو ابعاد اللاشعور بقدر الامكان، وأن يطهر وينظف وينقي النفس من كل رغبات مكبوتة وصراعات كامنة ، واخضاعها للفعل الادراكي لدى المريض ∘

ومتى أصبحت الرغبات أو الصراعات والنزاعات في اطار المعرفة الادراكية وتتم السيطرة الفعلية عليها فانها تفقد قدرتها على ارغام المريض ودفعه الى السلوك المنحرف ∘

ويعتقد خبراء علم النفس الحديث ان أول أداة أو سلاح في يد المحلل النفسي لتحقيق هذا

الهدف هو التكنيك الذي سماه فرويد بالتداعي الحر . ويحث المحلل النفسي المريض خلال استراحته على أريكة مريحة بقدر الامكان أن يترك أفكاره تجول فيما يرغب فيه ، وأن يتحدث بكل شيء يدور في أعماقه مهما كانت تفاهة هذا التفكير أو عدم قيمته في الظاهر ، وحتى لو كانت مثيرة للحياء ، وتعتبر اهانة للمحلل أو غيره .

وانطلاقا من هذه الظروف التي يمكن تمثيلها بالحلم خلال النوم يقل سيطرة الادراك والشعور ـ الى أدنى حد ـ وتكون هناك الفرصة المواتية لصوت الشعور للاستظهار والتعريف بنفسه ولو بصورة غير مباشرة على الاقل . وبقدر ما يستطيع المريض تذكر أحلامه يكون تسجيل هذه الأحلام ، وهو التعبير عن العقد التي يكتشفها التحليل النفسي .

وسرعان ما يحصل المحلل النفسي بصورة تدريجية على صورة واضحة لأعماق تلك العمليات التي تتفاعل في عقل المريض ، لا تلك التي توجد في الشعور فقط والتي تكون واضحة وظاهرة على السطح ، بل تلك التي كانت مخزونة في اللاشعور منذ عهد الطفولة .

والأريكة التي تستخدم عادة أثناء عملية التحليل ليست سوى لاراحة المريض ولوضعه في مكان يمكن مراقبته من قبل المحلل النفسي الذي يجلس بقرب الاريكة في المؤخرة بحيث لا يقدر المريض أن يشاهده ٠

ومثل هذا الوضع يراه المحللون النفسيون مناسبا لأداء عملهم ٠ فاذا كان المحلل بعيدا عن المريض فان المريض لن يتأثر به وبتعبيرات وجهه سواء أكانت تدل على الموافقة أم على المعارضة ، أم بدون أن يرتسم عليه أي تعبير ٠ ان المحلل النفسي يحب ويفضل دائما الوصول الى الأبعاد العميقة الداخلية لافكار المريض دون أن يؤثر عليها أي شيء خارجي ٠

ولهذا نجد أن المحلل النفسي يحاول أن يطمس معالم شخصيته ورغباته ، وأن يلاحظ رد فعل يخرج عن المريض يعكس ذاته وشخصيته بشرط ألا يكون هناك أي تأثير لأفعال المحلل ذاته ٠

وهذه الأمور كما يفهمها علماء النفس ترتبط بكيفية تصرف المريض تجاه المحلل في عملية التحول التي تؤلف أحد الافكار الرئيسية المعروفة للتحليل

النفسي والتي أسيء فهمها حتى هذه الايام رغم تطور علم النفس وتقدمه ٠

ويذهب علماء النفس الى أن الافكار الخاطئة الشائعة فحواها ان المريض في نهاية التحليل ينقل مشاعره الى المحلل ، وخاصة اذا كان المريض أنثى تقع في حب المحلل ، وأن هذا الانفجار للمواطف يحرر المريض فجأة من القيود ٠ ونلاحظ في الحقيقة أن عملية التحول هذه شيء آخر بالمرة ٠ لأن التحويل ببساطة يعني أننا جميعا وبخاصة في مراحل البلوغ نميل نحو تحويل مواقفنا الوجدانية التي كنا نشعر بها تجاه من نحب ونكره ـ مثل الآباء والاخوة والاخوات ـ الى كل شخص نقابله وغالبا ما تكون هذه المشاعر العتيقة من كراهية وحب لا شعورية مكبوتة ، عبارة عن عطف عميق نحو البعض الذين ترى مداركنا أنهم لا يستحقونه أو كراهية لآخرين دون سبب يذكر على الاطلاق٠ وعند التحليل يرى المرض الطبيب المعالج يوما بعد آخر ويظهرون أفكارهم له ، فمن البديهي أنهم يتحركون نحو العودة الى هذه المواطف المؤقتة ٠

ويعتقد علماء النفس أن هؤلاء يخضعون

بصورة مباشرة الى تأثير الرغبة في ارضاء المحلل النفسي والحصول على تقديره لهم ، أو بالأحرى يقعون فريسة مشاعر وأحاسيس معادية له فتتولد لديهم الكراهية له • أو قد يتعرضون لخليط من المشاعر السابقة •

ولما كان الطبيب يحاول بذل كل طاقاته حتى لا يعتبر مرغوبا أو غير مرغوب فيه ، فان هـذه المشاعر تخرج بزخم من أعماق شخصية المريض لتكون دليلا على اللاشعور عنده • ولا يعمل المحلل النفسي من جانبه على تشجيع هذه المشاعر ، ولكنه يتركها لكي تنمو بصورة كاملة حتى يتمكن من دراستها بصورة دقيقة • وما ان يساعد المحلل النفسي المريض على فهم هذه الأمور حتى يكسب نصف معركته مع المريض •

ورغم كل هـذه الاشياء فان تقدم التحليل النفسي يكون عادة بطيئا وموجعا ، انه لمن المشاكل المعقدة للغاية أن ينام الشخص على أريكة طويلة ويترك لعقله التجوال بدون قيادة خلال الارتباط الحر ، بينما يضع في نفس الوقت هذه الافكار في كلمات •

ومن الصعوبة بمكان أيضا وخاصة للعصابي لأن هناك مناطق عديدة للتفكير لديه قد سدت بالمقاومة ، لأن اللاشعور عنده ليست له القدرة على الاقتراب من ذكرياته المكبوتة ◦ فاذا استطاع المريض أن ينزل الى التداعي الحر خلال الجلسة الأولى وأن يفعل ذلك بانتظام لمدة ساعة كل يوم فان التحليل النفسي لن يكون طويل الامد ولا باهظ التكاليف ، وأن يكون كل فرد سعيدا به ◦

ومن المؤكد أن المحلل النفسي لديه القدرة لكي يعمل على الاسراع في عملية التحليل ◦ فاذا ما وجه أسئلة ارشادية نافعة فانه على الاقل يتمكن من وضع نهاية زمنية لأي احتمال للتداعي الحر ◦ واذا ما تكلم عن نظرية التحليل النفسي فانه يضع التحليل في مهب الرياح ، ويتعرض لخطر أن يتعلم المريض لغة التحليل دون أن يصل الى معناها الذاتي ◦ ولا يتمكن المحلل كذلك الاسراع في الأمور عن طريق اخبار المريض بعض الحقائق الواضحة التي وصل اليها عن شخصيته ◦

ويلاحظ علماء النفس ان آلاف من الآباء والمدرسين ورجال الدين قد عرفوا أنه لا فائدة لأي

منطق مع الطفل الصغير أو الشخص المخمور ، أو لاعب القمار ، أو الفتاة الشابة التي استهلكت الحب المريض ° وحتى يتمكن المريض أن يمسك بنفسه الاطار الداخلي لمشاكله فانه ربما تتدهور الأمور اذا ما أخبر بالصواب والخطأ °

ولهذا فعلى المحلل النفسي أن ينتظر قبل أن يجيب على الاستفسارات ويحاول السماح للمريض أن يقول يوميا ان ٢ + ٢ = ٤ حتى يكتشفا مما لماذا اعتقد المريض في هذه النتيجة °

ويعتقد بعض علماء النفس ان في هذا المجال يوجد سوء تفاهم آخر لمعنى التحليل النفسي ،فنحن نلاحظ بصفة خاصة في دور السينما مثلا أن المحللين يصورون على أساس أنهم يحثون ويشجعون مرضاهم على الامتناع عن ممارسة هواياتهم أو يرجعون مرة أخرى الى رئيسهم المباشر أو يعملون على طلاق زوجة غير جذابة ° وفي الحقيقة يميل المحللون الى الابتعاد عن مثل هذه المشاكل السابقة الذكر ، ويعمل هؤلاء في بداية جلسة التحليل الأولى عادة على تحذير مرضاهم من السير وراء القرارات المفاجئة مثل الدخول في مشروع زواج

مفاجيء أو طلاق مماثل أو ممارسة أي تبديل خطير عندما يكون في مرحلة العلاج ◦

ويعود ذلك جزئيا الى أن أي قرار خطير يعتبر مؤقتا من مزاج المريض ويؤخر من معالجة المشاكل الداخلية له ◦ ويرجع هذا التحذير بصورة غالبة الى أن القيود والضغوط الناتجة عن التحليل النفسي قد تشجع المريض على اتخاذ اجراءات متسرعة قد يأسف ويندم على اتخاذها فيما بعد ◦

أما بالنسبة للنصائح والارشادات خلال العلاج، فان المحللين لا يستطيعون تقديمها غير أنهم يضطرون للكشف عن بعض اتجاهاتهم ومواقفهم ، الامر الذي يفقدهم الحياد الواجب ◦ وعلاوة على ذلك نلاحظ أن المريض العصابي يمكن له وحده أن يسجل رد فعل على هذه الارشادات بدون تفكير مثله مثل الطفل المريض الذي يعتمد على الغير ، أو مثل الثورة العمياء للطفل الامر الذي يزيد في مشاكل المريض ◦

وربما اتخذ الخبير النفسي ، أو الطبيب النفسي ، أو المستشار النفسي ، بدون اتباع نظريات مدرسة التحليل قرارات تقضي بأن بعض

الناس يمكن مساعدتهم بالنصائح اذا كانت مشاكلهم العصابية ليست على درجة عظيمة من الخطورة ، ولكن المحلل النفسي لا يقدم على ذلك أبدا .

وهناك فكرة شائعة ترى أن النهاية الاخيرة للتحليل النفسي تأتي كشعلة من النور المشع . ان المريض يتغير في ذكريات تجارب الطفولة الأليمة — كأن يغلق عليه باب الحمام عندما كان في الثانية من عمره — ويخبر الطبيب عن هذه الذكريات القديمة . ثم ينهض فاذا به قد ولد من جديد . وهناك تسمية شائعة لهذه العملية تعرف بالتطهير أو التنفيس . وقد حدث أن فرويد نفسه قد استخدم هذه الكلمة عندما وجد أن المرضى يشفون أحيانا من العمى أو الشلل الناتج عن الاضطراب الوجداني بصورة أكبر من أولئك المصابين لأسباب فيزيقية ، وذلك عن طريق تشجيعهم وهم تحت تأثير التنويم الى العودة ، أو تمثيل ما سبب لهم الاضطراب العميق .

ويبدو أن العالم النفسي فرويد قد كشف عن أن المشكلة العصابية تظل قائمة بينما العارض

يزول بواسطة عملية التطهير أو التنفيس ◦ وهذا المبدأ صحيح أيضا بالنسبة للمصابيين جميعا ، فالمريض ربما يشعر بالراحة بصورة مؤقتة اذا ما استظهر لاول مرة سره الخفي حول كراهيته لأخيه الاكبر ، أو الاعلان عن خوفه في مرحلة الطفولة عند مشاهدته بعض الافعال الوحشية أو الشهوة أو الشجاعة • ولكن عملية التنفيس لا تحل مشاكله جميعها ◦

ويعتقد علماء النفس ان ما يساعده في النهاية خلال التحليل النفسي الناجح ، أو يقلل من الصراع اللاشعوري الذي يصطخب في أعماقه ، ويزيد في مجالات الادراك الواعي ــ هو أمر رفيع آخر لا يتسم بسمة الاعلان السابق ◦ فعندما يضغط المحلل المشاكل اللاشعورية يحاول أن يتوصل الى صورة واضحة عن ذلك الشيء الذي يسبب الضيق للمريض ◦

وبعد عملية التداعي الحر والاحلام التي يستخدمها المحلل والتي يأتي بعضها بتفسير خاص للمريض يمكننا أن نعتبر تلك الأمور التي يحاول المريض الابتعاد عنها تدخلا جديدا في مقاومته ◦

ويقود المحلل النفسي المريض بصورة تدريجية حتى يفهم أن سبب الاضطراب الذي شعر به في معدته البارحة مثلا هو أنه ربما قابل مديره في المصعد بعد الغداء .

ولكن لماذا يخيفه المدير على هذا النحو ؟ وهنا تبدأ المرحلة التي توصل المريض شيئا فشيئا الى كل أنواع الذكريات التي مضت والى العواطف الوجدانية التي ربما تتصل بخوفه من آثار أبيه ومحاولة الانتقام منه خلال مرحلة أو عقدة أوديب ، أو تشكل الأنا العليا التي تلاحقه لأنه قد أخفق في أن يكون مسيطرا على ذاته ، أو ربما السببان معا أو أسباب أخرى عديدة .

ويذهب بعض علماء النفس الى أن المريض ربما تظهر له هذه الاسباب لا نهائية وييأس من قدرته على الفهم الحقيقي لصراعات نفسه . ولكن تقع هذه المحاولات تدريجيا في محلها ، ويساعد المحلل المريض على أن يدرك كيف أن مخاوفه ورغباته القديمة التي نسيت أو أهملت تؤثر على اللاشعور عنده وبالتالي تؤثر على حياته . وينجح المريض في السيطرة على نزعاته وانفعالاته اللاشعورية وصراعاته التي لا تقلق راحته بعد ذلك .

هذه هي الأهداف الاساسية التي ينطلق في ضوء أنوارها التحليل النفسي ، ولكن أحيانا لا يتم الوصول اليها وتحقيقها عن طريق مناهج التحليل النفسي ، ولكن هناك تمنيات وآمال كبيرة في أن يناضل ويكافح التحليل النفسي حتى يوصل الانسان الى انسانيته الصحيحة فيصبح عضوا فعالا ناجحا في مجتمعاتنا الحديثة المتطورة .

تأثير التحليل النفسي :

عندما نحاول أن نعرف مدى تأثير التحليل النفسي على المرضى المصابين بالأمراض النفسية المتنوعة والتي تختلف في قوتها وضعفها نلاحظ أن النقد الذي يوجه عادة الى المحلل النفسي لا يعدو كونه تحامل وسخف ، لأن المحلل النفسي ليس سوى صاحب مهنة كغيره من أصحاب المهن الاخرى التي تسود المجتمع الانساني ، ينبغي أن يتمتع برحابة الصدر ويقبل كل ما يوجه اليه من انتقادات طالما يشعر في أعماقه أنه يؤدي واجبه على أكمل وجه ، وهذا النقد يدخل في ميدان عمله الروتيني .

ويعتقد علماء النفس من جانبهم ان نجاح المحلل النفسي يمر دون أن يلاحظه أحد بينما فشله

في أغلب الأحيان يلفت اليه الانظار بسرعة البرق الخاطف ٠ فالمرضى الذي يقدم لهم كل ما هو مفيد لعلاجهم يذهبون عادة الى أعمالهم في هدوء ودون ضجة ، ولا يتوقع أي فرد أن يكون للمحلل النفسي أي صديق من هؤلاء ٠ أما أولئك الذين لم يوفقوا في النجاح مع المحلل فيناله الكثير منهم اذ أنهم يشوهون سمعته ويعطون فكرة سيئة عن التحليل النفسي ، ويحاولون خلق القصص الملفقة الكاذبة التي يجعلونها تدور في دائرة المحلل ذاته ٠

ولا أدري كما لا يدري هؤلاء الذين يترددون على عيادة المحلل النفسي أنهم قد يتعرضون لأشد أنواع المشاكل العقلية خطورة ، مع أن ذويهم وأقاربهم وأصحابهم يعدونهم من أقل المصابين بالشذوذ والانحراف ٠ وعندما يحاول المحلل النفسي معالجة أمثال هؤلاء المصابين بنجاح وصدق، فان العائلة سوف ترى أنه لم يكن هناك شيء بالمرة وان عملية العلاج هدفها الاول والاخير ابتزاز الأموال ٠

وفي حالة فشل العلاج وعجز المحلل النفسي عن القيام بأية خطوة لتقدم صحة المريض ، وتكون

نهاية المريض الدخول الى مستشفى الامراض العقلية ، فان اللوم سوف يوجه بصورة مكشوفة الى المحلل النفسي الذي ابتز أموال المريض وعجز عن معالجته • فالمريض في اعتقادهم كان سليما حتى اللحظة التي أشرف فيها المحلل النفسي على مداواته • وهكذا تسير الأمور • واذا لم يكن المحلل قد خضع للتحليل النفسي لقيل : انه وقع تحت تأثير واضطهاد العقل الانساني •

في الحقيقة ان التحليل النفسي ككل قد وجهت اليه انتقادات كثيرة كان بعضها سليما والبعض الآخر بعيد تمام البعد عن الواقع والحقيقة ، لذلك نرى من واجبنا أن نستعرض بعض هذه الانتقادات لنلاحظ مدى قربها أو بعدها عن حقيقة التحليل النفسي •

يرى بعض علماء النفس المعارضين للتحليل النفسي ان ما يطلق عليه اسم اكتشافات فرويد ما هي الا وجهة نظر ولا شيء غير ذلك ، ولا يمكن تأكيد هذه الاكتشافات بصورة قاطعة عن طريق المناهج العلمية • ولا يوجد أي فرد في العالم قد شاهد « الهو » أو « الأنا العليا » تحت الميكروسكوب

ولن يستطيع أي شخص في العالم القيام بذلك ٠ ان كل ما يمكن الاعتماد عليه هي الكلمات التي قالها فرويد ٠

في الحقيقة ان خلفاء فرويد قد أعلنوا بأنهم قد أكدوا تلك الافكار عند ملاحظاتهم لمرضاهم ،ولكن هؤلاء يقفون ولديهم افتراضات سابقة تثير الشك في صدقهم ٠ ومن الطبيعي أن كل شخص يمس بتدريب تحليلي يتمثل في سنوات عديدة من الافكار النظرية والخضوع للتحليل بواسطة أحد أتباع فرويد ، سيتعرض بلا شك لغسل مخ لصالح فرويد ٠ فاذا ما قرر المحلل في نهاية تدريبه أنه قد غسل سنوات حياته السابقة ووجدها لا معنى لها ، فماذا يفعل اذن هذا الشخص في بقية حياته القصيرة ؟

ويكفي أن نلقي نظرة خاطفة على حياة فرويد حتى نعرف مدى صدق ذلك القول الذي يؤكد بأن فرويد كان يتبع منهج الملاحظة العلمي ٠ وفي هذا المجال نذكر المؤلف الاخير لحياة فرويد المعروف بـ « حياة وأعمال سيجموند فرويد » الذي وضعه تلميذ له وهو الدكتور « ارنست جونز » الذي ظل صديقا حميما لفرويد حتى وفاته سنة ١٩٣٩

ميلادية ۰ وتدعو هذه المذكرات في الواقع للسخرية والعطف ، فاذا كان هدف الدكتور المؤلف القول بأن اكتشافات فرويد هي أقرب المعجزات التي تستطيع وسائل الانسان الاحاطة بها ، فان هذه المذكرات أيضا توفر الدليل القوي على أن فرويد كان في هذه الأيام بدائيا سهل الانخداع ۰

ويلاحظ هؤلاء النقاد ان هنـــاك مثلا مسألـــة صداقته الطويلة الغامضة مع طبيب برلين المعروف ويلهيلم فليس ۰ ولهذا الطبيب الغامض نظريـــة فحواها أن الأحداث التي تقع للانسان بما في ذلك واقعة ولادته وموته يحكمها العدد ٢٣ والعدد ٢٨ ۰ واذا حاول ولم تدعمه الارقام فانه يقوم بعمليات حسابية غريبة ينقص بها الأعداد ويزيدها ويضرب بعضها في البعض الآخر حتى يصل في النهايـــة الى تأكيد وجهة نظره ۰

وتعتبر هذه العملية في الواقع دجلا وتهويشـــا على الرغم من أنه يطلق عليها « علم الأعداد » ۰ ولا يظن في هذه العملية سوى الاشخاص الفاشلين ۰ ومع ذلك فقد أخذ فرويد هذه الآراء على محمل الجد وكان يعتقد في تنبؤات الدكتور فليس لسنين

عديدة التي فحواها أن فرويد سيموت عندما يصل الى سن الواحدة والخمسين ◦ وجاءت هذه السنة وفرويد لا يزال حيا يرزق ، ولكنه قرر بنفسه دون مساعدة فليس أنه سيموت في شباط ١٩١٨ ◦ مع ذلك فقد كان هذا التاريخ الاخير سابقا على واقعة موت فرويد بواحد وعشرين عاما ◦

ويزعم المحللون النفسيون أنهم على حذر دائما من أفكار المريض الخفية ، ويلقون على أنفسهم وشاحات من الغار فيقولون : انهم قد عبروا في هذه العملية التي وصفها تيودور ريك في كتابه « الاتصالات بالأذن الثالثة » ◦ ويقول الدكتور جونز : ان أذن فرويد الثالثة كانت صماء ◦ويروي جونز بذاته ان فرويد خلال زيارة مريض معروف لديه كان يبتلع بعض الاقوال التي يعتقد جونز في كذبها ، وأن فرويد كان يرفض الاعتقاد في أمور كانت حقيقية فعلا ◦

ويأتي جونز على ذكر واقعة مفادها أن سيدة مريضة شكت لفرويد أنها عوملت معاملة مخجلة من محلل نفسي يدعى بلانك في انكلترا ◦ وغضب فرويد غضبا شديدا وقص الواقعة وهو في حالة

ضيق مرير على طالبة انجليزية المولد قابلها بعد ساعة من خروج المريضة المذكورة ٠

وسرعان ما اكتشفت الطالبة أن المريضة قد اخترعت هذه القصة على النحو الذي يفعله عادة العصابيون ، وردت على فرويد بدقة وحرص أنه لا يوجد في انجلترا طبيب يعرف ببلانك ، ولا يوجد في مدينة ايبوتشن محلل نفسي يحمل مثل هذا الاسم ٠ الا أن هذه الحقائق لم تؤثر على موقف فرويد ، وظل في حالة ضيق من الدكتور بلانك حتى وصله بعد ذلك خطاب من زميل كان قد حول له هذه المريضة ، وشرح في الرسالة أنها مصابة بالهذاء وتعتقد بصورة خاصة في أنه يعتدي عليها بصورة مخجلة من الاطباء الذين يعالجونها ٠

ولما كان فرويد طبيبا شابا كان يتأثر بشدة من سماعه أن مرضاه يغتصبون أحيانا وهم في مرحلة الطفولة ، فاذا كان هؤلاء من النساء يتم اغتصابهن من قبل والدهن أو أعمامهن ، واذا كانوا ذكورا فقد يغتصبون من قبل مربياتهم ٠ لهذا فقد صاغ نظريته القائلة بأن العصاب سببه الخبرات الناتجة عن الصدمات لسوء المعاملة الجنسية في مرحلة الطفولة ٠

وكان ذلك هو اعتقاد فرويد الراسخ لأربع سنوات خلال الثلاثينات من عمره حتى اكتشف عن طريق الصدفة أن مرضاه كانوا يلفقون هذه القصص أيضا ٠ عندها ترك فرويد نظريته وعاد من جديد الى ميدان البحث حتى انتهى به الامر الى نظريته الاخيرة ٠ ولكن أي خبير أو عالم أو محلل نفسي يعرف تماما هذه الظاهرة التي تعرف باسم « الاتجاه العقلي » ٠ فاذا ما نطق أحدهم على سبيل المثال بالأسماء التالية : علي حسن ، علي محمد ، علي مصطفى ، ثم انزلق بعد ذلك الى الكلمة «الآلة» فانه بكل تأكيد سوف يخطيء النطق بهذه الكلمة الاخيرة لأن تفكيره قد اتجه لسماع كلمة « علي » وينطبق هذا القول على نظريات فرويد الأولى التي بنيت على التمييز بين الحقائق والخيال ، ولذلك كانت هناك شكوك حول وجود مؤثرات على اكتشافات فرويد الاخيرة الخاصة بالرغبة الجنسية للطفل وعقدة أوديب ٠

ومن الأمور المؤكدة ان تفكير فرويد قد اتجه الى التفسير الجنسي منذ البداية ولمس في مرضاه ما كان يستعد لرؤيته ٠ وعلاوة على ذلك كان من السهل عليه أن يجعل مرضاه يثبتون توقعاته ،ذلك

لأن العصابيين يمكن الايحاء لهم بسهولة ولذلك سوف تنمو خواطر وأفكار جديدة لديهم وقصص جديدة عند أول اشارة تظهر لهم من قبل المحلل النفسي ٠

ويذهب المعارضون لنظرية التحليل النفسي الى أن أفكار وآراء فرويد يشك في أن لها قيمة علاجية بالمرة ٠ وأورد العالم النفسي جونز دليلا قويا عن حياة فرويد خلاصته أن فرويد نفسه يعتبر أول مريض كانت له سمات عصابية لازمته حتى وفاته على الرغم من تحليله لذاته ٠

لقد أدمن فرويد نفسه تدخين لفافات التبغ ما معدله ٢٠ لفافة في اليوم ، وكان يعاني أشد سمات السيكوسوباتية عندما حاول أن يقلع عن التدخين ٠ وكان فرويد أيضا سوداويا يعاني من هلوسات نفسية ، وكانت خطاباته لأصدقائه مليئة بالشكوى من مشاكل يعاني منها السيكوباتيون عادة مثل : الامساك المعوي ، وسوء الهضم ، وعدم انتظام دقات القلب ٠

وكان فرويد مضطربا مشغول البال عندما يرغب في السفر ، ويصاب بعصبية « نيللي » حيث

يذرع محطة السكك الحديدية ذهابا وايابا قبل حلول ميعاد تحرك القطار ۰ وكان يميل في حياته المهنية لأن يكون مشاغبا ولا يحتفظ بالمعلومات التي يبوح له فيها زملائه على سبيل الثقة به ۰

ويلاحظ مؤرخي علم النفس التحليلي أن هناك صعوبات كثيرة كانت تحول دون المحللين النفسيين في عهد فرويد نفسه ۰ وحتى يتأكد الشخص أن التحليل النفسي ليس مضمونا ١٠٠ ٪ بين خبرائه ما عليه الا أن يطالع كتاب الدكتور ديك المعروف باسم « شظايا الاعتراف الكبير » حيث يبين فيه كيف أنه قد غرق في بحر المشاكل الفردية خلال ٢٥ سنة من عمله كمحلل نفسي ، وأنه قد قام بتحليل نفسه مرة أخرى بعد ذلك ۰

ان كل انسان يعرف ولو القليل عن التحليل النفسي يمكنه أن يشهد بأن هناك مراتب تنقسم اليها الجماعة الانسانية ، فيوجد ضمنها من يفقد السيطرة على نفسه ، أو يدغدغ أطفاله ، أو يغش عند لعب الجولف مثلا ، أو يحاول الاتصال الجنسي مع كل امرأة يقابلها ۰

ولا توجد هناك دلائل على أن المدارس وأقسام

التحليل النفسي قد سجلت نتائج تزيد عن النتائج العادية أو أنها تحررت من الفيرة وصياغة السياسات داخل الأبراج • ان الاطفال الذين حللوا نفسيا يخطئون السلوك مثلهم مثل الآخرين • فاذا كان المحلل النفسي لا يستطيع معالجة هؤلاء فكيف يمكن له أن يعالج اذن أي فرد آخر ؟

وبالاضافة الى مناقشة هذه الأمور المتعلقة بالتحليل النفسي هناك مناقشات نظرية أخرى حول أفكار وآراء التحليل النفسي ، كما أن هناك اعتراضا واحدا على الاقل من الناحية العملية • ان التحليل الكامل يتطلب أن يتحرر المريض من أعباء وظيفته ساعة واحدة في اليوم وذلك زيادة على الوقت اللازم للذهاب والعودة من « عيادة الطبيب » ويجب عليه التردد من ٣ الى ٥ مرات في الاسبوع على عيادة الطبيب المحلل لمدة من سنتين الى خمس سنوات • واذا أحصينا ذلك نلاحظ أنه يتكلف من ٧٠٠٠ دولار الى ٢٥٫٠٠٠ دولار وما فوق •

واذا ما توفر الوقت اللازم فهل من المعقول أن لا يناقش الانسان قضية المال ؟ واذا كان العالم قد

وجد الفراغ المطلوب والمال المدفوع فكيف يمكن لنا أن نمثر على المحللين المدربين بصورة كاملة ؟ وهناك أقلية من الناس يترددون على عيادة المحلل النفسي ، وربما فقط من يتمكن من تحمل نفقات المعالجة • واذا كان الناس ينتظرون من التحليل النفسي أن ينجده ويخلصه مما يعانيه من آلام فان أغلب الناس بدون أدنى شك سوف يحكم عليهم بالدمار والهلاك •

ومن الطبيعي جدا تجاه هذه الحملات الانتقادية أن ينبري المحللين النفسيين للاجابة على هذا النقد فيرد الغالبية منهم بتواضع يحير الأذهان ويخلب الألباب ، كما ان الكثيرين منهم لا يعرف الناس عنهم شيئا على الرغم من الدعايات الكثيرة التي يقومون بها •

هذه الجماعة هي في الواقع معتدلة للغاية ، بل هي مجموعة لا تمنح ثقتها لأي كان • وهناك الأقلية من المتطرفين بينهم قد أصابهم الغرور فوقعوا تحت طائلة النقد الذريع ، ان أحدهم يقف علانية ويطلق هكذا بالجملة ان الكتب الهزلية سبب من أسباب انحراف الأحداث ، أو يشهد أمام القضاء

انه قد فحص المتهم وتأكد من أنه بصورة مؤكدة سيكوباتي ٠

وربما يقرر العديد من المحللين ان نظريات فرويد لا يمكن تأكيدها بالمستويات العلمية الحالية، ولكنهم ظلوا على موقفهم من أن هذه النظريات يجب قبولها لأنه لا توجد وسيلة أخرى لتفسير ما يعتبر الآن نتاجا للملاحظة والرقابة من جانب الانسان ٠

ومهما كانت اتجاهاتفرويد سواء كانت منحرفة أم لا فانه على العموم كان عبقريا عندما لمس بأنامله الرشيقة أعماق الطبائع الانسانية ، وان اكتشافاته قد تحققت مرات عديدة خلال تجاربه التي أجراها بدقة عند معالجة آلاف المصابين ٠

وقد يكون فرويد كما وصفه النقاد سليم النية سهل الخداع ولكنه أمسك بأخطائه على المدى الطويل ، وكان أكثر الاشخاص تحررا عندما قبل هذه الاخطاء وتركها على النحو الذي فعله مع الدكتور فليس ٠

وعلى الرغم من هذه العيوب فانها قد ساعدته

في النهاية على كشف الاجابات الصحيحة على المشاكل التي ربما يتجاهلها من يقل عنه تصورا ◦ والحق يقال أن فرويد من وجهة النظر الشخصية كان يعاني من مظاهر عصابية واضحة خلال حياته جميعها ولكن يجب أن يفكر النقد الموضوعي ان تحليله لنفسه كان له قيمة لا نهائية ◦

وهذا التحليل الذاتي الذي قام به فرويد خلصه بصورة نهائية من الاضطراب الدائم العميق الذي رافق شبابه ◦ ولما وصل الى مرحلة البلوغ وقبل أن يعمد الى تحليل ذاته قام بنشاط عملي كبير يعتبر مقياسا عمليا للصحة النفسية ◦

وكانت حياته العائلية حرة تنسجم مع معالم العصر الذي عاش فيه ◦ وقد شهد العالم النفسي جونز هذه الحياة وأشار الى آنها في الحقيقة نموذجا للدفء والحب بين غير المتزوجين ، وتكاد تقرب من حياة العائلة ◦

واذا كان فرويد يعاني من بعض الاضطرابات فانها كانت ضئيلة وتعتبر على الاقل في عصره ، الضريبة التي يدفعها كل رجل في حياته ◦ويعترف أكثرية المحللين بسرور أنهم ربما يصابون من

بعض القلق والتوتر وهو الامر الذي يظهر على كثير من زملائهم بكل تأكيد ° ويقولون أيضا : ان ذلك هو الشيء الوحيد المنتظر ، ففي هذه الحالة غير المتكاملة للعقل ربما يصاب كثير من الطلبة بالاضطراب العاطفي بصورة كبيرة °

ان أغلب هؤلاء متعلقون للغاية بدراسة التحليل النفسي وذلك لأنهم يأملون في ايجاد الاجابة على مشاكلهم الشخصية ° وقليل من هؤلاء يتدرب على التحليل النفسي ولو أن ذلك لن يؤثر على خصوصياتهم ° وقد وجد البعض جزءا من هذه الاجابة ولكن ليست الاجابة بأكملها °

ويعتبر هذا الجزء الذي وجدوه يمثل أمل التحليل النفسي في هذه المرحلة وتطوير هذه النتائج حتى تصبح نهائية في المستقبل ° ولا يعتبر ذلك بالشيء السيء لأن الشخص الذي يعاني من المشاكل العصابية قد يكون أفضل بالنسبة لحساسية المحلل النفسي من ذلك الذي عاش حياته جميعها في انتصار ثم تدهور °

وربما وجدنا بعض الاشخاص الذين يمارسون التحليل النفسي دون أن يخضعوا له من قبل ، ولكن

هناك علاجا لهؤلاء ينبغي أن يقدم من قبل الاساتذة الذين يهجرون الجيل الجديد الذي يظهر دلائل نقص في المزاج أو عدم الاستقرار .

يعتقد بعض مؤرخي علم النفس التحليلي ان هناك بعض المحللين الذين نجحوا نجاحا كبيرا أكثر من غيرهم . وقد وضع ذلك أحد المحللين المشهورين من المتطرفين في الناحية المعارضة لأولئك الذين يرغبون دائما في الاعلان عن أنفسهم والدعاية للتحليل النفسي ، أن يقوم بتقدير شخصي للتحليل النفسي على النحو التالي : « اذا كان ما يثير الاضطراب لديك أمر غير خطير ، واذا كنت محظوظا بأن تذهب الى أحد الرفاق الذين يعرفون ماذا يفعلون ، واذا كنت مريضا صالحا وتعمل بجد ونشاط ، فان التحليل النفسي قد يساعدك ويفيدك » .

قد يكون التحليل النفسي الذي يزداد الامل فيه يوما بعد يوم وسيلة لمساعدة المصابين حتى ولو كانت هذه المساعدة على يد رجال أقل درجة من القديسين والنابغين . فالتحليل النفسي تتحسن أوضاعه بصورة متواصلة ، وان الجيل الجديد من

المحللين النفسيين سوف يحققون نتائج أفضل من أولئك الذين سبقوهم ٠ كون المحللين الجدد قـد نشأوا في بيئة ومجتمع أخـذ ينظر الى التحليـل النفسي نظرة واقعية مسلم بها ، كما ان برامج الدراسة قد تقدمت تقدما محسوسا ٠

ويبدو أن الطلاب قد عكفوا بصورة جدية على دراسة المؤلفات العلمية للاستفادة منها ، وكذلك عمدوا الى حضور جلسات التحليل العديدة سـواء كانت هذه الجلسات نافعة أو تافهة والتي سجلت على أشرطة سينمائية لدراستها في أوقات الفراغ ٠

ويرى أحد علماء النفس الذين راقبوا أحوال طلابهم أن الطلبة الآن أصبحوا على درجة عالية من الحساسية بمشاكل المريض عندما يبلغون الخامسة والعشرين ، وهو الامر الذي وصلنا اليه نحن عندما بلغنا الاربعين من العمر ٠

واذا ما حاولنا بجد وواقعية دراسة تاريخ علم التحليل النفسي نجد ان بعض المحللين النفسيين لا يتفق كثيرا مع فرويد ونظرياته على الرغم من أنهم يقبلون هذا الاتجاه وفعاليته بصفة عامة في معالجة المشاكل العقلية ٠

ويمكننا أن نعتبر الفرد آدلر وكــارل يونج اللذان كانا من تلاميذ فرويد الأوائل ثم انفصلا عنه في نفس الوقت حوالي عام ١٩١١ لكي يؤسسا مدرسة خاصة بهما • وقد أحدث انفصالهما هزة في حركة التحليل النفسي أكثر من الهزة النقدية الحادثة في هذه الأيام ، على رأس العلماء الذين عارضوا أفكار ونظريات فرويد •

من الملاحظ أن أدلر كان يعارض نظريات فرويد التي ترتبط بالأصول الجنسية للعصاب وذهب الى القول بأن نظرية فرويد كلها معقدة وغامضة • وكما يعتقد أدلر ان سيكولوجية الانسان البالــغ سواء أكان سويا أم شاذا تدور حول واقعة أن الطفل يولد الى هذا العالم ولا حيلة له بالمرة ، ويعتمــد بصورة مطلقة على أولئك الذين يحيطون به ولذلك فانه يتشبع بمشاعره الدونية العميقة •

وليست حياته التاليــة سوى محاولة لتدعيــم الشعور بالتعالي حتى يواجه تلك الأحاسيس غير المناسبة • وحتى يكون نمو الطفل عاديا سويا فانه يحتاج الى بعض الفضائل مثل الشجاعة والاستقلال والطموح •

واذا ما أحيطت عملية النمو بأبوين معيبين أو بعجز يصاب به الطفل أو تهتهته تقيده فانه يقابل كل أنواع الصعوبات المرتبطة بالمصاب ٠ وربما يتشبع بشعور عدم الملائمة ويقع ضحية لما أطلق عليه أدلر اصطلاح « عقدة الدونية » ٠

وقد يكون زائدا في طموحه ويتصف بالعدوانية بشكل مدمر ٠ لهذا كانت نظريات آدلر العصابية أكثر سهولة من نظرية فرويد ، وكذلك منهاجه في مساعدة المرضى ٠ لقد شعر بأن أهم شيء في هذا المجال قيادة المريض لكي يفهم ويستوعب الصراع بين رغباته في التعالي ومشاعر الدونية ، ولذلك يساعد المريض على حل هذه الصراعات بالقيادة والارشاد والتشجيع ٠

أما زميله يونج فقد كان بدوره أكثر تعقيدا من فرويد ، وقد جعله الاعتقاد في الاساس الجنسي للعصاب يبحث عن الاسباب في أمور يعتبر أكثر تهربا وتتسم بالغموض والابهام حتى يعجز العقل عن ادراكها ٠

ونلاحظ من خلال تصفحنا لنظريات يونج أنه يعتقد أن حياة كل انسان تتأثر بصورة عميقة

« باللاشعور الجمعي » ، والذي يعتبر ارثا له من صراع الانسانية الـذي دام آلاف السنين ◦ ان اللاشعور الجمعي عبارة عن مخزن لمواقف الاجداد السابقين تجاه الحياة والموت ، تجاه الدين والفضيلة والرذيلة ◦

ومن المؤكد نفسيا وعلميا وتحليليا ان مشاكل العصاب علامة واشارة الى الفشل في صهر سنوات النضال والصراع القديمة ، وقد يتجسد الحل لهذه المشاكل عند محاولة فهم واستيعاب مـا سبق أن فشلنا به في التعبير عنه عندما نرغب في تحديـد مصيرنا ومواقفنا الانفعالية السلوكية ◦

ويبدو من الطبيعي أن يكون للعالم النفسـي يونج تأثير فعال في أولئك الذين يميلون الى فكرة التحليل النفسـي دون التقيـد بفكـرة الجنس وبالاندفاعات الدونية ◦ مع ما لأفكار أدلر مـن رواج وانتشار بين أولئـك الذيـن ينظرون الى فرويد نظرة التعقيد المطلق ◦

ونلاحظ في بعض الأحيان أن أتباع فرويـد يصفون أدلر بأنه يجسد روضة أطفال علم النفس بالنسبة لفرويد أستاذ ومخترع هذا العلم ◦ ولا

يزال عدد كبير من أنصار يونج وأدلر يمارسون التحليل النفسي ويدبجون المقالات الطوال ، ويدربون الطلاب والطالبات على ممارسة هذا التحليل . وظل عددهم ثابت مع احتمال زيادته مع مرور الأيام على الرغم من أنهم يمثلون جماعات فرعية بالنسبة لقوتهم العددية .

وفي السنوات الاخيرة ظهرت بعض المدارس الجديدة لعلم النفس التحليلي مثلت الزيادة أو النقص في نظريات فرويد . ومن أشهر المعروفين في هذه المدارس جماعة هورني وجماعة ستاك سوليفان اللتان لم تركزا كثيرا كما فعل فرويد على الرغبات الغريزية للمريض ولكن اهتمتا بالمشاكل الواقعية له بصورة أشمل .

ولم تذكر الدكتورة هورني شيئا عن مصطلحات التحليل النفسي مثل الأنا والهو والأنا العليا وعقدة أوديب . وكانت نادرا ما تستخدم كلمة الجنس . أما ما كتبته حول علم النفس التحليلي فقد وجد رواجا وانتشارا في كافة الاصقاع .

آراء أخرى حول الصحة النفسية :

الأفكار والنظريات والآراء التي أدخلها علماء النفس وعلماء التحليل النفسي في مجال الصحة النفسية أعطت مدلول العلم النفسي مفهوما جديدا جعله يحتل المكانة العلمية والتجريبية الأولى في ميدان الطب بصورة عامة ٠

وفي هذا العصر المتقدم أصبح عدد العلماء والخبراء الذين يمارسون الطب النفسي ولا ينهجون المنهج التحليلي الذي كان متبعا في السابق في معالجة المصابين والمرضى ، لأن بعض هؤلاء العلماء والخبراء يشكك في فائدة التحليل النفسي بينما البعض الآخر يؤيد هذه النظريات التحليلية ويقف منها موقف المعتدل خاصة مع أولئك الاطباء الذين يخوضون غمار التجارب العلاجية للامراض النفسية ويفكرون بالوصول الى حل يضع حدا لهذه الآراء والافكار المتضاربة ٠

واذا ما أردنا التوغل في مجال تطور المعالجة النفسية في هذه الأيام نلاحظ أن الاكثرية من المحللين النفسيين قد افتتحوا عيادات خاصة

يختارون لارتيادها مرضاهم بدقة وعناية ويقدمون لهم العلاج الذي يحقق لهم الشفاء والصحة في أغلب الأحيان ٠

واذا ألقينا نظرة خاطفة على المستشفيات العقلية نلمس بوضوح أن الاطباء التحليليين يمارسون نشاطاتهم ويعالجون مختلف أنواع المرضى وأخطرهم اصابة ٠ وربما يعالج الطبيب في يوم واحد العديد من الاطفال المتأخرين عقليا ، والشابات اللواتي تظهر عليهن عوارض الهستيريا أو انفصام الشخصية يلاقين العناية والعلاج العاجل أما العجائز المصابين بأمراض الشيخوخة والخرف فهم موضع اهتمام الاطباء النفسيين ٠ وعندما يواجه الطبيب النفسي بمثل هؤلاء المصابين وما يرتبط بأحوالهم الصحية من مشاكل فانه يصبح مضطرا الى استعمال أي علاج يراه نافعا ، مع أنه في بعض الأحيان لا يكون واثقا من نجاعة هذا العلاج ٠

ليس بمقدورنا بعد أن لمسنا هذه الصورة الصحيحة عن علماء النفس أن ننكر أن الاطباء النفسيون قد استخدموا العديد من أفكار المحللين

النفسيين ،وكذلك طبقوا العديد من النتائج الخاصة بمناهج علم النفس والطب العام ٠

ومن الأمثلة المثالية على ذلك ما طبق في ميدان المعالجة التي قررت للجنود الذين ساهموا في معارك الحرب العالمية الثانية ، حيث كان الطبيب النفسي يعمد الى تخدير الجندي لفترة من الوقت ، حتى يستخدم فاعلية النوم في اصلاح الجسم الانساني ثم يشرع في اجراء التحليل العقاري ، وخاصة المخدر الذي يستعمل كمصل الحقيقة الذي عندما يحقن به المريض يولد لديه تيارا جارفا من الكلام والارتباط الحر ٠

وهنا لا بد للطبيب النفسي المعالج من أن يحاول استخدام العلاج النفسي وذلك بواسطة الشرح للجندي أو المريض أن مخاوفه ليست سوى عواطف انسانية سوية يتخللها أحيانا تغيرات مفيدة وغير سارة للجسم ٠

فاذا كان الجندي أو المريض يقع تحت سيطرة معارك القتال لم تكن لديه القدرة على الاكل أو ابقاء الطعام في معدته ، فان الطبيب النفسي يصف له التغذية بواسطة الحقن ، وكذلك كميات قليلة

من الأنسولين لزيادة الشهية أو أي عقار آخر له فاعلية في بناء أنسجة الجسم ٠

وفي حالة فشل هذه المحاولات في تحقيق تقدم وتحسن لحالة المريض فان الطبيب النفسي يتدرج الى العلاج النفسي الــذي يبدو أحيانــا تجسيــدا للتحليل النفسي القصير الأمد ٠

وعلماء النفس في هذه الأيام أصبحوا يعتقدون أن كل شخص تلفه كميــة مــن القيود بمقدوره مقاومتها في حدود معينة ٠ وتتوضح هذه المقاومة بالأبنية التي ورثناها ، وفق الطريقة التي تحل أو تفشل في حل المشكلة العاطفية عند الكبر ٠ ويعمد الطبيب النفسي في المجال العلمي أن يجعل العلاج في أقصر وقت ممكن ليتمكن المريض من مواجهــة شؤونه اليومية بنجاح ونشاط ٠

ومن الملاحظ أن الطبيب النفسي أصبح يهتم أكثر من المحلل النفسي ببعض المشاكل التي تواجه المريض مثل وظيفة المريض ، وظروف العمل ، والزواج والاطفال ، والبيئة والمجتمع ٠ فاذا كان المثل الذي يعتمد عليه المحلل هو جعــل المريض قادرا على ممارسة وظيفته في بيته بصورة جيدة

فان الطبيب النفسي يحاول أن يرشد الطبيب العام ليبعد القيود التي تكبل المريض في بيته ·

وقد يفعل الطبيب النفسي هذا بمساعدة الباحث الاجتماعي ، وهي الشخصية الجديدة التي ظهرت في ميدان تطبيق المعالجة النفسية · فالطبيب النفسي بالنسبة للجماعات ذات الدخل المنخفض يحاول في بعض الأحيان أن يقول بأن المريض لا ينتظر تحسنه قبل أن تتحسن ظروفه المالية والفيزيقية ·

ولكن العديد من الاطباء النفسيين يعتقدون أن الامل كبير في منع معاملة المرضى العقليين المسنين على يد خبراء علم الاجتماع ، ذلك لأنهم يحتاجون الى شعور بالفائدة والاشتراك في حياة المجتمع ككل ·

وفي الفترة الاخيرة تعرضت مشكلة الصحة النفسية لحرب طاحنة من قبل علماء النفس الاكلينيكي الذين يعتبرون من أكثر أفراد علم النفس تقدما وتطورا · كيف لا وقد طوروا عددا من المناهج الخاصة بهم ، وعلى سبيل المثال أجروا تجارب عديدة على « العلاج باللعب » حيث

يشجعون الاطفال على ترك مشاكلهم العاطفية في رسومهم وفي علاقاتهم مع لعبهم ، وكذلـك على « السيكودراما » حيث يشجعون الاطفـال الغيـر متوازنين على أن يجسدوا الصراعات التي لا يمكن لهم التحدث عنها بصراحة ٠

ومن الملاحظ أن علماء النفس الاكلينيكي قد حققوا تقدما كبيرا في ميدان تشخيص المشاكـل النفسية ، وأذاعوا عدة اختبارات كشفوا فيها عن هذه المشاكل التي شخصوها ٠ ومن المحتمـل أن يجري خبراء علم النفس تجارب وبحوث حول أسباب وطبيعة وصـور المشاكل النفسيـة في المستقبـل القريب ٠

ونحن لا يمكننا أن ننكر بأن كافة الاعمال التي نفذها علماء النفس في مجال العلاج النفسي قد أحيطت بهالة من الدعاية جعلتهم يغلفون تجاربهم واكتشافاتهم بغلاف ضخم من التطور في ميـدان الامراض النفسية ٠

وعلى العموم نلمس بأن العلماء النفسيون في هذا العصر قد استخدموا كافة الطرق والأساليب لمساعدة أصحاب الاضطرابات النفسية ٠ ويحاول

بعضهم تقصير فترة العلاج حتى ولو كانت هذه الفترة تحتاج الى مدة أطول • كما أن العديد منهم يجرون تجارب العلاج الاجتماعي حيث يعالجون مجموعة من المرضى في جلسة واحدة عن طريق مناقشة مشاكلهم معا • وكذلك يعمل بعض الصيادلة بجد واهتمام للوصول الى عقاقير جديدة لمعالجة المخ ، ويحاول أيضا الكثير من المعالجين النفسيين تبسيط وتهذيب ما لديهم من مناهج على الرغم من عيوبها وذلك لفهم المشاكل الوجدانية والتخلص منها •

ويعمل علماء النفس لاختبار كل فرصة عن التحليل النفسي والمعارف النفسية ، ويضيفون كل يوم حقائق جديدة عن الانفعالات والسلوك الانساني •

المشاكل الاجتماعية والتوافق :

الأهداف التي يرمي اليها علم النفس الشخصي هي الانسجام والتوافق الاجتماعي ، باعتبار أن التوافق الاجتماعي يدفعنا الى معرفة ما للعامل الاجتماعي من منزلة سامية في الحياة الاجتماعية البشرية ، وحياة الشخص النفسانية الحقيقية •

ويعتمد علماء النفس الاجتماعي ان الفرد لا يكون فردا بالمفهوم الصحيح الا بالقرنية الاجتماعية • وعلم النفس بأسلوبه الحديث يفرق بين ما يعرف بعلم النفس الفردي وعلم النفس الاجتماعي ، ولكن أغلبية هؤلاء العلماء لا يؤيدون بالفعل هذا الاختلاف الفرقي من الناحية الاجتماعية وكيفية تطبيقه تطبيقا اجتماعيا •

وعندما نحاول الغوص في أعماق هذه المشكلة الاجتماعية وتحليلها نلاحظ أن هذه المشكلة تعود بصورة مباشرة الى مشاكل التربية ، فما المدارس ، ودور الحضانة ، سوى منتديات اجتماعية مصغرة يمكن أن نبحث فيها مشاكل عدم الانسجام والتوافق الاجتماعي بسهولة •

والمشاكل التي يثيرها سلوك الطفل كعدم تناول الطعام بصورة كافية ، أو الحركة المتواصلة المستمرة في المنزل وخارجه ، قد يشغل بال الأم على الدوام ، فتجد نفسها منهوكة القوى ، فتشعر بأنها تكره سلوك ابنها ولا تتردد من أن تخرجه من المنزل اذا أشار عليها الطبيب بذلك •

ويقول العالم النفسي أدلر : « في مقدورنا بعد

سماع هذا الوصف المفصل لسلوك هذا الطفل أن نضع أنفسنا في مكانه • فاذا عرفنا أن طفــلا في الخامسة من عمره لا يكف عن الحركة فمن السهل أن نتصور نوع سلوكه في المستقبل • فماذا يدفع طفل في هذه السن ان كان دائم الحركة والنشاط الى هذه الحركة وذلك النشاط ؟ انه على سبيــل المثال يصعد الى الطاولة وهو ينتعل حذاءه الثقيل ، ويحب أن يشاهد أبدا قذرا ، واذا حاولت أمه أن تقرأ،عـَمدَ الى مفاتيح النور يفتحها ويغلقها ،واذا أراد أبواه أن يعزفا على البيانو أو أن يغنيا معا راح يصرخ أو يضع اصبعه في أذنيه ، ويلح على أنه لا ينبغي أن يسمع هذه الضجة ، وان هو لم يُجَب الى رغبة من رغباته التي لا تنقطـــع غضب وانحرف نحو الصخب والضجيج •

واذا لاحظنا على أحد أطفال المدرسة سلوكــا كهذا تأكدنا أنه ممن يؤثرون العراك على السكينة وأن كل ما يهمه أن يصل الى هذه الغاية ، فهــو لا يقر له قرار لا ليلا ولا نهارا ، ولا يعبأ أن تكون أمه وأن يكون أبوه قد أصابهما التعــب والاعياء والملل • أما هو فلا يعرف أي معنى من معانـــي التعب والملل ، لأنه لا يجبر بأن يعمل ما لا ترغبه

نفسه ، وكل ما يريده هو أن يكون دائم الحركة وأن يشغل غيره بأمره ◦

وان هذه التصرفات لتدلنا على أن هذا الطفل يبذل أقصى جهوده ليصبح موضع العناية ◦ وان طفلا من هذا النوع اذا أخذ يوما الى حفلة غنائية وكان أبوه وأمه فيها يغنيان ويعزفان ، ففي خلال الغناء والعزف لا بد لهذا الطفل من أن يقاطع أباه بصوت مرتفع وهو يردد : « ايه يا أبتاه ! » ، ويأخذ يمشي في القاعة ذهابا وايابا ، وهذا التصرف من السهل جدا التنبؤ به قبل وقوعه ، الا أن أبويه لم يتمكنا من معرفة أسباب هذا السلوك لأنهما كانا يظنان أن ابنهما طفل سوي ، على الرغم من أن سلوكه لم يكن سلوك هذا النوع من الاطفال » ◦

في الحقيقة لقد كان هذا الطفل سويا الى حد محدود ، وكانت له خطة واضحة للحياة ، وكان ما قام به من تصرفات في الغرفة تنسجم مع هذه الخطة كل الانسجام ◦ وقد كان من الممكن أن نتنبأ بهذه النتيجة لو أننا أدركنا هذه الخطة مسبقا ◦ وفي وسعنا أن نستنتج أنه لم يكن طفلا ضعيف العقل ، لأن الطفل الضعيف العقل لا تكون له خطة واضحة في الحياة ◦

وكان هذا الطفل كما يلاحظ من خلال سلوكه البيتي اذا زار أمه زائرون وأرادت الاستمتاع في الجلوس معهم،حاول هو بالذات دفع هؤلاء الزائرين عن المقاعد لأنه كان يرغب على الدوام أن يجلس على المقعد الذي شاء هذا الزائر أو ذاك أن يجلس عليه ، وهذا التصرف من السهل علينا أن نعرف أنه يتفق مع هدفه ومثاله الاول ٠ وهذا الهدف تكون له الأولية عنده ، بهدف السيطرة على غيره، حتى يكون دائما موضع انتباه أمه وأبيه ٠

وانطلاقا من هذه الملاحظات يمكننا أن نحكم ان هذا الطفل كان طفلا مدللا ، وأنه اذا دلل من جديد كف عن اختلاق المعارك ، أي أنه أصبح من الاطفال الذين فقدوا مركزهم الممتاز ٠ وقد يدور بخلدنا أن نتساءل كيف فقد هذا الطفل مركزه الممتاز ؟ والجواب على هذا السؤال أنه لا بد أن يكون قد ولد له أخ أو أخت أصغر منه فوضع في مركزه الجديد وهو في الخامسة من عمره ، وأخذ يشعر أنه أنزل عن مرتبته ، وأن عليه أن يصارع ويناضل حتى يحتفظ بمركزه الهام الذي يعتقد أنه قد فقده ٠ لهذا نراه حريصا كل الحرص على أن يكون أبواه مشغولين على الدوام ٠

ويعتقد بعض علماء النفس ان هناك ثمة سبب آخر هو أنه لم يهيأ للمركز الجديد ، وأنه وهو طفل مدلل لم يحصل على الشعور الجماعي الواجب أي أنه لم يوفق بين نفسه وبين المجتمع ، فهو لا يهتم الا بنفسه ، ولا تشغله الا مصلحته الخاصة ٠

ولو حاولنا سؤال والدته عن سلوكه تجاه أخيه الصغير فانها تؤكد بأنه يحبه ، ولكنه لا ينفك يحاول اسقاطه على الارض كلما لعب واياه ٠ومن هنا يكون لنا العذر اذا اعتقدنا أن تصرفا كهذا لا يدل على حب حقيقي ظاهر ٠

واذا رغبنا أن نعرف معنى هذا السلوك ينبغي علينا أن نوازن بينه وبين ما يصادفنا كل يوم من حالات الاطفال المحبين للعراك ، ولكنهم لا يتقاتلون على الدوام ٠ لقد أوتي الاطفال من الذكاء ما يمنعهم من العراك باستمرار ، لأنهم يعلمون أن والديهم لا بد واضعون حدا لعراكهم ٠ ومن أجل ذلك نراهم يكفون من وقت لآخر عن ذلك العراك ، ويسلكون سلوكا لا غبار عليه ، ولكن نزعتهم القديمة تعود الى الظهور كما تعود في حال الولد حين يسقط أخاه الاصغر على الارض في أثناء لعبه

معه • ولم يكن هدفه الذي ينهد اليه من اللعب مع هذا الأخ الاصغر الا أن يسقطه على الارض •

وقد يدور في خلدنا هنا سؤال آخر عن ماهية سلوك هذا الولد مع أمه ؟ ويمكننا أن نجمل الاجابة عليه فيما يلي : اذا حاولت أن تضربه فاما أن يضحك ويصر على أن ضربها اياه لم يؤثر فيه مطلقا ، واما أن يسكت ويستكن ان هي قست عليه بعض الشيء وهي تضربه ، ثم يعود الى القتال من جديد بعد فترة • واذن فسلوك هذا الطفل من أوله الى آخره يحدده هدفه في الحياة ، فكل ما يقوم به من تصرفات سلوكية موجهة نحو هذا الهدف الى درجة يمكننا معها أن نتنبأ بتصرفاته سلفا • ولكننا اذا لم نأخذ تصرفاته الأولى ومثاله الاول بعين الاعتبار على أنها وحدة متكاملة ، واذا لم نعرف الهدف المقصود من حركات مثاله الاول ، فاننا لا نقدر أن نتكهن مسبقا بهذه التصرفات •

واذا كان تصور هذا الطفل في بداية حياته العملية وقد ذهب الى روضة الاطفال مثلا ، يمكننا بسهولة التكهن بما سيكون عليه ، كما أن في وسعنا أن نتنبأ بما يفعله اذا ذهب الى حفلة غناء كالحفلة

التي ذكرناها وأشرنا اليها من قبل أنه ذهب اليها بالفعل ، فنقول بصورة عامة انه سوف يحاول دائما أن يتحكم في البيئة الضعيفة ، واذا وجد في بيئة قوية اتخذ العراك سبيلا الى هذا التحكم ٠

وقياسا على ذلك نلاحظ أن وجوده في الروضة لن يطول اذا كانت المربية حازمة قاسية ، ففي هذه الحال يحاول الطفل دائما أن يجد لنفسه منفذا ، ويجد نفسه في توتر عصبي مستمر قد ينشأ عنه الصداع والقلق وغيرهما من المشاكل العصبية والنفسية ، وهي أعراض تدل على بداية الاصابة بالأمراض النفسية ٠

أما اذا كانت البيئة التي انتقل اليها الطفل سهلة منسجمة مع تطلعاته ، فقد يشعر فيها بأنه ملفت للأنظار ، وقد يؤدي به ذلك الى أن يصبح قائدا أو زعيما على طلاب المدرسة أو بطلا من أبطال هذه المدرسة ٠

واذا ما حاولنا القاء نظرة خاطفة على الروضة، أي روضة الاطفال نلمس أنها ليست سوى مؤسسة اجتماعية لها مشاكلها الاجتماعية الخاصة ، ولا بد من اعداد الطفل لهذه المشاكل ، لأنه ينبغي أن

تتكون لديه فكرة الخضوع الى القوانين الاجتماعية، وأن يعد نفسه لأن يكون عضوا نافعا لهذه الجماعة الصغيرة ، وهو لن يكون كذلك الا اذا كان اهتمامه بغيره أكثر من اهتمامه بنفسه ۰

ويعتقد علماء النفس والاجتماع ان الموقف في المدارس العامة لا يختلف مطلقا عن هذا الموقف بحال من الاحوال ، ويمكننا أن نتصور ما يصيب أي طفل من هذا النوع اذا التحق بواحدة منها ۰ وربما كانت المشاكل أكبر سهولة في المدارس الخاصة لقلة عدد التلاميذ الذين يتعلمون بها وسهولة العناية بهم وفقا لذلك ، ومن المحتمل ألا يتمكن أحد في هذه البيئة أن يلاحظ أنه طفل معضل ، بل ومن المحتمل أن يقولوا عنه : « انه أنبغ الاولاد وانه هو خيرهم على الاطلاق » واذا أصبح هذا الطفل أول فرقته ، فلربما يتغير سلوكه في البيت بسبب اقتناعه بأنه متفوق في ناحية من النواحي ۰

وبمقدورنا اذا لاحظنا تحسنا في سلوك طفل بعد التحاقه بالمدرسة ، أن نقرر بأن الطفل قد عثر على الفصل الموافق له ، والذي يمكنه أن يشعر

فيه بأنه متفوق ومتقدم فيه ، ولكن الذي يقع عادة هو عكس هذا ، فالطفل الكثير الطاعة والمدلل في منزله كثيرا ما يفسد أطفال الصف الذي ينخرط به في المدرسة ٠

واذا ذهبنا مع أولئك الذين يرون ان مركز المدرسة هو وسط بين البيت والحياة في المجتمع الحديث ، بامكاننا أن نطبق هذه النظرية اذا قدرنا أن نعرف ما يصيب الطفل من الطراز الذي أشرنا اليه عندما ينتسب الى سلك الحياة الاجتماعية العامة ٠

فهو في تقديرنا وعرفنا لن يحصل في الحياة على المنصب الموافق له الذي كان يجده في المدرسة أحيانا وكثيرا ما تستولي الدهشة على الناس ويعجزون عن ادراك السبب في أن الاطفال الذين عرفوا بالنبوغ في البيت وفي المدرسة يصبحون عديمي القيمة ، اذا ما انتسبوا الى مناحي الحياة الاجتماعية العامة ٠

ويعتقد علماء النفس ان هؤلاء مصابون بأمراض نفسية قد تنقلب في نهاية المطاف الى الهستيريا أو الجنون ، ولكن أحدا لا يدرك حقيقة

هذه الحالات باعتبار أن المثال الاول للواحد مـــن هؤلاء الاطفال قد غطت عليه المواقف الملائمة حتى كمل نموه ٠

لهذه الاسباب ينبغي علينا أن نعرف كيف نتعرف على المثال الاول الفاسد في المواقف الملائمة نفسها ، أو أن نعلم على الاقل أن هناك مثالا أولا فاسدا ، اذا كان من الصعب أن نتبينه فعلا في هذه المواقف ٠

وهناك بعض الاشارات والرموز التي ربما أخذت كآيات لا تقبل الجدل على وجود مثال أول فاسد ٠ من ذلك أن الطفل الذي يجب أن يلفت النظر اليه، وهو في الوقت نفسه لا يعنى العناية الكافية بالمجتمع يرى في الغالب غير مهندم ولا أنيق ، لأنه بحالته هذه يشغل وقت الآخرين ، وهو الى ذلك لا يحب أن ينام الكفاية ، كما لا ينفك يعول ليلا أو يبول في فراشه ٠ وهو يبدو كالمهموم والقلق ، لأنه لمس أن الهم والقلق سلاح فعال قد يمكنه من أن يرغم غيره على طاعته ٠

كل هذه ليست سوى أدلة تظهر في المواقف الملائمة فاذا تاوزنا عنها فقد يكون بمقدورنا أن نتوصل الى حكم صحيح على صاحبها اذا نظرنا الى مثـــل

هذا الطفل ذي المثال الاول الفاسد ، وقد تقدمت به السن حتى بلغ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ، أي أصبح على أبواب النضج ٠

ان خلف هذا الآنسان الناضج فترة كبيرة من الحياة ليس من البساطة تقدير قيمتها بسبب عدم وضوحها وضوحا كافيا ، فليس من السهل أن نعرف هدفه أو أسلوبه في الحياة الا أنه وقد استعد لمواجهة الحياة مضطر لمقابلة ما عرفناه من قبل المسائل الثلاث الكبرى ، وهي المسألة الاجتماعية ومسألة العمل ، ومسألة الحب والزواج ٠

وكل هذه المسائل تنشأ في علاقاتنا التي يتطلبها وجودنا في هذا العالم ٠ فالمسألة الاجتماعية تنطوي على سلوكنا نحو غيرنا من أبناء الانسانية ، وعلى موقفنا من مستقبل الجنس البشري ، كما تنطوي أيضا على حفظ الانسان ونجاته من المهالك ٠ ذلك لأن الحياة الانسانية ضيقة المجال ، ثقيلة العبء لا يمكن النهوض بها الا اذا تعاونا جميعا لتحقيق ذلك النهوض والتطور ٠

أما العمل فمن السهل التنبؤ بما يصادفه فيه بالنظر الى نوع سلوكه في المدرسة ٠ فاذا كان همه

في البحث عن عمل ما هو التفوق ، فمن المؤكد أنه يجد صعوبة في الحصول على هذا العمل • ذلك أن من العسير أن يجد الانسان عملا دون أن يكون فيه مرؤوسا لآخر ، أو عاملا مع آخرين مثله •

وبما أن الشخص الذي حددنا معالمه وصفاته لا يهتم الا بمصلحته الشخصية فانه لن يفلح في أي عمل يكون فيه مرؤوسا • وفضلا عن ذلك فان شخصا هذه صفاته لن يكون ممن يعتمد عليهم في الأعمال الصناعية أو التجارية ، لأنه لا يستطيع أن يُخضع مصالحه الخاصة لمصالح المؤسسة الصناعية أو الشركة التجارية التي يعمل فيها •

ومن الأمور التي يقررها علماء النفس أن نجاح أي شخص في عمله متوقف على درجة انسجامه الاجتماعي • ومن المزايا التي لا يستهان بها في الاعمال التجارية أن نستطيع معرفة وادراك حاجات الجيران والعملاء ، وأن نتطلع الى عيونهم ، وأن نستمع بآذانهم • وأن نحس بما يشعرون به • فان كان الشخص من هذا النوع فانه خليق بالنجاح المستمر ، أما من كان بمثل الصفات التي نوهنا عنها فلن يتمكن من بلوغ أهدافه ، لأنه يهتم

بمصالحه دون مصالح غيره ° فهو لن يحرز أي نوع أو وسيلة من وسائل التقدم والنجاح ، فانـه في الغالب سوف يصيبه الفشل في كافـة تحركاتـه السلوكية °

وربما نجد في أكثر الأحيان أن كل من كان على شاكلة هذا الشخص يصيبه التقصير عندما يحاول اعداد نفسه للانضمام الى أي عمل ، أو هو علـى الاقل يتأخر به الزمن في الحصول على عمل له ° وقد يبلغ الثلاثين من عمره وهو لا يدري ما ينوي فعله بشأن حياته المقبلة ° وكثيرا مـا يغير هـذا الشخص اتجاهه في سلك التعليم الى اتجاه آخر ، أو ينتقل في الحياة العملية من عمل الى عمل ، وهي تأكيدا على أن هذا الانسان لا يصلح لأي أمر من الأمور °

وقد نشاهد شابا في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره دائـم النشاط والنضال ولكنـه لا يدري ماذا يفعل ، وكيف يتوجه ، لذا لا بد لنا من فهم هذا الشخص ومساعدته على اختيار العمل الموافق له ، كونه جدير بأن يجد من أول الامر من يهتم به ، ويحاول الأخذ بيده لتتحقق أحلامه °

وفي نهاية المطاف يمكننا أن نؤكد بأن مسائل الحياة جميعها ، هي مسائل اجتماعية في واقعها وحقيقتها ، وهي بهذا الوصف تظهر في رياض الاطفال ، وفي المدارس العامة ، وفي مرافقة الزملاء ، وفي السياسة ، وفي الحياة الاقتصادية وما الى ذلك ٠ ومن الواضح أن مواهبنا انما وجدت لتركز في النواحي الاجتماعية وتوجه لخير أبناء الانسانية ٠

ومما لا شك فيه ان افتقار أي فرد الى التوافق الاجتماعي يبدأ في المثال الاول لهذا الفرد ٠ والمسألة الآن ينبغي أن نعرف كيف نقوم هذا النقص قبل فوات الأوان ؟ فاذا استطعنا أن نشجع الآباء وندعوهم ألا يتأخروا في تقويم اعوجاجات أبنائهم ، ومنعهم من الانزلاق في دوامة الاخطاء ، وأن يشخصوا الداء القابع في التبدلات الصغيرة عن أخطاء المثال الاول ، وأن يقوموها بعد أن يعرفوها ، كان ذلك خيرا مفيدا لأطفالهم ٠

ولكن الحقيقة أن عملا كهذا ليس بالأمر السهل ذلك لأننا قل أن نعثر من الآباء من يميلون الى كشف الاخطاء وتجنب الوقوع فيها ، لأنهم لا يهتمون بمسائل علم النفس والتعليم ، فهم اما مدلل لابنه

معاد لكل من لا ينظر الى ذلك الابن كما ينظر الى الجوهرة الغالية ، واما غير مهتم به تارك له حرية الاختيار ، وهؤلاء الآباء لا يرجى صلاح أبنائهم على أيديهم ٠

ومن المستحيل حسب رأي علماء النفس تفهيم الآباء هذه المسائل في وقت قصير ، فاذا رغبنا في هذه العملية لا بد لنا من وقت طويل جدا اذا كان هدفنا ارشادهم الى ما يجب عليهم معرفته ، وحبذا لو استعان أمثال هؤلاء بخبرة طبيب أو عالم نفساني ٠

ومن الممكن الحصول على أنجع النتائج ، بعد عمل الطبيب والعالم النفساني ، بالالتجاء الى المدرسة والتعليم دون غيرهما ، ذلك لأن أخطاء المثال الاول لا تظهر غالبا الا حين يلتحق الطفل بالمدرسة ٠

وليس من شك في أن المعلمين بطبيعة وظيفتهم الاجتماعية مزودون خير تزويد بالوسائل التي تمكنهم وتساعدهم على أن يقوموا انحرافات الاطفال وشذوذهم ٠ فما وجدت المدارس أول ما

وجدت الا لأن البشرية قد أدركت وعرفت أن الأسرة عاجزة عن تربية النشء التربية الصحيحة التي تنسجم مع المطالب الاجتماعية للحياة ٠ فالمدرسة في الحقيقة أفعل من الأسرة ، وبين جوانبها وفي ميادينها يتكون القسم الأخبر من سلوك الطفل وانفعالاته ، وفيها يتلقن كيف يواجه مشاكل الحياة المعقدة ٠

وكل ما يتوجب في هذه الحالة أن يكون المعلمون في المدارس أصحاب خبرة بعلم النفس ، وهذه الخبرة هي التي تساعدهم على القيام بواجباتهم التعليمية على أكمل وجه ٠ ومن المؤكد أن مدارس المستقبل وخاصة في البلاد المتأخرة النمو سوف تنشأ على أساس علم النفس الشخصي ، لأن الغرض الحقيقي من وجود المدرسة هو تكوين الأخلاق ٠

« تم الكتاب »

الفهرس

